

قِصَّةُ الحَضْرَةِ

وَلِ وَايْرِيل دِيورَانْت

قِصَّةُ الْمَسِيحِ أَوْ الْحَضْرَةِ الرُّومَانِيَّةِ

تَرْجَمَةٌ
بِمَحَمَّدِ بَدْرَانِ

الجزء الأول من المجلد الثالث



تونس

٩



بَيرُوت

تمهيد

هذا المجلد - وإن يكن وحدة مستقلة بذاتها - هو القسم الثالث من كتب تاريخ الحضارة التي كان المجلد الأول فيها تراث الشرق ، والمجلد الثاني حياة اليونان . وإذا سمحت لنا ظروف الحرب القائمة (٥) ، ووهبنا الله نعمة الصحة فسيكون المجلد الرابع وهو عصر الإيمان . معداً للنشر في عام ١٩٥٠ . والخطة التي نسير عليها في هذا العمل هي الخطة التاريخية التركيبية ، التي تفتضى بدراسة النواحي الهامة في حياة الشعب وعمله وثقافته وتفاعلها وتأثير كل منها في الأخرى .

أما الطريقة التحليلية في كتابة التاريخ - وهي كذلك طريقة لاغنى عنها من الناحية العلمية ولا تقل الحاجة إليها عن الحاجة إلى الطريقة التركيبية - فهي التي تدرس ناحية واحدة من نواحي النشاط الإنساني - كالناحية السياسية أو الاقتصادية أو الخلقية أو الدينية أو العلمية أو الفلسفية أو الأدبية أو الفنية - في حضارة بعينها أو جميع حضارات العالم . وعيب هذه الطريقة التحليلية أنها تفصل جزءاً من كل فصلا يشوّهه . أما عيب الطريقة التركيبية فهو أنها ، إذ تتطلب من عقل واحد أن يعتمد على معرفته الشخصية في حديثه عن كل ناحية من نواحي إحدى المدن المعقدة التي تمتد آلاف السنين ، إنما تتطلب المستحيل . وليس في وسع من يتصدى إلى هذا العمل أن يتجنب الأخطاء في الدقائق والتفاصيل ، ولكن العقل الهائم بحب الفلسفة - وهي إدراك الأشياء عن طريق علاقاتها بعضها ببعض - هي الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها عقل لا يقدر بغير هذه الطريقة أن يقنع بسير أغوار الماضي . إن في وسعنا أن نطلب

(٥) ظهرت الطبعة الأولى من هذا المجلد في عام ١٩٤٤ ونار الحرب العالمية الثانية

مشتملة . (المترجم)

للفلسفة عن طريق العلم ، وذلك بدراسة ما بين الأشياء من علاقات في المكان ، أو أن نطلبها عن طريق التاريخ بدراسة ما بين الحوادث من صلات في الزمان ، وفي مقدورنا أن نعرف عن طبيعة الإنسان بدراسة سلوكه وأعماله في خلال ستين قرناً من الزمان أكثر مما نعرفه عنها بقراءة مؤلفات أفلاطون وأرسطو ، وسبنوزا وكانت . وما أصدق قول نشة في المعنى : « ما أضيع الفلسفة كلها أمام التاريخ في هذه الأيام » .

وإن دراسة الماضي لتعد بحق عديمة النفع إذا لم يجعل هذا الماضي مسرحية حية ، أو إذا لم تضي لنا دراسته ظلمات حياتنا الحاضرة . أليس قيام مدينة رومة وارتقاؤها من بلدة صغيرة في مفترق الطرق حتى سادت العالم المعروف وقتئذ ، وما أسبغته من أمن وسلام على رقعة واسعة من الأرض تمتد من جزيرة القرم إلى مضيق جبل طارق ، ومن نهر الفرات إلى سور هديران ، وما نشرته من أصول الحضارة القديمة في عالم البحر الأبيض المتوسط وفي غرب أوروبا ، وما قامت به من كفاح للاحتفاظ بملكها المنظم من أن تغطي عليه بحار الهمجية التي تكتنفه من كل جوانبه ، ثم تصدعها الطويل البطيء ، وانهارها آخر الأمر ، وترديها المشؤم في ظلمات الجهالة والفوضى ، أليس هذا كله أعظم مسرحية مثلها الإنسان ، اللهم إلا إذا ظننا أن أعظم منها وأكثر روعة تلك المسرحية الأخرى التي بدأت حين وقف قيصر والمسيح وجهاً لوجه في ساحة پيلات pilate والتي دامت حتى أضحت حفنة من المسيحيين المضطهدين المطاردين بما أوتيت من صبر وجلد وما قاست من اضطهاد وما حل بها من رعب وهول ، نقول حتى أضحت هذه الحفنة من المسيحيين في بداية الأمر حلقة لأعظم إمبراطورية في التاريخ ، ثم سيدتها ، ثم وريثتها بعد تصرم أجلها

ولكن لهذه المسرحية الكبيرة بالنسبة لنا معنى أعظم مما يبدو بالنظر إلى ضخمتها وطول زمانها واتساع المسرح التي تمثل عليه : ذلك أنها تشبه شبيهاً عجيباً عظيم الدلالة حضارة هذه الأيام ، والمشاكل القائمة فيها ، وتلقى عليها ضوءاً يندرنه بسوء المصير . وهذا هو ما نقيده من دراسة حضارة من الحضارات دراسة تشمل جميع نواحيها وأدوار حياتها - ففي وسعنا بهذه الدراسة الشاملة أن نوازن كل مرحلة من مراحلها وكل ناحية من نواحيها بما يقابلها من مراحل وعناصر في مجرى ثقافتنا نحن ، فتتخذ من هذه الموازنة ، وبما أعقب المراحل الماضية الشبيهة بمرحلتنا الحاضرة ، عظة لنا تبعث فينا الحذر أو الإقدام : وما أشبه الكفاح الذي قام بين الحضارة الرومانية والهمجية في داخل الإمبراطورية وخارجها بالكفاح القائم في العالم في هذه الأيام . وفي مشاكل رومة البيولوجية وانحلالها الخلقي معالم تهدينا نحن سواء السبيل ؛ وإن الصراع الطائفي الذي قام بين ولدي جراكس The Cracchi وبين مجلس الشيوخ ثم بين ماريوس وسلا Marius & Sulla ، وبين قيصر وبمبي ؛ وبين أنطونيوس وأكتافيان هو عين الصراع القائم بيننا في هذه الأيام ، والذي لا تكاد تخبر ناره حتى تشتعل من جديد ، فتلتهم فترات السلم التهاماً ؛ وإن فيما كانت تبدله شعوب البحر الأبيض المتوسط من جهود المستبشرين لتحفظ لنفسها بقبس من ضياء الحرية تنزعه من تلك الدولة الطاغية لنذيراً بما ينتظرنا نحن من واجب ثقيل .

وإن قصة رومة هي في واقع الأمر قصتنا نحن .

المدرخل

أصل الى رومان

الباب الأول

ديباجة في التسكان

٨٠٠ - ٥٠٨ ق . م

الفصل الأول

إيطاليا

ليتمصور القارئ في خياله صورة ضياع ساكنة في أودية الجبال ، ومروج
فسيحة على منحدراتها ، وبحيرات معلقة في وهاد التلال ، وحقول خضراء
أو صفراء تمتد إلى شطآن البحار الزرقاء ، وقرى وهلدان ينجم السكون
والحمول حين تسطح عليها شمس الظهيرة ، فإذا مالت نحو المغيب انتعشت
وسرت فيها الحياة ، ومدن تحيط بها الأتربة والأقذار ولكن كل ما فيها
جميل من أصغر الأكواخ إلى أفخم الكنائس الكبرى - لقد كانت هذه هي
صورة إيطاليا منذ ألفي عام ، ولا تزال هي صورتها في هذه الأيام .
وقد تحدث بلني Pliny الأكبر عن بلاده^(١) فقال عنها : « ليس على ظهر
لأرض أو تحت قبة السماء بلاد تماثلها في جمالها وروعة مناظرها » .
وأنشد فيها فرجيل يقول : « هنا الربيع الدائم والصيف حتى في غير أشهره »
هنا تلد الأنعام مرتين في العام ، وتثمر الأشجار مرتين^(٢) ، ولقد
كانت أشجاره الورد في بيستم Paestum تزهو في السنة مرتين
وكانت في شمال البلاد سهولة خصبة كثيرة كمهولة Mantua

« يَطْعَمُ التَّمَّ » (٢) من مجازيها المعشوشبة « (٣) . وتمتد في شبه الجزيرة العظيمة سلسلة جبال الأبين امتداد العمود الفقري في جسم الإنسان ، فيتقرب بها شاطئ البلاد الغربي الرياح الشمالية الشرقية الباردة وتنبع منها أنهار تروى الأرض بمائها وتنحدر مسرعة لتصبه في خلجان البحر ذات المنظر الخلاب . وتقوم جبال الألب في الشمال لتصد عن البلاد المغيرين ، أما في سائر أطراف البلاد فإن أمواج البحر الصاخبة تتلاطم بشطآن كثير منها وعمر قائم صعب المرتقى . لقد كانت هذه البلاد في تاريخها القديم خليقة بأن تجزى أهلها المجدين خير الجزاء وأوفاه ، وكانت ذات موقع حربي هام في حوض البحر الأبيض المتوسط يمكنها من السيطرة على العالم القديم .

وكانت جبالها مصدر كوارثها كما كانت مصدر جمالها وروعها ، ذلك أن الزلازل والثورات البركانية كانت من حين إلى حين تهتلج جهود الأجيال المتعددة وتطمرها في أطباق الرماد أو تحرقها بحمم البراكين ، ولكن الموت كان في هذه البلاد ، كما هو في معظم بلاد العالم ، مصدراً للحياة ونعمة من أنعمها . ذلك أن اللحم المختلطة بالمواد العضوية كانت مورداً لإخصاب التربة لا ينضب له على مدى الأيام معين (٤) . لقد كانت بعض الأرضين منحدره وعرة لا تصلح للزراعة ، وكان بعضها الآخر مناطق تنتشر منها حمى الملاريا ؛ ولكن الكثير منها قد بلغ من خصب التربة ما جعل بوليبيوس Polybius يعجب من وفرة الطعام وقلة ثمنه في إيطاليا القديمة (٥) ، ويقول إن في وسع الإنسان أن يدرك مقدار ما تخرجه من الغلات ونوعها حين يشاهد نشاط أهلها وقوتهم وشجاعتهم . ويظن ألفييري Alfieri أن « الشجرة - الآدمية » تنتعش في إيطاليا خيراً مما تنتعش في سائر بلاد العالم (٦) . بل إن الطالب الحياث في هذه الأيام نفسها ليعتريه بعض الوجع

(*) هكذا يسميه الديميري وهو الذي يسميه العامة في مصر بالأوز الدراق Olor واسمه العلمي Cygnus . (المترجم) .

من هوة مشاعر ذلك الشعب المدهش الخلاب - من عضلاته المفتولة ، ومن سرعة حبه وغضبه ، ومن عيونه الكتومة أو البراقة الملتبة ؛ وإن الكبرياء والحميا اللذين كانا منشأ عظمة إيطاليا ، واللذين قطعاً أوصالها في أيام ماريوس Marius وقيصر Caesar وفي عصر النهضة الأوربية ، لا يزالان يجريان حتى الآن في الدم الإيطالي في انتظار قضية عادلة أو حجة طليّة . والرجال كلهم إلا القليل النادر منهم مكتملو الرجولة وسيمواخلق ، والنساء كلهن تقريباً حسان ، يمتزن بالقوة والشجاعة . وهل في العالم بلاد أنجبت من العباقرة مثل ما أنجبت الأمهات الإيطاليات طوال الثلاثين قرناً التي يشملها تاريخ تلك البلاد ؟ وهل في العالم بلاد غير إيطاليا كانت قطب رحي التاريخ - في نظم الحكم أولاً ثم في الدين ، ثم في الفن ؟ لقد ظلت رومه مدى سبعة عشر قرناً - من كانوا الرقيب Cato Censor إلى ميكل أنجلو مركز العالم الغربي .

أما أصل الإيطاليين فيقول عنه أرسطو : « يقول أصدق الناس حكماً في هذا البلد إنه لما أصبح إيطالس Italus ملك أثنريا Oenotria بدّل أهل البلاد اسمهم فلم يعودوا يسمون أنفسهم أئنتوريين بل تسموا لإيطاليين» (٧) . ولقد كانت أثنريا هي مكان الإصبع الكبرى في الحذاء الإيطالي ، ومعنى هذا اللفظ هو « أرض النبيذ » لكثرة ما كان فيها من الكروم . ويقول توكيديدس Thucydides إن إيطالس هذا كان ملك الصقليين الذين احتلوا أثنريا في طريقهم لاحتلال جزيرة صقلية وتسميتها بهذا الاسم (٨) . وكما أن الرومان قد أطلقوا على الهلنيين جميعاً اسم الأغارقة ، وهو اسم جماعة قليلة هاجرت من شمال أتيكا Attica إلى نابلي ، فكذلك توسع الإغريق في معنى إيطاليا حتى شمل هذا الاسم جميع أرض شبه الجزيرة من جنوب نهر الهو Po إلى أقصى طرفها الجنوبي .

وما من شك في أن فصولاً كثيرة من تاريخ إيطاليا لا تزال مطمورة في أطباق ثراها المزدهم بالأهلين ، ويدل ما كشف فيها من آثار ثقافة العصر

الحجرى القديم على أن سهولها كانت عامرة بالسكان قبل ميلاد المسيح بثلاثين ألف عام على أقل تقدير . ثم ظهرت فيها ثقافة تنتمى إلى العصر الحجري الحديث بين عامى ١٠,٠٠٠ ، ٦٠٠٠ قبل الميلاد : وكان أصحاب هذه الحضارة أقواماً طوال الرؤوس تسميهم الروايات القديمة لجورى Liguri أو صقلي Siceli ، وكانوا يصنعون الفخار الساذج الخشن ويزينونه بنقوش مؤلفة من خطوط . كذلك كان هؤلاء الأقوام يصنعون أدوات وأسلحة من الحجارة المصقولة ويؤنسون الحيوان ويصيدونه هو والسملك ، ويدفنون موتاهم . ومنهم من كانوا يسكنون الكهوف ، ومنهم آخرون يسكنون أكواخاً من القش والطين . ومن هذه الأكواخ الأسطوانية تدرج فن العمارة تدرجاً مستمراً حتى وصل إلى « بيت رمبولوس Romulus » المستدير القائم على الهلاتين Palatine وإلى هيكل فستا Yesta فى السوق العامة Forum وقبر هادريان Hadrian الفخم .

وغزت قبائل من أوروبا الوسطى شمالى إيطاليا حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م ولعل هذا الغزو لم يكن الأول من نوعه . وقد أدخلوا فى البلاد عادة إقامة المباني على قوائم خشبية فى الماء ليتقوا هجمات الوحوش والآدميين ، واستقر هؤلاء الغزاة فى بحيرات جاردا Garda ، وكومو Como ، ومجورى Meggiore وغيرها من البحيرات الساحرة التى لا تزال تغرى الأجانب بالذهاب إلى إيطاليا ، ثم نزحوا فيما بعد إلى جنوب البلاد ، فلما لم يجدوا فيها من البحيرات الكثيرة ما كانوا يجدونه فى الشمال ، أقاموا مساكنهم على الأرض اليابسة ، ولكنهم رفعوها أيضاً على أسس من القوائم الخشبية . وكان من عادتهم أن يحيطوا هذه المساكن بالأسوار والخنادق ، وقد انتقلت هذه العادة إلى غير إيطاليا وأضحى من المظاهر المألوفة فى المعسكرات الرومانية وفى قصور العصور الوسطى . وكانوا يشتغلون برعى الماشية والضأن ، وفلاحة الأرض ، وصناعة الفسيج ، وحرق الفخار ، وصناعة العدد الجم من الآلات والأسلحة البرنزية ، ومنها الأمشاط ومشابك الشعر

والأمواس والملاقط وغيرها من الأدوات التي لا يكاد الإنسان يصدق أنها ظهرت في ذلك العهد البعيد . وكان البرنز قد ظهر في إيطاليا في أواخر أيام العصر الحجري الحديث (حوالى ٢٥٠٠ ق . م)^(٩) . وكانوا يتركون فضلات منازلهم تراكم حول قراهم ، وبلغ من كثرتها أن أطلق على ثقافتهم اسم ثقافة ترامار *Terramare* - أى النمط (*) الأرضى - وهى نقابات غنية بالعاصر المخصصة . ومبلغ علمنا أن هؤلاء الأقوام هم الأسلاف الأقربون للكثرة العظمى من سكان إيطاليا في العصور التاريخية .

وأخذ المقيمون في وادى الپو من أبناء أهل هذه الأثماط استخدام الحديد عن ألمانيا ، وصنعوا منه أدوات خيراً من أدواتهم السابقة ، واستعانوا بها على نشر ثقافتهم الفلانويفية من مركزها في فلانوفيا *Villanova* القريبة من مدينة بولونيا *Bologna* إلى أقاصى جنوب إيطاليا . ومن حقنا أن نعتقد أن دماء الأمبريين *Umbrians* والسبيين *Sabines* واللاتين *Latins* ولغاتهم ، وأهم فنونهم ، كلها مستمدة من هؤلاء الأقوام : ثم حدثت هجرة أخرى جديدة حوالى عام ٨٠٠ ق . م أخضع أصحابها الفلانويفيين وأنشأوا بين نهر التيبر وجبال الألب أعجب حضارة في سبيلات الجنس البشرى .

(*) النمط الطين الرقيق أو العجين، وقد اخترنا هذا اللفظ لترجمة كلمة *Marl* الانجليزية .
(المترجم)

الفصل الثاني

الحياة التस्कانية

يكتنف تاريخ الت سكان غموض شديد يضائق المؤرخ أشد الضيق . لقد حكم هؤلاء الأقوام مدينة رومة مائة عام أو أكثر من مائة ، وخلفوا في أنماط الحياة الرومانية آثاراً تجعل فهم هذه الحياة وفهم تاريخ رومة متعذرين دون دراسة تاريخهم . ولكن الآداب الرومانية رغم هذه الآثار قد أغفلت ذكرهم كما تغفل المرأة النصف الجهر بأنها تجاوزت سن الشباب . ومع ذلك فإن الحضارة الإيطالية ، أو ما سجل منها ، تبدأ من أيامهم ؛ فقد وجد مختلطاً بمخلفاتهم نحو ثمانية آلاف نقش وكثير من أعمال الفن ، كما وجدت شواهد على أدب ضائع يشمل الشعر والمسرحيات وكتب التاريخ (١٠) . غير أن لغتهم لم يحل من رموزها إلا عدد قليل من الألفاظ لا غناء فيه ، ولا يزال العلماء الآن حيارى أمام ما يكتنف هذه المعضلة التस्कانية من غموض أشد مما كان يكتنف تاريخ مصر الفرعونية قبل شميليون .

ومن أجل هذا لا يزال الجدل يثور حول التسكانيين : من هم ؟ ومن أين جاءوا إلى إيطاليا؟ ومتى جاءوا إليها؟ ولعل الباحثين قد عجلوا بنقد الروايات القديمة أسرع مما ينبغي ؛ ذلك أن المتحذلقين مولعون على الدوم بتفنيد ما يقبله الناس من الآراء ، ويسوءهم ما يبتى في عقولهم منها . ولقد كان معظم المؤرخين اليونان والرومان يرون أن من القضايا التي لا تحتاج إلى برهان أن التسكانيين قد جاءوا من آسية الصغرى (١١) . والحق أن في دينهم ، وثيابهم ، وفنهم ، شواهد كثيرة توحي بأصلهم الأميوى ، وإن كان فيها أيضاً عناصر كثيرة يلوح أنها من أصل إيطالى . وأغلب الظن أن حضارة إتروريا Etruria قد نشأت من الثقافة

الفلانوفية Villanovan وأنها تأثرت من الناحية التجارية بخضارات اليونان والشرق الأدنى ، وأن السكان ين أنفسهم ، كما كانوا هم يعتقدون ، قد غزوا البلاد من آسية الصغرى ؛ والراجح أنهم جاءوا من بلاد ليديا Lydia ومهما يكن أصلهم فإن تفرقهم في التفتيل قد جعلهم هم الطبقة الحاكمة في تسكانيا .

ولسنا نعرف المكان الذى رسوا فيه حين قدموا بجرأ إلى إيطاليا ، ولكننا نعرف أنهم شادوا أو فتحوا أو وسعوا مدناً كثيرة — مدناً لا قرى من القش والطين كما كانت الحال قبل مجيئهم ، بل بلاداً مسورة ذات شوارع منظمة على قواعد هندسية وبيوتاً غير مقامة من اللبن فحسب ، بل مقامة كثرتها من الآجر المحروق أو الحجارة . ثم ارتبطت اثنتا عشرة محلة من هذه المحلات فتكون منها اتحاد غير وثيق تسيطر عليه تاركوناي Tarquinii (المعروفة حتى هذه الأيام باسم كرنيتو Corneto) ، وأرتيوم Arretium (أروزو Arezzo) ، وأوبروزيا Perusia (بروجيا Perugia) ، وقياي Veii (ابولا فارنيزي Iola Farnese) (*) .

وتضافرت في هذه البلاد صعاب النقل في الجبال والغابات مع التحاسد والتنافر المتأصلين في الطبيعة البشرية ، كما تضافرا في بلاد اليونان ، على إنشاء دويلات من مدن مستقلة ، إذا اتحدت لصدد غارات أعدائها اعتزت كل منها بسلاحتها منفردة عن غيرها ؛ وكثيراً ما كانت تقف لتشاهد العدو الخارجى يغير على أخواتها حتى خضعت كلها لرومة واحدة في إثر واحدة . ولكن هذه المدن المتحالفة ظلت طوال القرن السادس قبل الميلاد أقوى سلطة سياسية في إيطاليا ، وكان لها جيش حسن التنظيم ، به فرق من الفرسان ذائعة الصيت ، وأسطول بحرى كان في وقت من الأوقات هو المسيطر على البحر الذى لا يزال إلى اليوم يسمى

(*) هذه هي الأسماء الرومانية ، أما الأسماء التسكانية فغير معروفة .

البحر الترهيني (أو البحر الإترورى أى التسكاني(*)) .

وقد بدأ الحكم فى المدن التسكانية كما بدأ فى رومة بالنظام الملكى ، ثم صار حكماً أجزائياً تقوم به « الأسر الأولى » ، ثم تخلى هذا الحكم تدريجاً للأسر ذات الأملاك عن حق اختيار الحكام الذين كانوا يبدلون فى كل عام . وفى وسعنا أن نستدل مما على قبور الأهلين من رسوم ملونة ونقوش محفورة على أن هذا النظام كان نظاماً إقطاعياً خالصاً يمتلك فيه الأعيان الأرض ويستمتعون بما يخرجها الأبقان والأرقاء الفلانو فيون بكدهم من خيرات ، بعد أن يتركوا لهم حاجتهم منها . وقد أصلحت أرض تسكانيا فى عهد هذا النظام ، فجفت مستنقعاتها وقطعت غاباتها ، وأنشئ فى قراها نظام للرى ، وفى مدنها نظام للمجارى لم يكشف حتى الآن عما يماثله فى بلاد اليونان فى ذلك العهد نفسه . وقد أنشأ المهندسون التسكانيون مجارى تحت الأرض يسير فيها ما زاد من مياه البحيرات ، وطرقاً فى الصخور والتلال (١٢) . ونرى العمال التسكانيين فى ذلك العهد البعيد وهو عام ٧٠٠ ق . م يستخرجون النحاس من شاطئ إيطاليا الغربى ، والحديد من جزيرة إلبا Elba ، ونرى الحديد الغفل يصهر فى بيدولونيا Populonia ، والحديد المطاوع يباع فى جميع أنحاء إيطاليا (١٣) ، وكان التجار التسكانيون يتجرون مع جميع البلاد الواقعة على شاطئ البحر الترهانى ويأتون بالكهرمان والقصدير والرصاص والحديد من بلاد أوربا الشمالية ، وينقلونها فى نهري الرين والرون وفوق جبال الألب ، ويبيعون المنتجات التسكانية فى جميع ثغور البحر الأبيض المتوسط الكبرى . وما وافى عام ٥٠٠ ق . م أو نحوه حتى أصدرت المدن التسكانية الكبرى عملة خاصة بها .

(*) كان اليونان يسمون الإترسكين Etruscans الترميني Tyrrheni والترسيني Tyrseni . أما الرومان فكانوا يسمونهم الإترسكي Etrusci أو التسكي Tusci . ولعل الاسم اليونانى مأخوذ كما أخذ لفظ Tyrant من كلمة ترما Tyrrha وفى اسم غابة فى ليديا . والراجح أن كلمة Tower (البرج) مشتقة من الأخرى من هذا الأصل .

وتمثل الرسوم التي نراها على القبور هؤلاء الأقوام في صورة خلائق قصار القامات ، ممتلئ الأجسام ، كبار الرؤوس ، لا يكاد يوجد فرق بين ملامحهم وملامح أهل الأناضول ، موردى البشرة وخاصة نساءهم ، وإن تكن الأصباغ الحمراء قديمة قدم الحضارة ذاتها^(١٤) ، واشتهرت نساؤهم بجمالهن^(١٥) . وتلمح في وجوه بعض الرجال الرقة والنبيل . وكانت الحضارة في ذلك العهد قد بلغت من الرقي مرحلة الخطر كما نستدل مما عثر عليه في قبورهم من قناطر للأسنان الصناعية^(١٦) ، وقد انتقل إليهم طب الأسنان ، كما انتقل الطب والجراحة ، من بلاد مصر واليونان^(١٧) . وكانوا جميعاً رجالاً ونساء يطيلون شعر الرأس ، وكان رجالهم يرسلون لحاهم . أما ثيابهم فكانت على الطراز الأيوني Ionian تتكون من قميص داخلي ومئزر خارجي هو الذي تطور حتى أصبح الكساء الروماني المعروف باسم التوجا Toga . وكان الرجال والنساء على السواء مولعين بالتزين ، وقد عثر المنقبون في قبورهم على كثير من الحلى .

وإذا كان لنا أن نحكم على التسكانيين من الصور المرحية التي نراها على قبورهم ، قلنا إن حياة هؤلاء الأقوام كان فيها مشاق الحرب ، ونعيم الترف ، وبهجة الأعياد والألعاب . فكان الرجال يشنون الحرب العوان ، ويمارسون ضروباً من ألعاب الرجولة ، ويصيدون الحيوان ، ويصارعون الثيران في المحلة ، ويسوقون بأنفسهم عرباتهم في الطرق الخطرة ، وكانت تجرها في بعض الأحيان أربعة جياد تسير في صف . وكانوا يتبارون في رمي القرص والحربة ، والقفز من فوق الأعمدة ، والسباق والمصاعاة والملاكمة والمجادة . وكانت هذه الألعاب تمتاز بقسوتها ، لأن التسكانيين كالرومان كانوا يرون أن من الخطر أن يتركوا الحضارة تهتعد كثيراً عن الوحشية . وكان قليلو الشجاعة منهم يتبارون في رفع الأثقال ، ولعب الترد ، والنفخ في الناي ،

والرقص . وتتخلل الرسوم التي في القبور مناظر من مرح الشراب تزيل ما يجيم عليها من كآبة ، وهى في بعض الأحيان مقصورة على الرجال دون النساء ، يتحدثون فيها عن الخمر ، وفي بعضها الآخر يختلط الرجال بالنساء ، وهم جميعاً يلبسون أحسن الثياب وينكثون مثنى مثنى على أرائك وثيرة ، يأكون ويشربون ، ويقوم على خدمتهم العبيد ، وتسلبهم الراقصات والمغنيات^(١٨) ، وتزدان الوليمة أحياناً بمناظر يحتضن فيها الرجال النساء .

وأكبر الظن أن السيدة التي تُحتضن وقتئذ من الخطايا الشبهات بمخطايا اليونان (الهيتيريا) Hetaira . وإذا جاز لنا أن نصدق ما يقوله الرومان فإن فتيات تسكانيا كان يسمح لهن بالحصول على بائنتهن عن طريق الدعارة ، شأنهن في هذا شأن فتيات آسية اليونانية ، وفتيات السموراى اليابانيات^(١٩) . وشاهد ذلك أنا نرى شخصية في إحدى مسرحيات بلوتس Plautus تتم فتاة تسمى للحصول على بائنة زواجها بامتهان جسمها على الطريقة التسكانية^(٢٠) . ولكن النساء مع ذلك كانت لهن منزلة عليا في إتروريا ، وتمثلهن الرسوم تمثيل من لهن مقام عال في جميع مناحى الحياة ، وكان الأبناء ينتسبون إلى أمهاتهم ، وفي ذلك أيضاً ما يوحى بأن القوم من أصل أسبوى^(٢١) . ولم يكن التعليم عندهم مقصوراً على الرجال ، وشاهد ذلك أن تناكويل Tanaquil زوجة تاركون الأول Tarquin قد برعت في العلوم الرياضية والطب براعتها في تدبير الدسائس السياسية^(٢٢) . ويقول المؤرخ اليونانى ثيوپمبس Theopompus إن النساء في إتروريا كن ملاكاً مشاعاً^(٢٣) . ولكننا لا نجد فيما وصل إلينا من المعلومات ما يثبت وجود هذه الطوبى الأفلاطونية ، بل إن كثيراً من الصور تمثل مناظر الروابط الزوجية ، والحياة العائلية ، والأطفال يسرحون ويمرحون حول أبويهم ، وهم سواء في سداجتهم وجهلهم .

وكان في الدين كل البواعث التي تدعو إلى كبح الشهوات ، فقد خلج التسكانيون على آلهتهم كل الصفات التي تبعث الرهبة في القلوب وتكبح جماح الفتيان والفتيات ، وتخفف أعباء الآباء والأمهات . وكان أعظم الآلهة هو تينيا *Tinia* المتصرف في الرعد والبرق . وكان من حوله جماعة من الأرباب يأتمرون بأمره ، لا تأخذهم في ذلك رافة ، وهم الأرباب الإثنا عشر ، وقد بلغوا من العظمة حداً يجعل مجرد ذكر أسمائهم جريمة لا تغتفر ، ولهذا نستطيع القارئ علماً إذا أغفلنا نحن ذكر هذه الأسماء .

وكان أشد هؤلاء الأرباب رهبة هما منتوس *Mania* مانيا *Mania* سيد العالم السفلي وسيدته . وكان لكليهما حشد عظيم من الشياطين المجنحين يأتمرون بأمرهما . وكان أشد الأرباب غضباً لاسا *Lasa* ومن *Mean* إلهة الأقدار التي تمسك بيدها سيفاً أو أفعى تلوح بهما ، وتتسلح بقلم ومداد تستخدمهما في الكتابة ، وبمطرفة ومسامير تدق بها أوامرها التي لا تتحول عنها . وأظرف من هذه الأرباب معبودو البيت ومعبوداته ، وكانت في صورة تماثيل صغيرة توضع على المدافئ وتمثل أرواح الحقول والدور .

ولعل العلم المقدس ، علم معرفة الغيب بدراسة أكباد الضأن أو طيران الطير ، قد جاء إلى التسكانيين من أرض بابل . ولكن الرواية التسكانية تقول إن الذي كشف لهم عن هذا العلم غلام مقدس هو حفيد تينيا ، وقد خرج إلى الحياة من أخدود محراث ، وفاء ساعته بحكمة الحكماء . وكانت الطقوس التسكانية تنتهي إلى التضحية بالضأن والثيران والآدميين . فكان الضحايا من بنى الإنسان يذبحون أو يدخنون أحياء في منائم العظام . وكان أسرى الحرب يذبحون أحياناً طلباً لرضا الآلهة ، ولهذا السبب رجم اللوقيون *Phoceaxs* في أاليا *Alalia* عام ٥٣٥ ق . م في سوق كليري العامة *Caere* ، ونحى بنحو ثلثمائة من الرومانيين في عام ٣٥٨ ق . م

في تاركويناي * ويلوح أن للتسكاني كان يعتقد أن في وسعه أن يطلق روحاً من الجحيم نظير كل رجل يقتله من أعدائه (٢٤) .

وكان أهم مظاهر الدين التسكاني هو الإيمان بوجود الجحيم في الدار الآخرة ؛ فقد كانت روح الميت ، كما نراها في الصور والنقوش التي على القبور ، يسير بها الجن إلى محكمة الدار الآخرة ، حيث تتاح لها الفرصة في يوم الحساب الأخير للدفاع عن أعمالها في الحياة الدنيا . فلماذا عجزت عن تبرير هذه الأعمال حكم عليها بضروب مختلفة من التعذيب ، كان لها بلا ريب أثر في شعر فرجيل Virgil (المستمد من قصص متناوالت التسكانية) وفي فكرة المسيحيين عن الجحيم ، وفي حجيم دانتي Dante's Inferno التسكاني الذي سرت إليه عن طريق هؤلاء المسيحيين من خلال عشرين قرناً من الزمان ؛ وكان الأرباب بمنجاة من هذا التعذيب ، كما كان في وسع الأحياء من أصدقاء الموتى المعذبين أن يقصروا أمد عذابهم بما يقدمون من الأدعية والقرايين . فلماذا نجحت الروح من هذا العذاب انتقلت من العالم السفلي إلى صهبة الآلهة الأعلى لتستمتع معهم بالولائم ومظاهر الترف والسلطان التي صورتها آمال الأحياء على القبور .

وكان التسكانيون يدفنون موتاهم في الأحوال العادية ، وكان الموسرون منهم يوضعون في توابيت الطين المحروق أو الحجارة حفرت على السطوح العليا أغطيها صور أشخاص متكئين ، يشبه بعضهم الموتى الذين كانوا في التوابيت ، ويشبه بعضهم الصورة اليونانية الباسمة التي كان اليونان الأقدمون يصورون بها أبلو Apollo ؛ ولقد كان لهذه الصور أيضاً أثرها في فن العصور الوسطى . وكان الموتى في بعض الأحيان يمحرقون ، ويوضع رمادهم في أوعية تزين أحياناً بصور الأموات . وكان الوعاء أو القبر في بعض الأحيان في صورة البيت ، وفي بعضها الآخر كان القبر المنحوت في الصخر يقضم إلى حجرات ، وهيأ لحياة الميت

في الدار الآخرة بالآثاث والآنية والمزهريات ، والملابس ، والأسلحة ،
والمرايا وأصباغ الزينة والجواهر ، وقد عُثِر في قبر في كاري Caere
على هيكل رجل محارب راقد على سرير من البرنز كامل الشكل ، وإلى
جانبه أسلحته وعجلته الخربية ، ووجدت في حجرة خاف حجرة هذا
الميت حلى وجواهر لسيدة لعلها زوجته وقد اكتسى التراب - الذي كان
في يوم من الأيام جسمها المحبوب - بثياب عرسها (٢٥) .

الفصل الثالث

الفن التسكاني

يكاد الفن التسكاني أن يكون وحده كل ما نعرف عن تاريخ التسكانيين ، فنى وسعنا أن نتبع فيه آداب الشعب وأخلاقه ، وما كان للدين والطبقات من سلطان ، وما كان لصلاته بأسية الصغرى ومصر وبلاد اليونان ورومة من أثر فى تبدل أحوال هذا الشعب الاقتصادية والثقافية . لقد كان هذا الفن شديد التقيد بالعرف والتقاليد الدينية ، وإن كانت المهارة الفنية قد أكسبته الكثير من الحرية ؛ وكان يكشف عن حضارة وحشية مظلمة ، ولكنه يعبر عنها فى قوة ؛ وقد حدد أشكاله الأولى وأنماطه الفن الشرقى - الأيونى ، والقبرصى ، والمصرى ، وسيطرت النماذج اليونانية على نمته وخزفه . وأما فى العمازة والتصوير فإن الفن التسكاني كان تسكانياً خالصاً فذاً فى نوعه .

ولا يتعدى ما بقى من آثار فن العمازة التسكانية بضع قطع قليلة مبعثرة وبعض القبور ؛ ولا تزال أجزاء من أسوار المدن الإثروورية قائمة حتى اليوم - وهى مباني ثقيلة خالية من الملائط ولكنها شديدة التماسك قوية . وتدل بيوت أغنياء التسكانيين على ما كانت عليه أشكال البيوت الإيطالية فى العهد القديم : فقد كان الواحد منها يتكون من سور خارجى يحجب سكان البيت عن أعين من فى خارجه ، ومن إيوان أو حجرة استقبال فى وسطه ، وفى سقف الإيوان فتحة ينزل منها المطر إلى صهريج فى أسفل البيت ، ومن حول الإيوان طائفة من الحجرات الصغيرة يواجهها فى أغلب الأحيان مدخل ذو عمد . وقد وصف قتروفيوس Vitruvius المهندس والبناء هياكل التسكانيين وصفاً ينطبق فى بعض الأحيان على قبورهم أيضاً ويستفاد من هذا الوصف أن الهياكل كانت فى جوهرها تتبع

الطرز اليونانية ، غير أن « الطراز التسكاني » قد أدخل بعض التعديل على الطراز الدورى ، بأن ترك العمدة خالية من الحزوز ، وأقامها على قواعد ، وجعل نسبة الطول إلى العرض فى جسم المبد كنسبة ٦ : ٥ بدل النسبة الأتيكية Attic الرشيقة وهى ٦ : ٣ . وفى وسعنا أن نصف الهيكل التسكاني وصفاً موجزاً بقولنا إنه يتكون من بناء رئيسى من الآجر ورواق من الحجارة ، ومن عوارض فوق العمدة ومقصات من الخشب ، ومن نقوش وحلى من الطين المحروق ، ويقوم البناء كله على قاعدة متصلة أو ربوة ، ويطل بالألوان الزاهية من داخله وخارجه . وكذلك نستطيع أن نقول على قدر ما وصل إليه علمنا بتاريخ التسكانيين أنهم أدخلوا فى إيطاليا العقود والقباب فى الأبنية المقامة لغير الأغراض الدينية — كأبواب المدن، وأسوارها، ومجارى المياه ومصارفها . ويلوح أنهم جاءوا بهذه الأشكال الفخمة من بلاد ليديا Lydia ، وكانت هذه قد أخذتها عن بلاد بابل (*) ، ولكنهم لم يتبعوا تلك الطريقة البديعة طريقة تغطية مساحات واسعة من الأراضى بالأبنية الخالية من العمدة والعوارض الكثيرة المختلطة المقبضة المملة . وقد ظلوا فى معظم الأحوال يتبعون الأساليب التى هيأها لهم اليونان ، وتركوا لى رومة أن ترتفع بالاقواس والمنحنيات لى ذروة الكمال فتحدث بذلك انقلاباً عظيماً فى فن العمارة .

والخزف أشهر ما أخرجته بلاد إتروريا ، تزدهم به كثير من متاحف العالم وإن كان من بطوف بهذه المتاحف لا يرى فى هذا الخزف من الكمال ما يبرر أن تحشد هذه الكميات الكبيرة منه . فالملزهيات التسكانية ، إذا لم تكن منقولة عن الأنماط اليونانية ، لا ترتفع فوق الدرجة الوسطى فى تصميمها ، وهى فخمة خشنة فى صنعها ، وبدائية همجية فى زينتها . وليس ثمة فن من

(*) وكانت تستخدم فى المقابر والهيكل المصرية وفى تصور فينوى . وتبلغ بعض المقود الرومانية من القدم ما بلغت أى المقود الباقية فى إتروريا (٢٦) .

الفنون قد شوه الجسم البشرى كما شوهه الخزف التسكانى ، أو أخرج من الوجوه المتكررة البشعة أو الحيوانات الفضة ، أو الشياطين المهولة ، أو الآلهة المروعة ، أكثر مما أخرجه هذا الخزف . غير أن الآنية السوداء المصنوعة فى القرن السادس قبل الميلاد تسرى فيها قوة إيطالية ، ولعلها تمثل تطوراً محلياً من الأنماط للألانووية . وقد عثر على مزهريات جميلة فى فلسى Vulci وتاركوينى - نقلت من أثينة أو صنعت على مثال الزهريات الأتيكية ذات الرسوم السوداء . ويلوح أن مزهرية فرنسوا Francois وهى جرة كبيرة ذات عروتين عثر عليها فى شيوخى Chiusi فرنسى يسمى بهذا الاسم - يلوح أن هذه المزهرية من صنع الفنانين اليونانيين كليتيبا Clitias وإرجتيمس Ergotimus . أما آنية رماد الموتى التى صنعت فى اليهود المتأخرة ، والتى رسمت عليها صور حمراء على أرضية سوداء ، فهى رشيقة الصنع ولكنها أيضاً صناعة يونانية بلا ريب ، وإن كثرتها لتدل على أن صناع الخزف الأتيكيين قد سيطروا على الأسواق التسكانية ولم يقوا فيها للصناع الوطنيين إلا المصنوعات التى لا تمت إلى الفن بصلة . وفى وسعنا أن نقول عن فن الخزف بوجه عام إن اللصوص كانوا على حق حين تركوا كل هذا الخزف فى القبور التسكانية بعد انتهائها .

لكننا لا نستطيع أن نستخف هذا الاستخفاف كله بفن البرنز التسكانى ذلك بأن الذين كانوا يصبون المصنوعات البرنزية فى إتروريا قد وصلوا بهذا الفن إلى درجة الكمال . ويكاد ما صنعه منه أن يبلغ من الكثرة ما بلغته الآنية الخزفية ، وحسبنا شاهداً على هذه الكثرة أن مدينة واحدة من مدنها كان فيها على قولهم ألفاً تمثال برنزى . ويرجع معظم ما وصل إلينا من المصنوعات البرنزية إلى عهد سيطرة الرومان على تلك البلاد . وأشهر هذه الروائع الفنية كلها تمثالان هما تمثال الخطيب الذى يقف الآن فى متحف العاديات فى مدينة فلرنس Florence تحف به حالة من المهابة الرومانية والتحفط البرنزى ، وتمثال المهولة الذى عثر عليه فى

لوزو Arezzo عام ١٥٥٣ الذى أعاد إليه سلبنى الفنان الإيطالى بعض ما حطم من أجزائه . وثانى التمثالين بشع المنظر ، وأكبر الظن أنه يمثل الوحش الذى ذبحه بلروفون Bellerophon ، له رأس أسد وجسمه ، وذيل أفعى ، وقد نبت له فى ظهره رأس جدى ، غير أن قوته وصقله نفسياننا ما فى خيلته من شدوذ وغرابة . وقد أخرج صناع البرنز التسكانيون آلاف الآلاف من التماثيل الصغيرة والسبوف ، والخوزات ، والدروع ، والحرب ، وآنية للظهو ولحفظ رماد الأموات ، والقود ، والأفقال ، والسلاسل ، والمراوح ، والمرايا ، والسرى ، والمصابيح ، وحاملات الشموع ، بل صنعوا منه العربات نفسها . ومن بزر متحف الفن فى نيويورك ير فى صدره عربة تسكانية جسمها ودواليبها من الخشب ولكن البرنز يكسو الجسم وإطار الدواليب ، وقد نقش فى أعلى مقدمها صور من البرنز غاية فى الرشاقة . وكان كثير من الأدوات البرنزية يخفر عليه أشكال دقيقة جميلة . وكانت طريقتهم فى هذا أن يغطوا السطح الذى يريدون نقشه بالشمع ، ثم يرسموا عليه الشكل الذى يريدونه بقلم معدنى ذى سن حادة ، يغمسون طرفها فى بعض الأحماض ، فتحفر الخطوط التى يزول عنها الشمع فى معدن البرنز ، ثم يذاب الشمع كله بعدئذ . وكان الفنان التسكانى وارث الفنانين المصرى واليونانى ، وقد هما فى النقش على الفضة والذهب والعظام والعاج . أما النحت فى الحجارة فلم يكن فى يوم ما فنناً شائعاً فى إتروريا . فقد كان الرخام فيها نادراً ، ويبدو أن محاجر كزارا Carrara لم تكن قد عرفت بعد . لكن الصلصال الجميل كان فى متناول الأيدى ، وسرغان ما تشكل وظهر فى صور آلاف مؤلفة من نقوش وتماثيل صغيرة وزينات للقبور والدور من الطين المحروق . وقد أنشأ أحد الفنانين التسكانيين فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد مدرسة لتعليم فن النحت فى قبلى Veii أخرجت على يديه آية الفن التسكانى ، وهى تمثال أبولو فى Apollo of Veii الذى عثر عليه فى عام ١٩١٦ فى موضع هذه المدرسة ، والذى ظل

إلى عهد قريب قائماً في فلاجوليا Villa Guilia في رومة . وقد صنع هذا التمثال الجذاب على غرار تماثيل أبلو اليونانية والأتيكية المنحوتة في ذلك الوقت ؛ وهو ذو وجه يكاد يكون وجهاً نسائياً كالذى نشاهده في صورة مونا ليز Mona Lisa ، ويفتر ثغره عن ابتسامة رقيقة ، وأسنان مائلة مقوسة ، وجسمه تسرى فيه دلالات الصحة والجمال والحياة . ويطلق الطليان على هذا التمثال اسم « أبلو الذى يمشى » il Aqollo che Cammina . وقد ارتقى المثالثون التسكانيون في هذا التمثال وفي غيره من الصور الجميلة الكثيرة المنقوشة على توابيت الموتى ، ارتفقوا بالأنماط الأسبوية من صور الشعر والشباب إلى درجة الكمال . أما في تمثال الخطيب فقد أوجدوا هم أو وارثوهم الرومان فناً من التصوير الواقعى .

وقد تعاون فن الرسم التسكانى مع فن إيطاليا اليونانية على نقل فن آخر من الفنون إلى رومة . ولقد وصف بلنى الأكبر Pliny المظلمات التى وجدت في أرديا Ardea بأنها « أقدم من رومة نفسها » ، وقال عن مظلمات كبرى إنها « أقدم من السابقة » وإنها « تفوقها روعة وجمالاً » (٢٧) واستخدمت في الرسم الألوان الخزفية ، وجدران المنازل والقبور من الداخل ؛ ولم يبق لنا إلا مظلمات القبور والرسوم على المزهريات ، ولكنها تبلغ من الكثرة حداً نستطيع معه أن نتبع كل ما مر بفن التصوير التسكانى من أدوار مختلفة— من طرز شرقية ومصرية ، تنتقل عن طريق اليونان والإسكندرية إلى طرز رومة وبمبي . ونجد في بعض المقابر النماذج الإيطالية الأولى للنوافذ ومداخل الدور ، والأعمدة ، وكالات الأبواب ، وغيرها من الأشكال الهندسية المعمارية ، مصورة بالألوان على الجدران الداخلية ، ولا تفرق في شيء عما نجده منها في مدينة بمبي . وكثيراً ما نرى ألوان هذه المظلمات حائلة ، ولكن القليل منها يبدو جديداً براقاً إلى حد يدهش له الرائي ، بعد أن مضى عليه أكثر من عشرين قرناً من الزمان . أما من حيث

القواعد الفنية فإن هذه الرسوم لا ترقى إلى ما فوق الدرجة الوسطى ،
فالصور القديمة لم تراعى فيها قواعد المنظور .

ولم يستخدم الضوء والظل لتمثيل العمق والامتلاء ، والصور رفيعة أشبه
من هذه الناحية بالصور المصرية ، ويخيل إلى الناظر إليها أنه يراها من
خلال مرآة محدبة أفقية ، والوجوه كلها جانبية أيا كانت الجهة التي تشير
إليها القدمان ؛ غير أن فن المنظور يظهر في النماذج المتأخرة ، كما أن التناسب
بين أجزاء الجسم المختلفة يراعى بمهارة وأمانة . لكن هذه الصور وتلك
يبدو عليها نزق ومرح وخبث لا يسمع الإنسان معها إلا أن يدهش مما كان
يحيط بالحياة التسكانية من بهجة إذا كانت قبورهم مفرحة إلى هذا الحد .

فهنا رسوم تمثل رجالا يقتتلون ، أو يستمتعون بمشاهدة القتال ،
أو يتصارعون ويثاقفون في المجتلدات ، ويصيدون الأسود والخنازير البرية
بشجاعة الرجال الذين يراهم النظارة ، أو يتوقعون أن يروهم ، وبلاكون
أو يصارعون في ساحة الصراع والنظارة يتناقشون بقوة تفوق قوة المصارعين ،
ويركبون خيولهم أو يسوقون عرباتهم حول المدرج ، أو يصيدون السمك
في هدوء واطمئنان عظيمين . ويمثل أحد الرسوم زوجين يدفعان قارباً على
مهل في مجرى هادئ المياه : ألا ما أقدم حكمة الحكماء . وفي صورة على
قبر من قبور كثيرى يرى رجل وزوجته متكئين على أريكة ، والرجل
متوج الرأس بالغار ، ويعاهد زوجته وفي يده كأس من الشراب على أن
يكون وافيّاً لها مخلصاً على الدوام ، وتبتسم الزوجة وتصدقّه وإن كانت
تعرف أنه يكذب عليها .

ويرسم المصور التسكاني على جدار مقبرة أخرى ما ارتسم في ذهنه من
صورة البجبة . ويصور المرح الدائم ، ويصور الولدان يرقصون رقصاً عنيفاً
على أصوات المزمار المزدوج والقيثارة . ويلوح أن المزمار ، والقيثارة ، والصفارة
والبوق ، كانت مستلزمات كل وليمة كل حفلة عرس أو جنازة ، وأن

حب الموسيقى والرقص كان من المظاهر الجميلة في الحضارة التـسـكـانية :
ونرى الصور المرسومة على جدران قبر اللبوة في كـرنـيتـو Corneto تدور
حول نفسها في جنون الخمورين (٢٨) .

* * *

وكان طبيعياً أن يوسع التـسـكـان أملاكهم نحو الشمال والجنوب ، وأن
يعدوا سلطانهم إلى قواعد جبال الألب ، وإلى مدن كـمـبـانيا Campania اليونانية ،
وأن يجدوا أنفسهم بعدئذ وجهاً لوجه أمام رومة الناشئة على الشاطئ
الآخر من نهر التـيـبـر Tiber : وقد أنشأوا لهم مستعمرات في قـروـنا Verona
بدوا Padua ، ومنتوا Mantua ، وبارما Parma ، ومودينا Modena ،
وبولونيا Bologna ، وفي الجهة الأخرى من جبال أـبـنـين Appenine في
رـمـينـي Rimini ، ورافنا Ravenna ، وأدريا Adria ، وهي قرصة صغيرة سمي
باسمها البحر الأدرياي . وأحاطوا رومة بمستعمرات تـسـكـانية في فيديني
Fidnae ، وبرنيسـي Paraneeste (باسترينا Palestrina) وكبوا Capua ،
ولعلمهم استقروا أيضاً في مسكولم Musculum (« تسكانيا الصغرى ») :
وما وافى عام ٦١٨ ق . م — كما تقول رواية مشكوك في صحتها ولكنها تحدد
هذا التاريخ تحديداً عجيباً — حتى استولى أحد المغامرين التـسـكـان على عرش
رومة ، وظلت الأمة الرومانية مدى قرن كامل تسيطر عليها قوة التـسـكـانيين
ويتشكلون حضارتها .

الفصل الرابع

رومة تحت حكم الملوك

وعبر نهر التيبر حوالى عام ١٠٠٠ ق م جماعة مهاجرون من فلانوثا واستقروا فى لاتيوم Latium ، ولا يعرف أحد هل غلب هؤلاء المهاجرون من وجدوهم فى تلك البلاد من السكان الأصليين الذين كانت ثقافتهم فى ذلك العهد لا ترقى عن ثقافة أهل العصر الحجري الحديث ، أو أبادوهم ، أو اكتفوا بالاختلاط بهم والزواج منهم . ومهما يكن ما فعلوه بهم فقد أخذت القرى الزراعية التى كانت قائمة فى هذا الإقليم التاريخى العظيم بين نهر التيبر وخليج نابلى Naples تجتمع وينضم بعضها إلى بعض حتى تكون منها عدد قليل من دويلات المدن المستقلة المتحاسدة التى لم تكن تتحد بعضها مع بعض إلا فى الأعياد الديلية السنوية أو فيما كان يقوم بينها من حروب . وكان أكبر هذه المدن هى ألبا لنجا Alba Longa القائمة عند سفح جبل ألبان Mt. Alban ، والراجح أن موضعها كان فى موضع قصر جندلفو Cnstel Gandlfo الذى يأوى إليه البابا فى أيام الصيف فى الوقت الحاضر . ومن ألبا لنجا تحرك جماعة من اللاتين - ولعل ذلك كان فى القرن الثامن قبل الميلاد - مدفوعين بحب الغزو أو بازدياد عددهم لكثرة من ولد لهم من الحفدة والأبناء ، تحركوا قرابة عشرين ميلا نحو الشمال الغربى ، وأنشأوا المدينة التى صارت فيما بعد أعظم مدن العالم وأوسعها شهرة .

ولسنا نعرف عن نشأة رومة أكثر مما ذكرناه فى الفقرة السابقة التى ليس فيها إلا ما هو فروض غير موثوق بصحتها . ولكن القصص الرومانية تروى عن ذلك الأصل الشئ الكثير . ذلك أنه لما حرق الغاليون المدينة فى عام ٣٩٠ ق م احترقت فى أغلب الظن معظم مجلاتها التاريخية ، فانسح المجال

أمام خيال أهلها ، وأغرثهم وطنيتهم إلى تصوير أصل المدينة في صورة مطلقة من كل القيود ، فحددوا تاريخ بنائها في اليوم الذي يوافق اليوم الثاني والعشرين من شهر إبريل عام ٧٥٣ ق.م ، وأخذوا يؤرخون الحوادث «من عام تأسيس المدينة » A.U.C. auno urbis conditae ، وأخذت مائة قصة وألف قصيدة تصف خروج إينياس Aeneas ابن أفرديتي — فينوس (الزهرة) Aphrodite-Venus من طروادة المحترقة ، ومجيئه إلى إيطاليا بألمة مدينة پرام Priam (*) وما كان فيها من صور مقدسة ، بعد أن قاسى الأهوال في البلاد الكثيرة التي مر بها ، ولاقى ألوان العذاب من سكانها . وتزوج إينياس من لافينيا Lavinia ابنة ملك لانيوم ، وتقول القصة إن نمتور Numitor أحد أحفادهما جلس على عرش ألبا لنبجا حاضرة لانيوم بعد ثمانية أجيال من هذا الزواج . ثم اغتصب العرش منه رجل يدعى أمليوس Amulius وأخرجه من المدينة ، وأراد أن يقضى على أسرة إينياس كلها فقتل جميع أبنائه الذكور ، وأرغم ابنته الوحيدة ريا سلفيا Rhea Si via على أن تصبح كاهنة لفستا Vesta ، وأن تترهب وتقسم أن تظل عذراء حتى المات . ولكن ريا رقدت يوماً على شاطئ مجرى ماء ، « وفتحت صدرها لتتلقى النسيم » (٢٩) واستغرقت في النوم وهي وائمة أكثر مما يجب بطهارة الآلهة والآدميين . وأسر جمالها قلب المرنج Mars فحملت منه بتوأمين ، فلما وضعتهما أمر أمليوس بإغراقهما في النهر ، فوضعا فوق رمس ، وأشفقت عليهما الأمواج فحملتهما إلى البر ، وأرضعتهما ذئبة (Lupa) أو — في رواية أخرى — زوجة راع تدعى أكالا رنتيا Acca Larentia ويكنونها لوبا Lupa لأن حبها غارم كحب الذئاب . فلما شب رمبولوس Romulus وريموس Remus قتلا أمليوس ، وأعادوا نمتور إلى العرش ، وسارا تحدهما قوة الشباب وعزيمته لكي يمشيا لها مملكة على تلال رومة .

(*) يقصد طروادة . (المترجم)

ولم يكشف علم الآثار عن شيء يؤيد هذه الفرضية التي تروى عن
تشأة رومة وعهدا الأول ، ولعل في هذه القصص شيء من الحقيقة ،
فليس بعيد أن يكون اللاتين قد أرسلوا نفرأ منهم ليشيدوا مدينة رومة
لكي يتخلوها حصناً يقيمهم شر التسيكان الذين كانوا يوسعون رقعة بلادهم
في ذلك الاتجاه . وكان موقع المدينة على بعد عشرين ميلاً من شاطئ البحر ،
ولم يكن موقعاً ملائماً للتجارة البحرية ، ولكنه كان من المستحب في تلك
الأيام أيام القرصان المغيرين النهايين أن تكون مواقع المدن بعيدة عن شاطئ
البحر قليلاً ، أما من حيث التجارة الداخلية فقد كانت رومة عند ملتقى
طريقي التجارة ، طريق النهر والطريق البري الممتد من الشمال إلى الجنوب ،
ولم يكن موقعها بالموقع الصحي ، فقد كانت الأمطار وفيضانات الأنهار ،
ومياه العيون ، تملأ المناقع الكثيرة في السهل المحيط بالمدينة ، ومن ثم
كانت شهرة التلال السبعة . وتقول الرواية إن أول ما استوطنه المهاجرون
من هذه التلال هو تل پلاتين *Palatine* ، ولعل سبب ذلك أن جزيرة قرب
سفح هذا التل قد يسرت للمستعمرين عبور نهر التيبر وإقامة جسر عليه .
ثم استوطنوا بعدئذ سفوح التلال المجاورة واحداً في إثر واحد ، وما لبثوا
أن عبروا النهر وشادوا الفاتيكان *Vatican* والجانيكولوم *Janiculum* (*) .
ثم تحالفت القبائل الثلاث - اللاتين والسبينيون والتسيكان - التي استوطنت
التلال وأنشأت منها اتحاداً يسمى السبيتيمنيوم هو الذي نشأت فيه على مهل
مدينة رومة .

وتقول القصة القديمة بعدئذ إن رميولوس أراد أن يأتي بأزواج لرجالها ،
فأعد ألعاباً عامة دعا إليها السبينيون وغيرهم من رجال القبائل الأخرى ، وبينما
كان السباق جارياً في مجراه إذ انقضى الرومان على نساء السبينيون فاستولوا

(*) لقد كان في رومة أكثر من هذه التلال السبعة المتواضعة ، ولم تكن هذه
« السبعة » هي بعينها في جميع الأوقات . غير أنها في أيام شيرون كانت هي *Palatine*
Capitoline, Caelian, Esquiline, Aventine, Viminal, quirinal.

عليهن ، وطردهوا الرجال من حلبة السباق ، فها كان من تيتس تانيوس Titus Tatius ملك قبيلة الكيوريين Curites السبئية إلا أن شن الحرب على رومة ، وسار بجيوشه لغزوها . وفتحت ترپيا Tarpeia ابنة الرومانى الموكل بإحدى القلاع القائمة على الكبتولين باب القلعة إلى الغزاة . وقد جازوها على عملها بأن دقوا عظامها بدروعهم ، وأطلقت الأجيال التى جاءت من بعد اسمها على « صخرة ترپيا » التى كان يلقى من فوقها المقصى عليهم بالإعدام ليلقوا حتفهم . ولما اقترب جنود تانيوس من تل البلاطين سعت نساء السبئيين — اللاتى كن يشعرن بنعم الأسر — إلى عقد هدنة بين الطرفين ، وحينئذ فى هذا أنهن سيخسرن أزواجهن إذا انتصر الكيوريون ، وسيخسرن إخوتهن أو آبائهن إذا انهزموا . ونجح النساء فى سعيهن وأقنع رميولوس تانيوس ملك السبئيين بأن يشاركه ملكه ، وأن تنضم قبيلته إلى اللاتين ، فتصبح من مواطنى رومة ، ومن ذلك الوقت سمى أحرار رومة بالكيوريين أو الكويريين (Quirites Curites) (٢٠) . ولعل فى هذه القصة الخيالية كلها هى الأخرى بعض الحقائق — أو لعل الذمرة الوطنية قد صاغتها لتخفى بها فتح السبئيين مدينة رومة .

وحكم رميولوس رومة زمناً طويلاً رفع بعدها إلى السماء فى عاصفة ، واتخذ من بعد ذلك إلهاً من آلهة الرومان المحبين ، يعبدونه باسم كويرينوس Quirinus (٢١) . ولما مات تانيوس أيضاً اختار رؤساء الأسر الكبيرة رجلاً من السبئيين يدعى نوما پمپيليوس Numa Pompilius ملكاً على رومة . والراجع أن السلطة السياسية الحقيقية فيما بين تأسيس رومة وسيطرة التسكان عليها كانت فى أيدي هؤلاء الرؤساء أو السناطوريين ، على حين أن أعمال الملك كانت كأعمال الأركان باسليوس Archon basileus فى مدينة أثينة فى هذا الوقت عينه ، ولا تخرج عن أعمال الكاهن الأكبر (٢٢) . وتصور الأفاضل الملك نوما السبئى فى صورة شبيهة بالإمبراطور ماركس أوريليوس Marcus Aurilius ، تصوره فيلسوفاً وقديساً معاً . ويقول عنه لى Livy لأنه :

«عمل على أن يبعث في قلوب الشعب الخوف من الآلهة ، ويجعل ذلك الخوف أقوى أثراً في قلوب ... الأقوام الممج : وإذا كانت جهوده في هذه السبيل لا توصله إلى الهدف الذي يسعى إليه إلا إذا كان مرجعها إلى حكمة غير حكمة البشر ، فقد ادعى أنه كان يلتقى في الليل بإيجيريا Egeria الحورية المقدسة ، وإنه يعمل بنصيحتها حين ينظم الطقوس والمراسم الدينية التي هي أحب الطقوس إلى السماء ، ويعين الكهنة لكل إله من كبار الآلهة (٣٢) .

ولما أفلح روما في توحيد دين قبائل رومة المختلفة ، وإزالة ما بينها من فروق في العبادات ، قوى بذلك وحدة الدولة وزادها استقراراً (٣٣) ، ويقول شيشرون إن روما ، حين وجه اهتمام الرومان المولعين بالحرب والقتال إلى شئون الدين ، نشر لواء السلام بين شعبه مدى أربعين عاماً (٣٤) .

وأعاد خليفته تلس هستيليوس Tullus Hostilius إلى الرومان حياتهم العادية التي ألفوها من قبل « ولما رأى أن قوى الدولة آخذة في الانحلال لطول عهدها بالحمول أخذ يتطلع إلى حجة يتنوع بها لإيقاد نار الحرب (٣٥) » ، واختار عدواً له مدينة ألبا لنبأ التي كانت هي أصل مدينة رومة ومنشأها ، فغزاها ودمرها عن آخرها . ولما نكث ملك ألبا بوعده أن يحالفه أمر به تلس فشد إلى عربيتين سارتا في اتجاهين متضادين فزق جسمه إرباً (٣٦) ، ولم ير خليفته أنكس مارتوريوس Ancus Martius بأساً في اتباع هذه الفلسفة العسكرية ، فقد كان أنكس يعلم كما يقول ديوكاسيوس : Dio Cassius

أنه لا يكتفى من يمشدون السلم أن يمتنعوا عن أذى الناس ، بل إنه كلما اشتدت رغبة الإنسان في هذا السلم اشتد تعرضه للأذى . وكان يرى أن الرغبة في الهدوء لا تحمي الإنسان من الأذى إلا إذا صحبها الاستعداد للحرب ، وكذلك كان يعتقد أن الابتهاج بالبعد عن المشاكل الخارجية سرعان ما يقضى على الذين يسمرون في حماسهم لهذا البعد (٣٧) .

الفصل الخامس

سيطرة التस्कانيين

وتروى الأقاصيص بعدئذ أن دمراتس Demaratus ، وهو تاجر ثرى نقي من كورنث ، جاء ليعيش فى تاركويناي حوالى عام ٦٦٥ ق.م ، وتزوج بامرأة تस्कانية (٢٨) ثم هاجر ابنه لوسليوس تاركوينيوس Lucius Tarquinius إلى رومة وارتفعت مكانته فيها ، ولما مات أنكس اغتصب العرش أو رفعه عليه حلف من الأسر التस्कانية فى المدينة ، والاحتمال الثانى أرجح مع الأول : فيقول ليفى Livy إنه أول ملك سعى إلى التاج وألقى خطبة يطلب فيها معونة السوق أى المواطنين الذين لا يستطيعون أن يثبتوا انتسابهم إلى الآباء الذين أسسوا المدينة ، وزاد سلطان الملكية على الأشراف فى عهد تاركوينيوس برسكس Tarquinius Priscus ، كما زاد نفوذ التस्कانيين فى شئون رومة السياسية والهندسية والدينية والفنية ، وحارب تاركون السهنيين وانحصر عليهم ، وأخضع لاتيوم Latium كلها لسلطانه ، ويقال إنه استخدم موارد رومة ليجمع بها تاركويناي وغزها من المدن الإترورية ، ولكنه جاء أيضاً بالفنانين التस्कانيين واليونان إلى عاصمة ملكه وزينها بالهياكل الفخمة (*) ويلاحظ أنه كان يمثل سلطان الأعمال التجارية والمالية المتزايد على سلطان الأشراف ملاك الأراضى الزراعية .

وحكم تاركون الأول ثمانية وثلاثين عاماً ثم قتله الأشراف غيلة لأنهم أرادوه

(٥) ولعله أيضاً أنشأ فيها المخابرى لتنظيفها ، وهمزوا إليه المؤرخون الرومان إنشاء الكلوكا مكسبا Cloaca Maxima أو البالوعة الكبرى ، ولكن بعض العلماء يقولون هذا .
للتفصيل إلى القرن الثانى قبل الميلاد (٩٠) .

أن يحدوا من سلطان الملكية ويفرضوا عليها سلطان الدين ، ولكن تناكويل Tanquil أرملة تاركون تولت الأمر بنفسها ، واستطاعت أن ترفع ابنها سرفيوس تليوس Servius Tullius على العرش . ويقول شيشرون إن سرفيوس هذا هو أول ملك روماني استطاع « أن يتولى الملك دون أن يختاره الشعب » (٤١) أى أن تختاره الأسر الكبيرة . وحكم هذا الملك البلاد حكماً صالحاً ، وأنشأ حول رومة خندقاً وسوراً ليحميها من الغارات ، ولكن كبار الملاك لم يرضوا عن حكمه ودبروا المؤامرات لخلعه ، فقابل هذا بأن تحالف مع الأثرياء من العامة (Plebs) وأعاد تنظيم الجيش والناخبين ليقيى بذلك مركزه ، فبدأ بإحصاء السكان والأملاك ، وقسم الأهلىن طبقات على أساس ثروتهم لا على أساس مولدهم ، فترك بذلك الأشراف القديمة محتفظة بكيانها ، ولكنه رفع تجاهها طبقة من الإكويرى equites ومعناها الفرسان — أى الرجال الذين كان فى مقدور كل منهم أنه يعدله جواداً وسلاحاً ينخرط بهما فى سلك فرقة الفرسان فى الجيش (*) . وتبين من الإحصاء أن هناك ٨٠,٠٠٠ شخص يستطعون حمل السلاح . وإذا قدرنا أن أسرة كل جندى من هؤلاء الجنود تتألف منه ومن زوجته وولد واحد ، وأن لكل أسرة من أربع أسر عبداً رقيقاً ، فإننا لا نكون مخطئين إذا قدرنا سكان رومة والبلاد المحيطة بها الخاضعة لسلطانها حوالى عام ٥٦٠ ق . م بنحو ٢٦٠,٠٠٠ نسمة . وقسم سرفيوس هؤلاء السكان إلى خمس وثلاثين قبيلة جديدة ، ورتبها حسب مسكنها لا حسب طبقتها أو ما بينها من صلات القرابة ، وفعل بذلك ما فعله كليستينز Cleisthenes فى أثينا Attica بعد جيل من الوقت ، فأضعف ما كان للأشراف — أى الطبقة التى كانت تضع نفسها بفضل مولدها فوق سائر الطبقات — من تماسك سياسى وقوة انتخابية . ولما قام تاركون آخر

(*) وهذا اللفظ بمعناه القديم ذو صلة بكلمة Knight (فارس) الإنجليزية ، ولكن مرمان ما فقد لفظ equites معناها الأول وأصبح معناه الطبقة الوسطى العليا أو طبقة رجال الأعمال .

هو حفيد تاركوينيوس برسكس Tarquinius Priscus وأتهم سرفيوس Servius بأنه يحكم حكماً غير شرعى ، استفتى سرفيوس الشعب فقال « ثقته الاجتماعية » كما يقول لبيثى Livy^(٤٢) ، غير أن تاركوين لم تقنعه نتيجة هذا الاستفتاء فعمل على اغتيال سرفيوس ، ونادى بنفسه ملكاً على رومة (*).

وأصبحت الملكية في عهد تاركوينيوس سوبربس Tarquinius Superbus « المتكبر » مطلقة السلطان ، كما أصبح للنسكانيين النفوذ الأعلى في البلاد ، ولكن الأشراف كانوا من قبل يرون أن الملك Rex إن هو إلا السلطة التي يكمل إليها مجلس الشيوخ Senate تنفيذ أحكامه ، وأنه الكاهن الأكبر للدين القومى ، ولذلك لم يستطيعوا أن يصبروا طويلاً على سلطانه غير المحدود . ومن أجل هذا قتلوا تاركوينيوس برسكس ولم يحاولوا الدفاع عن سرفيوس . ولكن هذا الملك الجديد كان شراً من الملك الأول ، فقد أحاط نفسه بحرس خاص وحقر الأحرار بأن فرض عليهم السخرة شهوراً طويلاً ، وأمر بصلب المواطنين في السوق العامة ، وقتل عدداً كبيراً من زعماء الطبقات العليا في البلاد ، وحكم حكماً وحشياً ساخراً أغضب جميع أصحاب الرأى فيها (*)(٤٣) . وظن هذا الملك أن النصر في ميدان القتال يكسبه حب الشعب ورضاه ، فهاجم الروتليين Rutili والفليشين Volscians . وبينما كان هو مع الجيش في الميدان اجتمع مجلس الشيوخ وأعلن خلعه (٥٠٨ ق.م) ، وكان ذلك انقلاباً خطيراً في تاريخ رومة .

(*) قل أن يوجد من العلماء من يميل إلى الأخذ بأقوال إلنوريس Elnor Paia المرفقة في التشكك ، والى تأيى تصديق كل ما يروى من تاريخ رومة قبل عام ٤٤٣ ق . م لأنه حسب زعم هذا المؤرخ مجرد أساطير . وهو يعتقد أن تاركوين الأول والثانى علمان من شخص واحد لم يوجد قط (٤٢) . ويرى بعضهم أن الرواية المأثورة عن تاريخ رومة بعد رمبولس يمكن قبولها مع تعديل في بعض أجزائها ، وأن قبوله هذا « يفسر الظاهرة » تفسيراً خيراً مما يفسره أى افتراض آخر .

(٥٠) أكبر الظن أن ما يروى عن تاريخ آل تاركوين قد سوائه الدعاية النسكائية ودعائى الأرستقراطية الرومانية . ذلك أن معظم تاريخ رومة الأول قد كتبه رجال يملكون طبقة الأشراف أو يعجبون بهذه الطبقة ، كما كان كتاب تاريخ الأباطرة فيما بعد من أشعاع مجلس الشيوخ أمثال تاسيتس Tacitus .

الفصل السادس

مولد الجمهورية

وهنا تستحيل الرواية التاريخية أدباً ، ويمتزج نثر السياسة بشعر الغرام .
انظر مثلاً إلى ما يقوله ليفي وهو أن سكستس تاركوين Sextus Tarquin ابن الملك كان في معسكر أبيه في إحدى الليالي يناقش لوسيوس تاركوينيوس كلاتنس Lucius Tarquinius Collatinus أحد أقربائه في فضائل زوجتيهما وأيهما خير من الأخرى ، فعرض ليه كلاتنس أن ينطلقا على ظهري جواديهما إلى رومة ويفاجئا زوجتيهما بزيارتهما في أواخر الليل . فوجدوا زوجة سكستس في وليمة مع بعض صاجباتها ، أما لكريشيا Lucretia زوجة كلاتنس فكانت تغزل الصوف لتنسج منه ثياباً لزوجها . وتناقت نفس سكستس ليجرب وفاء لكريشيا ويستمتع بحبها ، فما كان منه إلا أن عاد في السر بعد بضعة أيام من ذلك الوقت إلى بيت لكريشيا وتغلب عليها بدهائه وقوته . وأرسلت لكريشيا تستدعي أباهما وزوجها ، وأخبرتهما بما حدث لها ، ثم انتحرت بطعنة خنجر . وعلى أثر ذلك أهاب لوسيوس چونيوس بروتس Lucius Junius Brutus أحد أصدقاء كلاتنس جميع الصالحين من الرجال أن يطردوا آل تاركوين كلهم من رومة . وكان هو نفسه ابن أخي الملك ، ولكن تاركوين كان قد قتل أباه وأخاه ، وتظاهر هو بالحنون حتى يبقى تاركوين على حياته فيأثر لمقتل أبيه وأخيه ، ولذلك سمي بروتس Brutus أي الأبله . فلما وقعت هذه الحادثة ركب مع كلاتنس إلى العاصمة ليقص قصة لكريشيا على مجلس الشيوخ ، وما زال به حتى أقعته بوجوب إخراج الأسرة المالكة كلها من رومة . وكان الملك في أثناء ذلك قد ترك الجيش وعاد مسرعاً إلى العاصمة . وعلم بروتس بهذا فسار إلى الجيش على ظهر جواده وقص عليه مرة أخرى

قصة لكريشيا وكسب بذلك معونته وتأيبده . وفر تاركوين إلى بلاد إتروريا وطلب إلى أهلها أن يعيدوه إلى عرشه (١٥)(*) .

ودعيت في رومة وقتئذ جمعية من أهلها الجنود فاخترت بدل الملوك الذين كانوا يختارون مدى الحياة قنصلين (**) متعادلين في السلطان ، كلاهما رقيب على الآخر ومنافس له ، يحكمان مدة عام واحد . وتقول الرواية إن القنصلين الأولين كانا بروتس وكلاتنس ولكن ثانيهما استقال من منصبه فاختر بدله بيليوس فاليريوس *Publius Valirius* الذى لقب فيما بعد بيليكولا *Publicola* — أى « صديق الشعب » — ، لأنه تقدم إلى الجمعية بعدة قوانين ظلت من القواعد الأساسية في دستور رومة وهى : أن كل من يحاول أن ينصب نفسه ملكا يجوز قتله من غير محاكمة ؛ وكل من يحاول أن يتولى منصباً عاماً من غير رضا الشعب يعاقب بالإعدام ؛ وكل مواطن يحكم أحد الحكام بإعدامه أو جلده يحق له أن يعرض أمره على الجمعية . وفاليريوس هو الذى سن السنة التى كانت تحتم على القنصل إذا أراد أن يدخل الجمعية أن يفصل رأس البلطة عن مقبضها ويخفضها إشارة إلى سيادة الشعب وإلى أن عقوبة الإعدام في وقت السلم من حق الشعب وحده .

وأهم نتائج هذه الثورة اثنتان : أولاهما أنها حررت رومة من سلطان التسكانيين ، والثانية أنها استبدلت بحكم الملوك حكم الأشراف الذين ظلوا يحكمونها إلى عهد قيصر . أما الفقراء من المواطنين فلم تنصلح أحوالهم بعد الثورة بل ساءت عما كانت عليه ، فقد طلب إليهم أن ينزلوا عن الأراضي التى وهبها لهم سرفيوس

(*) يرى معظم العلماء من أيام نيبهر *Niebuhr* أن قصة لكريشيا من خلق الخيال وشيكسبير . ولسنا نعرف ما في هذه القصة من حقيقة وما فيها من خيال الشعراء . ويرى البعض أن بروتس نفسه شخصية خرافية ، ولكن أكبر الظن أن الذين يقولون بهذا يسرفون في تشكيكهم .

(**) أو قائدين يلقب كل منهما بريتور *Praetor* — كما تقول رواية أخرى .

وخسروا ذلك القسط الضئيل من الحماية من سلطان الأشراف وهو الذى كان لهم فى عهد الملكية (٤٧). وقال الظافرون إن الثورة كانت نصراً مؤزراً للحرية ، ولكن الحرية فى لغة الأقوياء لا يقصد بها فى بعض الأحيان إلا التحرر من القيود التى تحول دون استغلال الضعفاء .

وكان إخراج آل تاركوين من رومة ، مضافاً إلى هزيمة التسكانيين على يد المستعمرين اليونان فى كومية Cumae عام ٥٢٤ نذيراً بزوال زعامة التسكانيين من وسط إيطاليا . ومن أجل هذا فإنه لما لجأ إليهم تاركوين ، استجاب لدعوته لارس پورسنا Lars Porsena ، أكبر الحكام فى كلوزيوم Clusium فجمع جيشاً كبيراً من مدن إتروريا المتحدة وزحف به على رومة . ودبرت فى رومة نفسها وفى الوقت نفسه مؤامرة ترمى إلى إعادة آل تاركوين إلى عرشها . وقبض على المتآمرين ، وكان من بينهم ابناً بروتمس ، وضرب هذا القنصل لكل من جاء بعده من الرومان أحسن الأمثلة فى الجلد والخضوع لحكم القانون ، إذ شهد بعينه ولديه يجلدان ثم يضرب رأسهما وهو صامت لا ينبس ببنت شفة — أو لعل هذه قصة تروى وليست حقيقة واقعة . ودمر الرومان الجسر العام على نهر التيبر قبل أن يصل إليهم پورسنا ، وقد خلد هوراشيوس ككليز Horatius Cocles اسمه فى الأغاني اللاتينية والإنجليزية بدفاعه عن رأس هذا الجسر (*) . ولكن رومة استسلمت لپورسنا (٤٨) . على الرغم من هذه الأسطورة وغيرها من الأساطير التى أراد بها المهزومون أن يكللوا هاماتهم بالجد . ونزلت عن بعض أملاكها إلى فياي veii والمدن اللاتينية التى كان ملوك رومة قد انتهبوا (٤٩) . وأظهر پورسنا للمدينة المغلوبة بعض الحاملة إذ لم يطلب إعادة تاركوين إلى عرشها . وكان الأشراف فى إتروريا قد طردوا منها أيضاً الملوك وظلت رومة بعد هذه الاضطرابات ضعيفة

(*) انظر قصيدة لورد مكولى فى مجموعة قصائده المسماة Lays of Ancient Rome

(المترجم)

مدى جيل من الزمان ، ولكن ما خلفته الثورة من نتائج ظل باقياً دائماً الأثر .
وقضت هذه الثورة على قوة التسكانيين ، ولكن آثار النفوذ التسكاني ودلائله ظلت باقية في الحضارة الرومانية إلى آخر أيامها . ولعل أقل هذا النفوذ أثراً هو ما كان في اللغة اللاتينية ، بيد أن الأرقام الرومانية هي في أغلب الظن أرقام تسكانية^(٥٠) ، ولعل لفظ رومة نفسه مشتق من اللفظ التسكاني رومون Rumon ومعناه نهر^(٥١) . وكان الرومان يعتقدون أنهم أخذوا عن إتروريا الاحتفالات التي كانت تقام عند عودة قائد روماني منتصر ، والأثواب الموشاة بإطار أرجواني ، والمقعد العاجي (الشبيه بمقاعد العربات) الذي يجلس عليه الحكام ، والعصى والفؤوس التي كان يحملها أمام كل قنصل اثنا عشر ضابطاً ، والتي كان يرمز بها إلى حقه في ضرب الناس وقتلهم^(٥٢) . وكانت عملة رومة تزدان بمقدم سفينة قبل أن يكون لرومة سفن بزمان طويل — وكانت هذه الصورة ترسم على العملة التسكانية رمزاً لنشاطها التجاري وسسلطانها البحري . وكان من عادة الأشراف الرومان من القرن السابع إلى الرابع قبل الميلاد أن يرسلوا أبنائهم إلى المدن التسكانية ليتلقوا فيها التسليم العالي ، وكان من بين ما يتلقونه فيها من العلوم الهندسية والمساحة والفنون المعمارية^(٥٣) . وكانت الملابس الرومانية مأخوذة عن الملابس التسكانية أو لعل هذه وتلك مأخوذتان عن أصل واحد .

وجاء الممثلون الأولون إلى رومة كما جاء إليها اسمهم *historiones* من إتروريا ، وإذا جاز لنا أن نصدق ليفي فإن تاركوينيوس پرسكس هو

(*) وقد وجدت في أحد القبور التسكانية في فيتولونيا Vetulonia بلطة من حديد ذات رأسين ، ويد محاطة بثمانية قضبان حديدية^(٥٣) . وكانت البلطة ذات الرأسين تتخذ رمزاً للسلطان من عهد لا يقل في القدم عن عهد الحضارة المينوية في كريت . وكان الرومان يطلقون على البلطات والقضبان المحيطة بها اسم الحزم — (الفاشات) . أما عدد القضبان الاثنى عشر الذين يحملون هذه البلطة والذين يسمون بالرومانية لكيتورين *Lictors* (من *Ligare* ومعناها يربط) فيرجع إلى الاثنى عشر مدينة التي كانت يضمها الاتحاد التسكاني ، وكانت كل واحدة منها ترسل ضابطاً يصحب الرئيس لهذا الاتحاد^(٥٤) .

الذى بنى أول ساحة كبرى *Circus Maximus* ، واستورد خيول السباق والمصارعين للألعاب الرومانية من *إتورريا* والتسكانيون هم الذين أدخلوا في رومة المصارعات الوحشية ، ولكنهم هم الذين وضعوا النساء فيها في منزلة لم تكن لهن في بلاد اليونان . وقد شاد المهندسون التسكانيون أسوار رومة ومصاريف الفضلات من بيوتها ، وهم الذين استحال على أيديهم من منافع وخمة إلى حاضرة محمية متمدينة . وأخذت رومة عن *إتورريا* معظم مراسمها الدينية ، كما أخذت عنها عادات زجر الطير والعرافة والإنباء بالغيب : ولقد ظلت وظيفة المتنبئ بالغيب جزءاً مقررأ في كل جيش روماني إلى أيام الإمبراطور *Julian* (أى إلى عام ٣٦٣ ب . م) وكان الاعتقاد السائد أن *رميولوس Romulus* قد خطط حدود رومة حسب المراسم والطقوس التسكانية . وعن *إتورريا* أخذ الرومان حفلات عرسهم وما فيها من رموز إلى عادة الأسر القديمة وحفلات جنازتهم كما أخذوا عنها موسيقاهم وآلات طربهم (٥٦) . وكان معظم فناني رومة من التسكانيين ، كما كان الشارع الروماني الذى يحمل فيه الفنانون يسمى *Vicus Tuscus* (البيوت التسكانية) ، ولعل الفنانين أنفسهم قد تسربوا إلى رومة عن طريق *لاتيوم* من *إغريق* *كامبانيا Campania* . وكان فن النحت في رومة متأثراً أعماق الأثر بأقنعة الموتى التى كانت تغطى بها صور الأسر — وهى عادة أخذت من *إتورريا* .

وزين المثالون التسكانيون هياكل رومة وقصورها بالتماثيل البرنزية وبالصور المجسمة على الآجر والحفورة فيه . وخلف مهندسو البناء التسكانيون في رومة « طرازاً تسكانياً » لا يزال حتى اليوم باقياً في كنيسة القديس بطرس . ولعل ملوك رومة التسكانيين هم الذين شادوا أولى العمارات الكبيرة وحولوها من طائفة من الأكواخ الطينية أو العشش الخشبية إلى مدينة مشيدة من الخشب والآجر والحجارة . ولم تشهد رومة مثل ما شهدته من المباني في عهد التسكانيين إلا في عهد قيصر .

ولكن يلغى لنا ألا نغلو في هذا الوصف ؛ فهما يبلغ ما أخذته رومة
عن جيرانها من الكثرة فقد ظلت في جميع مظاهر الحياة الأساسية محتفظة
بطابعها الخاص ؛ فليس في التاريخ التسكاني ما يوحى بمميزات الخلق الرومانى ،
وهى التأديب الذاتى وما فيه من جد ، ووقار ، والقسوة ، والجرأة ،
والوطنية ، والإخلاص ، والصفقتان الأخيرتان هما اللتان استطاع بهما
الرومان على طول الزمن أن يفتحوا بلاد البحر الأبيض المتوسط ، وأن
يحكموها فيما بعد ؛ فلما تحررت رومة من سيطرة التسكانيين انفسح
المجال أمامها لتمثيل تلك المسرحية الفذة مسرحية عظمة الوثنية ثم اضمحلها
في العالم القديم ؛

الكتاب الأول

الجمهورية

٥٠٨ - ٣٠ ق. م

جدول تاريخي

ق . ٢

- ٨١٣ - تأسيس قرطاجنة .
- ٥٥٨ وما بعدها - قرطاجنة تستولى على غرب صقلية ومردانيا وقورسقة الخ .
- ٥٠٩ - تأسيس الجمهورية الرومانية .
- ٥٠٨ - حروبها مع التسكانيين ؛ هوراشيوس ككليز .
- ٥٠٠ - هانو يرتاد ساحل إفريقية الغربى .
- ٤٩٤ - انشقاق العامة الأول ، إنشاء منصب التربيون (*) .
- ٤٩٢ - كوريولانس .
- ٤٨٥ - الحكم على اسبريوس كاسيوس .
- ٤٥٨ - ٤٣٩ - منشتامس يعين دكتاتوراً (حاكماً بأمره) .
- ٤٥١ - لجنة المشرة الأولى .
- ٤٥٠ - الجداول الاثني عشر .
- ٤٤٩ - الانشقاق الثانى للعامة .
- ٤٤٥ - شريمة كانيوليا فى الزواج .
- ٤٤٣ - إنشاء نظام الرقابة .
- ٤٣٢ - القانون الأول لمنع تزيف الانتخابات .
- ٣٩٦ - الرومان يستولون على فياي .
- ٣٩٠ - الغالة يتهيمون رومة .
- ٣٦٧ - قانون ليكنيا يخلف قانون الدين .
- ٣٤٣ - ٣٤١ - الحرب السمنية الأولى .
- ٣٤٠ - ٣٣٨ - حرب اللاتين ؛ وانحلال الحلف اللاتينى .
- ٣٣٩ - قانون بيليا يقضى على حق مجلس الشيوخ فى الرفض .
- ٣٢٧ - ٣٠٤ - الحرب السمنية الثانية .
- ٣٢٦ - قانون پاليتيا يخفف قانون الدين .
- ٣٢١ - هزيمة الرومان فى مشاب كودين .

(*) آثرنا إبقاء الأسماء الرومانية لهذه المناصب كما هي ، لأن كل ترجمة لها لا تدل على حقيقةها ، ولعل لفظ أطربون الذى جاء فى بعض أشعار العرب هو تعريب لفظ تربيون .
(المترجم)

ق . م

- ٣٠٥ — قانون فاليريا وحق استئناف الأحكام ؛ قانون أوغليا وحق الانتخاب لوظائف الكهنة .
- ٢٩٨ - ٢٩٠ الحرب السمنية الثالثة .
- ٢٨٧ — انشقاق العامة الأخيرة ؛ قانون هورتنسيا وسلطان الجسمية .
- ٢٨٣ — روما تحتل معظم أجزاء إيطاليا اليونانية .
- ٢٨٠ - ٢٧٥ بروس في إيطاليا وصقلية .
- ٢٨٠ - ٢٧٩ انتصارات بروس في هرقليا وأسكيولم .
- ٢٧٣ — رومة تستولى على تارنم .
- ٢٦٤ - ٢٤١ الحرب البونية الأولى .
- ٢٤٨ — هملكار يفرق صقلية .
- ٢٤٦ — هزيمة الأسطول القرطاجي قرب جزائر إيجاديا ، صقلية ولاية رومانية .
- ٢٤٦ - ٢٣٦ حرب الجنود المرتزقة على قرطاجنة .
- ٢٣٦ — مسرحية ليفيوس أندرونكس **Levius Andronicus** الأول .
- ٢٣٩ — قرطاجنة تسلم مردانية وقورسقة إلى رومة .
- ٢٣٧ — هملكار في أسبانيا .
- ٢٣٥ — مسرحية نايبيوش **Naevius** الأول .
- ٢٣٠ — محاربة قرصان إلىيريا **Illyris** .
- ٢٢٢ — رومة تستولى على غالة الجنوبية .
- ٢٢١ — هانيبال يتولى القيادة في أسبانيا .
- ٢١٩ - ٢٠١ الحرب البونية الثانية .
- ٢١٨ — هانيبال يعبر جبال الألب ويهزم الرومان في واتمق تيسين **Ticeinus** وتربيا **Trebia** .
- ٢١٧ — هانيبال يهزم الرومان عند بحيرة تيزميني **Trsimene** ؛ فابيوس مكسيم **Fabius Maximus** يصبح دكتاتورا .
- ٢١٦ — انتصارات هانيبال عند كانى **Canus** .
- ٢١٥ — معاهدة هانيبال وفليب الخامس .
- ٢١٤ — فلوتس **Plautus** .
- ٢١٤ - ٢٠٥ الحرب المقدونية الأولى .
- ٢١٣ — الرومان يستولون على مرقوسة .
- ٢١٠ - ٢٠٩ شهر أفرودكانس الأكبر في أسبانيا .

ق . م	
٢٠٧ -	هزيمة هزدروبال في موقعة متورس .
٢٠٣ -	استنحاء هانيبال إلى إفريقية .
٢٠٣ -	سهيو يهزم هانيبال في اقامة زاما Zama ؛ كونتس فابيوس بكتور يلحق تاريخ رومة الأول .
٢٠١ -	أسبانيا وولاية رومانية .
١٩٧ - ٢٠٥	الحرب المقدونية الثانية .
١٩٩ -	إنيس Inuius .
١٨٩ -	واقعة-مجنيزيا Magnesia .
١٨٦ -	تحریم عبادة باكس Bachus
١٨٤ -	كانو الأكبر يتولى الرقابة .
١٧١ - ١٦٨	الحرب المقدونية الثالثة .
١٦٨ -	واقعة پدنا Pydna .
١٦٧ -	پوليبيوس في رومة .
١٦٠ -	الأدلى الترني Teh Adelphi of Terance .
١٥٥ -	كريندس يحاضر في رومة .
١٥٥ - ١٣٨	الحرب على اللوزيتانين .
١٥٠ - ١٤٦	الحرب البونية الثالثة .
١٤١ - ١٤٠	انتصارات فريانس على الرومان في أسبانيا .
١٤٦ -	سهيو أفريكانس الأصغر يدمر قرطاجنة ؛ موميوس Mummius
	كورنثة Corinth ؛ امتداد الحكم الروماني إلى شمال إفريقية بلاد اليونان .

الباب الثاني

الكفاح في سبيل الديمقراطية

٥٠٨ - ٢٦٤ ق م

الفضل للأقل

الأشراف والعامة

ترى أى الرومان كانوا هم الأشراف *Patricians* ؟ يرى ليبي^(١) أن رمبولوس اختار مائة من رؤساء العشائر في قبيلته ليعينه على تشييد رومة وليكون منهم مجلس شيوخه . وقد سمي كل واحد من هؤلاء الرجال فيما بعد *پاتر* أى « الأب » وسمى أبنائهم وأحفادهم *پاتريشي* - أى « المنحدرين من الآباء » . أما النظرية الحديثة التي تستمد حياتها من تجريخ التقاليد الماثورة ، فيحلوها أن تفسر وجود هؤلاء الأشراف بأنهم غزاة غرباء لعلمهم سينيون *Sabines* غزوا لاتيوم *Latium* وحكموا العامة (*Plebs*) اللاتين بعد هذا الغزو ووضعهم في منزلة دون منزلتهم هم ، ولنا أن نعتقد أنهم كانوا يتألفون من عشائر تملكوا خير الأراضي بفضل تفوقهم الاقتصادي أو الحربي ، ثم حولوا زعامتهم الزراعية إلى سيطرة سياسية ، وقد ظلت هذه العشائر المنتصرة - المنلى *Manlii* ، والفابري *Valerii* ، والإميلي *Aemaelii* ، والكرنيلي *Dornellii* ، والفابي *Fabii* ، والموراشي *Horatii* والكلودي *Claudii* والليولي *Lullii* الخ - خمسة قرون كاملة تمد رومة بالقواد العسكريين والقناصل ، والقوانين . ولما انضمت القبائل الثلاث الأولى بعضها إلى

بعض تكون من رؤساء عشائرها مجلس للشيوخ يتألف من ثمانمائة من الأعضاء . ولم يكن هؤلاء الأعضاء رجال نعيم وترف كما كان خلفاؤهم فيما بعد ، فكثيراً ما كانوا يمسكون بأيديهم الفأس والمحراث ، ويعيشون على أبسط الطعام ، ويرتدون أثواباً من غزل بيوتهم ، وكان العامة يحبونهم حتى وقت كفاحهم . ويصفون كل ما يتصل بهم تقريباً بأنه « من الطراز الأول أو الطبقة الأولى (Classicus) » (٢) .

وكان يدانهم في الثراء ، وينقص عنهم نقصاً كثيراً في السلطة السياسية رجال الأعمال equites . ومن هؤلاء من بلغوا من الثراء رتبة أمكنتهم من أن يشقوا طريقهم إلى مجلس الشيوخ ، ويكونوا فيه القسم الثاني من الرجال « الأشراف والمسجلين معهم » . وكان يطلق على هاتين الطبقتين اسم « الرتبين » ويلقبون « بالصالحين » Boni ، وذلك لأن الحضارات القديمة كانت تقرن الفضيلة بالمرتبة والكفاية والسلطان ، وكان معنى الفضيلة Virtus عند الرومان هو الرجولة أى الصفات التى يتكون من مجموعها الرجل vir . ولم تكن كلمة Populus « الناس » تشمل غير هاتين الطبقتين العاليتين ، وكان هذا هو المعنى الذى يفهم في بداية الأمر من هذه الحروف الأربعة S P Q R (Senatus Populusque Romanus) أى كانت تنقش في زهو وخيلاء على عشرات الآلاف من الآثار (٣) لما شقت الديمقراطية طريقها في رومة تغير معنى كلمة Populus تدريجياً حتى شملت عامة الشعب أيضاً .

وكانت الكتلة الغالبة من المواطنين الرومان تتكون من هذه الطبقة ، وكان منها الصناع والتجار ، ومنها الأرقاء المحررون وكثير منها فلاحون ، ولعلمهم كانوا في بداية أمرهم أهل تلال المدينة الذين غلبوا على أمرهم ، وكان منهم من يتصل بوصفه مولى Clintes أو تابعاً بشريف Patronus

من طبقات عليا ، وكان هؤلاء الأتباع يساعدون الشريف في وقت السلم ويعملون تحت إمرته في وقت الحرب ، ويقترعون في الجمعية كما يأمرهم أن يقترعوا وذلك في نظير حمايته لإياهم وما يمنحهم من الأرض الزراعية .

وكان من الأرقاء أدنى الطبقات ، وكانوا في عهد الملوك قليلي العدد كثيرى الأكلاف ، ولذلك كان سادتهم يحسنون معاملاتهم ويعدونهم أعضاء قوى نفع كبير في أسرهم . فلما كان القرن السادس قبل الميلاد ، وبدأت رومة حياة الغزو والفتح ، بيع عسدد من أسرى الحرب مطرد الزيادة إلى الأشراف ورجال الأعمال وإلى العامة أنفسهم ، وانحطت منزلة الرقيق . وكانت القوانين تبيع معاملة العبد كما يعامل الإنسان متاعه ، ذلك أنه من الوجهة النظرية ، وطبقاً لعادات للقدماء ، قد فقد حقه في الحياة حين وقع في الأسر ، وإن استعباده لم يكن إلا رحمة به وتخفيفاً لحكم الموت الذي استحقه بهزيمته . وكان يعهد إليه في بعض الأحيان أن يدير أملاك سيده وأعماله التجارية وتصريف أمواله ، وكثيراً ما كان يصبح معلماً أو كاتباً أو ممثلاً أو صانعاً أو عاملاً أو تاجراً أو فناناً ، ويؤدى إلى سيده بعض ما يحصل عليه من أجر عمله ، وكان في وسعه بهذه الطريقة وبغيرها من الطرق أن يحصل من المال على ما يكفيه لشراء حريته ، ومن ثم يصبح عضواً في جماعة العامة .

ولم تكن طبقات كثيرة من الأهلين راضية عن حالها قانعة بمحظها ، ذلك أن القناعة من الصفات النادرة بين بني الإنسان يقلد ما هي طبيعية بين الحيوان ، ولم تستطع حكومة من الحكومات أن ترضى جميع رعاياها . وفي رومة كان رجال الأعمال يألمون لحرمانهم من عضوية مجلس الشيوخ ، والأثرياء من العامة يألمون لحرمانهم من أن تكون لهم حقوق رجال الأعمال ، والفقراء يألمون لفقرهم وحرمانهم من الحقوق السياسية وتعرضهم للاسترقاق إذا عجزوا عن الوفاء بما عليهم من الديون . وكانت قوانين الجمهورية في عهدها الأول تبيع للدائن أن

يسجن المدين الذى يتكرر عجزه عن الوفاء بدينه فى سجن انفرادى ، وأن يبيعه بيع الرقيق بل أن يقتله . وقد جاء فى القانون أن فى وسع الدائنين لشخص ما مجتمعين أن يقطعوا جسد المدين العاجز عن الوفاء ويقسموه فيما بينهم - وهو إجراء يلوح أنه لم ينفذ قط^(٤) . وطلب العامة أن تلغى هذه القوانين ، وأن يخفف عنهم عبء ما تراكم عليهم من الديون ، وأن توزع الأرض التى تنال بالحرب وتملكها الدولة على الفقراء بدل أن توهب للأغنياء أو تباع لهم بأثمان اسمية ؛ وأن يكون من حق العامة أن يختاروا حكاماً وكهنة ، وأن يتزوجوا من الأشراف ورجال الأعمال ، وأن يكون لهم ممثل من طبقتهم فى أعلى الوظائف الحكومية . وحاول مجلس الشيوخ أن يقف هذه الحركة بإثارة الحروب الخارجية ، ولكنه دهش إذ رأى أن الدعوة إلى حمل السلاح لم يستجب لها أحد . وفى عام ٤٩٤ ق . م « انشق » عليهم عدد كبير من العامة ونزحوا إلى الجبل المقدس على نهر أنيو Anio على مسيرة نحو ثلاثة أميال من المدينة ، وأعلنوا أنهم لن يعملوا أو يحاربوا من أجل رومة حتى تجاب مطالبهم . ولبأ مجلس الشيوخ إلى جميع الحيل السياسية أو الدينية لإغراء العامة بالرجوع إلى رومة ، ولكن هؤلاء أصروا على مطالبهم ؛ فلما خشى أن تقع البلاد فى القرب بين نارى الغزو الخارجى والشقاق الداخلى وافق على إلغاء الديون أو تخفيفها ، وعلى تعيين تربيونين^(٥) وثلاثة إيديلين Aediles يختارون من بين العامة للدفاع عن مصالحهم . ورجع العامة إلى رومة ولكنهم أقسموا قبل رجوعهم بأخرج الأيمان أن يقتلوا كل رجل يعتدى على ممثلهم فى الحكومة^(٥) .

وكانت هذه هى المعركة الأولى فى حرب الطبقات التى لم تنته إلا بانتهاء عهد الجمهورية وبعد أن قضت عليها . وحدث فى عام ٤٨٦ أن اقترح القنصل

(*) التربيون محام عن العامة يختار من بينهم والإيديل موظف يشرف على المبادئ العامة

والألعاب والأسواق والشرطة .

أسيديوريوس كاسيوس *Spurius Cassius* أن توزع على الفقراء الأراضي التي استولت عليها رومة في الحرب ، فاتهمه الأشراف بأنه يتحجب إلى الشعب ليكون ملكاً على البلاد ، وقتلوه . والراجح أن هذا الاقتراح لم يكن أول الاقتراحات الزراعية الكثيرة التي لاقى أصحابها حتفهم على يد أعضاء مجلس الشيوخ ، والتي انتهت بمأساة ابنى جراسكس *Gracchi* وقيصراً ، وفي عام ٤٣٩ وزع أسيديوريوس ميليوس *Spurius Maelius* قمحاً على الفقراء بأثمان مخفضة أو بغير ثمن في أثناء قحط أصاب رومة ، فما كان من مجلس الشيوخ إلا أن بعث برسول اغتاله في منزله بتهمة أنه يعمل لينصب نفسه ملكاً^(٦) . وفي عام ٣٨٤ قتل ماركس مانليوس *Marcus Manlius* ، وكان قد صد الغزاة اليونان عن رومة ودافع عنها دفاع الأبطال ، بهذه الحجة نفسها ، وذلك بعد أن أنفق ماله في أداء ديون المدينة العاجزين عن الوفاء .

وكانت الخطوة التالية التي خطاها العامة في سبيل نيل حقوقهم أن طالبوا بأن تكون القوانين المدنية واضحة محددة مدونة . ذلك أن الكهنة والأشراف قد ظلوا حتى ذلك الوقت هم القائمين بتدوين القوانين المكتوبة وتفسيرها ، وكانوا يحتفظون بسجلاتها سرّاً لا يطلع عليه غيرهم من الأهليين ، ويتخلّصون من هذا الاحتكار ، وبما تتطلبه القوانين من مراسم ، أسلحة يقاومون بها كل دعوة إلى الإصلاح الاجتماعي . وعارض مجلس الشيوخ في هذه المطالب الجديدة معارضة طويلة ، ولكنه وافق في آخر الأمر (عام ٤٥٤) على أن يرسل إلى بلاد اليونان لجنة مؤلفة من ثلاثة من الأشراف لدراسة شرائع صولون *Solon* وغيره من المشرعين . وكتابة تقرير عنها . فلما عاد الأعضاء اختارت الجمعية (في عام ٤٥١) عشرة رجال - ديسفراي *Decemviri* - لوضع قانون جديد ، وخولتهم أعلى سلطة حكومية في رومة مدى سنتين . وكان رئيس هذه اللجنة رجلاً رجعيّاً قوى الشكيمة يدعى أبوس كلوديوس *Appius Claudius* ، وكانت نتيجة أعمالها

أن حركات قوانين رومة القديمة القائمة على العادة والعرف إلى الاثنى عشرة لوحة الدائمة الصيت ، وعرضت على الجمعية فوافقت عليها بعد أن عدلتها بعض التعديل ، وعرضتها في السوق العامة لمن يريد أن يقرأها - وكان قادراً على قراءتها . وكانت هذه الحادثة التي تبدو في ظاهر أمرها تافهة غير جديرة بالعناية من الحوادث الهامة البالغة الأثر في تاريخ رومة بوجه خاص وفي تاريخ العالم كله بوجه عام ؛ ذلك أنها كانت أول ما دون من ذلك الصرح القانوني العظيم الذي كان أهم ما قامت به رومة من الأعمال وما قدمته إلى الحضارة من هبات .

ولما انتهى العام الثاني من العامين اللذين تولت اللجنة فيهما السلطة العليا أبت أن تعيد الحكم إلى قنصل الأشراف وتربيون العامة ، وظلت تمارس السلطة العليا - وكانت سلطة أقل قيوداً من سلطة القنصل والتربيون وأكثر منها تحرراً من التبعات . وتروى قصة أخرى نرتاب في صحتها - ارتبابنا في قصة لكريشيا - إن أبيوس كلوديوس شغف حباً بفرجينيا الحسناء إحدى بنات العامة ، وعمل على أن تعد من الجوارى الرقيقات ليتمكن بذلك من الاستيلاء عليها لنفسه ، وغضب لذلك أبوها لوسيوس فرجينوس Lucius Virginus واحتج على هذا العمل ، ولما أبى كلوديوس أن يصغى إلى احتجاجه قتل الرجل ابنته ، وهرول إلى فرقته واستعانها على خلع الطاغية الحديد . « وانسحب » العامة الغاضبون مرة أخرى إلى الجبل المقدس ، ونهجوا كما يقول ليفي « نهج آبائهم وحلوا حذوهم في اعتداهم ، فامتنعوا عن كل عنف » (٧) . وعلم الأشراف أن الجيش يناصر العامة ، فاجتمعوا في دار مجلس الشيوخ ، وخلعوا العشرة الحكام ، ونفوا كلوديوس ، وأعادوا نظام القنصلين وزادوا سلطان التربيونين ، واعترفوا بتحريم الاعتداء عليهما ، وأبدوا حق العامة في الالتجاء إلى مجلس المائة لاستئناف ما يصدره كبار الموظفين أيا كانت منزلتهم من أحكام (٨) . وبعد أربعة أعوام من ذلك الوقت (٤٤٥) عرض المحامي كيوس كنيوليوس Caius Canuleius اقتراحاً يطالب فيه

أن يكون للعامة حق الزواج من الأشراف ، وأن يختار منهم قناصل . ورأى مجلس الشيوخ أن البلاد مهددة مرة أخرى بأن يغزوها جيرانها ليثأروا لأنفسهم منها ، فأجابوا أول المطلبين وتخلصوا من المطلب الثاني بأن رضوا أن يكون ستة من التربيونين الذين تختارهم جمعية المئة سلطة القناصل . ورد العامة على هذا الجميل مثله فاختروا الستة *tribuni militum consulari Potestate* من بين طبقة الأشراف .

وضمنت الحزب الطويلة التي قامت بين رومة وقياي (٤٠٥ - ٣٩٦) ، وهجمات الغالين عليها ، صفوف الأمة إلى حين ، فهدأت ثائرة النزاع الداخلي ، ولكن النصر والهزيمة على السواء تركا العامة فقراء معدمين ، فقد أهملت أراضيهم أو انتزعت منهم وهم يدافعون عن بلادهم ، وتراكت عليهم فوائد الديون حتى لم يعد في وسعهم أن يوفوا بها . ولم يرجعهم الدائنون أو يصنعوا لشكاياتهم ، بل أصروا على طلب حقهم من رؤوس أموال وأرباح ، وإلا كان الإسرقاق والسجن جزاء المدينين . وفي عام ٣٧٦ اقترح التربيونان ليسنيوس Licinius وسكستيو Sextius أن تخفف أصول الديون بقدر ما وفي به من فوائدها ، وأن يؤدي الباقي بعدئذ في خلال ثلاث سنين ، وألا يحق للإنسان فيما بعد أن يمتلك أكثر من خمسمائة يجر *iugera* (نحو ثلثمائة فدان) من الأرض ، وألا يتجاوز العبيد الذين يعملون فيها نسبة معينة من العمال الأحرار ، وأن يختار أحد القنصلين من العامة على الدوام : وظل الأشراف يعارضون في هذه المطالب عشرين سنين ، وكانوا في أثناء ذلك على حد قول ديوكاسيوس *Dio Cassius* « يشيرون حرباً في إثر حرب حتى يشغلوا بذلك الشعب فلا يثير مطالبه الخاصة بامتلاك الأرض^(١) » . ولما تهدهدهم العامة آخر الأمر بانسحاب^(٢) جديد قبل

(١) كان عمل الرقيب في رومة هو حفظ السجلات المهنية على أملاك المواطنين وفرض الضرائب عليهم ومراقبة أخلاقهم . وكان منصب البريتور يمل منصب القنصل في المرتبة .

مجلس الشيوخ « قوانين ليسنيوس » وخلد كيايوس Camillus زعيم المحافظين هذا الاتفاق بين الطبقات بإنشاء هيكل وفاق فخم في السوق العامة .

وكانت هذه الخطوة من أكبر الخطى في نماء الديمقراطية الرومانية المقيدة ، وأخذ العامة من ذلك الوقت يتقدمون تقدماً سريعاً في سبيل المساواة بالطبقتين الممتازتين - طبقتي الأشراف ورجال الأعمال - في الشؤون السياسية والقانونية . ففي عام ٣٥٦ عين أحد العامة دكتاتوراً مدة عام ، وفي عام ٣٥١ كان منهم رقباء Censors ، وفي عام ٣٣٧ كان منهم البريتور Praetor ، وفي عام ٣٠٠ كان منهم كهنة . وكانت آخر هذه الخطوات أن وافق مجلس الشيوخ في عام ٢٨٧ على أن تكون لأحكام الجمعية القبلية The Tribal Assembly أيضاً قوة القانون ، وإن تعارضت هذه الأحكام مع قرارات مجلس الشيوخ وإذا كان من السهل على العامة في هذه الجمعية أن يتفوقوا على الأشراف عند الاقتراع فإن هذا القانون المعروف بقانون هورتنسيا Lex Hortensia كان خاتمة انتصار الديمقراطية الرومانية .

لكن مجلس الشيوخ لم يلبث أن استعاد سلطانه بعد هذه الهزائم فأسكت المطالبون بتوزيع الأراضي بإرسال الرومان لاستعمار البلاد المفتوحة . وكان ما يلزم من المال للحصول على المناصب الحكومية والبقاء فيها - وكانت هذه المناصب لا يؤجر عليها أصحابها - في حد ذاته حائلاً بين الفقراء وبين توليها . يضاف إلى هذا أن الأثرياء من العامة ، بعد أن أصبح لهم ما للأشراف من سلطان سياسي وفرص متكافئة ، لم يلبثوا أن انضموا إلى الأشراف في معارضة التشريعات المتطرفة ، واستكان الفقراء من العامة الذين أصبحوا لا موارد لهم فظلوا قرنين كاملين وليس لهم حظ كبير في تصريف شئون رومة . ووافق رجال الأعمال على سياسة الأشراف لأن اتفاقهم معهم يتيح لهم فرص التعاقد على القيام بالمشآت العامة ، ويفتح لهم أبواب استغلال الولايات ، والمستعمرات الرومانية ، وتكليفهم بحماية الضرائب للدولة . وظلت جمعية المئات ، التي كانت طريقة الاقتراع

فيها تمكن الأشراف من أن يكون لهم فيها السلاطان الأكبر ، هي التي تختار الحكام وكبار الموظفين ، وتختار تبعاً لذلك أعضاء مجلس الشيوخ . واتخذ الترييونون ، الذين كانوا يعتمدون على الأثرياء من العامة ، سلطان وظيفتهم للحد من التطرف ، وأصبح كل قنصل ، ولو كان ممن يختارهم العامة ، من أشد الناس محافظة على القديم ، حين يصير عضواً في مجلس الشيوخ مدى الحياة بعد أن تنتهي سنة توليه منصبه . وصار مجلس الشيوخ هو الذي يبدأ باقتراح القوانين ، وقوى العرف والعادات المأثورة من سلطانه فجعله فوق منطوق القانون . ولما ازدادت أهمية شئون الدولة الخارجية ، وكان مجلس الشيوخ هو الذي يتولى تصريفها ، كان حزمه مما زاد في مكانته وسلطته . ولما أن اشتبكت رومة في عام ٢٦٤ في حرب مع قرطاجنة دامت مائة عام للسيطرة على عالم البحر الأبيض المتوسط ، كان مجلس الشيوخ هو الذي تولى قيادة الأمة إلى النصر في كل مأزق من المآزق ، ولذلك خضع الشعب البائس المعرض للأخطار لسلطان هذا المجلس وزعامته دون احتجاج أو اعتراض .

الفصل الثاني

دستور الجمهورية

١ - المشرعونه

والآن فلنرسم لأنفسنا صورة من هذه الدولة المعقدة النظام بعد أن قضت خمسة قرون تنمو وتتطور . وقبل أن نفصل القول في نظامها نقول إن العالم كله مجمع على أن حكومتها كانت من أقدم ما شهدته من الحكومات ومن أعظمها نجاحاً ، بل إن بوليبيوس Pollibius كان يرى أنها تكاد أن تحقق تحقيقاً تاماً دستور أرسطوطاليس المثلث ، وقد رسمت هذه الحكومة الخطوط الرئيسية للتاريخ الروماني كما رسمت في بعض الأحيان ميادين القتال في هذا التاريخ .

نرى أى الأهليين في هذه الدولة هم الذين كان يحق لهم أن يسموا أنفسهم « مواطنين » ؟ . فأما من الوجهة الرسمية القانونية فقد كان المواطنون هم أبناء إحدى القبائل الثلاث الأصلية في رومة ، أو الذين تبنتهم إحدى هذه القبائل . وكان معنى هذا القول من الوجهة العملية أن المواطنين هم جميع الذكور الذين تزيد سنهم على الخامسة عشرة ، والذين لم يكونوا أرقاء أو غرباء ، مضافاً إليهم جميع الغرباء الذين منحتهم رومة حق المواطنة فيها . ولم يشهد العالم قبل رومة أو بعدها دولة من الدول حرصت مثل حرصها على حق المواطنة أو قدرته مثل تقديرها . لقد كان معنى هذا الحق أن يكون المستمتع به عضواً من أعضاء الجماعة الصغيرة التي لم تلبث إلا قليلاً حتى حكمت جميع البلاد المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط ، وكان هذا الحق يحصن صاحبه من التعذيب القانوني ، والتعرض للقصر والإرغام ، ويمكنه

من أن يشكو أى موظف فى الإمبراطورية إلى الجمعية البطينية فى رومة -
أو إلى الإمبراطور نفسه فيما بعد .

وكانت هذه الحقوق تستلزم بعض الواجبات ، فقد كان من حق الدولة
على المواطن — إلا إذا كان فقيراً معدماً — أن تدعوه إلى الخدمة العسكرية
من سن السادسة عشرة إلى سن الستين ، ولم يكن فى وسعه أن يشغل
منصباً سياسياً إلا إذا قضى فى الجيش عشر سنين . وكانت حقوقه السياسية
وثيقة الارتباط بواجباته العسكرية ، وبلغ من هذا الارتباط أنه كان يؤدى
حقه فى التصويت فى أهم الأمور بوصفه عضواً فى فرقته أو فى « مائه » ،
وكان فى عهد الملوك يعطى صوته أيضاً فى مجلس العشرة *Comitia Curiata*
أى أنه هو وغيره من زعماء الأسر قد اجتمعوا فى مجلس الأقسام الثلاثين
التي انقسمت إليها القبائل الثلاث . وقد ظل مجلس العشرة إلى آخر أيام
الجمهورية هو الذى يخلع سلطة الحكم على الحكام ، وبعد سقوط الملكية
بزم من قليل فقد مجلس العشرة سائر حقوقه الأخرى وآلت هذه الحقوق
إلى مجلس المئين — فكان الجند يجتمعون جماعات تتألف كل واحدة منها
فى بادئ الأمر من مائة جندي . وكانت هذه المجالس المثوية هى التي تختار
كبار الحكام ، وتنظر فى الإجراءات التي يعرضها عليها الموظفون أو مجلس
الشيوخ فتجيزها أو ترفضها ، وتنظر فيما يرفع إليها من استئناف الأحكام
التي يصدرها كبار الحكام ، وتنظر بنفسها فى جميع القضايا التي يحكم فيها
بالإعدام إذا كان المتهمون فيها مواطنين رومان ، وتعلن الحرب وتعقد
الصلح ، ومن ثم كانت هذه الجمعية هى الأساس العام للجيش الرومانى
والحكومة الرومانية . ولكن سلطانها مع ذلك كان محصوراً فى أضيق
الحدود ، فلم يكن من حقها أن تجتمع إلا إذا دعاها إلى الاجتماع قنصل
أو تريبون ، ولم يكن من حقها أن تقترح إلا على الأمور التي يعرضها عليها
كبار الحكام أو مجلس الشيوخ ، ولم يكن لها أن تناقش الاقتراحات
أو تعطلها ، وكل ما كان من حقها أن تقبلها أو ترفضها .

وكان تنظيم أعضائها على أساس الطبقات ضماناً قوياً لجعل قراراتها محافظة بعيدة عن التطرف . فكان على رأس هذه الجمعية ثمان عشرة مائة من الأشراف ورجال الأعمال (الطبقتين الممتازين) . ويلي هؤلاء رجال « الطبقة الأولى » — الذين لهم أملاك تبلغ قيمتها ١٠٠,٠٠٠ آس (٥) . وكان عدد ممثلي هذه الطبقات في الجمعية ثمانين مائة أى ثمانية آلاف رجل ، وكانت الطبقة الثانية تشمل المواطنين الذى تقدر أملاكهم بين ٧٥,٠٠٠ و ١٠٠,٠٠٠ آس ، والطبقة الثالثة تشمل من كان لهم ثروة تقدر بين ٥٠,٠٠٠ وكان لكل طبقة من هذه الطبقات عشرون مائة . وكانت الطبقة الخامسة تشمل المواطنين الذين يملكون بين ١١,٠٠٠ و ٢٥,٠٠٠ آس وكان هؤلاء ثلاثون مائة . أما المواطنون الذين تقل أملاكهم عن ١١,٠٠٠ آس فكانت تمثلهم مائة واحدة (١٠) ، وكان لكل مائة عند الاقتراع صوت واحد هو صوت أغلبية أعضائها ؛ وكان في وسع أغلبية قليلة في إحدى المئات أن تعطل قرار أغلبية كبرى في مائة أخرى وتجعل الفوز في جانب أقلية عددية . وإذا كانت كل مائة تقترح بترتيب مركزها المالى ، وكانت نتيجة اقتراعها تعلن عقب هذا الاقتراع ، فقد كان اتفاق الطائفتين الأوليين يجعل لهما ٩٨ صوتاً ، وهى أغلبية أصوات الجمعية كلها . ومن أجل هذا فإن الطبقات الدنيا قلما كانت تقترح قط . وكان نظام الاقتراع هو النظام المباشر أى أن المواطن كان يعطى صوته بنفسه ، ومن ثم فإن المواطنين الذين لم يكونوا يستطيعون القدوم إلى رومة ليحضروا اجتماع الجمعية لم يكن لهم من يمثلهم فيها . ولم يكن ذلك كله مجرد أساليب وحيل لحرمان الفلاحين والسوقة من حقوقهم السياسية ، فقد كان نظام المئات نظاماً وضع بعد إحصاء السكان ليقدر على أساسه ما يؤدونه من الضرائب ومن الخدمة العسكرية .

(٥) الآس عملة رومانية من النحاس كانت قوة شرائها في عام ١٩٤٢ تساوى نحو بليش من الريال الأمريكى . انظر الفصل السادس من الباب الرابع من هذا الكتاب .

وكان الرومان يرون العدل كل العدل أن يكون حتى الاقتراع للأهلين متناسبا مع ما يؤدونه من الضرائب وما يطلب إليهم أدائه من الخدمة العسكرية ، وعلى هذا الأساس لم يكن لمن يملكون أقل من مائة ألف آس إلا صوت مثنى واحد ، ولكنهم في نظير هذا لم يكونوا يؤدون إلا قدراً ضئيلاً لا يؤبه له من الضرائب ، وكانوا في الأوقات العادية معفين من الخدمة العسكرية (١) . وقد ظلت الطبقات الفقيرة إلى أيام ماريوس معفاة من كل شيء إلا من إنتاج أكبر عدد تستطيعه من الأبناء ، وظل مجلس المائة رغم ما أدخل على نظامه من التعديل فيما بعد هيئة أرستقراطية محافظة لا تستدرك أن تجهز بمبادئها .

وما من شك في أن هذه الحال قد جعلت العامة يقيمون لهم من بداية عهد الجمهورية مجالسهم الخاصة المعروفة بمجالس العامة *concilia plebis* . ولعل الجمعية المعروفة بمجلس قبائل الشعب *omitia populi tributa* التي نراها تمارس حقوقاً تشريعية منذ عام ٣٥٧ ق . م قد نشأت من هذه المجالس نفسها ، وكان المقترعون في هذه الجمعية الشعبية القبلية ينظمون حسب القبيلة التي ينتمون إليها والمسكن الذي يقيمون فيه على أساس الإحصاء الذي حدث في عهد سرفيوس سادس ملوك رومة ، وكان لكل قبيلة صوت واحد ، وكان الأغنياء فيها والفقراء سواء . وأخذت سلطة الجمعية القبلية تزداد بعد اعتراف مجلس الشيوخ بحقوقها التشريعية في عام ٢٨٧ ق . م ، وما وافى عام ٢٠٠ ق . م حتى كانت هي مصدر الشرائع الخاصة في رومة . وكانت هي التي تختار تريبونى الشعب *Tribuni Plebis* (الذين يمثلون القبائل) وهم غير التربيونين العسكريين *Tribuni militares* الذين كانت تختارهم المئات . على أنه في هذه الجمعية نفسها لم يكن الأعضاء يتناقشون . فقد كان أحد كبار الموظفين يقترح قانوناً ويدافع عنه ، ثم يقوم موظف كبير غيره يعارضه إذا شاء ، وتستمع الجمعية لهذا وذاك ثم تقترح عليه بالقبول

أو الرفض وكانت هذه الجمعية بحكم تكوينها ذات نزعة تقدمية أكثر من الجمعية الثورية ، ولكنها كانت أبعد ما تكون عن التطرف ؛ وذلك أن إحدى ثلاثين قبيلة من قبائلها الخمس والثلاثين كانت قبائل ريفية ، وكان معظم أعضائها من ملاك الأراضي ، فكانوا لذلك رجالا حذرين ، ولم يكن لمن فيها من عامة الحواضر ، ولم يكونوا يتجاوزون أربع قبائل ، وشيء من السلطة السياسية قبل زمن ماريوس Marius أو بعد قيصر .

وهكذا ظل مجلس الشيوخ صاحب السلطان الأعلى في رومة . وكان أعضاؤه الأولون وهم رؤساء العشائر يحددون بقبول القناصل والرقباء (Censors) السابقين أعضاء فيه . وكان يعهد إلى الرقباء أن يعملوا حتى يظل أعضاؤه ثلثمائة عضو على الدوام ، وذلك بأن يرشحوا لعضويته رجالا من طبقة الأعيان أو الفرسان . وكانت العضوية فيه تدوم مدى الحياة ؛ ولكن كان من حق مجلس الشيوخ ومن حق الرقيب أن يفصل أى عضو يضبط متلبساً بجناية أو بجرمة خلقية خطيرة . وكان هذا المجلس الأعلى يجتمع إذا دعاه إلى الاجتماع أحد كبار الحكام في الكوريا Curia أو بناء المجلس المواجه للسوق العامة . وكان من العادات اللطيفة أن يأتي الأعضاء معهم بأبنائهم ليحضرُوا الاجتماع وهم صامتون ، ليتعلموا السياسة والمحاكمة عن قرب . وكان حق المجلس من الوجهة النظرية مقصورا على مناقشة ما يعرضه عليه أحد كبار الحكام من المسائل وإصدار قرار فيها ، وكانت قراراته في هذه المسائل استشارية محضة *senatus consulta* ليس لها قوة القانون ؛ ولكن المجلس كان له من عظم المكانة ما جعل الحكام يعملون بتوصياته في جميع الحالات تقريباً ، وقلما كانوا يعرضون على غيره من الجمعيات مسائل لم يقرها هو من قبل ، على أنه كان من حق أى تربيون أن ينقض قرارات المجلس كما كان من حق الأقلية المنهزمة في المجلس أن تستأنف القرار إلى الجمعيات الأخرى (١٢) . ولكن هذه الإجراءات كانت نادرة الحدوث إلا في أيام الثورات والانقلابات .

ولم يكن كبار الحكام يبقون في مناصبهم أكثر من عام واحد في حين أن الشيوخ كانوا يحتفظون بعضوية المجلس مدى الحياة . ولم يكن ثمة مفر من أن يكون صاحب هذا السلطان الخالد المسيطر على صاحب السلطان القصير الأجل . ولهذا كانت الصلات الخارجية ، وعقد المحالفات والمعاهدات ، وإعلان الحرب ، وحكم المستعمرات والولايات ، وإدارة الأراضي العامة وتوزيعها بين الأهليين ، والإشراف على أموال الخزانة العامة وإنفاقها — كانت هذه الشئون كلها يختص بها مجلس الشيوخ وحده ، وقد أكسبه انفرادها بها سلطة لا تكاد تعرف لها حدود . فكان هذا المجلس صاحب السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية مجتمعة ، وكان هو الحكم الفصل في الجرائم الكبرى كجريمة الخيانة الوطنية ، والتآمر والاغتيال ، وكان يختار من بين أعضائه قضاة للنظر في معظم القضايا المدنية الهامة ، وكان في وسعه إذا حدثت أزمة من الأزمات أن يصدر أعظم قراراته وأقواها وهو *sensatus-consultum ultimum* وهو « أن من واجب القنصلين أن يعملوا على ألا تصاب الدولة بأذى » وهو قرار يفرض الأحكام العرفية ويمنح القنصلين سلطة مطلقة على جميع الأفراد وعلى كل الأملاك .

وكثيراً ما كان مجلس الشيوخ في عهد الجمهورية يسمى استعمال سلطانه ، فكان يحمي الموظفين المرتشين(*) ، ويعلم الحرب بلا تدبر وتفكير ، ويستغل البلاد المفتوحة استغلالاً شرها ، ويقمع بالقسوة رغبة الشعب في أن يشترك بنصيب أوفر مما كان له في رخاء رومة . ولكن تاريخ العالم لم يشهد في غير رومة وفي غير عهد الجمهورية — إذا استثنينا من هذا التعميم عهد الأباطرة من ترجان Trajan إلى أورليوس Aurilius — ما شهدته في هذا العهد من نشاط وحكمة ومهارة في

(*) لقد كان الرومان يطلقون اللفظ اللاتيني المقابل لانظ جمهورية *Respublica* ومعناه الملك العام على أشكال دولتهم الثلاثة — الملكية و « الديمقراطية » ، والإمارة ؛ ولكن المؤرخين في هذه الأيام قد اتفقوا على أن لا يطلقوا هذا اللفظ إلا على الفترة المحصورة بين عامي ٥٠٨ ، ٤٩٤ ق . م .

تصرف الشؤون السياسية ، كما لم يشهد في غير ذلك العهد ما شهد فيه من
سيطرة فكرة خدمة الدولة على جميع أعمال الحكومة وأعمال الشعب
ولسنا ننكر أن الشيوخ لم يكونوا ملائكة معصومين من الزلل ، وأنهم
كانوا يرتكبون أخطاء خطيرة ، وأنهم كانوا في بعض الأحيان متقلبين
لا يثبتون على سياسة واحدة ، يعمهم حب الكسب عن رؤية مصالح
الدولة . ولكن الذي لا شك فيه أن معظم أعضاء هذا المجلس كانوا من
كبار الحكام ، والمديرين والقواد العسكريين ، وكان منهم الولاة الذين
حكموا ولايات لا تقل سعة عن الممالك ، ومنهم أبناء أسر ظلت مئات
الأعوام تنجب لرومة ساسة وقواداً . ولهذا كان من المستحيل ألا يخاو
مجلس فيه رجال من هذا الطراز من قسط غير قليل من السمو والعظمة ،
وكان مجلس الشيوخ في أسوأ حالاته في أيام الانتصار وفي أحسنها أيام
الهزيمة . وكان في وسعه أن يسير على سياسة واحدة مدى آجال وقرون
كثيرة ، كما كان في مقدوره أن يبدأ حرباً في عام ٢٦٤ ق . م لا تضع
أوزارها إلا في عام ١٤٦ ق . م . وحسبنا دليلاً على عظمته أنه لما جاء
الفيلسوف سينيئاس Cineas إلى رومة موفداً من قبل پيرس Pyrrhus
(عام ٢٨٠ ق . م) وسمع مناقشات المجلس ورأى رجاله ثم عاد إلى
بلادده ، قال للإسكندر الجديدي إن الذي رآه لم يكن مجرد اجتماع من ساسة
مأجورين ولم يكن مجلساً من عقول عادية جمعها المصادفات المحضة ، بل كان
في مهابته وحسن سياسته « مجعاً للملوك بحق » (١٣) .

٢ - النظام

وكان كبار الحكام تختارهم الجمعية المشوية ، أما صغارهم فكانت تختارهم
الجمعية القبلية . وكان يعين في كل منصب زميلان متساويان في السلطة ، ولا
يقينان فيه أكثر من عام واحد ما عدا منصب الرقيب . ولم يكن يجوز لشخص ما
أن يتولى المنصب نفسه أكثر من مرة واحدة كل عشر سنين ، وكان لا بد

أن يمضى عام بغير خروجه من منصب وتولية منصباً آخر ، وكان من حق الدولة أن تحاكمه في فترة تعطله إذا أساء استعمال سلطة وظيفته . وكان الروماني الذي يريد أن يشق لنفسه طريقاً في الحياة السياسية ، إذا كان قد قضى في الجيش عشر سنين ، يرشح نفسه لأن يختار محاسباً (*Quaestor*) ينظر تحت إشراف مجلس الشيوخ والقنصلين في نفقات الدولة ، ويعاون المقدمين *praetors* في منع الجرائم ومحاكمة المجرمين ، فلذا نال رضا الناخبين أو ذوى النفوذ من مؤيديه فقد يختار فيما بعد واحداً من الأربعة الإيدليين الذين كانوا يشرفون على المباني العامة وقنوات مياه الشرب ، وشوارع المدن ، والأسواق ، والمسارح ، والمواخير ، والأبهاء العامة ، ومحاكم الشرطة ، والألعاب العامة . وإذا اطرده بعدئذ نجاحه فقد يكون واحداً من الأربعة المقدمين الذين كانوا يتولون في الحرب قيادة الجيوش ويشغلون في السلم مناصب القضاة وشرائح القانون(*) .

فلذا وصل المواطن إلى هذه الدرجة في سلم الوظائف *cursus honorum* واشتهر بالأمانة وأصالة الرأي كان في وسعه أن يكون أحد الرقيين *censors* اللذين تختارهما الجمعية المثوية كل خمس سنين ، ويتولى أحدهما الإحصاء الدّوري للسكان ، وهو الإحصاء الذي كان يُعمل كل خمس سنين ، ويسجل أملاكهم ليقدر بذلك مكانتهم السياسية والعسكرية ، وما يجب أن يؤدوه من الضرائب . وكان من واجبات الرقيب أن يتعرف أخلاق كل طالب منصب ، ويفحص عن سجل أعماله ، ويعمل على صيانة أعراض النساء ، ويشرف على تعليم الأطفال ومعاملة الأرقاء وجباية الضرائب أو التزامها ، وإقامة المباني العامة ، وتأجير أملاك

(*) والكلمة اللاتينية المقابلة للمحاسبين *Quaestor* مشتقة من *Quaerere* ومعناها يؤدي أما الكلمة المقابلة للمفتشين *Aediles* فهي مشتقة من *Aedes* ومعناها البناء . أما *praetor* (المقدم) فأخوذة من *prae-ire* ومعناها يتقدم أو يقود ومن أجل ذلك كانت الفرقة العسكرية التي تتولى حراسته تسمى « حرس المقدم » *praetorian Guard*

الحكومة والتعاقد عليها ، والتأكد من العناية بزراعة الأرض . وكان في مقدور الرقيين أن ينقصا منزلة أى مواطن ، أو يخرجوا أى عضو من مجلس الشيوخ لسوء أخلاقه أو لارتكابه جريمة . ولم يكن فى وسع أى الرقيين أن يلغى حق الرقيب الآخر فى هذه الناحية . وكان فى وسعهما أن يمنعا الإسراف بفرض ضرائب على الكماليات . وكانا يعدان ميزانية نفقات الدولة على أساس مشروعات تمتد إلى خمس سنوات ، وكانا عند انتهاء الفترة التى يتوليان فيها منصبهما ، ومدتها ثمانية عشر شهراً ، يجمعان المواطنين فى احتفال مهيب يدعى احتفال التطهير القومى *Lustrum* يتخذانه وسيلة للاحتفاظ بالعلاقات الودية بينهم وبين الآلهة . وكان أبوس كلودبوس كيكس *Appius Claudius Caecus* (الأعمى) ابن حفيد أحد الرجال العشرة أول من جعل لمنصب الرقيب منزلة لا تقل عن منزلة القنصل ، وهو الذى شاد إبان توليه هذا المنصب الحجرى المائى والطريقين المعروفين بمجرى أبوس وطريقه ، ورقى الأغنياء من العامة أعضاء فى مجلس الشيوخ ، وأصلح القوانين الزراعية ومالية الدولة ، وعمل على إضعاف ما كان يتمتع به الكهنة والأعيان من احتكار حق وضع القوانين وتصريف الشئون القضائية ، وترك له أثراً خالداً فى النحو والشعر الرومانيين والبلاغة الرومانية ، ووجه الرومان إلى فتح جميع إيطاليا بخطابه الذى ألقاه وهو على فراش الموت ،

ولقد كان المفروض من الوجهة النظرية أن يكون أحد القنصلين من العامة . أما من الوجهة العملية فإنه لم يهتر من العامة إلا عدد قليل جداً من القناصل ، وذلك لأنهم كانوا يؤثرون على أنفسهم رجالاً أوتوا حظاً موفوراً من التعليم والمران لمعالجة كل الشئون التنفيذية فى جميع البلاد المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط فى حالتى الحرب والسلم . وكان الموظف الكبير الذى يشرف على اختيار القنصل - إذا ما حان موحد الاختيار - يرقب النجوم لمعرفة من من المرشحين الكثيرين يحسن أن يعرض اسمه

ليختار لهذا المنصب ، فإذا عرف هذا رأس اجتماع الجمعية المثوية في اليوم التالي ، ولم يعرض عليها إلا أسماء الذين تبين من نظرته في النجوم أنهم صالحو^(١٤) . وبهذه الطريقة كان الأعيان يحولون بين الحديثي النعمة والزعماء المهرجين وبين تسم هذا المنصب الرفيع ، وكانت الجمعية في معظم الحالات تلتزم هذا الخداع الصالح حتى لا تقع في الزلل ، أو لأنها ، لا تجرؤ على مخالفة الأوامر الصادرة إليها . وكان المرشح يحضر الاجتماع بنفسه مرتدياً ثوب الترشيح ، وهو ثوب أبيض بسيط ، علامة على بساطة حياته وخلقه ، ولعله كان يختار ليسهل على المرشح أن يظهر للأعضاء ندب الجروح التي أصيب بها في ميادين القتال . فإذا نجح تولى منصبه في اليوم الخامس عشر من شهر مارس التالي ليوم الانتخاب . وكان القنصل يخلع القداسة على منصبه بتوليده رئاسة الطقوس الدينية الخطيرة . وكان في وقت السلم يدعو مجلس الشيوخ والجمعية المثوية إلى الانعقاد ، ويرأس جلساتها ، ويقترح القوانين وينفذها ، ويوزع العدالة بين الناس . وكان في أوقات الحرب يجيش الجيوش ، ويجمع ما يلزمها من الأموال ، ويشترك مع زميله القنصل الثاني في قيادة الفيلق العسكرية ، فإذا مات القنصلان كلاهما أو وقعا في الأسر أثناء السنة التي يتوليان فيها عملهما أعلن مجلس الشيوخ قيام فترة خلو المنصبين Interregnum ، وعين من يتولى تصريف الأمور Interrex (ملك فترة) مدة خمسة أيام تتخذ العدة في أثنائها لانتخاب جديد . ويدل هذا اللفظ الأخير على أن القنصلين قد ورثا في مدة عملهما القصيرة سلطات الملوك .

وكانت سلطة القنصل تحدها سلطة زميله القنصل الثاني المساوية لسلطته ، وما يفرضه عليه مجلس الشيوخ ، وبما كان للتربيون من حق الاعتراض على قراراته . وقد اختير في عام ٣٦٧ ق . م أربعة عشر تربيوناً عسكرياً لقيادة القبائل في الحرب وعشرة « تربيونين من العامة » يمثلونهم في أوقات السلم . وكان هؤلاء جميعاً يعدون أشخاصاً محضين إذا منهم أحد بسوء إلا في عهد الدكتاتورية القانونية حد ذلك خروجاً على الدين . وجرمة يعاقب مرتكبها

بالإعدام . وكان عملهم أن يحموا الشعب من عدوان الحكومة ، وأن يقفوا بكلمة واحدة منهم هي كلمة فيتو Veto ومعناها « أحترم » كل دولاب الحكومة إذا بدا لأحدهم أن هذا التحريم مرغوب فيه . وكان من حق التريون أن يحضر اجتماع مجلس الشيوخ بوصفه مشاهداً صامتاً ، وأن ينقل للشعب ما يدور فيه من النقاش ، وأن يجرد بما له من حق الاعتراض قرارات المجلس من كل ما لها من قوة قانونية . وكان باب بيته المحصن يظل مفتوحاً ليلاً ونهاراً يلجأ إليه كل مواطن يطلب إليه المعونة أو الحماية . وهذا الحق - حق الحماية أو القداسة - شبيه بحق الحصانة habeas coapus الذى يمنحه القانون الإنجليزى لسكان إنجلترا فى هذه الأيام . وكان فى وسعه وهو جالس على دكتته أن يصدر أحكاماً قضائية لا معقب لها ، ولا تستأنف إلا بالجمعية القبائل . وكان من واجبه أن يضمن لكل متهم محاكمة عادلة ، وأن يحصل على عفو للمحكوم عليه إذا كان ذلك فى استطاعته .

نرى كيف استطاع الأشراف أن يحتفظوا بسلطانهم وتفوقهم على العامة رغم هذه القيود التى فرضت عليهم ؟ لقد كان أول أسباب هذا الاحتفاظ أن القيود المفروضة عليهم كانت مقصورة على مدينة رومة نفسها وعلى أوقات السلم وحدها ، أما فى زمن الحرب فقد كان التريونون خاضعين للقناصل . والسبب الثانى أن الأشراف كانوا يحملون الجمعية القبلية على اختيار التريونين من بين أغنياء العامة ، وكان ما للثروة فى رومة من منزلة ، وما بصحب الفقر من ضعة ، يغريان الفقراء باختيار الأغنياء لحمايتهم والدفاع عنهم . وثالث الأسباب أن زيادة عدد التريونين من أربعة إلى عشرة قد جعل فى مقدور الواحد منهم ، إن أمكن إغراؤه بالمال أو استمع لصوت العقل ، أن يلقى بما له من حق الاعتراض إقرار التريونين الباقين^(١٥) . وقد سلس قيادهم على مر الزمن حتى أصبح فى الإمكان أن تعهد إليهم دعوة مجلس الشيوخ إلى الاجتماع وأن يسمح لهم بالاشتراك فى

مناقشاته ، وأن يصبحوا أعضاء فيه مدى الحياة بعد أن تنتهى مدة بقائهم فى مناصبهم .

وإذا لم تغلح هذه الوسائل كلها فى إضعاف سلطان التريون كانت هناك وسيلة أخرى لوقاية النظام الاجتماعى أعظم منها أثراً . ذلك أن الرومان كانوا يعتقدون أن جميع ما يتمتعون به من الحريات والامتيازات الاجتماعية ، وكل ما وضعوه لحماية أنفسهم من قيود وتوازن بين السلطات ، كانوا يعتقدون أن هذا كله قد يعوق فى إبان الاضطراب والخطر القومى ما يتطلبه إنقاذ الدولة وحمايتها من عمل سريع موحد . وكان من حق مجلس الشيوخ فى هذه الحال أن يعلن قيام حالة الطوارئ ، كما كان من حق كل من القنصلين أن يرشح حاكماً مطلقاً يتولى جميع السلطات . وقد اختير أولئك الحكام المطلقون فى جميع الحالات إلا حالة واحدة من طبقة الأشراف ، ولكن من واجبنا أن نقول إنصافاً لهذه الطبقة إنها قلما كانت تسمى استخدام هذا المنصب ، وكان للحاكم المطلق سلطة تكاد أن تكون غير محدودة على جميع الأشخاص والأملاك ، ولكنه لم يكن من حقه أن يستخدم الأموال العامة إلا بموافقة مجلس الشيوخ . وكانت مدة ولايته الحكم مقصورة على ستة أشهر أو سنة . وقد تقيسد الحكام المطلقون جميعهم ، ما عدا اثنين منهم ، بهذه القيود متبعين فى ذلك السنة الحسنة التى منها لم سنسناتس Cincinnatus كما تقول الرواية المأثورة ، فقد دعى هذا الرجل من وراء المهرات لينقذ الدولة (عام ٤٥٦ ق . م) ، فلما أدى مهمته عاد من فوره إلى مزرعته ولما أن خرج صلا Sulla وقصر على هذه السنة عاد الحكم الجمهورى إلى الملكية التى نشأ منها .

٣ — براءة القانون الرومانى

وكان كبار الحكام يهيمون على توزيع العدالة فى نطاق هذا الدستور الفذ تطبيقاً للألواح الاثنى عشر التى سجلتها فيها لجنة العشرة ؛ ولقد كان تسجيل القانون الرومانى فى هذه الألواح حادثاً هاماً فى التاريخ الرومانى ؛ وكان القانون الرومانى قبل هذا التسجيل خائطاً من العادات القبلية ، والمراسيم الملكية ، والأوامر الكهنوتية ؛ وبقيت أساليب القدماء — *Mos Maiorum* — إلى آخر أيام رومة الوثنية القدوة الخلقية الصالحة ، والمعين الذى تستمد منه القوانين ؛ ومع أن الخيال ، والرغبة فى الإصلاح والتهديب ، قد أعليا من شأن سكان المدن القساة فى عهد الجمهورية الأول ، وجعل منهم مثلاً أعلى يطلبون إلى المواطنين أن يعملوا للوصول إليه ، فإن القصص التى كانت تروى عن أخلاق أولئك السكان قد أعانت المربين على غرس فضيلتى الصبر وقوة الاحتمال فى أخلاق الشباب فى رومة . أما فيما عدا هذا فإن القانون الرومانى القديم كان مستمداً من القواعد والعادات الكهنوتية ، فكان بذلك فرعاً من الدين ، يغمره جو من الطقوس الرهيبة والحدود المقدسة ؛ وكان هذا القانون أوامر تصدر وعدالة تطبق ؛ ولم يكن يحدد العلاقة بين الناس بعضهم بعضاً فحسب ، بل كان يحدد فوق ذلك العلاقة بين الآلهة والناس . وكانت الجريمة سبباً فى اضطراب هذه العلاقة ، وفى تعكير صفو سلام الآلهة ؛ وكان الغرض من القانون ومن العقاب من الوجهة النظرية هو الاحتفاظ بهذه العلاقة أو إعادتها إلى السلام إذا اضطربا وتعكر صفوهما ؛ وكان الكهنة هم الذين يعلنون ما هو حق وما هو باطل *fas et nefas* ، ويقررون فى أى الأيام تفتتح المحاكم وتقدس المجالس . وكانت كل المسائل المتعلقة بالزواج والطلاق ، والعزوبة والزواج بالأقارب . والوصايا ونقل الملكية ، وما للأطفال من حقوق ، كانت كل هذه المسائل لا بد من عرضها على الكهنة كما لا بد من

عرض الكثير منها على المحامين في هذه الأيام . وكان الكهنة وحدهم الذين يعرفون القوانين والسنة التي لا يكاد يستطيع عمل شيء مشروع إلا باتباعها . وكانوا في رومة هم المستشارين القانونيين ، وكانوا هم أول من يبدى رأى القانونى *responsa* في مهام الأمور . وكانت القوانين تسجل في كتبهم ، وكانوا يحتفظون بهذه الكتب بعيدة عن متناول العامة ، وبلغ من حرصهم عليها أن اتهموا في بعض الأحيان بتغيير نصوص القوانين لكي تتفق مع أغراض الأشراف أو رجال الدين . ولقد أحدثت الألواح الاثنا عشر انقلاباً قضائياً مزدوجاً ، ذلك أنها أذاعت القانون الرومانى ونشرته وأنها صبغته بالصبغة الدنيوية غير الدينية . وتمثل هذه الألواح — كما تمثل غيرها من كتب القانون التي دونت في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد كقوانين كارنداس *Charondas* ، وزليكس *Zalcucus* ، ليكورغ *Lycurgus* ، وصولون *Solon* — مرحلة انتقال من العادات غير الثابتة غير المكتوبة إلى مرحلة القانون المحدد المدون ، وكان هذا العمل نتيجة انتشار القراءة والكتابة بين الناس وتمكن الروح الديمقراطية فيهم ، يضاف إلى هذا أن « قانون المواطنين » *ius civile* ، كما هو مدون في الألواح الاثني عشر ، قد تحرر من الصبغة الدينية أو « القانون الدينى » *ius divinum* كما يقول الرومان أنفسهم ، وكان رومة بعملها هذا قد استقر رأيا على ألا تكون دولة كهنوتية ، وضعف سلطان الكهنة فوق هذا للضعف وحرموا من احتكارهم تفسير القوانين وتنفيذها حين نشر أمين سر أيوس كلوديوس *Appius Claudius* « الأعمى » في عام ٣٠٤ تقويمياً يشتمل على أيام اجتماع المحاكم يعرف « بأيام الأفعال » *dies fasti* ، ومرسوماً بما يجب اتباعه من الإجراءات القضائية ، ولم يكن يعرف هذه وتلك من غير الكهنة إلا عدد جد قليل . وخطا الرومان خطوة أخرى في صبغ القانون بالصبغة الدنيوية حين بدأ كرنكانيوس *Coruncanius* في عام ٢٨٠ ق . م يعلم الشعب القانون الرومانى وهو أول عمل

من نوعه معروف في التاريخ . ومن ذلك الوقت حل رجل القانون محل الكاهن وأصبحت له هو السيطرة على عقل رومة وحياتها . وما لبثت هذه الألواح أن أصبحت أساس برامج التعليم في رومة ، وظل تلاميذ المدارس إلى أيام شيشرون يحفظون ما تحتويه عن ظهر قلب ، وما من شك في أنها كانت من العوامل التي بثت في نفوس الرومان مبادئ الصرامة وحب النظام ، والاستمسك بالقانون وعدم التفريط في الحقوق . ولقد ظلت الألواح الاثنا عشر بما أدخل على نصوصها من تعديل ، وبما أضيف إليها من قوانين جديدة عن طريق التشريع والمراسيم البريتورية والقنصلية والإمبراطورية ، ظلت هذه الألواح مدى تسعة قرون أساس القانون الروماني .

وكان قانون المرافعات في كتاب القوانين الروماني وافياً شديداً التعقيد . وكان في وسع أي موظف كبير - إلا في القليل النادر - أن يكون قاضياً ، لكن المحاكم العادية لم تكن تتألف إلا من البريتورين *praetors* وكان لإصلاحهم للقوانين وشرحها من أكبر العوامل التي أكسبت القانون الروماني حيوية ونماء وحالت بينه وبين أن يصبح جثة هامدة من الإجراءات . ذلك أن كبير حكام المدينة *praetor urbanus* كان يعد في كل عام ثبناً أو لوحة بيضاء ، يحوى أسماء أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان الذين يصح اختيارهم ليكونوا محلفين ، وكان رئيس الجلسة في كل قضية يختار المحلفين فيها من بين أصحاب هذه الأسماء ، على أن يكون للمدعى والمدعى عليه الحق في أن يرفضوا قبول بعضهم وإن كان هذا الحق لم يستخدم إلا في عدد محدود من المرات . وكان يسمح للمحامين القضائيين أن يقدموا مشورتهم للمتقاضين ويدافعوا عنهم في ساحة القضاء ، كما كان من حق أعضاء مجلس الشيوخ أن يقدموا المشورة القضائية في بيوتهم أو في مجالس عامة . وكان قانون سنسيوس *Cincius* الصادر في عام ٢٠٤ ق . م يحرم على من يقدم المشورة القضائية أن يتقاضى عنها أجراً ، ولكن المهارة القانونية كانت تجدد

كثيراً من السبل للتخلص من هذا القيد القائم على النزعة المثالية ، وكثيراً ما كان الأقاء يعذبون لحملهم على الاعتراف .

وكانت مجموعة القوانين التي تحتويها الألواح الاثنا عشر من أشد القوانين التي شهد بها التاريخ ، ذلك أنها كانت تحتفظ بالسيطرة الأبوية الكاملة القديمة التي كانت للأب في المجتمعات الزراعية العسكرية ، فكان يسمح للأب بمقتضاها أن يجلد ابنه أو يربطه بالأغلال ، أو يسجنه أو يبيعه أو يقتله - وكل ما قيد به سلطته أن حرر الابن من سيطرة أبيه إذا بيع هذا الابن ثلاث مرات (١٦) . واحتفظ القانون بما بين الطبقات من فروق بتحريم الزواج بين الأشراف والعامة ، وكان للدائنين على المدينين حقوق مطلقة من كل قيد (١٧) ، كما كان للملاك الحرية الكاملة في أن يتصرفوا في أملاكهم عن طريق الوصية ، وكانت حقوق الملكية تبلغ من القداسة حداً يجعل السارق الذي يضبط متلبساً بجريمة السرقة عبداً للمسروق منه ، وكانت العقوبات تتفاوت من الغرامة البسيطة إلى النفي ، أو الاسترقاق أو الإعدام ، ومنها ما كان يجرى بطريق القصاص (lex talionis) ، وكثيراً ما كانت الغرامات تحدد تحديداً دقيقاً حسب طبقة المعتدى عليه : فكانت عقوبة كسر عظام الحر ٣٠٠ آس ، وكسر عظام العبد ١٥٠ آس (١٨) . وكان القذف والرشوة والحنث في الأيمان ، وسرقة المحصولات الزراعية ، وإتلاف غلات الجار ليلاً ، وخديعة المحامي للمتقاضين ، وممارسة السحر ، وفساد السم في الطعام ، والاعتيال ، والاجتماع في المدينة ليلاً لتدبير الفتن والمؤامرات ، كانت هذه كلها يعاقب عليها بالإعدام (١٩) . وكان الابن الذي يقتل أباه يوضع في كيس ومعه في بعض الأحيان ديك ، أو كلب ، أو قرد ، أو أفعى ، ويلقى في النهر (٢٠) . على أنه كان من حق المواطن في العاصمة نفسها أن يستأنف الحكم الصادر عليه بالإعدام من أية جهة قضائية عدا حكم الدكاتاتور نفسه إلى الجمعية المثوية ، وإذا رأى المتهم أن الأمور في الجمعية تسير في غير مصلحته كان له أن يخفف

الحكم الصادر عليه إلى التقي وذلك بالخروج من رومة (٢١) ، ولهذا فإن حقبة الإعدام رغم صرامة الألواح الاثني عشر قلما كانت تنفذ في عهد الجمهورية الرومانية .

٤ - جيش الجمهورية

وكان الأساس الذى يعتمد عليه الدستور الرومانى فى آخر الأمر هو النظام العسكرى الذى كان أكثر الأنظمة العسكرية نجاحاً فى تاريخ العالم كله . لقد كان الجيش هو المواطنون وحدة وثيقة الارتباط ، وكان الجيش مجتمعاً فى المئات هو الهيئة الرئيسية التى تسن قانون الدولة . وكان الفرسان يؤخذون من المئات الثمان عشرة الأولى ، أما « الطبقة الأولى » فكانت تكون فرق المشاة الثقيلة ، وكان كل جندى فيها يسليح بحريتين وخنجر وسيف ، ويلبس خوذة من البرنز ، ودرعاً من الزرد ، وجرموقاً ، ومجنأ . وكان لرجال الطبقة الثانية كل هذه العدد عدا الدروع الزردية وأما رجال الطبقتين الثالثة والرابعة فلم يكن لهم سلاح ، ولم يكن لرجال الطبقة الخامسة غير المقاليح والحجارة . وكان الفيلق الرومانى هيئة مختلطة تتألف من ٤٢٠٠ من المشاة ، ٣٠٠ من الفرسان ، وعدة كتائب أخرى إضافية (٢٢) ؛ وكان جيش القنصل يتألف من فيلقين . وكان كل فيلق يقسم إلى كتائب ، وكانت كل منها فى بادئ الأمر تتألف من مائة جندى ، ثم أصبحت فيما بعد تتألف من مائتين ، ويقودها قواد المئات . وكان لكل فيلق علمه الخاص vexillum . وكان مما يخل بالشرف أن يسقط هذا العلم فى أيدي الأعداء . وكان مهرة الضباط فى بعض الأحيان يلقون العلم بين صفوف الأعداء ليثيروا حماسة جندهم فيعملوا على استعادته مهما كلفهم ذلك من بذل وتضحية . وإذا نشبت المعركة فلبقت صفوف المشاة الأمامية العدو ، الذى لم يكن يعد عنهم أكثر من

عشر خطوات أو عشرين خطوة ، بوابل من الخراب ، وهى رماح من الخشب تنتهى بأطراف من الحديد ، وهاجمه فى الجناحين أصحاب النبال والمقالع بالسهم وبالحجارة ، وهجم الفرسان بالأسنة والسيوف ، وكانت الواقعة تنتهى بقتال حاسم يدور بين الأفراد بالسيوف القصار . أما أعمال الحصار فكانت تستخدم فيها الجانيق الخشبية التى تدار بالجذب أو التى وتذف من الحجارة ما زنته عشرة أرتال إلى أبعد من ثلثائة ياردة . وكانت كباش حربية ضخمة معلقة فى حبال تشد إلى الوراء ، ثم تخلى فتنتطح أسوار الأعداء . وكان يقام رصيف مائل من الطين والخشب تدفع وتجر عليه أبراج ذات عجل ترمى منها القذائف على الأعداء (٣٢) . وقد هدل فى عام ٣٦٦ ق . م تشكيل الفيلانى التى كانت فى عهد الجمهورية الأولى تتألف من ستة صفوف متراصة فى كل واحد منها ٥٠٠ جندى ، فكانت لذلك ضخمة كبيرة العدد يصعب تحريكها وتسييرها ، فقسم كل فيلق إلى كوكبات (٣) فى كل كوكبة مائتا جندى . وكان يترك فراغ بين كل كوكبة والثى تجاورها ، وتقف الكوكبة التى فى كل صف خلف الفراغ المتروك فى الصف الذى قبله . وبهذه الطريقة يمكن الإسراع فى إمداد كل صف من الصف المجاور له ، وتحويل كوكبة أو عدة كوكبات لمواجهة أى هجوم جانبى ، كما كان من شأن هذا النظام أن يفسح المجال للحرب الفردية التى كان الجندى الرومانى يعد لها أحسن إعداد وكان أكبر العوامل فى قوة هذا الجيش وانتصاراته هو حسن نظامه ذلك

(٣) كان الرومان يطلقون على كل كوكبة اسم *Manipulus* ومعنى هذا اللفظ فى الأصل حفنة من الدريس أو السرخس أو ما إليها . ويلوح أن حفنة من إحدى هذه المواد مشدودة إلى قائمة خشبية كانت تتخذ علماً حربياً بدائياً . ومن ثم صار هذا اللفظ يطلق على جماعة من الجنود يظلمهم علم واحد .

أن الشاب الروماني كان يعد للحرب منذ طفولته ، فكان أهم ما يدرسه العلوم التي تؤهله لأن يكون جندياً صالحاً ، وكان يقضى عشر سنوات من عمره في ميادين القتال أو في المعسكرات ، وكان الجن في هذا الجيش هو الجريمة التي لا تغتفر وكان يعاقب عليها بجلد من يرتكبها حتى الموت (٢٤) . ولم يكن من حق قائد الجيش أن يحكم بالإعدام على أى جندي أو ضباط للفرار من القتال فحسب ، بل كان من حقه أيضاً أن يحكم عليه بهذه العقوبة نفسها إذ خالف ما يصدر إليه من الأوامر ولو أدت مخالفته إيها إلى أحسن العواقب ، وكان الذي يفر من الجندية أمر يرتكب جريمة السرقة يعاقب بقطع يده اليمنى (٢٥) . وكان الجن في المعسكرات يطعمون طعاماً بسيطاً يتكون من الخبز وحساء الخضر وقليل من الخضر والتبيل ، وقلما كان يضاف إليه شيء من اللحم ، وبذلك فتح الجيش الروماني العالم المعروف وقتئذ معتمداً على الغذاء النباتي ، ولما أن نقصت كمية القمح اللازمة للجيش يوليوس قيصر واضطر هذا الجيش لأكل اللحم شكا الجن من هذه الحال (٢٦) . وكان العمل الذي يكلف به الجنود مجهداً طويلاً ، حتى كان الجن يفضلون عليه الذهاب إلى ميدان القتال ، وحتى كانت البسالة أسلم الخطط ، وظل الجن حتى عام ٤٠٥ ق . م لا يتناولون أجوراً أو مرتبات ، ولم يكن ما يتناولونه بعد ذلك العام يالشيء الكثير . ولكن كل جندي كان يسمح له بنصيب من الغنائم حسب مرتبته سواء كانت هذه الغنائم سبائك معدنية أو نقوداً أو أرضاً أو أسرى أو بضائع . ولم يكن هذا التدريب ليخلق من الرومان محاربين بواسل تواقين إلى القتال فحسب ، بل خلق منهم فوق ذلك قواداً شجعاناً . ذلك أن الطاعة قد خلقت فيهم المقدرة على الأمر والنهي ، ولسنا نكرر أن جيش الجمهورية قد خسر بعض الوقائع الحربية ، ولكنه لم يخسر قط حرباً ، وهؤلاء

للرجال الذين نشأوا في هذا النظام الضارم ، وتطبعت به نفوسهم ، واعتادوا رؤية الموت بأعينهم ، وألفوه حتى أصبح من الأمور التي لا قيمة لها في نظرهم ، هؤلاء الرجال هم الذين كسبوا الوقائع التي مكنتهم من الاستيلاء على إيطاليا ، ثم فتح قرطاجنة واليونان ، والسيطرة على عالم البحر الأبيض المتوسط .

هذه هي الخطوط الرئيسية في ذلك « الدستور المختلط » الذي أعجب به پوليبوس ووصفه بأنه « خير الحكومات القائمة » في العالم ، فهو من حيث سيادة الجمعيات في الناحية التشريعية . ديمقراطية مقيدة ، ومن حيث زعامة مجلس الشيوخ المؤلف من أشراف البلاد حكم أرستقراطي ، وهو « حكم ملكي مزدوج » . شبيه بالحكم الأسبرطي إذا نظرت إليه من ناحية ساطان القنصلين القصير الأجل ؛ وهو حكم ملكي مطلق يصبح في بعض الأحيان حكما دكتاتورياً ، وهو في جوهره حكم أرستقراطي تولت فيه السلطة أسر قديمة غنية بفضل ما كان لها من كفاية وامتياز مئات السنين ، وصبغت السياسة الرومانية بصبغة الدوام والثبات ، وبفضلها استطاعت أن تقوم بما قامت به من جلائل الأعمال .

ولكنه لم يخل من عيوب . فقد كان هذا الدستور خليطاً ممتعاً غير متناسق من العوائق والموازن ، يستطيع فيه أيام السلم لإبطال كل أمر تقريباً بأمر معارض له ومساو له في القوة ، ولقد كان ما فيه من تقسيم السلطة بين عدد من الهيئات عوناً على الحرية ، كما كان — إلى أجل محدود — مانعاً من إساءة استعمالها ؛ ولكن هذا الحكم نفسه هو الذي أدى إلى الكوارث العسكرية أمثال كارثة كانى Canae ، وإلى انحلال الديمقراطية حتى أضحت حكم الغوغاء وجاء آخر الأمر بالدكتاتورية الدائمة في أيام الأباطرة . والذي يدعشنا في هذه الحكومة هو بقائها ذلك العهد الطويل (من ٥٠٨ إلى ٥٤٩ ق . م) ، وكثرة ما قامت به من الأعمال ، ولعل سبب بقائها هو قابليتها المهوشة للتغير ،

والروح الوطنية الفخورة التي كانت تُهت في نفوس الرومان في البيت والمدرسة ، والهيكل والجيش ، والجمعية ومجلس الشيوخ . وكان الولاء للدولة أهم الصفات في ألام مجد الجمهورية ، كما كان الفساد السياسي المنتقع النظير مؤذناً بسقوطها . لقد ظلت رومة عظيمة طوال العهد الذي كان لها فيه أعداء يرغمونها على الاتحاد والشجاعة والتبصر في العواقب ؛ فلما أن ظفرت بأعدائها جميعاً انتعشت برهسة من الزمان ثم بدأت في الاحتضار .

الفصل الثالث

فتح إيطاليا

لم يكن الأعداء في يوم من الأيام يحيطون برومة أكثر مما كانوا يحيطون بها حين خرجت من عهد الملكية دولة صغيرة تشمل مدينة واحدة ضعيفة لا تزيد رقعتها على ٣٥٠ ميلاً مربعاً — أى مساحة لا تزيد على تسعة عشر ميلاً في تسعة عشر . ولما أن تقدم لارس پورسنا Lars Porsena ليهاجمها استعادت كثير من العشائر التي كان ملوك رومة قد أخضعوها لسلطانهم ما فقدته من حرية وكونت حلفاً لاتينياً للوقوف في وجه رومة . وكانت إيطاليا في ذلك الوقت تتألف من خليط من المدن أو القبائل المستقلة لكل منها حكومتها ولهجاتها الخاصة بها . فكان في شمالها اللجوريون ، والغاليون ، والأمبريون ، والتسكانيون ، والسبينيون ؛ وكان في جنوبها اللاتين ، والفلشيون ، والسمنيون ، واللوكانيون والبريتانيون ؛ كان على شاطئها الجنوبي والغربي مستعمرون من اليونان في كرمية ، وثابلي ، وبمبي وإستوم ، ولكري ، وريجيوم ، وكروتونا ، ومثابنتم ، وتارنتم (*) . وكانت رومة في وسط هذه العشائر والمدن جميعها ، ذات موقع حربي يمكنها من التوسع وبسطة الملك ، ولكنها كانت معرضة للغزو من جميع جهاتها في آن واحد . وكان سبب نجاحها أن أعداءها لم يتحدوا عليها . وقد حدث في عام ٥٠٥ بينا كانت رومة مشتبكة في حرب مع السبنيين أن ولدت عليها إحدى العشائر السبينية — عشيرة الكلوريين — فنحتهم رومة حق مواطنيها فظير شروط مرضية . وفي عام ٤٤٩ هزمت رومة السبنيين ، ولم يحل عام ٢٩٠

Ligures, Gauls, Umbrians, Etruscans & Sabines, Latins Volscians (*)

Samnites, Lucanians, Brutians, Cumae, Naples, Pompeii, Paestum, Locri, Rhegium, Crotona, Metapontum, & Tarentum.

حتى ضمت كل أراضيهم إليها ، وما وافى عام ٢٥٠ حتى كان لهم كل ما لأهل رومة من الحقوق .

وفي عام ٤٩٦ أغرى آل تاركوين بعض مدائن لاتيوم وهى تسكولوم ، وأرديا ، ولوفيوم ، وأريشيا ، وتيبور(*) . وغيرها بالانضمام فى حرب تشنها على رومة ، ورأى الرومان أنفسهم أمام هذا الحلف البادى القوة ، فأقاموا عليهم أول دكتاتور منهم . وهو أولس پستومبوس *Aulus Postumius* ، وانتصروا على هذا الحلف اللاتينى عند بحيرة رجيلس *Regillus* . نصراً مؤزراً كان سبباً فى نجاحهم . ويؤكد الرومان أنهم قد تلقوا العون فى هذه الواقعة من الإلهين كستر وپليكس *Castor & Pollux* . إذ غادرا جبال أولمپس ليحاربوا فى صفوفهم . وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت عقدت رومة مع الحلف اللاتينى معاهدة تعهد فيها الطرفان أن « يدوم السلم بين الرومان ومدن اللاتين ما دامت السموات والأرض » وأن يشتركا على قدم المساواة فى جميع غنائم الحرب(٢٧) . وكانت رومة فى بادئ الأمر عضواً فى هذا الحلف ثم أمت زعيمته ، ثم سيطرته عليه . وفى عام ٤٩٣ حاربت الفلشين *Volscians* ، وفى هذه الحرب ظفر كيبوس مارسيوس *Cains Marcius* بلقب كريلانس *Coriolanus* . بعد أن استولى على كريلاى *Corioli* عاصمة الفلشين(**) . ويضيف المؤرخون إلى هذا — ولعل للخيال والقصاص شأن كبير فيما يضيفون — أن كريلانس أصبح من ذلك الوقت رجعيّاً شديداً الرجعية ، فتقن من رومة بناء على طلب العامة وإصرارهم (٤٩١) ، فلجأ إلى الفلشين ، وأعاد تنظيم جيوشهم ، وسار على رأسهم لحصار رومة . ثم تقول الرواية إن الرومان المحاصرين بعد أن عضهم الجوع بعثوا رسولا فى إثر رسول ليشنوه عن عزمه ، ولكنه لم يثن ، فلما جاءته

(*) *Tibur Aricia Lanuvium, Ardea, Tusculum.* (•)

(**) لقد خلد شيكسبير هذه القصة فى روايته الشهيرة كريلانس . (المترجم)

(٧ - ج ١ ، مجلد ٣)

أمه وزوجته تتوسلان إليه وردهما خائبتين أنذرته بأنهما ستسدان الطريق أمامه بجسديهما ، فلم يسعه أمام ذلك إلا أن يرتد بجيشه عن رومة . وكان جزاؤه أن قتله الفلشيون ، وفي رواية أخرى أنه عاش بينهم معيشة ضئيلة ، حتى بلغ من العمر أرذله (٢٨) . وفي عام ٤٠٥ قام النزاع على أشده بين رومة وقياي Veii للسيطرة على نهر التيبر ، وحاصرت رومة . مدينة قياي ودام الحصار تسع سنين ، وشجع هذا مدن لاتوروريا فانضمت إلى قياي ضد رومة ، وهوجم الرومان من كل ناحية وتعرضوا لخطر الفناء ، فأقاموا عليهم دكتاتوراً يدعى كاملس Camillus ، فجند جيشاً جديداً استولى به على قياي ووزع أرضها على مواطني رومة . وفي عام ٣٥١ ضم جنوب لاتوروريا إلى رومة بعد عدة حروب أخرى متفرقة وسميت من ذلك الوقت باسم تسكيا Tuscia وهو اسم لا يكاد يفرق عن اسم المقاطعة في الوقت الحاضر .

وفي هذه الأثناء واجهت رومة في عام ٣٩٠ خطراً جديداً أشد من الأخطار السابقة ، وقام الصراع بينها وبين بلاد الغالة ، وهو الصراع الطويل الذي لم يلبثه إلا في عهد يوليوس قيصر . وذلك أنه بينما كانت الحروب الأربع عشرة قائمة بين رومة ولاتوروريا تسلمت قبائل كلتية من بلاد الغالة ومن ألمانيا منحدره من جبال الألب ، واستقرت في إيطاليا ، وانتشرت جنوباً حتى نهر الهو Po . ويطلق المورخون القدامى على هؤلاء الغزاة اسم كلتائي — أو سلتائي ، أو جلتائي أو غالي(*) دون تمييز بينها ، ولسنا نعرف شيئاً عن أصل هذه القبائل ، وكل ما نستطيع أن نصفها به أنها ذلك الفرع من السلالة الهندوربية التي سكنت ألمانيا الغربية وغالة وإسبانيا الوسطى ، وبلجيكا ، وويلز ، واسكتلندة ، وإيرلندة ، وأدخلت فيها اللغات التي وجدها الرومان في تلك البلاد . ويصفهم يوليوس Polybius بأنهم « طوال القامة ، حسنو الوجوه » ، يحبون القتال ، ويحاربون

Galli ، Galatae ، Celtae ، Keltai (*)

وهم عراة الأجسام إلا من تمام وسلاسل ذهبية (٢١). ولما أن ذاق الكلت
سكان بلاد غالة الجنوبية طعم النبيذ الإيطالي سرهم مذاقه كل السرور
فاعتزموا أن يزوروا الأرض التي تخرج تلك الفاكهة اللذيذة . ولعل أصدق
من هذا أنهم أقبلوا على تلك البلاد طلباً للمرعى وللأرض الجديدة ،
فلما دخلوها وأقاموا فيها وقتاً ما مسلمين على غير عادتهم المألوفة ، يحرثون
الأرض ويرعون الماشية ، ويتثقفون بما كان في المدن من ثقافة تسكانية .
ثم غزوا إتروريا في عام ٤٠٠ ق . م ونهبوها ، وقاومهم التسكان مقاومة
ضعيفة ، لأنهم كانوا قد أرسلوا جنودهم إلى فياي ليصدوا عنها الرومان .
وفي عام ٣٩١ وصل ثلاثون ألفاً من الغالين إلى كلوزيوم Clusium ؛ وبعد
عام واحد التقوا بالرومان على نهر ألبا Allia وهزمهم هزيمة منكرة بددت
شملهم ، ودخلوا رومة فاتحين دون أن يلقوا في ذلك مقاومة ، ونهبوا المدينة
وحرقوا كثيراً من أحيائها ، وظلوا سبعة أشهر يحاصرون فلور الجيش الروماني
المعسكر على الكبتول Capitol — وهو قلة تل الكبتولين Capitoline — حتى
استسلم لهم الرومان آخر الأمر ، وأدوا للغالين ألف رطل من الذهب نظير
انسحابهم (*) . وغادر الغاليون رومة ولكنهم عادوا إليها في أعوام ٣٦٧ ،
٣٥٨ ، ٣٥٠ هـ وصدهم الرومان في كل مرة فقتلوا أخيراً بشمال إيطاليا
الذي أصبح من ذلك الوقت يعرف بغالة الألبية الجنوبية .

والتي من بقي من الرومان مدينتهم مخربة تخريباً حمل الكثيرين منهم على
أن يتمنوا لو استطاعوا أن يغادروها ويتخذوا فأى عاصمة لهم . ولكن كميلوس
أثناهم عن عزمهم ، وقدمت لهم الحكومة ما يحتاجونه من المعونة المالية لبناء
بيوتهم من جديد . وكانت السرعة التي تم بها هذا البناء ، وهم يواجهون الأعداء

(*) والمؤرخون الآن مجمعون على رفض القصة التي يرويها ليفي (٢٠) ، والتي تقول إن
كميلوس رفض في اللحظة الأخيرة أن يعطي الغالين الذهب ، ولأنه طردهم من رومة قوة
واقتراراً . ويرون أن هذه القصة قد اخترعت اختراعاً لإجابة لثمة الرومان الوطنية وكبريائهم
القوى . وما من أمة من الأمم تهزم في كعب تاريخها .

من حولهم ، سبباً من الأسباب التي جعلت رومة مدينة قائمة على غير نظام مرسوم ذات شوارع ضيقة ملتوية . وكانت الشعوب الخاضعة لسلطانها ، إذ رأتها موشكة على الدمار والخراب ، ثارت عليها ثورة في إثر ثورة واستلزم إخضاع هذه الشعوب وشفافواها من نزعة الحرية خمسين عاماً من الحروب المتقطعة ولقد هاجمها اللاتين ، والإكويون ، والهرنيشون ، والفليشيون مجتمعين أو متفرقين . ولو انتصر الفليشيون لفصلوا رومة عن جنوب إيطاليا وعن البحر ، ولربما استطاعوا بذلك أن يقضوا على تاريخها ؛ ولكن رومة انتصرت عليهم وانتصرت على مدن الحلف اللاتيني في عام ٣٤٠ . وبعد عامين من انتصارها عليها حلت الحلف وضممت مدن لاتيوم جميعها إلا القليل منها إليها(*) .

وفي هذه الأثناء كان ما نالته رومة من النصر على الفليشين سبباً في وقوفها وجهاً لوجه أمام القبائل السمنية القوية . وكانت هذه القبائل تمتلك قطعاً مستعرضاً في إيطاليا يمتد من نابلي حتى البحر الأدرياتي ، ويشمل مدناً غنية مثل نولا *Nola* وبنيفنتم *Beneventum* ، وكومية *Cumae* ، وكبوا *Capua* . وكانت قد استولت على معظم المستعمرات التيسكانية واليونانية الممتدة على الساحل الغربي ، وكان لها من الحضارة الهلينية ما يكفي لخلق فن كيباني *Campanian* ، متميز عن غيره من الفنون ، ولعلها كانت أكثر حضارة من الرومان أنفسهم . واشتبكت رومة مع هذه القبائل في ثلاث حروب طويلة طاحنة رغبة منها في الانفراد بالسيادة على إيطاليا . ومنى الرومان في مشاعب كودين *Coudine Forks* (٣٢١) بهزيمة من أكبر هزائمهم ، ومر جيشهم المنهزم « تحت النير » — أي تحت قوس من خراب الأعداء — رمزاً لخضوعهم . ووقع الفصيلان في ميدان القتال شروطاً

(*) ومن الحوادث التي تروى عن هذه الحرب حادثان أكبر الظن أنهما من نسج الخيال أولهما أن قنصلا يدعى بيليوس ديسيون *Publius Decius* اتى حثفه بعد أن انطلق على جواده بين صفوف الأعداء مضحياً بنفسه ليظفر بمعونة الآلهة لرومة . أما القنصل الثاني تيتس مانليوس تروكاتس *Titus Manlius Torquatus* فقد قطع رأس ولده لأنه انتصر في واقعة ، وكان سبب انتصاره أن خالف الأوامر الصادرة إليه .

لصلح مثل رفض مجلس الشيوخ أن يصدق عليه ، ونجح السمنيون في أن يضموا إليهم التسكانيين والغالين ، وأنفت رومة نفسها وقعاً ما تواجه إيطاليا كلها تقريباً شاكية السلاح . ولكن القبائل الرومانية انتصرت انتصاراً حاسماً في سنتينوم *Sentinum* (٢٩٥) ضمت روما على أثره كبنانيا *Campania* وأمبريا *Umbria* إلى أملاكها . وبعد عامين من ذلك الوقت طردت الغالين إلى ما وراء نهر الپو وأخضعت إتروريا مرة أخرى لسلطانها .

وبذلك أصبحت رومة سيدة إيطاليا الممتدة من مقاطعات الغالين في الشمال إلى المقاطعات اليونانية في الجنوب . لكن عدم اطمئنانها إلى سلامتها من جهة ، ورغبتها في مواصلة الفتح من جهة أخرى ، قد حملها على أن تخير مدن « اليونان الكبرى » *Magna Graecia* بين الحرب وبين محالفتها حلفاً تقر فيه لرومة بالزعامة . وفضلت مدن *Thurii* و *Locri* و *كروتونا Crotona* أن تحالف رومة على أن تتعرض للاندماج في القبائل « المتبربرة » (أى الإيطالية) ، التي كانت تتكاثر من حولها وبين أهلها ، ولعلها هي أيضاً كانت تمزقها كما تمزق لاتيوم حرب الطبقات ، واستقبلت الحاميات الرومانية لتصد عن الملك مطامع الغامة الذين كان سلطانهم آخذاً في الازدياد (٣٢) . لكن تارنتم *Tarentum* وقفت وقفة المعاند ، واستعانت بپيرس *Pyrrhus* ملك إپيروس *Epirus* . وثار في نفس هذا المحارب الباسل ذكريات أخيل *Achilles* والإسكندر فعبر البحر الأدرياي بقوة إپروسية ، وهزم الرومان في هرقلية *Heraclea* (٢٨٠ ق . م) ؛ ولكن ما ناله من النصر كان غالى الثمن غلواً حمل القائد المظفر على أن يرثي لحاله (٣٣) وانضمت إليه وقتئذ جميع المدن اليونانية في إيطاليا ، وحالفه اللوكانيون ، والپوتيون ، والسمنيون . وبعث سنياس *Cineas* إلى رومة يعرض عليها الصلح ، وأطلق سراح الأنفي أسير روماني الذين كانوا في قبضته بعد أن وعدوه بأن يعودوا إذا فضت رومة الحرب

على السلم . وأوشك مجلس الشيوخ أن يقبل شروطه ولكن أيدوس كلوديوس Appius Claudius ، الشيخ الأعمى المسن الذى كان قد اعتزل الحياة العامة من زمن طويل ، طلب إلى بعض الناس أن يحملوه إلى دار المجلس ، فلما دخل على الأعضاء طلب إليهم ألا تعقد رومة قط صلحاً مع جيش أجنبي فى أرض إيطالية . ورد مجلس الشيوخ إلى بيرس من أطلقهم من الأسرى وبدأت الحرب من جديد . وانتصر الملك الشاب على الرومان مرة أخرى ، ثم عافت نفسه جبن أحلافه وضعفهم وترددهم ، فأبحر مع من بقى معه من جيشه إلى صقلية ورفع عن سرقوسة حصار القرطاجنيين ، وطردهم من أملاكهم فى الجزيرة حتى لم يبق لهم فيها إلا قليل . ولكنه أغضب بحكمه القوى اليونان سكان صقلية ، وكانوا يظنون أن فى وسعهم أن يستمتعوا بالحرية دون أن يؤدوا لها ثمناً من النظام والشجاعة ، فقبضوا عنه معونتهم ، فعاد بيرس إلى إيطاليا وهو يقول عن صقلية : « ما أعظمها من غنيمة تنازعها قرطاجنة ورومة ! » والتقى جيشه بالجيش الرومانى فى بنفتم ومنى بالهزيمة لأول مرة (٢٧٥) . واتضح فى هذه الواقعة أن الألوية الخفيفة السلاح السريعة الحركة أصلح من الصفوف المتراسة البطيئة ، وبدأت بذلك صفحة جديدة فى تاريخ الحروب . وأهاب بيرس بأحلافه الإيطاليين أن يمدوه بمبوش جديدة ، فلم يلبوا نداءه لارتياهم فى إخلاصه ومثابرته ، فعاد إلى إبيروس ومات فى بلاد اليونان مائة المقامرين . وفى السنة التى مات فيها (٢٧٢ ق . م) غدرت ميلو Milo ببارنتم وانضمت إلى رومة . وما لبثت المدن اليونانية كلها أن خضعت لرومة واستسلم لها السمينيون وهم كارهون محزونون ، وأمسّت إيطاليا بعد حروب دامت قرنين كاملين سيدها إيطاليا لا ينازعها فيها منازع .

وسرعان ما ثبتت رومة أقدامها فى البلاد المفتوحة بما كانت ترسله إليها من الجاليات ، بعضها من أهلها وبعضها من بلاد الحلف اللاتينى . وقد أفادت هذه الجاليات فوائد كثيرة : فقد خففت عنها خطر التعطل ، وقللت من تزاخم الأهلين

على موارد الرزق ، وما ينشأ عن هذا التزاحم من نزاع بين الطبقات في رومة . وكذلك كانت كل جالية فيها نواة موالية لرومة بين الأهلين الغضاب ، كما كانت مراكز أمامية ومصارف للتجارة الرومانية ، تنتج الطعام للبطون الجياع في العاصمة ، ذلك أن المحراث قد تم ما بدأه السيف من الفتوح . وبهذه الوسائل كلها وضعت رومة الأسس التي أدت إلى صيغ مئات من المدن التي لا تزال قائمة إلى اليوم بالصيغة الرومانية ، فانتشرت اللغة اللاتينية والثقافة اللاتينية في جميع أنحاء شبه الجزيرة التي كان معظمها لا يزال في طور الهمجية يتكلم أهله لغات شتى . وسارت إيطاليا بخطى وئيدة في طريق الوحدة الدولية ، وكانت الخطوة الأولى في سبيل الوحدة السياسية وحشية في طريقها عظيمة في أثرها وغايتها .

لكن كان في قورسقة وسردانية وصقلية وإفريقية قوة أشد من رومة بطشاً وأقدم منها عهداً ، تسد على التجارة الرومانية مسالك البحر الأبيض المتوسط الغربي ، وتترك إيطاليا سحيقة في بحارها . تلك هي قرطاجنة .

الباب الثالث

هنيال يحارب رومة

٢٦٤ - ٢٠٢ ق . م

الفصل الأول

قرطاجنة

كشف التجار الفينيقيون - وهم قوم ديدنهم البحث، والتنقيب - عن ثروة أسبانيا المعدنية قبل ألف ومائة عام من تلك الأيام . ولم يمض على هذا الكشف إلا قليل من الوقت حتى كان أسطول من السفن التجارية يبحر عباب البحر الأبيض المتوسط بين صيدا وصور وبيلوس من ناحية وطارطسوس Tartessus عند مصب نهر الوادى الكبير من ناحية أخرى ، وإذ كانت هذه الأسفار مما يتعذر القيام بها من غير أن تكون فيها محاط كثيرة . في الطريق ، وإذ كانت سواحل البحر الأبيض الجنوبية أقصر الطرق وآمنها . فقد أنشأ الفينيقيون مراكز وسطى ومحاط تجارية على ساحل إفريقية الشمالى عند إبتس مجنا Leptis Magna (ليدة الحالية) وهلمرومتم Hadrumentum (سوسة) وبوتيكاً (بوتيك) وهمو دير هيتس Hppo Diarrhytus وهمو رجيوس Hppo Regius (بونة) ، بل إنهم عبروا مضيق جبل طارق وأقاموا مركزاً لهم فى لكسوس Lixus (جنوب طنجة) ، وتزوج التجار الساميون الذين أقاموا فى هذه المراكز من الأهالى وأسكتوا غيرهم بالمال ، وفى عام ٨١٣ ق . م أقامت جماعة جديدة من المستعمرين -

قد يكونون من فينيقية وقد يكونون من يتيكا Utica التي أخذت وقتل في الاتساع — أقامت هذه الجماعة بيوتها لها على نتوء في البحر على بعد عشرة أميال من مدينة تونس الحالية . وكان الدفاع عن شبه الجزيرة الفينيقية أمراً سهلاً ، وكانت مياه نهر مجرداس (مجردة) تروى أرضها وتفيض عليها الخصب والماء ، ولذلك كانت تعود إلى الانتعاش بسرعة بعد ما كان يحل بها من التخريب المتكرر . وتعزو الروايات القديمة لإنشاء هذه المدينة إلى إليسا Elissa أو ديدو Dido ابنة ملك صور ، فتقول إن أخاها قتل زوجها فأبحرت مع طائفة أخرى من المغامرين إلى إفريقية . وسمى المكان الذي استقرت فيه كارت هذشت — أي المدينة الجديدة — تمييزاً لها عن يتيكا ، وحول اليونان هذا الاسم إلى كارشدون وبدله الرومان إلى كرتاجو . وأطلق اللاتين اسم إفريقية على الإقليم المحيط بقرطاجنة ويطيكا وسموا أهلها الساميين ، كما كان يسميهم اليونان ، الهوني أو القوني ، أي الفينيقين . وهاجر كثيرون من سراة أهل صور إلى إفريقية عقب حصار سلانصر ، ونبوخذ نصر والإسكندر ، واستقر معظمهم في قرطاجنة ، فأصبحت بسبب هذه الهجرة مركزاً جديداً للتجارة الفينيقية ، وأخذت قوة قرطاجنة وعظمتها في الازدياد كلما أخذت صور وصيدا في الاضمحلال .

ولما ازدادت المدينة . قوة دفعت أهل إفريقية الأولين إلى الداخل شيئاً فشيئاً ، وامتنعت عن أداء الجزية لهم ، بل أرغمتهم على أن يؤدوها هم واستخدمتهم أرقاء وأقناناً في بيوتها ومزارعها . وكانت نتيجة هذا أن نشأت لأهل قرطاجنة ضياع واسعة كان يعمل في بعضها عشرون ألف رجل^(١) ، وأضحت الزراعة عند الفينيقيين العاملين علماء وصناعة ، ونلخص قواعد ما جو الكاتب القرطاجني في كتاب ذائع الصيت . وشق الأهليون القنوات فأخصبت الأرض ونشأت فيها حدائق ذات بهجة ، وحقول من القمح والكروم ، وبساتين تنتج الزيتون والرمان . والكثيرى والكرز والتين^(٢) . وربوا الخيل والأنعام والضأن والماعز .

واستخدموا الحمير والبغال في حمل الأثقال ، وأنسوا كثيراً من الحيوانات ومنها الفيل . أما الصناعات في المدن فلم تزدهر ازدهار الزراعة اللهم إلا صناعة المعادن ؛ ذلك أن القرطاجيين ، كآبائهم الأسويين ، كانوا يفضلون أن يتجروا فيما يصنعه غيرهم ، فكانوا يجوبون الأقطار ، يقودون بغالهم شرقاً وغرباً ، ويضربون في قفار الصحراء طلباً للقبيلة والعاج والذهب والعبيد . وكانت سفنهم الضخمة تحمل المتاجر من مئآت الموانئ بين آسية وبريطانيا وإلهما ، لأنهم لم يكونوا يرضون أن يعودوا كما عاد معظم الملاحين عند أعمدة هرقل *Pillars of Hercules* (مضيق جبل طارق) ؛ وأكبر الظن أنهم هم الذين أنفقوا على رحلة *Hanno* البحرية التي ارتادت ألفين وستائة ميل من ساحل إفريقيا الغربية ، ورحلة *Himilco* التي ارتادت سواحل أوربا الشمالية . ويلوح أنهم كانوا أول من أصدر عملة من نوع العملة الورقية - في صورة رقائق من الجلد مطبوع عليها ما يدل على قيمتها ويتعامل بها في جميع أنحاء الدولة القرطاجنية ، وإن لم يكن من المستطاع تمييز عماتهم المعدنية عن عملة غيرهم من الأمم .

والراجح أن التجار الأثرياء لا الأشراف أصحاب الضياع هم الذين قدموا الأموال اللازمة لتجيش الجيوش وإنشاء الأساطيل التي حولت قرطاجنة من مركز التجارة إلى إمبراطورية استولت على ساحل البحر الأبيض الجنوبي من *Syracusa* إلى *Cyrenaica* إلى جبل طارق وإلى ما بعد جبل طارق عدا *Yennet* . استولى القرطاجيون كذلك على طارطوس وجادير (قادز) وغيرهما من المدن الأسبانية ، وأثرت قرطاجنة بما أخذته من ذهب أسبانيا وفضتها وحديدتها ونحاسها . وتملكت جزائر البليار ، بل لأنها وصلت إلى جزائر ماديرة ومالطة وسردانية وقورسقة ونصف صقلية الغربي . وكانت تعامل البلاد الخاضعة لحكمها معاملة مختلفة الدرجات في قسوتها ، فكانت تفرض عليها جزية سنوية ، وتجند الأهليين في جيوشها ، وتقيد تجارتها وعلاقاتها الخارجية بأشد من القيود . ولكنها في

نظير هذا كانت تحميها من أهدائها عسكرياً ، وتمنحها استقلالاً ذاتياً محلياً ، واستقراراً اقتصادياً . وفي وسعنا أن نقدر ما كان لهذه البلاد الخاضعة لقرطاجنة من ثراء إذا عرفنا أن واحدة منها هي لبتس Leptis Minor كانت تؤدي إلى خزانة قرطاجنة ٣٦٥ وزنة (أى ما يعادل ١٣١٤ر٠٠٠ ريال أمريكي من نقود هذه الأيام) .

واستغلت قرطاجنة هذه الإمبراطورية استغلالاً جعلها في القرن الثالث قبل الميلاد أكثر مدائن البحر الأبيض المتوسط ثراء ، فقد كان يدخلها كل عام من الضرائب الجمركية ومن الخراج نحو ١٢ر٠٠٠ قالت أى قدر ما كان يدخل في خزائن أئينة أيام مجدها عشرين مرة ، وكان سراتها يسكنون القصور ويلبسون الملابس الغالية الثمن ويطعمون الأطعمة الشهية . يأتون بها من خارج بلادهم . وازدحمت المدينة بسكانها البالغ عددهم ربع مليون نسمة واشتهرت بما أقيم فيها من الهياكل الفخمة والحمامات العامة ، ولكن أكثر ما كانت تشتهر به موانئها الآمنة وأحواضها الواسعة . وكان في مقابل كل حوض من أحواضها البالغة ٢٢٠ حوضاً عمودان أيونيان Ionic ؛ ومن ثم أضحى الميناء الداخلى ذا شكل مستدير فخم يحيط به ٤٤٠ عموداً ، وكان يوصل هذا الميناء بالسوق العامة طريق واسع به ميدان ذو عمد ، تزيينه تماثيل يونانية ، وتقوم على جانبيه الأبنية المحتوية على المصالح الحكومية ، والمكاتب التجارية ، ودور القضاء والعبادة . أما الشوارع التي تجاور هذا الطريق فكانت ضيقة كمعظم شوارع البلاد الشرقية ، وكانت مملوءة بالحواريات التي تقوم فيها الصناعات المختلفة وتعقد فيها آلاف الصفقات التجارية . وكانت بيوتها ترتفع في الجو إلى ستة أطباق ، وكثيراً ما كانت الحجرة الواحدة تضم أسرة بأكملها . وكان في وسط المدينة ربوة عالية أو قلعة — كانت هي وغيرها من المعالم بما أوحى إلى الرومان بالصورة التي أقاموا عليها مدينتهم — تسمى « البورصة » Byrsa ، وتضم بيت المال ، ومضرب

النقود ، وكثيراً من المزارات والعمد ، وأقبح معبد في قرطاجنة كلها وهو معبد الإله العظيم إشمون Eshmun ، وكان يحيط بالمدينة من ناحيتها الأرضية غير البحرية سور من ثلاثة جدران يرتفع خمساً وأربعين قدماً في الهواء ، ومن فوقه أبراج وشرفات ، ومن داخل الأسوار فضاء يتسع لأربعة آلاف حصان وثلاثمائة فيل ، وعشرين ألف رجل^(٢) . وفي خارج الأسوار كانت مزارع الأغنياء ومن بعدها حقول الفقراء .

وكان القرطاجنيون من الجنس السامي وثقي الصلة باليهود القدمين . في دمهم وفي ملامحهم ، وكانت تظهر في لغتهم أحياناً ألفاظ عبرية ، مثال ذلك أنهم كانوا يسمون القضاة شفيتي وتلك هي الكلمة العبرية شفيتيم . وكان الرجال يرسلون لحامهم ولكنهم كان من عادتهم أن يحلقوا شفيتيم العليا يشفرت من البرز . وكان معظمهم يضعون على رؤوسهم فلانس أو عمام ، ويختدون أحذية أو أخفافاً ، ويلبسون جلابيب طويلة فضفاضة ؛ ولكن الطبقات العليا من الأهلين قلدت اليونان في ملابسهم ، وصبغت أثوابها باللون الأرجواني ووشت أطرافها بالخرز الزجاجي . أما النساء فكان في الغالب متحجبات يحين حياة العزلة ، وكان في وسعهن أن يبلغن مناصب كهنوتية عالية ، أما فيما عدا ذلك فكان عابهن أن يأسرن الرجال بجاهلن . وكان الأهلون جميعاً — رجالاً كانوا أو نساء — يتحلون ويتعطرون ويضعون أحياناً حلقات معدنية في أنوفهم . ولسنا نعرف إلا القليل عن أخلاقهم من غير أعيانهم ، فالكتاب اليونان والرومان يصفونهم بالإسراف في الطعام والشراب ، وبأنهم يحبون أن يجتمعوا في نوادي الطعام ، وأنهم لإباحيون في علاقاتهم الجنسية فاسدون في شئونهم السياسية ؛ وكان الرومان المعروفون بالغدر يستعملون لفظ الوفاء القرطاجني Fides Punica مرادفاً للفظ الخيانة . ويقول بوليبيوس أن « لا شيء ينتج عنه كسب يعد عاراً في قرطاجنة^(٣) » وبتهم فلاو طرخس ، أهل قرطاجنة بأنهم « خشنو الطباع مكتئبون ،

سلسو القيادة في أيدي حكامهم ، قساة على الشعوب الخاضعة لسلطانهم ، إذا خافوا بلغوا منتهى الجبن ، وإذا غضبوا بلغوا منتهى الوحشية ، عنيدون لا يرجعون عن شيء أقروه ، صارمون ، لا يستجيبون إلى دواعي اللهو أو مباحج الحياة^(٥) . ولكن فلوطرخس رغم ما عرف به من العدل في أحكامه كان يونانياً على الدوام ، وأما پولبيوس فكان صديقاً حميماً لسيرو الذي حرق قرطاجنة ومحا آثارها من الوجود

ويبدو القرطاجنيون في أسوأ صورهم في دينهم ، وإن كان كل ما نعرفه عنهم من هذه الناحية قد وصل إلينا عن طريق أعدائهم . لقد كان أسلافهم في فينيقية يعبدون بعل 'ملك' وعشروت بوصفهما ممثلين لعنصرى الذكر والأنثى في الطبيعة وللشمس والقمر في السماء ؛ وعبد القرطاجنيون الإلهين ممثليهما وهما بعل هامان وثانيث . وكانت ثانيث بصفة خاصة تثير حهم وتقواهم ؛ فكانوا يملأون هياكلها بالهدايا ويقسمون باسمها . وبلى هذين الإلهين في التعظيم ملكارت « مفتاح المدينة » ثم إشمون رب الثروة والصحة ، ويأتى من بعد هذه كلها حشد كبير من الآلهة الصغرى تسمى « البعول » أو الأرباب . بل إن ديدو نفسه كان من هذه المعبودات^(٦) . وكانوا في الأزمات العصيبة يضحون لبعل - هامان بالأطفال الأحياء ، وكان عدد من يضحى بهم لهذا الإله في اليوم الواحد يبلغ أحياناً ثلاثمائة طفل . وكانت طريقتهم في هذه التضحية أن يضعوا الأطفال فوق زراعى هذا الوثن المبسوطين ، ثم يدحرجونهم إلى النار المتقدة أسفل الذراعين ؛ وكان يطغى على صياحهم أصوات الأبواق والدفوف ، ويطلب إلى أمهاتهم أن يشهدن هذا المنظر دون توجع أو بكاء إلا يتهمن بالكفر ويخسرن ما هو خلق بهن من رضا الآلهة . وتطورت الأمور بعد ذلك فكان الأغنياء يأبون أن يضحوا بأطفالهم ويبتاعون بدلاً منهم أطفال الفقراء ، فلما أن حاصر أجثكليز Agathocles صاحب سرقوسة Syracuse مدينة قرطاجنة خشيت الطبقات العليا من أهل المدينة أن يكون احتياها وتهربها من واجبها المقدس قد أغضب الآلهة فألقت في النار مائتين

من أبناء الأشراف (٧) . على أن من واجبنا أن نضيف إلى هذا أن تلك القصص إنما يقصها علينا ديودور وهو يوناني من أهل صقلية لا يستكشف أن يشهد ما اعتاده اليونان من قتل أطفالهم وهو هادئ مطمئن . وليس ببعيد أن يكون منشأ هذه العادة القرطاجنية عادة التضحية بالأطفال أن أولئك القوم أرادوا أن يصبغوا ما يبذلون من الجهد لضبط الفسل بصبغة التقى والصلاح .

ولما أن دمر الرومان قرطاجنة أهدوا ما وجدوه فيها من المكتبات إلى أحلافهم من أهل إفريقية . ولكن هذه الكتب لم يبق منها إلا كتاب هنو الذى سجل فيه رحلته وشذرات من كتاب ماجو فى الزراعة ، ويؤكد لنا القديس أوغسطين تأكيداً يكتشفه شئ من الغموض أنه « كان فى قرطاجنة كثير من الأشياء التى خلدت ذكراها فى عقول من خلفهم من الناس (٨) » . وقد استعان سلت Sallust وجوبا Juba بما كتبه المؤرخون القرطاجنيون ، ولكننا لا نجد لدينا تاريخاً لقرطاجنة كتبه مؤرخ من أبنائها . أما عمارتها فحسبنا أن نقول عنها إن الرومان لم يتركوا فيها حجراً على حجر ، ويقص علينا بعضهم أن طراز مبانيها كان مزيجاً من الطرازين الفينيقي واليوناني ، وأن هياكلها كانت ضخمة مزخرفة ، وأن هيكل بعل — هامان وتمثاله كانا مصفحين بألواح من الذهب تقدر قيمتها بألف وزنة (تالنت) ، وأن اليونان أنفسهم مع ما عرف عنهم من زهو وكبرياء كانوا يعدون قرطاجنة من أجمل العواصم فى العالم كله . ويحتوى متحف تونس على قطع من توابيت الموتى وجدت فى مقابر بالقرب من موقع قرطاجنة ، أجملها كلها صورة جميلة واضحة المعارف ، لعلها صورة تانيث ، يونانية الطابع فى جوهرها وثمة تماثيل صغرى استخرجت من القبور القرطاجنية فى جزائر البليار ، ولكنها فجأة خالية من الدقة ، وكثيراً ما تكون بشعة لا تطيق العين رؤيتها كأنها صنعت لإرهاب الأطفال أو طرد الشياطين . أما ما بقى من الخزف فيدل على أن هذا الفن كان يقصد إلى النفع لا إلى الجمال الفنى ، ولكننا نعرف أن الصنائع

القرطاجين قد أخرجوا نماذج طبية من المنسوجات ، والحلى ، والنقش .
على العاج والأبنوس والكهرمان والزجاج .

وليس في استطاعتنا في الوقت الحاضر أن نرسم أية صورة واضحة
للحكومة القرطاجنية . وقد أثنى أرسطوطاليس على دستور قرطاجنة ووصفه
بأنه « أرق من سائر دساتير العالم في كثير من نواحيه » ، وذلك « لأن الدولة
تعد حسنة النظام إذا كان العامة أوفياء لدستورها على الدوام ، وإذا لم
يثر فيها نزاع أثيم يستحق الذكر ، وإذا لم يستطع أحد أن ينصب نفسه
دكتاتوراً فيها (١٠) » ؛ وكان أهلها يجتمعون من آن إلى آن في جمعية وطنية
من حقها أن تقبل أو ترفض ما يعرضه عليها من الاقتراحات مجلس الشيوخ
المكون من ثلثائة من أهل المدينة الكبار ، ولا حق لها في مناقشتها أو تعديلها .
على أن مجلس الشيوخ نفسه لم يكن يحتم عليه أن يعرض على الجمعية أى
مشروع في وسع أعضائه أن يتفقوا عليه (١١) . وكان السكان هم الذين
يختارون الشيوخ ، غير أن الرشا العلنية قد أنقصت من مزايا هذه الإجراءات
الديمقراطية ومن أخطارها ، وأحلت الجاركية المال محل أرستقراطية المولد .
وكانت الجمعية الوطنية تختارها في كل عام شفيكتين *Shofetes* لرأسا الناحيتين .
القضائية والإدارية في الدولة . وكان من فوق الهيئات القضائية والإدارية
جميعاً محكمة مؤلفة من ١٠٤ من القضاة يقون في مناصبهم مدى الحياة ،
وإن كان القانون لا ييجز هذا البقاء . وإذا كان من حق هذه المحكمة أن
تشرف على جميع فروع الإدارة ، أن تستدعى كل موظف عمومي بعد انتهاء
مدة خدمته لتحاسبه على أعماله ، فقد أصبحت قبيل الحروب البونية هي
المسيطرة على جميع الإدارات الحكومية والمشرقة على جميع المواطنين .

وكان مجلس الشيوخ هو الذي يرشح القائد الأعلى للجيش ، على أن تختاره
الجمعية من بين المرشحين . وكان مركزه خيراً من مركز القنصل في رومة لأنه
كان في وسعه أن يبقى في منصبه طوال المدة التي يرغب مجلس الشيوخ أن يبقى

فيه ه لكن الرومان قد سبروا على قرطاجنة جمحافل من ملاك الأراضى الوطنيين ، على حين أن الجيش القرطاجنى كان مؤلفاً من مرتزقة الجند الأجانب معظمهم من اللوبيين الذين لا يشعرون نحو قرطاجنة بأقل عاطفة وطنية ، ولا يدينون بالولاء إلا لمن يؤدى إليهم أجورهم ، ولقائدهم فى بعض الأحيان . وما من شك فى أن الأسطول القرطاجنى كان فى أيامه أقوى أساطيل للعالم على الإطلاق ، فقد كانت خمسمائة سفينة ذات خمسة صفوف من المجندين ، زاهية الألوان ، رفيعة ، سريعة ، ترد المعتدين على مستمرات قرطاجنة وأسواقها ومسالكها التجارية . وكان فتح هذا الجيش القرطاجنى لصقلية ، وإقفال هذا الأسطول حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى فى وجه التجارة الرومانية ، منشأ الصراع المرير الذى دام نحو مائة عام والمعروف باسم الحروب البونية الثلاث .

الفصل الثاني

رجيولوس Regulus

لقد ظلت الأمتان صديقتين طالما كان لإحدهما من القوة ما تستطيع به أن تسيطر على الأخرى . وقد عقدتا في عام ٥٠٨ معاهدة اغترفتا فيها بسيادة رومة على شاطئ لايبوم وتعهد فيها الرومان ألا يسبوا سفنهم في البحر الأبيض المتوسط غربي قرطاجنة ، وألا ينزلوا في سردانية أو لوبية إلا فترات قصيرة يصلحون فيها سفنهم أو يمونها (١٢) . ويقول أحد الجغرافيين اليونان إن القرطاجنيين اعتادوا أن يغرقوا كل بحار أجنبي يجدونه بين سردانية وجبل طارق (١٣) . وكان اليونان في مساليا *Massalia* (مرساليا) قد نشأت لهم تجارة شاطئية سلمية بين جنوبي غالة وشمالى أسبانيا الغربى ، وتروى الأخبار أن قرطاجنة كانت تحارب هذه التجارة حروب قرصنة ، وأن مساليا كانت حليفة وفيه لرومة (ولنا تدرى ما فى هذه الأخبار من دعاوة حرية يسمونها تاريخياً تكريراً لها ونعظماً) . أما وقد سيطرت رومة على جميع إيطاليا فلإنها لم تكن تشعر بالأمن والطمأنينة إلى سلامتها ما دامت هناك قوتان معاديتان لها — اليونان والقرطاجنيون — تملكان صقلية ، وهى لا تكاد تبعد عن ساحل إيطاليا بميل واحد . يضاف إلى هذا أن صقلية خصبة التربة ، فى وسعها أن تمون نصف إيطاليا بالحبوب ؛ وإذا ما استولت رومة على صقلية سقطت سردانية وقورسقة فى يدها من تلقاء نفسها . فها هو ذا طريق لا بد من سلوكه وهو الطريق الطبيعى لتوسع رومة وبسطة ملكها .

وقد بقى أن توجد الحجة التى تتلزعج بها رومة لإشعال نار الحرب . وقد جاءت هذه الحجة فى عام ٢٦٤ ق . م حين استولى جماعة من مرتزقة السمنين يسمون أنفسهم الممرتيين *Mamertines* أى « رجال المريخ » على بلدة مسانا

Messana الواقعة على أقرب سواحل صقلية لإيطاليا ، وذبحوا السكان اليونان أو أخرجوهم من البلدة ، واقتسموا فيما بينهم نساء هؤلاء الضحايا وأبناءهم وأملاكهم ، وجعلوا ديدنهم الإغارة على المدن اليونانية القريبة من تلك البلدة ، فما كان من هيرود الثاني Hiero II دكتاتور سرقوسة إلا أن حاصرهم ، ولكن قوة قرطاجنية نزلت في مسانا وردت هيرود على أعقابها واستولت على المدينة . واستغاث الممرطيون برومة وطلبوا إليها أن تعينهم على من أنقلوهم من عدوهم ؛ وتردد مجلس الشيوخ في تقديم هذه المعونة لأنه يعرف ما لقرطاجنة من قوة وثروة ، ولكن الأثرياء من العامة الذين كانوا يسيطرون على الجمعية المثوية أخذوا يدعون للحرب وللإستيلاء على صقلية ، وقر قرار رومة أن تبعد القرطاجنيين عن هذا الثغر ذى الموقع الحربى الهام القريب كل القرب منها مهما كلفها هذا من ثمن ؛ وجهزت رومة أسطولا وعقدت لواءه لكليوس كلودىوس Caius Claudius وسيرته لإنقاذ الممرطيين ، ولكن القرطاجنيين استطاعوا فى هذه الأثناء أن يقنعوا الممرطيين بالعدول عن طلب مساعدة رومة ، وأرسلوا رسالة بهذا المعنى إلى كلودىوس فى ريجيوم Rhegium . غير أن كلودىوس لم يلق بالآلى هذه الرسالة ، وعبر المضيق الذى يفصل إيطاليا عن صقلية ، ودعا أمير البحر القرطاجنى إلى المفاوضات ؛ فلما جاءه قبض عليه وسجنه ، وبعث إلى الجيش القرطاجنى يقول إنه سيقول أمير البحر إذا أبدى الجيش أية مقاومة ، ورحب الجنود المرتزقة بهذه الحجة التى تتيح لهم فرصة تجنب القتال مع الفيالق الرومانية ، وتظهرهم فى الوقت نفسه بمظهر الشهامة ، وسقطت مسانا فى يد رومة .

وبرز فى هذه الحرب الهونبة (الفينيقية) الأولى بطلان عظيمان هما رجيولوس الرومانى وهملكار القرطاجنى . ولعل فى وسعنا أن نضيف إليهما بطلا ثالثاً ورابعاً هما مجلس شيوخ رومة والشعب الرومانى . فأما مجلس الشيوخ فلأنه ضم هيرود صاحب سرقوسة إلى جانب رومة وضمن بذلك وصول العتاد والزاد إلى الجنود

الرومان في صقلية ، هذا إلى أنه قد نظم الأمة أحسن تنظيم قائم على الحكمة والسادات ، وقوى عزيمتها ، وقادها إلى النصر وسط الخطوب والأهوال الجسام هذا فضل مجلس الشيوخ ، أما الرومان أنفسهم فقد أمدوا الحكومة بالمال والعتاد والأيدى العاملة ، وبالرجال الذين بنوا الرومة أسطولها الأول— وكان مؤلفاً من ٣٣٠ سفينة كلها تقريباً ذات خمسة صفوف من المجذفين ، ويبلغ طول الواحدة منها ١٥٠ قدماً ، في كل منها ٣٠٠ مجذف و ١٢٠ جندياً ، ومعظمها مجهز بخطاطيف من الحديد لم تكن معروفة من قبل . ويجسور متحركة تمكنهم من الإمساك بسفن الأعداء والنزول إليها . وبهذه الطريقة بدل الرومان الحرب البحرية التي لم يألّفوها من قبل حرباً يرية يقاتلون فيها أعداءهم يدأ بيد ، وتستطيع فيها فيالقهم أن تستفيد بكل ما تمتاز به من مهارة وحسن نظام . ويقول بوليبيوس في هذا : « وبدل هذا الحادث أكثر مما يدل غيره من الحوادث على ما للرومان من جرأة وبسالة إذا ما اعتزموا القيام بعمل خطير . . . ذلك أنهم لم يفكروا قط قبل هذا الحرب في إنشاء أسطول ؛ فلما أن استقز رأيهم على إنشائه بذلوا في ذلك جهد الجلبارة ، وهاجموا به من فورهم القرطاجنيين الذين ظلوا عدة أجيال سادة البحار لا ينازعهم فيها منازع — مع أن الرومان لم تكن لهم في حرب البحار خبرة ما (١٤) » . والتقى الأسطولان بالقرب من إكثوموس Ecnomus أحد الثغور الواقعة على ساحل صقلية الجنوبي ؛ وكانا يحملان من الجنود ثلثمائة ألف . ودارت بينهما أكبر معركة بحرية في التاريخ القديم (٢٥٦) . وانتصر الرومان فيها انتصاراً مؤزراً حاسماً ساروا بعده إلى إفريقية لا يلوون على شيء ، ونزلوا إلى البر دون أن يعنوا باستطلاع الأرض ، فالتقوا بقوة تفوق قوتهم كادت تفنيهم عن آخرهم ، وأسرت قنصلهم الطائش المتهور . وبعد قليل من ذلك الوقت دفعت العواصف الأسطول الروماني إلى شاطئ صخري فتحطمت منه ٢٨٤ سفينة وغرق ٨٠,٠٠٠ من رجاله . وكانت هذه أعظم كارثة بحرية عرفها الناس في التاريخ . وأظهر

الرومان بعدها ما في طبائعهم من عزيمة فبنوا في ثلاثة أشهر مائتي سفينة جديدة ذات خمسة صفوف من المجذفين ، ودربوا لها ثمانين ألف بحار .

واحتفظ القرطاجنيون برجيولوس في الأسر خمس سنين ثم سمحوا له بأن يرافق بعثة قرطاجنية إلى رومة تعرض عليها الصلح بعد أن وعدهم بأن يعود إلى الأسر إذا رفض مجلس الشيوخ الشروط التي عرضوها عليه . فلما سمع رجيولوس هذه الشروط أشار على المجلس بأن يرفضها ، ثم عاد مع البعثة إلى قرطاجنة غير عابئ بتوسل أسرته وأصدقائه . وعذبه القرطاجنيون عذابا شديداً بأن حرموا عليه النوم حتى فارق الحياة (١٥) . وأمسك أبناؤه في رومة بأسيرين من ذوى المكانة في بلادها ووضعوهما في داخل صندوق ثبتت فيه حراب من الحديد ، وحرموا عليهما النوم حتى قضيا نحبهما (١٦) ، وليس في مقدورنا أن نصدق كلتا القصتين إلا حين نذكر ما حدث من التعذيب الهمجي في هذه الأيام (*) .

(*) يريد في الحروب العالمية الثانية .

الفصل الثالث

هملكار

لقد كان في قرطاجنة عدد كبير من أهلها يحملون أسماء هملكار وهزدروبال وهنيبال ، ذلك بأن هذه الأسماء لا يخلو منها جيل من الأجيال ، وكانت من الأسماء الشائعة في أقدم أسرها . وكانت أسماء تدل على التقى والصلاح ، ومشتقة من أسماء الآلهة : فأما هملكار فعناه : « من يتمتع بحماية ملكارت » ، وأما هزدروبال فعناه : « من في معونته بعل » ومعنى هنيبال « الفضل لبعل » . ولقب هملكار الذي نتحدث عنه في هذا الفصل بهملكار برقة(*) - « الصاعقة » وذلك لأنه كان من طبيعته أن يعجل بضرب عدوه ويفاجئه حيناً وجده . وكان لا يزال شاباً في مقتبل العمر حين ولته قرطاجنة في عام ٢٤٧ القيادة العليا لجيوشها ، فسار ومعه أسطول صغير نحو إيطاليا وأخذ يغير على سواحلها ويفاجئها بالنزول في أراضيها ، ويدمر المراكز الرومانية الأمامية ، ويأسر كثيراً من جنودها . ثم أنزل جنوده إلى البر في مواجهة جيش روماني كبير كان يحمي مدينة پنورمس Panormus (پلرمو Palermo الحالية) ، واستولى على ربوة تشرف على المدينة . وكانت القوة التي يقودها أصغر من أن تجازف بالاشتباك مع الرومان في واقعة كبرى ، ولكنها كانت تعود بالأسلاب كلما قادها لمهاجمتهم . وأخذ يرجو مجلس الشيوخ القرطاجني أن يبعث إليه بالأمداد والازاد ؛ ولكن المجلس لم يستجب لرجائه وقبض يده فلم يسعفه بالمال الذي كان يكتزّه ، وأمره أن يطعم جنوده ويكسوهم من مال البلاد التي حوله .

(*) وأكبر الظن أن كلمة « البرق » العربية ترجع هي وهذا اللفظ إلى

أصل واحد . (المترجم)

وكان الأسطول الروماني في هذه الأثناء قد انتصر في واقعة بحرية أخرى ، ولكنه هزم هزيمة منكرة عند درپانا Drepana (٢٤٩) ، وأضعفت هذه الحروب قوة الفريقين على السواء فاستراحا تسعة أعوام . ولم تفعل قرطاجنة شيئاً في هذه التسع السنين لأنها كانت تعتمد على عبقرية هملكار ، وأما رومة فإن جماعة من أبنائها قدموا للدولة طائعين عمارة مؤلفة من مائتي سفينة حربية وعليها ستون ألف جندي . وأبحرت هذه العمارة القوية ، دون أن يعلم أحد بإبحارها ، وباغتت الأسطول القرطاجني عند جزائر إيجاديا Aegadian Isles بالقرب من ساحل صقلية وأحدثت به فاضطرت قرطاجنة إلى طلب الصلح (٢٤١) ، ونزلت عن أملاكها في صقلية إلى رومة ، وتعهدت أن تؤدى لها غرامة حربية مقدارها ٤٤٠ تالنتاً في كل عام مدى عشر أعوام ، وألغت كل ما كان مفروضاً على التجارة الرومانية من قيود . وكانت الحرب قد دامت عشرين عاماً أو نحوها وأشرفت رومة في خلالها على هاوية الإفلاس حتى اضطرت إلى تخفيض قيمة نقدها بنحو ٨٣ ٪ ، ولكنها برهنت على ما في أخلاق الرومان من صلابة لا تلين ، وعلى تفوق الجيش المكون من رجال أحرار على مرتزقة الجند الذين يسعون للحصول على أعظم المغنم بأقل ما يمكن لإراقتهم من الدماء .

وأوشكت قرطاجنة أن تقضى عليها شراستها وأطماعها ، ذلك أنها كانت قد قبضت يدها بعض الوقت عن جنودها المرتزقين ، فلم تؤد إليهم أجورهم ، ولم تستثن من هؤلاء من أخلصوا في خدمة هملكار . فأقبلت جموعهم على المدينة يطالبون بتلك الأجور . ولما تلكأت الحكومة في إجابة مطلبهم وحاولت أن تفرقهم تمردوا عليها جبهة . وانضمت الشعوب الخاضعة لقرطاجنة إلى هؤلاء العصاة ، وكانت قد أبهظها عبء الضرائب الفادحة الذي رزحت تحته طوال الحرب وباعت . نساء لوبيا حلين لتمد الثوار بالمال ، وحاصر قرطاجنة عشرون ألفاً من الجنود المرتزقين والثوار يقودهم ماثو Matho وهو لوبي محررو اسپنديوس

Spendius وهو عبد كيباني Campanian وكان ذلك الحصار في وقت لا يكاد يوجد فيها جندي يحميها . وارتعدت فرائص التجار الأغنياء فرقاً وخشوا أن يقضى عليهم الثوار ، فأرسلوا في طلب هملكار ليؤمنهم على حياتهم . وألقى هملكار نفسه يتنازعه عطفه على جنوده المرتزقة وحبه لمدينته ، ولكنه أثر مدينته على جنده وجند جيشاً من عشرة آلاف قرطاجني ودرهم ، وقادهم بنفسه ، ورفع الحصار عن المدينة . وأرتد الجنود المرتزقون المهزومون إلى الجبال ، وقطعوا يدي هيسكو Gesco أحد القواد القرطاجنيين وقدميه ، وكسروا ساقيه ، وفعلوا ذلك الفعل نفسه بسبعائة أسير غيره ، ثم ألقوا بمن بقي منهم أحياء في قبر واحد بلا تمييز بينهم (١٧) . واحتال هملكار على أربعين ألفاً من العصاة حتى اضطروهم إلى الالتجاء إلى مضيق ، وسد عليهم مسالكه حتى أوشكوا على الهلاك من الجوع ، فأكلوا من بقي لديهم من الأسرى ، ثم أكلوا عبيدهم ، واضطروا في آخر الأمر أن يرسلوا أسينديوس Spendius بطلب الصلح ، فما كان من هملكار إلا أن صلب أسينديوس وألقى بمئات من الأسرى تحت أرجل الفيلة ، وظلت تطوهم حتى قضوا نحبهم . وحاول العصاة أن يشقوا لهم بالقوة مخرجاً من مأزقهم الذي وقعوا فيه ، ولكن جيش هملكار قطع أوصالهم ، وقبض على مائو وأرغمه على أن يعدو في شوارع قرطاجنة وأهلها من ورائه يضربونه بالسياط ويعذبونه حتى مات (١٨) . ودامت « حرب المرتزقة » هذه أربعين شهراً (٢٤١ - ٢٣٧) ، ويقول پولبيوس إنها كانت أفظع الحروب وأشدّها وحشية ، وإن ما سفك فيها من الدماء لم يسفك مثله في التاريخ كله (١٩) . ولما أن نحدث نار الفتنة وجدت قرطاجنة أن الرومان قد احتلوا سردانبة . فلما احتجت على هذا الاعتداء أعلن الرومان الحرب عليها . واضطر القرطاجنيون في بأسهم إلى طلب الصلح ولم ينالوه إلا بأن يؤدوا لرومة فوق ما كانوا يؤدون لها من الغرامة ١٢٠٠ تالنت ، وأن يتخلوا عن سردانبة وقورسقة .

وفي وسعنا أن نتصور غضب هملكار من هذه المعاملة القاسية التي عوملت بها بلاده . فعرض على حكومته أن تمده بالجنود والمال ليعيد قوة قرطاجنة في أسبانيا وليستعين بها على مهاجمة إيطاليا . وعارض الملاك الأشراف في هذه الخطة لأنهم كانوا يخافون مغبة الحرب ، ولكن طبقة التجار التي حز في نفوسها ما فقدته من الأسواق والثغور الأجنبية أيدته . وتراضت الفئتان بعدئذ على أن يعطى هملكار قوة صغيرة عبر بها البحر إلى أسبانيا (٢٣٨) ، واستولى على المدن التي كان ولاؤها لقرطاجنة قد تزعزع في أثناء الحرب ؛ وقوى صفوف جيشه بأهلها ، وجهزه وأمد بالمال من غلات المناجم الأسبانية ، ومات وهو يقود هجوماً على إحدى قبائل تلك البلاد (٢٢٩) .

ونترك وراءه في معسكره هزدروبال زوج ابنته وأولاده هنيبال وهزدروبال وماجو - الملقب « بابن أسده » . واختير زوج ابنته قائداً في مكانه ، وظل ثمانين سنة يحكم البلاد بحكمة وسداد كسب في أثناءها معونة الأسبان ، وأقام بجوار مناجم الفضة مدينة عظيمة يعرفها الرومان باسم قرطاجنة الجديدة (Nova Carthage) وهي مدينة قرطاجنة الباقية إلى اليوم . ولما اغتيل في عام ٢٢١ اختار الجيش لقيادته هنيبال أكبر أبناء هملكار ، وكان وقتئذ في السادسة والعشرين من عمره . وكان أبوه قد جاء به قبل أن يغادر قرطاجنة ، وهو لا يزال غلاماً في التاسعة من عمره ، إلى مذبح بعل - هامان واستحلفه أن يثأر لبلاده من رومة في يوم من الأيام .

تقسم هنيبال ولم ينس قط قسمه .

الفصل الرابع

هنيبال

نرى لم سكنت رومة حتى عادت قرطاجنة الى فتح أسبانيا ؟ لقد أرغمها على هذا السكوت أن النزاع بين الطبقات كان يمزق أحشاءها ، وأنها كانت تمد سلطانها على شواطئ البحر الأدرياي ، وكانت مشتبكة في حرب مع الغالين . ذلك أن أحد التريونين وهو كيوس فلاميئوس *Gaius Flaminius* قد سبق ابنى جراكس *Gracchii* فأقنع الجمعية في عام ٢٣٢ بالموافقة على اقتراح يقضى بتوزيع أراضي غنمتها رومة من الغالين على فقراء المواطنين ، وذلك بالرغم من معارضة مجلس الشيوخ الشديدة لهذا الاقتراح . وفي عام ٢٣٠ خطت رومة الخطوة الأولى لفتح بلاد اليونان ، وذلك بتطهير البحر الأدرياي من القراصنة وباستيلائها على جزء من سواحل ألبانيا *Illyria* لتحمي بذلك التجارة الإيطالية من العدوان . ولما أن اطمانت على سلامتها من ناحيتي الجنوب والشرق اعتزمت أن تطرد الغالين إلى ما وراء جبال الألب ، وتجعل من إيطاليا بأكملها دولة متحدة كل الاتحاد . وأرادت أن تضمن سلامتها من ناحية الغرب فعقدت معاهدة مع هزدروبال تعهد فيها القرطاجنيون بأن يبقوا جنوب نهر الإبرة *Ebro* ، وعقدت في الوقت نفسه حلفاً مع مدينتي ساجنتم *Saguntum* وامبورياس *Ampurias* الأسبانييتين الإغريقيتين الصبغة . ولكن جيشاً غالباً مؤلفاً من خمسين ألفاً من المشاة وعشرين ألفاً من الفرسان انقض على شبه الجزيرة من الشمال . وارتاع سكان العاصمة أشد الارتياح ، ولجأ مجلس الشيوخ إلى العادة البدائية عادة التضحية البشرية ، ودفن اثنين من الغالة حين في السوق العامة مرضاة للآلهة (٢٠) . والتقت القبائل الرومانية بالغزاة قرب تلامون *Telamon* وقتلت منهم أربعين ألفاً وأسرت عشرة

آلاف ، وزحفت نحو الشمال لتخضع جميع بلاد الغالين الواقعة في جنوب جبال الألب ، وأتمت هذا العمل في ثلاث سنين وأنشأت مستعمرات رومانية عند بلاسنتيا Placentia وكرمونا Cremona لحماية البلاد من الغالين وبذلك أصبحت إيطاليا دولة واحدة تمتد من جبال الألب في الشمال إلى صقلية في الجنوب .

ولكن هذا النصر قد جاء في غير أوانه ؛ فلو أن الغالين قد تركوا في أماكنهم بضع سنين أخرى لكان في وسعهم أن يقفوا في وجه هنيبال ؛ أما الحال كما هي فإن بلاد الغالة كلها كانت تضطرم بنار الثورة على رومة . ورأى هنيبال أن هذه هي الفرصة التي طالما تآقت نفسه إليها - فرصة اجتياز بلاد الغالين دون أن يلقي مقاومة تستحق الذكر ، وغزو إيطاليا ومعه القبائل العالية تحالفه وتشد أزره .

وكان القائد البروني يومئذ في الثامنة والعشرين من عمره ، وفي عنفوان شبابه ، وثيق الأركان ثبت الجنان . وكان قد جمع إلى ثقافة السادة القرطاجنيين ، وتمكنهم من لغتي فينيقية واليونان وأدبهما وتاريخهما (٢١) ، جمع إلى هذه الثقافة تدريباً عسكرياً دام تسعة عشر عاماً في المعسكر الحربي ، أدب في خلالها نفسه أحسن تأديب ، فعود جسمه شظف العيش ومغالبة الصعاب ، وأخضع شهواته لعقله ، وغود لسانه السكوت ، كما عود أفكاره أن تركز فيما يهدف إليه من الأغراض . ولم يكن يضارعه أحد في الجري أو في سباق الخيل ، وكان في مقدوره أن يخرج إلى الصيد أو القتال مع أشجع الشجعان ؛ ويصفه لبيى وهو من أعدائه بأنه : « كان أول من يدخل المعركة ، وآخر من يخرج من الميدان (٢٢) » . وكان محبباً إلى القواد والجنود الذين ضرستهم الحروب ، لأنهم إذا كانوا في حضرته تملكهم هيئته وثاقب نظراته فخالوا أن هملكار قائدهم الأكبر قد عاد إليهم في عنفوان الشباب . وأحبه المجندون الجدد لأنه لم يكن يرتدى ثياباً يميز

بها نفسه منهم ولا يستريح حتى يكفل للجيش كل حاجاته ، وكان يقاسمهم كل ما يصيبهم من شر وخير . أما الرومان فكانوا يتهمونهم بالبخل والقسوة والغدر ، لأنه لم يكن يتقيد بمبدأ من المبادئ يحول بينه وبين الاستيلاء على المؤن لحنדה ، وكان يجازى على الخيانة وعدم الولاء أشد الجزاء ، وكان ينصب لأعدائه كثيراً من الشرك . ولكننا كثيراً ما نجد مشفقاً رحيماً ، ونراه على الدوام شهماً ذا مروءة . ويقول عنه Mommsen :
ذلك القول الحكيم وهو « أنه ليس فيها يروى عنه شيء لا يمكن أن تبرره ظروف وقته والقوانين الدولية التي كانت سائدة في أيامه (٢٣) » . ولم يكن في وسع الرومان أن يرضوا عنه لأنه كان يكسب الوقائع الحربية بعقله بدماء رجاله ، ذلك أن الخيل التي كان يحتال بها عليهم ، ومهارته في التجسس عليهم ومعرفة أسرارهم ، وعلمه بفنون الحرب والحركات العسكرية ، وقدرته على مباغتة أعدائه ، كل هذا ظل فوق إدراكهم وتقديرهم حتى دمرت قرطاجنة .

وحدث في عام ٢١٩ ق . م أن دبر عمال رومة في سجنتم انقلاباً سياسياً أقام في المدينة حكومة وطنية معادية لقرطاجنة . ولما أساء أهل المدينة معاملة بعض القبائل الموالية لهنيبال ، أمرهم بالكف عن هذه المعاملة السيئة ، فلما رفضوا طلبه حاصر المدينة ، فاحتجت رومة على قرطاجنة وأعلنت الحرب ، فكان رد قرطاجنة أن سجنتم تبعد عن نهر Ebro مائة ميل نحو الجنوب ، وأن ليس من حق رومة أن تتدخل في هذا النزاع ، وأنها إذ وقعت معاهدة مع تلك المدينة أخلت بشروط معاهدتها مع هزدروبال . وواصل هنيبال الحصار ، وامتشتت رومة الحسام مرة أخرى ، وهي لا تدري أن هذه الحرب الهونية الثانية ستكون أشد هولاً من جميع الحروب التي خاضت عمارها في تاريخها كله .

وقضى هنيبال في إخضاع أهل سجنتم ثمانية أشهر كاملة ، وذلك لأنه لم يكن يجرؤ على التقدم لغزو إيطاليا ويترك لرومة من ورائه ثغراً هاماً

تستطيع أن تنزل جنودها فيه . فلما تم له الاستيلاء عليها عبر نهر الإبرة في عام ٢١٨ ونحذى الأقدار كما تحداها قيصر من بعده حين تخطى الريبكون(*) Rubicon وكان تحت قيادته جيش يتألف من خمسين ألفاً من المشاة وتسعة آلاف من الفرسان ، ليس فيهم أحد من الجنود المرتزقين ، ومعظمهم من الأسبان واللوبيين . ولكن ثلاثة آلاف من جنوده الإسبان نكصوا على أعقابهم حين علموا أنه ينتوى عبور جبال الألب ؛ وسرح هو نفسه سبعة آلاف غيرهم لأنهم احتجوا على هذه المغامرة ، وقالوا إنها مستحيلة التحقيق(٢٤) . وكان اختراق جبال البرانس نفسها من أشق الأعمال ؛ ولم يكن يتوقع قط أن يلتقي ما لقبه من المقاومة الشديدة من بعض قبائل الغالين أحلاف مرسيلية ؛ واقتضاه الوصول إلى نهر الرون حروباً دامت ثمانية أشهر ، فلما وصله كان لا بد له من معركة عنيفة ليتمكن من اجتيازه . وما كاد يبتعد عن شاطئه حتى وصل جيش روماني عند مصبه .

وانتهى هنيبال بحيشه شمالاً نحو فين Vienne ثم اتجه به شرقاً نحو جبال الألب . وكانت جموع من الكلت قد عبرت هذه السلاسل الجبلية من قبله . وكان في مقدوره هو أن يعبرها دون أن يلقى في سبيل ذلك صعباً غير عادية لولا عداء القبائل الألبية وما عاناه من الصعاب في تسيير فيلته في الممرات الضيقة أو الشديدة الانحدار . وقضى هنيبال في تسلق الجبال تسعة أيام وصل بعدها في أوائل شهر سبتمبر إلى قممها فوجدتها مغطاة بالثلوج ؛ وبعد أن استراح هو ورجاله ودوابه يومين شرع في النزول في ممرات أشد وعورة من التي سلكها في الصعود ، وطرق مغطاة في بعض الأحيان بجلاميد من الصخر ومرصوفة في أحيان أخرى بالجليد . وكثيراً ما كانت تزال أقدام الجنود والدواب فتتردى في هاويات سحيقة تلتقي فيها حتفها . وكان هنيبال يستحث جنوده اليائسين بأن يشير إلى الحشود الناضرة والمجاري المتلاثلة التي تنتشر من بعيد في جنوب الجبال ، ويقول

(*) انظر هذا في تاريخ قيصر فيما بعد . (المترجم)

إن هذه اللجنة التي وعدهم بها سوف تكون لهم بعد قليل . وبعد أن قضوا سبعة عشر يوماً في الصعود والهبوط وصلوا إلى السهول ، وألقوا عصا التسيار ليستريحوا ، وقد خسر الجيش في هذه المجازفة الخطيرة كثيراً من الرجال والجياد حتى لم يبق من الجنود إلا ستة وعشرون ألفاً أى أقل من نصف القوة التي غادر بها قرطاجنة الجديدة منذ أربعة شهور . ولو أن هنيبال لقي من الغاليين في جنوب الأرض مثل ما لقيه من مقاومة الغاليين في غربها لكان الأرجح أن تنتهى حملته قبل أن يتقدم جنوباً في إيطاليا ولكن البوئي Boii وغيرهم من القبائل رحبوا به ورأوا فيه منقلاً لهم ، فتحالفوا معه وانضوا تحت لوائه ، وأما المستعمرون الرومان المحدثون الذين أسكنتهم رومة في تلك البلاد فقد فروا أمامه نحو الجنوب ، ولم يقفوا حتى عبروا نهر الپو Po .

وهكذا واجه مجلس الشيوخ هذا الخطر الثاني يهدد رومة بالدمار والفناء ولما يئس على الخطر الأول إلا نحو سبع سنين ، فاستعان بموارد البلاد كلها ، وأهاب بالولايات الإيطالية أن توحد جهودها للدفاع عن بلادها . وبفضل ما لقيته من معاونتها جندت رومة جيوشاً بلغت عدتها ثلثمائة ألف من المشاة ، وأربعة عشر ألفاً من الفرسان ، وستة وخمسين ألفاً وأربعمائة ألف من الجنود الاحتياطيين . والتقى أحد الجيوش الرومانية بقيادة سڤيو Scipio - وهو واحد من كثير من مشهورى القواد المسلمين بهذا الاسم - على شاطئ نهر تسيڤو Ticino ، وهو رافد صغير من روافد نهر الپو يلتقى به عند ڤافيا Pavia . وهاجم فرسان هنيبال النوميديون Numidian جنود سڤيو وولولهم الأدبار ، وجرح سڤيو جرحاً خطيراً ، وكاد أعداؤه يجهزون عليه لولا شجاعة ولده الذى شاءت الأقدار أن يلتقى هنيبال مرة أخرى عند زاما Zama بعد ستة أشهر من ذلك الوقت . والتقى هنيبال بجيش روماني آخر عند بحيرة ترزيمينى Trasimene تبلغ عدته ثلاثين ألف مقاتل يقوده لربيون كيروس . فقتل Caius Flaminius ، وابتلع عدد من النخاسين

يحملون الأغلال ليسلكوا فيها الأسرى الذين يأملون أن يبيعوهم في الأسواق. يبع العبيد . واستطاع هنيبال ومعه جزء من جيشه أن يخدع جيش فلامينيوس فيستدرجه إلى سهل تكتنفه التلال والغابات اختبأ فيها معظم جنوده ، فلما ضمه هذا السهل أشار إلى طوابيره المختبئة فانقضت على الرومان من كل الجهات وأفتتهم عن آخرهم تقريباً ، وقتل فلامينيوس نفسه (٢١٧) .

وبذلك سيطر هنيبال على شمال إيطاليا كله ، ولكنه كان يعرف أن أمامه عدواً عنيداً يبلغ عدده عشرة أضعاف عدد رجاله ، وكان أملة الوحيد في التغلب على هذا العدو هو أن يقنع بعض الولايات الإيطالية بالخروج على رومة . وكانت وسيلته إلى هذا أن أطلق سراح كل من وقع في أسره من أحلاف رومة ، وقال إنه لم يأت ليحارب إيطاليا بل جاء ليحررها من الاستعمار . ثم خاض إتروريا التي كانت تغمرها المياه ، وظل أربعة أيام كاملة لا يجد أرضاً جافة يقيم فيها معسكره ، فعبر جبال الأبين إلى شاطئ البحر الأدرياتي ، حيث سمح لجنوده أن يقضوا فترة طويلة يستعيدون فيها نشاطهم ، ويدأون فيها جراحهم ، وكان هو نفسه مصاباً برمد خطير في عينيه ، ولكنه لم يعالجه فانهى بفقد إحداها . وبعد أن استراح جيشه اتجه به نحو الجنوب بمحاذاة ساحل إيطاليا الشرقي ، وأخذ يعرض على القبائل الإيطالية أن تنضوى تحت لوائه ، ولكن واحدة منها لم تستجب لدعوته ، بل فعلت عكس هذا فكانت كل مدينة تغلق أبوابها دونه وتتأهب للقتال . وحينما اتجه إلى الجنوب أخذ حلفاؤه الغاليون يتخلون عنه لأنهم لم يكن يعينهم إلا مصير موطنهم في الشمال . وبلغ من كثرة المؤامرات التي دبرت لاغتياله أن صار يتخفى في كل يوم بشكل جديد . وأخذ يتوسل إلى حكومته أن ترسل إليه المدد والعناد والزاد عن طريق أحد الثغور الواقعة على البحر الأدرياتي ، ولكن حكومته خبت رجاءه ، فطلب إلى هزدروبال أخيه الأصغر — وكان قد تركه في أسبانيا — أن يعد فيها جيشاً يعبر به بلاد غالة وجبال الألب وينضم

إليه ؛ ولكن الرومان كانوا قد غزوا أسبانيا ، فلم يجرؤ هزدروبال على مغادرتها ؛ ومضت عشر سنين قبل أن يخف إلى نجدته .

واستعانت رومة على عدوها الأكبر بخطته هو نفسه ، خطة المراوغة

والحيطة والإفناء البطيء . واختير كونتس فاييوس مكسموس **Quintus Fabius**

Makimus دكتاتوراً لعلاج الموقف في عام ٢١٧ ، فاتبع خطة تقضى بأن

يؤخر ما استطاع الانتحام في واقعة فاصلة مع هنيبال . ونجح في هذا نجاحاً

اشتق معه من اسمه وصف لهذا النوع من القتال . وكان فاييوس يرى أن

الغزاة سيتناقص عددهم على مر الأيام بفعل الجوع والمرض والشقاق ،

ولكن الشعب الروماني لم يطق صبراً على خطة « السكون السديدة » أكثر من

عام ؛ وتغلبت الجمعية المثوية على مجلس الشيوخ وعلى منطلق الحوادث

والسوابق جميعها ، واختارت منوسيوس روفوس **Minucius Rufus** دكتاتوراً

مع فاييوس . وسار منوسيوس للملاقاة العدو على الرغم من نصيحة فاييوس ،

فوقع في كمين وهزم هزيمة منكرة أدرك بعدها لم قال هنيبال إنه يخشى

فاييوس الذي لم يحاربه أشد مما يخشى مرسلس **Marcellus** الذي يغزو

حربه (٢٥) . وبعد عام واحد أسقط الرومان فاييوس وعهدوا إلى لوسيوس

إيميلوس پولوس **Lucius Aemilius Paulus** ، وكبوس ترتيدوس فارو

Caius Terentius Varro قيادة الجيوش الرومانية . وأشار پولوس

الأرستقراطي بالحيطة والتريث ، أما فارو مختار العامة فكان شديد الرغبة

في العمل العاجل ، وحدث ما يحدث عادة في مثل هذه الأحوال فتغلب

الرأى الأخير ، وأخذ فارو يبحث عن القرطاجنيين حتى وجدهم عند

كانى **Cannae** من أعمال أبوليا **Apulia** على بعد عشرة أميال أو نحو

من شاطئ البحر الأدرياي . وكان قوام الجيش الروماني ثمانين ألف

راجل وستة آلاف فارس ؛ أما هنيبال فكان لديه تسعة عشر ألف جندي

ممن ضرستهم الحروب ، وستة عشر ألفاً من الغاليين الذين لا يوثق بهم ،

وعشرة آلاف من الفرسان ؛ وكان قد خدع فارو حتى جعله يحاربه في سهل

متسع هو أحسن المواضع لحرب الفرسان ، وكان قد وضع الغالين في القلب لظنه أنهم سيتخلون عن مواقعهم ؛ وقد صدق ظنه فتراجعوا واقتفى الرومان أثرهم في الثغرة التي حدثت بانسحابهم ، فأمر القائد القرطاجنى الماكر مضرسة جنده بالإطباق على جناحى الجيش الرومانى ، وخاض بنفسه غمار المعركة فى أشد أماكنها هولاً ، كما أمر فرسانه باختراق صفوف فرسان العدو ومهاجمة الفيالق الرومانية من خلفها ، وبذلك أحاط القرطاجنيون بالجيش الرومانى ، ولم يجد له فرصة للتحرك ، وكاد يفنى عن آخره ؛ فقد قتل من رجاله أربعة وأربعون ألفاً ، من بينهم پولوس Paulus وثمانون من الشيوخ الذين تطوعوا فى الجيش ، وفر عشرة آلاف إلى كنوزيوم Canusium ومن بينهم قارو وسبيو الذى لقب فيما بعد بالإفريقى الأكبر Africanus Major (٢١٦) . أما هنيبال فقد خسر من رجاله ستة آلاف ثلاثهم من الغالين . وكان نصره هذا شاهداً فذاً على براعته فى القيادة التى لم يتفوق عليه أحد فيها فى التاريخ كله . ولم يعد الرومان بعد هذا النصر يعتمدون قط على الجنود المشاة ، كما أن هذا النصر وجه الحركات العسكرية الفنية وجهة لم تتحول عنها مدى ألفى عام .

الفصل الخامس

سيليو

وزعزعت هذه الكارثة هنية رومة في جنوبي إيطاليا وضعضعت سلطاتها ، فانضم السمنيون والبروتيون واللوكانيون وأهل متابنتم ، وثوراي ، وكروتونا ، ولوكري ، وكبوالا ، إلى الغاليين الجنوبيين في حلفهم مع هنيبال ، ولم يثبت على الولاء لرومة إلا أمبريا ، ولانيوم ، ولاروريا . وظل هرو صاحب سرقوسة وفيأ حتى مماته ، ولكن خلفه جبهه بانضمامه إلى قرطاجنة . وتحالف فيلب الخامس ملك مقدونية مع هنيبال لأنه كان يخشى أن يبسط رومة سلطاتها على البلاد الواقعة في شرق أوربا عن طريق إيليريا Illyria ، وأعلن الحرب على رومة . وأظهرت قرطاجنة نفسها شيئاً من الاهتمام بالأمر فبعثت إلى هنيبال بقليل من الزاد والعتاد ، وظن بعض الشبان من النبلاء الذين نجوا من كارثة كنوزيوم أن لا أمل لرومة في النجاة ، وفكروا في الهرب إلى بلاد اليونان ، ولكن سيليو ظل يندد بموقفهم حتى استحووا ودبت فيهم روح الشجاعة ، وقضت رومة شهراً كاملاً وهي في أشد حالات الروع ، ولم يكن فيها إلا حامية قليلة تدفع عنها هنيبال إذا ما هاجها . وهرعت كرائم العقائل إلى الهياكل يبكين وينظفن بشعورهن تماثيل الآلهة ، وعاشرت بعض النساء اللائي قتل أزواجهن وأبناؤهن في الحروب الأجانب والرقيق خشية أن ينقطع نسلهن ، وظن مجلس الشيوخ أن الآلهة غضبي فأحل مرة أخرى التضحية بالآدميين مرضاة لها ، وأمر بدفن اثنين من الغاليين واثنين من اليونان أحياء (٣٦) .

ولكن الرومان على حد قول بوليبيوس إنما يخشون أشد الخشية في ساعة

(•) Samnites, Bruttians, Lucanians, Metapontum, Thurii, Crotone, Locri, Capua

المحنة : : : : : وشاهد ذلك أنهم وإن منوا بأشد الهزائم ، وخسروا سمعهم الحربية ، استطاعوا ، بفضل ما كان لدستورهم من المزايا التي لا يشاركه فيها دستور غيره ، وبالإستماع إلى حسن المشورة ، أن يستردوا سيادتهم على إيطاليا : : : . وأن يصبحوا بعد قليل من السنين سادة العالم (٢٧) . وفي هذه الساعة الرهيبة سكنت حرب الطبقات ، وتنافست كل الطوائف للعمل على إنقاذ الدولة . وكانت الضرائب قبل ذلك الوقت قد ارتفعت حتى ظن أنهم لن يطبقوها ، ولكن السكان ، ومنهم الأراذل والأطفال ، تقدموا راضين لخزانة الدولة بما كانوا قد ادخروه لأيام الشدة . وجند كل رجل قادر على حمل السلاح ، وحتى الأرقاء قد قبلوا في الفيالق ووعدهم أسيادهم بأن يهبهم حريتهم إذا كتب النصر لرومة ، ولم يرض جندي واحد أن يتناول عن عمله أجراً ، واستعدت رومة لتنازع أسد قرطاجنة الجليد كل شهر من أرضها ،

وانتظرت رومة مجيء هنيبال ، ولكن هنيبال ، لم يأت إليها فقد ظن أن قوته المؤلفة من أربعين ألف مقاتل أقل من أن تحاصر مدينة تتجمع للدفاع عنها جيوش من جميع الولايات التي لا تزال موالية لها ، ولا يستطيع الاحتفاظ بها لو أنه استولى عليها . هذا إلى أن أحلافه من الإيطاليين لم يكونوا مصدر قوة له بل كانوا مصدر ضعف ، فقد كانت رومة وأصدقائها بعدان العدة لمهاجمة أولئك الأحلاف ، وإذا لم يخف هو لشجبتهم فسيفضي عليهم . وقد لامه رجاله على حذره وبطئه ، وقال له واحد منهم والأسف لحز في نفسه : « إن الآلهة لم تمنح كل مواهبها لرجل واحد ، إنك يا هنيبال تعرف كيف تنال النصر ، ولكنك لا تعرف كيف تنتفع به (٢٨) » . لكن هنيبال استقر رأيه على أن ينتظر حتى تنضم إليه قرطاجنة ومقدونية ، وسرقوسة فيؤلف منها حلفاً ثلاثياً يستعيد به صقلية وسردانية ، وقورسقة ، وإليريا فلا يكون لرومة قوة إلا في إيطاليا . وبدأ بإطلاق الأسرى جميعهم عدا الرومان ، وحتى هؤلاء عرضهم على رومة نظير فدية قليلة

فلما رفض مجلس الشيوخ أن يفتديهم أرسل معظمهم عبداً إلى قرطاجنة ، وأرغم الباقين على أن يسلموا رجاله بأن يصارع بعضهم بعضاً في حلبة الجلال حتى الممات كما يفعل الرومان . ثم أحاط بعبدة مدن واستولى عليها وسار بجيوشه ليقضى الشتاء في كبوا Capua .

وكانت كبوا أجل المدن التي كان في مقدوره أن يختارها لهذه الغاية وأشدّها خطر عليه ؛ ذلك أن هذه المدينة ، وهي ثانية المدن الإيطالية ، والتي تبعد عن نابلي نحو اثني عشر ميلاً إلى الشمال ، قد أخذت عن التيسكانيين واليونان رذائل الحضارة كما أخذت عنهم فضائلها ؛ وأحس جنود هنيبال أن من حقهم أن يستمعوا في ذلك الفصل بالملاذ الجسمية بعدما قاسوا من الصعاب وما أُلْحِنُوا من الجراح ؛ ولم يعودوا كما كانوا من قبل أولئك الجند الشداد الذين لا يقهرون ، والذين احتفظوا طوال ما خاضوه من الحروب بالصورة الاسبارطية التي كانت في اعتقاد قائدهم هي وحدها صورة الجندي الحق . وقادهم هنيبال في خلال الخمس السنين التالية وانتصر بهم في بعض الوقائع الصغيرة ، وفي هذه الأثناء ضرب الرومان الحصار على كبوا . وأراد هنيبال أن يرفع عنها الحصار فتقدم إلى رومة حتى لم يبق بينه وبينها إلا بضعة أميال ؛ وجند الرومان خمسا وعشرين فرقة جديدة - أي مائتي ألف رجل ، ولم تكن قوة هنيبال قد زادت على أربعين ألفاً ، فاضطر إلى الانسحاب نحو الجنوب . وسقطت كبوا في أيدي الرومان عام ٢١١ ، وقطعت رؤوس زعمائها الذين أباحوا قتل من كان من الرومان في المدينة ؛ ومن لم يقتل منهم انتحر ؛ وشتت أهلها الذين ناصروا هنيبال في جميع أنحاء إيطاليا ، وكان مرسلس Marcellus قبل عام واحد من ذلك الوقت قد استولى على سرقروسة وبعد عام منه استسلمت أرجنتم لرومة ؛

وأرسل إلى أسبانيا في هذه الأثناء جيش روماني بقيادة سيبو وأخيه الكبيرين ليناوشا هزدروبال ويشغلاه ، فهزماه عند نهر أبره (٢١٥) ، ولكن القائدين قتلا في الميدان بعد قتيل ، وكادت تضيع ثمار ماكسباه

من النصر لولا أن أرسل إلى أسبانيا سيپيو الإفريقي Scipio Africanus ،
ابن أحد القائدين وابن أخ الثاني ، ليتولى قيادة الجيوش الرومانية فيها ،
وأن يكن سيپيو هذا قد تجاوز الرابعة والعشرين من عمره في ذلك الوقت ،
ولم تكن هذه السن تجيز له من الوجهة القانونية أن يشغل هذا المنصب
الخطير ؛ ولكن مجلس الشيوخ كان في ذلك الوقت لا يرى ضيراً في
أن يتجاوز عن حرفة المستور إذا كان في ذلك التجاوز نجاة للدولة ،
وكانت الجمعية قد رضيت مختارة أن تخضع لإرادة مجلس الشيوخ ، ولم
يكن الشعب يعجب به لبهاء طلعه وفصاحته وذكائه وشجاعته
فحسب ، بل كان يعجب به كذلك لتقواه ، وعدالته ، وبشاشته . وكان
من عادته قبل أن يقدم على أمر خطير أن يناجي الآلهة في الهياكل المقامة
على الكبتول ، كما كان من عادته بعد أن ينال النصر أن يكافئها بذبح
سئات من الثيران قرباناً لها . وكان يعتقد ، أولغله كان يتظاهر بالاعتقاد ،
أنه محبوب الآلهة ؛ وكانت انتصاراته سبباً في انتشار هذه العقيدة بين
أتباعه فلأثرت قلوبهم ثقة به . ومالبت أن أعاد النظام إلى الجيش ، واستولى على
نوقا كرتاجون (قرطاجنة الجديدة) بعد حصار طويل ، وحرص على أن
يبعث إلى خزانة الدولة بما وقع في يديه بعد سقوطها من المعادن الثمينة
والحجارة الكريمة ، واستسلمت له بعدئذ معظم المدن الأسبانية ، ولم يحل
عام ٢٠٥ حتى كانت أسبانيا ولاية رومانية .

ولكن قوة هزدروبال الرئيسية كانت قد أفلتت من يد سيپيو واجتازت
بلاد غالة وعبرت جبال الألب إلى إيطاليا . ووقعت الرسالة التي بعث
بها القائد الشاب لهنيال في يد الرومان وعرفت رومة خططه الحربية ،
والتقى جيش روماني ببناته الصغيرة عند نهر متورس Metaurus (٢٠٧)
وهزمته رغم مهارته في القيادة . ولما رأى هزدروبال أن قد حاقت به
المزيمة وأن لا أمل له في الوصول إلى أخيه ، قفز في وسط الفيالق
الرومانية حيث لقي حتفه . ويقول المؤرخون الرومان — ولعل
أهمهم — إن القائد المنتصر قطع رأس القائد الشاب ،

وبعث بها بطريق أبوليا ليقذف بها من فوق الأسوار في معسكر هنيبال ولما علم ذلك القائد بما حل بأخيه ، وكان يحبه أشد الحب ، فت في عضده ، وطفقت بمرته ، فسحب قواته ، وكانت قد قل عديدها ، إلى بروتيوم Bruttium : ويقول ليفي إن « الرومان لم يشتبكوا معه في حرب في ذلك العام ، ولأنهم لم يجرؤوا على مناوشته ، وذلك لما عرف عن قواته من البسالة وإن كان ركنه قد تضعضع وأخذت الأقدار تعاكسه ، وبدأ نجمه في الأفول (٢٩) » . وأرسلت إليه قرطاجنة مائة سفينة محملة بالزاد والرجال ؛ ولكن عاصفة هوجاء ساقتها إلى سردانية فالتقت فيها بعمارة بحرية رومانية أغرقت وأسرت منها ثمانين ، وانطلقت السفن الباقية عائدة إلى بلادها .

واختير سيبو الأصغر قنصلا في عام ٢٠٥ ولما يمض على انتصاره في أسبانيا إلا وقت قصير ، فجند جيشاً جديداً وأبحر به إلى إفريقيا . وطلبت الحكومة القرطاجنية إلى هنيبال أن يعود إلى بلاده ليدافع عن المدينة التي ظلت زمناً طويلاً ترفض معاونته . ترى ماذا كان شعور هذا الجندي الأعور وقد تألب عليه أعداء لا حصر لهم فساوقوه إلى ركن قصي في إيطاليا ، وشاهد بعينه ما بذله من الجهد وما عاناه من المشاق خلال خمسة عشر عاماً كاملة ينتهي إلى لا شيء ، وكل ما ظفر به من نصر حربي يقضى عليه فلا تكون له نتيجة إلا الفرار من الميدان ؟ لقد أتى نصف جنوده أن يعودوا معه إلى قرطاجنة ، ويقول بعض من يعادونه من المؤرخين إنه أمر بقتل عشرين ألفاً منهم عقاباً لهم لأنهم خالفوا أمره ، ولأنه كان يخشى أن تضمهم رومة إلى فيالقها (٣٠) ؛ فلما أن وطئت قدماه أرض بلاده ، بعد أن غاب عنها ستة وثلاثين عاماً بادر إلى حشد جيش جديد وسار على رأسه لملاقاة سيبو عند زاما Zama على بعد خمسين ميلاً جنوب قرطاجنة (٢٠٢) : وتقابل القائدان في بداية المعركة مقابلة ودية ، فلما وجد أن لا سبيل إلى الاتفاق بينهما أصدر أمراً يبدأ القتال

وهزم هنيبال للمرة الأولى في حياته ، فقد تضعضع القرطاجنيون ، وكان معظمهم من الجند المرتزقة ، أمام مشاة الرومان وفرنسا ومسينسا Massinissa ملك نوميديا المجازفين الأبطال . وقاتل هنيبال وهو في سن الخامسة والأربعين كما كان يقاتل وهو في نضرة الشباب ، فهجم على سپيو بنفسه وجرحه ، ثم ثنى بمسينسا ، وأعاد تنظيم قواه بعد أن اختل نظامها أكثر من مرة ، وقادها في هجمات مضادة شديدة على الأعداء . فلما لم يبق له أمل في النصر أفلت من الأسر وسار على ظهر جواده إلى قرطاجنة ، وأعلن أنه لم يخسر الموقعة فحسب بل خسر الحرب كلها معها ، وأشار على مجلس الشيوخ بأن يطلب الصلح . وعامل سپيو القرطاجنيين معاملة الكرام فرضى أن تحتفظ قرطاجنة بأملاكها في إفريقية ، ولكنه طلب إليها أن تسلم لرومة جميع سفنها الحربية عدا عشر من ذات الثلاثة الصفوف من المجذفين ، وألا تشترك في حرب خارج إفريقية أو داخلها إلا بعد موافقة رومة ، وأن تؤدى إليها غرامة حربية سنوية مقدارها مائتا تالنت أى ما يقرب من ٧٢٠,٠٠٠ ريال أمريكي مدى خمسين عاماً . وأعلن هنيبال أن هذه الشروط عادلة وأشار على مجلس الشيوخ بقبولها .

وغيرت الحرب الهونية الثانية وجه البحر الأبيض المتوسط من ناحيته الغربية ، فقد سيطرت رومة بعدها على أسبانيا كلها وما فيها من ثروة فأمدتها بما يلزمها من المال لفتح بلاد اليونان ، وأعادت إلى إيطاليا وحدتها تحت سيادة رومة لا ينازعها فيها منازع ، وفتحت جميع الطرق والأسواق للسفن والبضائع الرومانية ، ولكنها كانت أكثر الحروب القديمة جميعها نفقة ، فقد خربت مزارع إيطاليا الجنوبية أو ألحقت بها أشد الأضرار ، وهدمت أربعائة من مدنها ، وأهلكت ثلاثمائة ألف من رجالها (٣١) ؛ ولم تنق إيطاليا الجنوبية حتى اليوم من جميع ما أصابها من هذا الدمار . يضاف إلى هذا أن هذه الحرب قد أضعفت الديمقراطية إذ ظهرت أن الجمعيات الشعبية عاجزة عن أن تحسن اختيار القواد أو إدارة دفة الحروب ؛ وكانت سببا فيا طرأ على حياة الرومان وأخلاقهم من انقلاب ، فقد

أضرت بالزراعة وشجعت التجارة ، وانزعجت الرجال من الريف ، وعلمتهم عنف الحروب ومفاسد حياة المعسكرات ، وجاءت بمعادن أسبانيا النفيسة لتتفق على ملاذ الحياة وعلى التوسع الاستعماري وأمكنحت لإيطاليا من أن تعيش على ما اغتصبته من قح أسبانيا وصقلية وإفريقية ، وقصارى القول أن هذه الحرب كانت المحور الذى يدور حوله تاريخ رومة من جميع نواحيه .

هذه آثار الحرب فى رومة ، أما فى قرطاجنة فقد كانت بداية نهايتها . لقد كان فى وسعها ، وقد احتفظت بجزء كبير من تجارتها وإمبراطوريتها ، أن تحل ما يواجهها من مشاكل الإنعاش ؛ ولكن حكومتها الأبحرية قد بلغت من الفساد مبلغاً جعلها تلتقى على كاهل الطبقات الدنيا عبء الغرامة الحربية ، وأن تختاس جراً من هذه الغرامة . وطلبت طوائف الشعب إلى هنيبال أن يخرج من عزلته وينقذ الأمة من محنتها ، واختير فى عام ١٩٦ حاكماً عاماً لها . فلما تولى منصبه روع سراة المدينة إذ اقترح ألا يبقى قضاء المحكمة البالغ عددهم ١٠٤ فى مناصبهم أكثر من سنة واحدة ، وألا يعاد انتخابهم إلى هذه المناصب إلا بعد عام من خروجهم منها . فلما رفض مجلس الشيوخ هذا الاقتراح عرضه على الجمعية الشعبية فأجازته ، وكانت نتيجة هذا القانون وما اتبع فيه من إجراء أن أنشأ من أقصر طريق نوعاً من الديمقراطية لا يقل عن مثيله فى رومة . ثم حارب الرشوة واجتثها من أصولها ، وأنزل بالمرتشين أشد العقاب ، ورفع عن الأهلين ما فرض عليهم من الضرائب الإضافية ، ودبر موارد الدولة تدبيراً استطاعت به قرطاجنة قبل أن يحل عام ١٨٨ أن تؤدى جميع ما فرضته عليها رومة من غرامة حربية .

لكن أرباب الأموال أرادوا أن يتخلصوا منه فبعثوا فى السر إلى رومة يقولون إن هنيبال يعد العدة لاستئناف القتال . وبذل سبيو كل ما له من نفوذ ليحمى عدوه القديم ، ولكنه غلب على أمره واستجاب لمجلس الشيوخ إلى رغبة أغنياء القرطاجنيين ، بأن طلب تسلم هنيبال إلى

رومة ، ولكن الجندي القديم مر من بلاده ليلا ، واجتاز على ظهر
جواده مائة وخمسين ميلا حتى وصل إلى ثبوسوس Thapsus وركب منها
سفينة إلى أنطاكية (١٩٥) حيث وجد أنتيوخوس الثالث Antiochus
متردداً بين حرب رومة ومسالتها ، فأشار عليه بحربها وأصبح فيها من قواد
الملك . فلما هزم الرومان أنتيوخوس في مجنيزيا (١٨٩) اشترطوا نعقد
الصلح معه أن يسلم هنيبال ، فما كان من هذا القائد إلا أن فر أولاً إلى
كريت ، ثم إلى بيشونيا Bithynia . فأخذ الرومان يطاردونه في كل مكان
يلجأ إليه حتى أحاطوه في مكنته بالهند . وآثر هنيبال الموت على الأسر ،
وقال في هذا : « دعوني أخفف عن الرومان ما يشغل بالهم من زمن
طويل ، فهم يظنون أنهم لا يطيقون الصبر حتى يلاقى شيخ مثلي منيته » (٣٣) ،
وتجرع السم الذي كان يحمله معه ومات في عام ١٨٤ ق . م في السابعة
والستين من عمره ، وما هي إلا بضعة أشهر حتى تبعه إلى الراحة الأبدية.
سپيو قاهره الذي كان شديد الإعجاب به .

الباب الرابع

رومة الرواقية

٥٠٨ - ٢٠٢ ق م

ترى أى صنف من الخلق كان أولئك الرومان البواسل الذين لا يقهرون ؟ وأى نظم صاغت لهم حتى كانت لهم هذه القوة فى الأخلاق والسياسة المنقطعة النظير ؟ كيف كانت بيوتهم ومدارسهم ؟ وكيف كان دينهم ومبادئهم الخلقية ؟ وكيف استخرجوا من الأرض تلك الثروة التى كانوا فى حاجة إليها ليعمروا بها مدنهم النامية وبعثوا بها جيوشهم المتجددة على الدوام والتى لم تعرف الراحة فى يوم من الأيام ؟ وبأى نظام اقتصادى وأية مهارة انتفعوا بهذه الثروة خير انتفاع ؟ وكيف كان هؤلاء الناس فى طرقاتهم وحوانيتهم ، وفى هياكلهم ومسارحهم ، وفى علمهم وفلسفتهم ، وفى شيخوختهم وموتهم ؟ إنا إذا لم نلم كل الإلمام بما كانت عليه رومة فى عهد الجمهورية الأول ، عجزنا عن فهم ذلك التطور الشامل فى العادات والأخلاق والأفكار ، الذى أنتج فى جيل من الأجيال كاتو Cato الرواقى وفى جيل بعده نيرون الأبيقورى ، ثم بدل آخر الأمر الكنيسة الرومانية بالإمبراطورية .

الفصل الأول

الأسرة

كان ميلاد الأطفال نفسه مغامرة خطيرة في رومة ؛ فقد كانت العادات المألوفة تبيح للأب إذا ولد له طفل مشوه أو كان أنثى أن يعرضه للموت (١) . أما إذا لم يكن كذلك فقد كان يرحب بمولده ؛ لأن الرومان حتى في ذلك العهد البعيد ، وإن مارسوا عادة ضبط النسل إلى حد ما ، كانوا شديدي الرغبة في أن يكون لهم أبناء . ذلك أن الحياة الريفية قد جعلت الأبناء مصدراً من مصادر الثروة ، ولذلك كان الرأي العام يندد بالعقم ، كما كان الدين يشجع على الإكثار من النسل بما يدخله في حقول الرومان من أن الواحد منهم إذا مات ولم يكن له ولد يعنى بقبره ، قاست روحه ألوان الشقاء والعذاب إلى أبد الدهر . وكانوا إذا مضى على مولد الطفل ثمانية أيام احتفلوا حول موقد الدار احتفالاً رسمياً مهيباً بضمه إلى الأسرة والعشيرة . وكانت العشيرة (gens) تتألف من طائفة من الأسر الحرة تنتمي إلى أصل واحد ، وتسمى باسمه ، وتشارك بعضها مع بعض في العبادة ، وتتبادل العون في السلم والحرب . وكان الولد الذكر يعرف باسمه الخاص الأول (praenomen) مثل بليوس Publius ، أو ماركس Marcus ، أو كيبوس Caius ، وباسم عشيرته (nomen) مثل كرنليوس Cornelius أو تليوس Tutlius ، أو يوليوس Julius ؛ وباسم أسرته مثل سيبو Scipio ، وشيشرون Cicero ، وقيصر Caesar . أما النساء فكان في أغلب الأحيان يتميزن بأسماء عشائرهن وحدهن مثل كرنليا Cornelia ، وتليا Tullia ، وكلوديا Claudia ، ويوليا Julia . وإذا لم يكن للذكور في الأيام القديمة الأولى من الأسماء الأول ما يزيد على خمسة عشر اسماً ،

وكانت هذه الأسماء تتكرر في الأسرة الواحدة جيلاً بعد جيل تكراراً يجعل التمييز بين مسمياتها من أصعب الأمور ، فقد اعتاد الرومان أن يختصروا هذه الأسماء الأولى فيستعيضوا عنها بالحروف الأولى منها ويضيفوا إلى أصحابها اسماً رابعاً — وخامساً في بعض الأحيان — ليسهل تمييزهم بعضهم من بعض . ومن أمثلة ذلك أنهم كانوا يميزون مبيو قاهر هنيبال من سميه الذي دمر قرطاجنة بتسمية الأول بـ « كرنيليوس سيبو الإفريقي الأكبر P. Cornelius Scipio Africanus Major ، والثاني بـ « كرنيليوس سيبو إميليانس الإفريقي الأصغر P. Cornelius Scipio Aemilianus Africanus Minor .

وكان الطفل يجد نفسه وقد اندمج كل الاندماج في أخص النظم الرومانية الأساسية وأقواها أثراً وهو نظام الأسرة الأبوية . وتكاد سلطة الأب في هذه الأسرة أن تكون سلطة مطلقة من كل القيود ، كأنما الأسرة قد نظمت لتكون وحدة عسكرية من جيش في حرب دائمة ، وكان الأب وحده دون سائر أفراد الأسرة هو الذي له حقوق قانونية في عهد الجمهورية الأول ، فهو وحده الذي كان من حقه أن يشتري الملك ويحتفظ به أو يبيعه ، وأن يتعاقد باسمه ، وحتى بائنة زوجه كانت في ذلك العهد ملكاً له . وإذا ما اتهمت زوجته بجرمة أحييت إليه ليحاكمها ويعاقبها بنفسه ، وكان في مقدوره أن يحكم عليها بالإعدام إذا خانت أو سرقت مفاتيح خزان خمره . وكان له على أبنائه حق الحياة والموت أو بيعهم في الأسواق بيع الرقيق . وكان كل ما يكسبه الابن يصبح في نظر القانون ملكاً خالصاً لأبيه ، ولم يكن من حقه أن يتزوج من غير موافقة والده . وكانت البنت إذا تزوجت بقيت تحت سلطان أبيها ، إلا إذا سمح لها أن تتزوج زواجا Cum manu أي أسلمها بنفسه إلى يد زوجها أو وضعها تحت سلطانه . وكان له على عبيده سلطة لأحد لها ، فكان هو وزوجته وأبناؤه « ملك يده » mancipia ، ومهما يبلغ هؤلاء العبيد من السن أو المنزلة فإنهم يبقون تحت سلطانه حتى يحررهم هو

أو « يطلقهم من يده » emancipate them على أن العادات ، والرأى العام ، ومجلس العشيرة ، وقانون الريفورين (المقدمين) كانت تقيد حقوق « رب الأسرة » إلى حد ما . أما فيما عدا هذه القيود فقد كان يحتفظ بهذه الحقوق إلى أن يموت ، وكانت تبقى له ولو ذهب عقله أو أراد . هو أن يتخلى عنها . وكان من آثارها أن قويت وحدة الأسرة فكانت هي الأساس الذى قامت عليه أخلاق الرومان وحكومتهم ، وأن أدب الرومان تأديباً بعث في أخلاقهم صلابة وقوة خير ما توصف به أنها قوة رواقية وكانت قوانينهم في حرفيتها أشد منها صرامة في تطبيقها ، وقلما كانوا يطبقون أقصى هذه القوانين ، وقلما أساءوا استخدام ما كان منها أقل قسوة ، فلم يكونوا يقفون في سبيل حنان الآباء القوى الطبيعى على أبنائهم أو تعظيم الأبناء لآبائهم ، حتى لقد كانت شواهد القبور في رومة تبلغ من الرقة ما بلغته في بلاد اليونان وما بلغته عندنا نحن (*) في هذه الأيام .

وإذ كانت حاجة الرجل إلى المرأة - وهى أشد من حاجتها إليه - تكسبها من الحقوق ما لا تستطيع القوانين أن تقف في وجهه ، فليس لنا أن نحكم على مكانة المرأة في رومة من القيود التى يفرضها عليها القانون . فقد كان يحرم عليها أن تظهر في دار المحكمة ولو كانت شاهدة . وإذا مات زوجها لم يكن لها أن تطالب بأى حق لها في ماله ، وكان له إذا شاء أن يحرمها من أن ترث شيئاً من هذا المال . وكانت في كل أدوار حياتها تحت رقابة رجل - أبها أو أخوها ، أو زوجها ، أو ابنها أو وصى عليها - لا تستطيع أن تتزوج أو تتصرف في مالها بغير رضاه . لكنها كان من حقها أن ترث وإن حدد هذا الميراث بما لا يزيد على مائة ألف سسترس Sesterce أى نحو (١٥,٠٠٠ ريال أمريكى) . أما التملك فلم يكن مقيداً بمحد أقصى وكثيراً ما أصبحت النساء في تاريخ الجمهورية .

(*) يقصد الأمريكين . (المترجم)

المتأخر من ذوات الثروات الطائلة لأن أزواجهن كانوا يهربون لهم
أَمْلاكهم ليتخلصوا بذلك - عليهم من التزامات إذا أفلسوا في تجارة ،
أو حكم عليهم بتعويض ، أو ليتخلصوا من ضرائب الشركات ، وغير ذلك
من الأخطار التي لا نهاية لها . وكان لها في شؤون الدين شأن غير قليل ؛
فكان لها أن تكون كاهنة ، وكان من الواجبات المفروضة على كل
كاهن تقريباً أن تكون له زوجة ، فإذا ماتت حرم من منصبه . أما في
المنزل فكانت هي سيدهته المعظمة *mea domina* ؛ ولم تكن كالزوجة في
الحياة اليونانية تعجز في جناح الحريم بل كانت تتناول الطعام مع زوجها
وإن كانت تجلس منتصبة ويجلس هو متكئاً . وكانت لا تقوم إلا بأقل قدر
من الخدمة المنزلية ، وذلك بأنه كان لكل مواطن تقريباً عبد يقوم على
خدمته . وكان لها أن تغزل لتدل بذلك على دماثة أخلاقها ، ولكن أهم
واجباتها المنزلية هو مراقبة خدمها . على أنها مع ذلك كانت تحرص على أن
تربي بنفسها أطفالها . وكان هؤلاء الأبناء يجزونها على صبرها وقيامها
بواجبات الأمومة بما يقدمونه لها من دلائل الحب العميق والإجلال العظيم ،
وقلما كان زوجها يجعل سيادته الشرعية عليها تغطي على حبه لها .

وكان الأب والأم ، ودارهما وأرضهما وأملاكهما ، وأطفالها الصغار
وأبنائهما المزوجون ، وأحفادهما أبناء هؤلاء الأبناء وزوجاتهم وعبيدهم
ومواليهم - كان هؤلاء كلهم يؤلفون الأسرة الرومانية *Familia* ؛ ولم
تكن هذه الكلمة عندهم تعنى أسرة بقدر ما تعنى بيتاً بكل من فيه ، وما فيه .
فلم يكن هذا المعنى مقصوراً على جماعة من ذوى القربى ، بل كان يعنى
مجموعة من الأشخاص المملوكين والأشياء المملوكة ، يخضعون كلهم ،
وتخضع كلها ، لأكبر الذكور سنّاً . وفي نطاق هذا المجتمع الصغير الذى
يضم فى داخله وظائف الأسرة ، والكنيسة ، والمدرسة ، والنظم الصناعية
والحكومية ، شب الطفل الرومانى وترعرع على حب الطاعة والتقوى ،
فكان منه مواطن قوى صلب العود فى دولة لا تغلب .

الفصل الثاني

ديون رومة

١ - الآلهة

لقد كانت الأسرة الرومانية رابطة بين الأشخاص والأشياء ، كما كانت رابطة بين الأشخاص والأشياء من جهة والآلهة من جهة أخرى . وكانت هي المركز الذى يلتف حوله الدين ، والخلق ، والنظام الاقتصادى ، وكيان الدولة بأجمعها ، كما كانت هي المنبع الذى تستمد منه هذه المقومات كلها . وكان كل جزء من أملاكها مهما صغر وكل مظهر من مظاهرها وجودها يرتبط ارتباطاً وثيقاً جديداً بالعالم الروحى ؛ فكان الطفل يعلم بالقدوة الصامتة الفصيحة أن نار الموقد التى لا تخبث لا تست إلا رمز الإلهة فستا Vesta ومادتها ، وأنها ، هي الشعلة المقدسة التى ترمز إلى حياة الأسرة وإلى دوامها ؛ ومن أجل هذا كان من أوجب الواجبات ألا تنطفئ هذه النار ، وأن يُعنى بها العناية « المقدسة » وأن تغذى بنصيب من كل وجبة . وكان الطفل يرى فوق الموقد النضبات (*) تتوجها الأزهار وتمثل آلهة الأسرة أو أرواحها المقدسة : إللار ، Lar (**) الذى يحرس حقوقها ومبانيها وسعادتها ومصيرها ؛ والپينات Penates أو الآلهة الداخلية التى تحمى ما تجمع للأسرة فى مخازنها وأصونتها ويأدرها ؛ وكان الإله يانوس Janus يحوم حول

(*) النضمة الصورة تعبد .

(المترجم)

(**) إللار : أحد الآلهة المحليين وهو تسكانى الأصل وأمكن الرومان جعلوا فيها بعد أحد الآلهة الراقية للأسرة .

عتبة الدار وإن كانت العين لا تراه ، وكان ذا وجهين ، وليس معنى هذا أنه كان مخادعاً بل معناه أنه كان يرقب الداخلين والخارجين من كل باب . وكان الطفل يعلم أن أباه هو الحافظ للأسرة وأنه رمز القوة الخلاقة الداخلية (genius) التي لا تنفى بفناء الجسم بل يجب أن تتغذى على الدوام عند قبر الأب . وكانت الأم هي الأخرى تحمل رباً من الأرباب ، وكان عليه أن يعاملها أيضاً معاملة الآلهة . وكان فيها يونيو Juno وهو روح قدرتها على الحمل يقابل قدرة الأب على الخلق . وكان للطفل أيضاً يونيو Juno وهو ملاكه الحافظ وروحه أو النواة الإلهية في خلافة الفاني . وكان يقال له فولاً يبعث في قلبه الرهبة ، إنه يحيط به من كل مكان أطياف رحيمة Di Manes هي أطياف الذكور من أسلافه التي كانت أقنعة وجوههم الرهيبية معلقة على جدران المنزل تحذره من أن يتنكب طريق هؤلاء الأسلاف ، وتذكره بان الأسرة لا تتألف فقط من أولئك الذين كانوا في الأيام الحالية أو سيكونون في الأيام المقبلة أعضاء فيها بأجسامهم ، والذين يكونون لهذا السبب جزءاً من مجموعها الروحي ووحدها الأبدية .

وكانت أرواح أخرى تأتي لمعونته كلما كبر : فكوبا Cuba نحرسه وهو نائم وأبيونا Abeona تهدي خطاه ، وفيلينا Fabulina تعلمه الكلام . وإذا ما غادر المنزل وجد نفسه مرة أخرى في حضرة الآلهة أينما جل . وكانت الأرض نفسها آلهة فهي تارتا تلس Tellus ونارة تراماتر Terra Mater أي الأرض الأم ، وكانت أحياناً هي المريخ Mars أي الأرض التي يطوئها بقدميه وخصبها المقدس ، وأحياناً تكون هي الآلهة الصالحة Bona Dea التي تمتد النساء والحقول بالأرحام الخصيبة . وكان في المزرعة إله معين لكل عمل وكل بقعة فيها ، بومونا Pomona للبياتين ، وفونس Faunus للماشية ، وبالس Pales للمراعى ، واستركيولس Sterculus للأكوام السجاد ، وزحل Saturn للزرع ، وسيريز Ceres للحاصلات ، وفيرناكس Fornax لتحميص النيرة في التنور ، وفلكان Vulcan لإيقاد النار .

وكان يشرف على الحدود الإله العظيم ترمينس *Terminus* وهو يتمثل ويعبد في الحجارة والأشجار التي تحدد المزارع ، وإذا كانت الأديان - غير الرومانية تتطلع إلى السماء ، فإن الرومان أنفسهم لم يكونوا ينكرون أن فيها هي الأخرى آلهة ، ولكن المحور الذي كانت تدور حوله أعظم مظاهر تقواه وإيمانه وأخلص كفاراته واستعطافه كان هو الأرض أم حياته ومصدرها ، ومنزل أمواته ، والمربية الساحرة للذور النامية ، وإذا ما حل شهر يناير من كل عام أقيمت الصلوات للارات *Lares* الأرض في عيد ملتقى الطرق *Compitalia* أو *Crossroads* البهيج ، وإذا أقبل شهر يناير قدمت الهدايا الغالية لمرضاة لتلس *Tellus* واستدراجاً لعطفه على كل المزروعات ، وفي شهر مايو من كل عام يسير كهنة « إخوان أرفال *Arval* » إلى إخوان الحرث في موكب غنائى حول حدود المزارع المجاورة لهم يطوقون الحجارة بتيجان من الزهر ، ويرشون عليها دماء الأضاحى ، ويدعون المريح (الأرض) أن تخرج الفاكهة الموفورة . ويرى من هذا أن الدين كان يؤمن الملكة ، ويزيل أسباب الشحناء ، ويكرم العمل في الحقول ، فينشئ فيه الشعر ، ويؤلف فيه المسرحيات ، ويقوى الجسم والروح بالإيمان والعمل .

ولم يكن الرومانى ، كما كان الإغريقى ، يفكر في آلهته كأن لها صوراً كصور الآدميين ، ولم يكن يسمها إلامينا *Mumina* أى الأرواح ، وكانت هذه الآلهة في بعض الأحيان معنويات مجردة كالصحة ، أو الشباب ، أو الذاكرة ، أو الحظ ، أو الشرف ، أو الأمل ، أو الخوف أو الفضيلة ، أو العفاف ، أو الوفاق ، أو النصر ، أو رومة . وكان منها أرواح للمرض يصعب استرضائها كالأطيفاف وأرواح الموتى ، ومنها أرواح فصول السنة ، مثل *Maia* روح شهر مايو ، ومنها آلهة الماء مثل نبتون *Neptune* ، وأرواح للغابات أو الآلهة التي تسكن الأشجار مثل سيلفانوس *Silvanus* ، وكان بعضها يتقمص الحيوانات المقدسة كالحصان أو الحيوان الذبيح ، أو الإوز المقدس الذي كان المتقون يحتفظون بها فوق الكهتول

لا يناله أحد بأذى ، ومنها أرواح التناسل والإنتاج : تتومس يشرف على الحمل ، ولوسينا تحمى الحيض والولادة ، وكان *Priapus* إلها للإخصاب عند اليونان ، ولكنه سرعان ما سكن رومة ، وكانت العذارى والأمهات (إذا كان لنا أن نصدق القديس أوغستين الغاصب) يجلسن على قضيب تمثاله ليضمن بذلك استعدادهن للحمل (٢) . وكانت صور خليعة فاحشة لهذا الإله تزين كثيراً من الحدائق . وكان السذج من الأهليين يلبسون صوراً صغيرة منه ظاهر فيها قضيبه لتبهيم القدرة على التناسل أو ترد عنهم « العين الحاسدة » . وجملة القول أننا لا نعرف قط دينا يبلغ فيه عدد الآلهة ما بلغه عند الرومان ، ويقدرها فارو بثلاثين ألفاً ، ويشكو *پترونيوس* من أن بعض المدن الإيطالية كان فيها من الآلهة أكثر ممن فيها من الرجال ؛ لكن الذين يسميهم *پترونيوس* *deus* لم يكونوا كلهم آلهة ؛ لأن كلمة *deus* كانت تعنى عند الرومان قديساً أو إلها .

وكان يمكن تحت هذه الأفكار الأساسية حشد من العقائد الشعبية المتعددة الأشكال ، من عبادة الطبيعة ، والدكاكيرية (*feteshism*) ، والوطومية والإيمان بالسحر ، والمعجزات ، والرقى ، والخرافات ، والحرقات ، ومعظمها عقائد باقية من أيام سكان إيطاليا فيما قبل التاريخ ، ولعلها باقية من أيام أسلافهم الهندوربيين جاءوا بها من موطنهم القديم في قارة آسية . وكان الكثير من الأشياء والأماكن والأشخاص مقدساً (*sacer*) محرماً مسه أو تدنيسه ، ومن هؤلاء الأشخاص الأطفال الحديثو الولادة ، والنساء في وقت الحيض ، والمجرمون إذا أدينوا . وكانت مئات من الصيغ اللفظية أو المبتكرات الآلية تستخدم للوصول إلى غايات طبيعية بوسائل خارقة للطبيعة « فكانت التآئم شائعة بينهم لا يكاد يخلو منها واحد منهم ؛ وكان كل طفل تقريباً يلبس « بُلَّة » *Bulla* أو طلمساً ذهبياً معلقاً في عنقه » وكانت تماثيل صغيرة تعلق على الأبواب أو الأشجار لترد الأرواح الخبيثة » وكانت الرقى والتعاويذ السحرية تستخدم لمنع الأخطار ،

وللشفاء من الأمراض ، وإنزال المطر من السماء ، وإهلاك جيوش الأعداء ، وإتلاف محصولات العدو أو إهلاكه هو نفسه . ومن أقوال بلني Pliny في هذا : « كلنا نخشى أن تصيبنا اللعنات أو الطلسم بالسوء (٤) » . كذلك يرد ذكر الساحرات في أقوال هوراس Horace ، وفرجيل Virgil ، وتيبيلوس Tibulus ، ولوشيان Lucian . وكان الاعتقاد السائد أنهم يأكلن الأفاعى ويطنن في الهواء ليلاً ، ويعصرن السم من أعشاب لا يعرفها غيرهن ، ويقتلن الأطفال ، ويحيين الموتى . ويلوح أن الرومان جميعاً ، إلا قليلاً من المتشككين ، كانوا يؤمنون بالمعجزات ، وبالآل والطيرة ، وبأن التماثيل تتحدث وتعرق (٥) ، وبأن الآلهة تنزل من جبل أولمبس Olympus . لتحارب في صف الرومان ، وبأن الأيام الفردية الأسماء محظوظة ، والزوجية الأسماء منحوسة ، وبأن الحوادث الغريبة تنبئ بالمسئلة . ويحتوى تاريخ بلني على عدة مئات من أمثال هذا الإنباء يسجلها كلها بوقاره الفاسق . وفي مجلدات بلني الأكبر Pliny من التنبؤات ووسائل العلاج السحرى ما يصح لنا أن نسمى تاريخه « تاريخ خوارق الطبيعة » . وكثيراً ما كان يحدث أن تؤجل أهم الأعمال التجارية أو الحكومية أو الحربية أو تُلغى إلغاء تاماً إذا تشاءم الكاهن بأن وجد شيئاً غير مألوف في أمعاء ذبيحة ، أو سمع قصص رعد في السماء .

وكانت الدولة تبذل كل ما في وسعها لتجند من الإسراف في هذه العادات ، وكان يطلق عليها ذلك اللفظ الذى يعبر عنها أدق تعبير وهو لفظ Supersitits أى العقائد الدينية المفرطة . ولكنهما كانت لا تقعد قط عن استغلال تقوى الشعب لتثبيت دعائم الحكم والنظام الاجتماعى فكيف آلهة الريف لتوائم حياة الحضر ، وشادت موقداً قومياً للإلهة قستا ، وعينت طائفة من العذارى القسنيات لتقوم على خدمة نار المدينة المقدسة . وأخرجت من مجموع آلهة الأسرة والمزرعة والقرية الآلهة القومية للدولة di indigetes ، ونظمت لهذه الآلهة عبادة جديدة جميلة المنظر تقوم بها الدولة باسم جميع المواطنين .

وكان أحب هذه الآلهة القومية الأولى إلى قلوب الشعب الإله جوبيتر أو جوف Jupiter or Jove وإن لم يكن هذا الإله قد أصبح ملكها كما أصبح زيوس Zeus عند اليونان ، بل كان في القرون الأولى من حياة رومة لا يزال قوة نصف معنوية يمثل رقعة السماء المتألثة وضياء الشمس والقمر وقصف الرعد ، وكان في صورة جوبيتر فلوڤيوس Jupiter Fluvius يمثل شوئوبيا من المطر المخصب . وقد كان فرجيل وهوراس نفساهما يستعملان في بعض الأحيان لفظ « Joue » مرادفاً للفظ المطر أو السماء^(٦) . وكانت أكثر نساء رومة ثراء إذا أجدبت السماء يسرن حافيات في موكب كبير إلى قل الكهتولين حيث هيكل جوبيتر تونانز Jupiter Tonans — جوف المرعد — ليستسقين . ولعل لفظ جوبيتر محرف عن ديسپاتر Diuspater أو ديسپتر Diespeter أى إله السماء . ولعل يانوس Janus الذى كان في الأصل يسمى ديانوس Dianus كان يؤلف هو وجوبيتر في بداية الأمر إلهاً واحداً ، وكان يرمز به أولاً إلى روح باب الكوخ ذى الوجهين ثم إلى باب المدينة ، ثم إلى أية فتحة أو بداية كبداية اليوم أو السنة . وكانت أبواب هيكله لا تفتح إلا في أيام الحرب ليخرج منها مع جيوش رومة لهزيمة آلهة الأعداء . وكان المريخ Mars إلهاً معظماً عند الشعب مذ بدأ يعظم جوبيتر . وكان أولاً إله الحرث ، ثم أصبح إله الحرب ، ثم كاد أن يكون هو فيما بعد رمز رومة وشعارها ، وكانت كل قبيلة في إيطاليا تطلق اسمه على شهر من الشهورة ولم يكن زحل الإله القومى للبذرة الحديثة الزرع (Sata) أقل قدماً من جوبيتر والمريخ ، وكانت الأساطير تصوره على أنه ملك من ملوك ما قبل التاريخ أخضع القبائل كلها لقانون واحد وعلمها الزراعة وأقر السلام والمشايعة في العهد الذهبى من عهد زحل Saturnie Regina .

وكانت إلهات رومة أقل قوة من آلهتها ، ولكنهن كن أحب إلى قلوب الشعب من الآلهة المذكور . وكان من هذه الإلهات يونو رجينا Juno Regina

ملكة السماء وحامية الأنوثة والزواج والأمومة . وكانوا يوصون بالزواج في شهرها - شهر يونيو (٧) - ويقولون إن الزواج فيه أسعد الزيجات ؛ وكانت منيرفا Minerva إلهة الحكمة (mens) أو الذاكرة ، والصناعات اليدوية وطوائف الصناع ، والممثلين والموسيقين والكتابة . وكانت الهلاديوم Palladium التي تقف عليها في اعتقادهم سلامة رومة صورة صغيرة للإلهة پلاس منيرفا Pallas Minerva مدججة بالسلاح جاء بها إنياس Aeneas في زعمهم من طروادة إلى رومة بأساليب الحب والحرب ، وكانت فينوس Venus (الزهرة) إلهة الشهوة ، والزواج ، والإخصاب . وكان شهرها المقدس هو شهر إبريل شهر تفتح الأزهار Aperire . وكان الشعراء أمثال لكريشيوس Lucretius وأوفيد Ovid يرون فيها الملمشاً للغرائب لجميع الكائنات الحية ؛ وكانت ديانا Diana إلهة القمر والنساء والولادة والصيد والغابات وسكانها من الوحوش ؛ وكانت في زعمهم روح شجرة جىء بها من أريشية (Aricea) حينما خضع هذا الإقليم من أقاليم لانيوم لحكم رومة . وكان بالقرب من أريشيا بحيرة نيمى Nemi وأيكها ، وكان في هذه الأيكة مزار ديانا ملجأً للحجاج الذين كانوا يعتقدون أن هذه الإلهة قد ضاجعت في هذا المكان فريبوس Virbius ملك الغابات الأول ، ولكي يضمن دوام إخصاب ديانا وإخصاب الأرض كان خلفاء فريبوس - وهم كهنة الصائدة وأزواجها - يستبدل بهم جميعاً واحداً بعد واحد أى عبد قوى يعوذ نفسه بغصن (يسمى عندهم بالغصن الذهبي) يأخذه من شجرة البلوط المقدسة إحدى أشجار الأيكة ويهاجم الملك (*) ويلبجه . وقد بقيت هذه العادة إلى للقرن الثاني بعد ميلاد المسيح (٨) .

هذه إذن هى الآلهة الكبرى لدين رومة الرسمي ؛ وكان للأهلين غير هؤلاء أرباب قومية أصغر منها ولكنها لم تكن تقل عنها محبة لدى الرومان ؛ ومن هذه

(*) يقصد ملك الأيكة أى صورة له . (المترجم)

الأرباب الصغرى هرقل Hercules إله الفرح والخمر الذى لم يتورع عن أن يقامر وهو مبتهج مع قندلقت هيكله لينال منه محظية^(٩) . وكان عطارد (Mercury) راعى التجار والممثلين واللصوص . وكانت أبس Aps إلهة الثروة وبلونا Bellona إلهة الحرب ، وكان غير هؤلاء أرباب ذكور وإناث يخططهم الحصر . ولما أن بسطت رومة سلطتها جاءت إليها آلهة جديدة . وكانت في بعض الأحيان إذا غلبت مدينة جاءت منها بالهتها لتضمها إلى مجمع الآلهة الرومانى دليلاً على غلبتها وضماناً لهذه الغلبة كما فعلت بيونو إلهة فياى حين قادتها أسيرة إلى رومة ؛ وكان سكان الأقاليم النائية إذا جاءوا إلى العاصمة أتوا معهم بالهتهم ليثبتوا فيها أقدامهم حتى لا تبحث أصول أولئك السكان الجدد الروحية والأخلاقية اجتثاثاً مفاجئاً لسبب من الأسباب ، وكذلك يفعل اليوم المهاجرون إلى أمريكا فيأتون إليها بالهتهم . ولم يكن الرومان يأبهون بمجئ هؤلاء الآلهة الأجانب ؛ وكان معظمهم يعتقدون أنهم إذا أراحوا التمثال من مكانه أراحوا الإله معه ، ومنهم كثيرون كانوا يؤمنون بأن التمثال نفسه هو الإله^(١٠) .

على أن بعض الآلهة الجديدة لم تغلب ، بل كانت هي الغالبة . فقد تسربت إلى العبادات الرومانية بطريق التجارة والصلات الحربية والثقافية التي نشأت بين الحضارتين الرومانية واليونانية . وقد حدثت هذه الصلات أول الأمر في كمنانيا ثم جنوبي إيطاليا ثم صقلية ، وانتهت آخر الأمر في بلاد اليونان نفسها . وكان في آلهة دين الدولة شىء من التجرد المعنوى وبرود الطبع ؛ وكان من المستطاع رشوهم بالقرابين والتضحيات ، ولكنهم قلما كانوا يمدون عبادهم بالراحة أو الإلهام الفردى ؛ وكانوا من هذه الناحية يختلفون عن آلهة اليونان ذوى الصفات البشرية الممثلين مغامرة وفكاهة وشعراً . ومن أجل هذا رجب الشعب الرومانى بآلهة اليونان وأقام لهم الهياكل ، وسره أن يتعلم ما يتطلبه أولئك الآلهة من مراسم وطقوس ، وكذلك سر الكهنة الرسميين أن يجندوا أولئك الجند الجدد لبث

النظام والطمانية في النفوس ، فضموهم إلى أسرة رومة المقدسة ومزجوهم كلها استطاعوا بأقرب الآلهة الوطنية الماثلة لهم . فجاء من عهد بعيد أى من عام ٤٩٦ ق . م دمت Demeter وديونيسيوس Dionysius ومزجا بسيريس Ceres وليبر Liber (إله العنب) واستقبل كاستر Castor وبلكس Pollax بعد اثني عشر عاماً من ذلك الوقت وصارا حامبي رومة : وشيد في عام ٤٣١ هيكلاً لأبولون Apollo الشافي لعله يخفف من وباء طاعون فشا في رومة وقتئذ ، وفي عام ٢٩٤ جىء إلى رومة من إيدورس Epidaurus بإسكلايوس Aesculapius إله الطب عند اليونان في صورة أفعون ضخم (١) ، وشيد على جزيرة في نهر التيبر معبد في صورة مستشفى تكريماً له وجىء بكرونس Cronus اليوناني وقيل إنه لا يختلف في شيء عن زحل ، ومزج پوسيدون Poseidon بنبتون Neptune وأرتميس Artemis بديانا Diana وهفستس Hephaestus بـفلكان Vulcan ، وهرقل Heracles بهرقول Hercules ، وهيدس Hades بـپلوتون Pluto وهرمس Hermes بعطارد Mercury ، وارتفع جوبتر بفضل الشعراء إلى زيوس غير زيوس اليونان ، فصار شاهد الإيمان الصارم وحارسها ، وقاضى الأخلاق الملتحي ، والقيم على القوانين ، وإله الآلهة ، وهبئت عقول الرومان المتعلمين على مهل لقبول عقائد التوحيد الرواقية واليهودية والمسيحية .

٣ — السكينة

واستخدمت إيطاليا نظاماً من الكهنوت محكم الوضع لتضمن به معونة هؤلاء الأرباب . وكان الأب في منزله كاهناً ، ولكن الصلوات العامة كان يرأسها جماعات (Collegia) من الكهنة ، تملأ كل منها ما يخلو في صفوفها من الأمكان ويرأسها كلها جبر أعظم Pontifex maximus تختاره الجمعية المثوية ، ولم تكن عضوية هذه الكليات المقدسة تحتاج إلى تدريب

نخاص ؛ بل كان في وسع كل مواطن أن ينضم إليها أو يخرج منها ؛ ولم تكن تؤولف مرتبة أو طبقة منفصلة عن سائر المراتب أو الطبقات ، ولم يكن لها أى سلطان سياسى عدا أن الدولة كانت تستخدمها أداة من أدواتها . وكانت تستولى على إيراد بعض أراضي الدولة لتستعين به على العيش ، وكان لها عبيد يقومون على خدمتها ؛ وقد أصبحت بتوال الأجيال عظيمة الثراء بما كان يحبسها عليها اتقياء الناس من الأموال .

وكانت الكلية الدينية الكبرى في القرن الثالث قبل المسيح تضم تسعة من الأعضاء ، وكان هؤلاء الأعضاء يحتفظون بالحوليات التاريخية ، ويسجلون القوانين ، ويقرعون الغيب ، ويقرّبون القرابين ، ويظهرون رومة مرة في كل خمس سنوات . وكان يساعد هؤلاء الأخبار في القيام بالاراسم الرسمية خمسة عشر كاهناً آخر يسمون فلميني flamine - أى موقدى نيران الأضاحى . وكان ثمة طوائف من الأخبار أقل من هؤلاء شأناً يؤدون واجبات خاصة : فالساليون Salii أو القافرون كانوا يستقبلون العام الجديد بنوع من الرقص المقدس للمريخ ، والفتيالى fetiales يصدقون على عقد الصلح ، وإعلان الحرب ، واللورسى Luperci أو إخوان الذئب يقومون بطقوس لوبركاليا Luperclia العجيبة . وكانت طائفة العذارى القسئية Vestal Virgins تعنى بموقد الدولة وترشه في كل يوم بالماء المقدس تأخذ من عين الحورية المقدسة لإيجيريا Egeria ؛ وكان هؤلاء الراهبات ذوات الشياى البيض والخمر البيض يُختزن من بين انفتيات اللاتى تراوح سنهن بين السادسة والعاشرة ، وكن يقسمن بأن يظللن عذارى في خدمة الإلهة قسناً ثلاثين سنة ، وينان في نظير هذا ضرورياً من الامتيازات والتكريم وإذا اقترفت إحداهن جريمة العلاقات الجنسية ضربت بالعصى ودفنت وهى على قيد الحياة ، وقد سبيل المؤرخون الرومان اثنتى عشرة جريمة من هذا النوع ، فإذا قضين الثلاثين عاماً كان لهن أن يتركن خدمة الإلهة ويتزوجن ، ولكن قل منهن من كانت تتاح لها هذه الفرصة أو تغتنمها إذا أتيت لها (١٢) .

وكانت أعظم طوائف الكهنة نفوذاً طائفة العرافين التسعة الذين كانوا يدرسون إدارة الآلهة ومقصدهم باتجاه الطيور في الأيام الأولى (*) ، وبالفحص عن أحشاء الحيوانات المضحاة فيما بعد ، فكان كبار الحكام « يستطلعون » الطلع « قبل كل عمل هام من أعمال السياسة أو الحكم أو الحرب ، ثم يفسر العرافون ما يجده الحكام ، أو يفسره لهم مفتشو الأكباد *hauruspices* الذين تلقوا فنههم هذا من بلاد الكلدان أو من أمم قبليهم عن طريق لاثوروريا . ولم يكن الكهنة على الدوام بمنجاة من الإغراء بالمال ، ولذلك كانوا في بعض الأحيان يوفقون بين أقوالها وبين حاجات من يذهب لاستشارتهم . من ذلك أن أى قانون لا يتفق مع مصلحة طائفة أو جماعة من الناس كان يمكن تعطيله إذا قيل إن اليوم الذى ينظر فيه القانون يوم مشؤم لا يصلح العمل فيه ، وكان فى الاستطاعة إقناع الجمعية بالموافقة على إعلان الحرب إذا قيل لها إن اليوم الذى يطلب إليها إعلانها فيه يوم سعيد (١٣) . وكانت الحكومة فى الأزمان الخطيرة تدعى أنها تعرف ما تريده الآلهة بالرجوع إلى الكتب السبيلية *Sibylline* ، وهى الكتب التى سجلت فيها نبوءات سيبييل *Sibyl* أو كاهنة أبولون *Apollo* فى كومية *Cumae* . وكان فى وسع الأعيان أن يؤثروا فى الشعب بهذه الوسائل وبالرسل الذين كانوا يرسلونهم إلى هاتف دلفى *The oracle at Delphi* فى بعض الأحيان . وبذلك يوجهونهم فى أى اتجاه يشاءون ، ويكادون يبلغون كل غاية يرغبونها (١٤) .

ولم يكن يقصد بطقوس العبادات إلا أن تقدم هدية أو ضحية للآلهة لكسب عونها أو انتفاء غضبها . وكان الكهنة يقولون إن الاحتفالات التى تقام لهذا الغرض لا تثمر ثمرتها إلا إذا روعى فيها منتهى الدقة فى الأقوال والحركات ، وهى

(*) ومن ثم اشتقت من هذا اللفظ *Augurs* ومعناها حامل الطيور *aves-gero* ، و *Auspices* فحص الطيور *aves-specio* . ولعل الإنسان البدائى قد عرف كيف يتنبأ بأحوال الجو من حركات الطير .

دقة لا يستطيع غير الكهنة أن يشرفوا عليها . وإذا وقع خطأ في طقس من هذه الطقوس أياً كان نوعه وجبت إعادته من جديد ولو تطلب ذلك إعادته ثلاثين مرة . وكان معنى لفظ Religio هو أداء الطقس الدينى بالعناية التى يحتمها الدين (١٥) . وكان أهم ما فى الاحتفال هو التضحية Sacrifice ؛ ومعنى اللفظ مشتق من كلمة Cacer اللاتينية ومعناها ملك للإله . وكانت التضحية فى البيت تتخذ عادة شكل قطعة من كعكة توضع على الموقد أو كمية من النبيذ تلقى فى نار البيت ، وتكون فى القرية أول ثمرة تخرجها الأرض ، وقد تكون كبشاً أو كلباً أو خنزيراً ، وتكون فى المناسبات الهامة فرساً أو خنزيراً أو شاة أو ثوراً ، وكانت الثلاثة الحيوانات الأخيرة تذبح جميعها فى أكبر المناسبات أهمية فى عيد السو أو فى طوريليه Su - ove - taur - illa (أى عيد الخنزير والشاة والثور) . وكانوا يعتقدون أنه إذا تليت صيغ خاصة على التضحية استحال إلى الإله الذى يراد منه أن يتقبلها ؛ وعلى هذا الاعتبار كان الإله نفسه هو الذى يضحي به (١٦) ؛ وإن كانت أحشاء الحيوان وحدها هى التى تحرق على المذبح ؛ وكان الكهنة والناس يأكلون كل ما بقى منه ، فقد كان هؤلاء يأملون أن تثقل قوته ومجده إلى عبده المحتفلين بعيده . وكان يضحي بالآدميين فى بعض الأحيان ، ومما يجدر ذكره أنه كان لا بد من صدور قانون فى عام ٩٧ بعد الميلاد لتحريم هذه العادة . ثم حورت هذه الكفارة تحويراً يبيح للرجل أن يضحي بحياته للدولة كما فعل القنصل بيلئوس ديسبيوس Publius Decius وولده ، وكما فعل ماركس كورتئوس Marcus Curtius إذ ألقى بنفسه فى أخدود شقه زلزال فى السوق العامة ليسكن بذلك غضب القوى الأرضية الخفية ، ونقول القصة بعد ذلك إن الشق قد التحم وإن الأمور قد عادت إلى مجاريها (١٧) .

وكان احتفال التطهير أكثر من هذه الطقوس متعة ؛ وكان هذا التطهير يحدث للمحصولات الزراعية أو لقطعان الماشية أو للجيش أو المدينة . وكانت

الطريقة المتبعة في هذا الاحتفال أن يطوف موكب بالشىء المراد تطهيره ، ويقدم له الصلوات والذبائح ، فيتطهر بذلك من المؤثرات السيئة ويرد عنه الشر . ولم تكن الصلوات قد خلصت كل الخلاص من الرقى السحرية ، وكان اللفظ الذى يطلق عليها وهو كارمن Carmen يعنى الأنشودة والرقية جميعاً ، ويعترف بلنى صراحة بأن الصلاة ضرب من الأقوال السحرية (١٨) . وإذا ما تليت الصيغة حسب الأصول المرعية ووجهت إلى الإله الذى يجب أن توجه إليه حسب سجل الآلهة indigitamenta الذى جمعه الكهنة واحتفظوا به ، فإن الرجاء لا بد أن يجاب ؛ فإن لم يجب فإن غلطة ما قد حدثت في الطقوس المرعية ، وقريب من السحر وذو صلة به الفتوتا vota أو النذور التى كان الناس يطلبون بها معونة الآلهة ، وكانت هياكل عظيمة تشاد في بعض الأحيان وفاء بهذه النذور ، وتوحى النذور الكثيرة التى كشفت بين خلفات الرومان على أن الدين كان يملأ قلوبهم ، وعلى أنه كان يمتزج به ويلطفه تقى وشكر على النعم ، وشعور بالصلة القوية بين الناس وبين قوى الطبيعة الخفية ، ورغبة أكيدة في أن يكون الناس على وفاق مع هذه القوى جميعها . هذا ما كان للدين من أثر في قلوب الشعب ، أما دين الدولة فكان على النقيض من هذا ، كان شكلياً جامداً ، لا يعدو أن يكون نوعاً من العلاقة القانونية التعاقدية بين الحكومة والآلهة . ولما أن تسربت إلى البلاد أديان جديدة من الشرق المغلوب ، كان أول ما تضعف في الدولة الرومانية هو الدين الرسمي ، أما الإيمان العميق ذو المظاهر الجميلة الجذابة ، والطقوس المنتشرة في الريف ، فقد ظلت تقاوم الأغلال في صبر وعناد طويلين . ولما تغلب الدين المسيحى في آخر الأمر استسلم بعض الاستسلام إلى هذا الإيمان الربنى القديم فأخذ عنه كثيراً من عقائده وطقوسه ، وكان ذلك الأخذ عن حكمة وأصالة رأى ، ولا تزال هذه الطقوس باقية في العالم المسيحى إلى هذه الأيام ، وإن تشكلت بأشكال جديدة وعبر عنها بألفاظ غير الألفاظ القديمة .

٣ - الأعياد

إذا كانت العبادات الرسمية مكتتبة صارمة فإن ما كان فيها من أعياد قد عوضها عن هذه الصرامة وصوّر الناس والآلهة في صورة أبهى وأجل منظرًا . فقد كانت السنة تزددان بأكثر من مائة يوم مقدس (feriae) من بينها اليوم الأول من كل شهر ، وقد تشمل أحياناً اليومين التاسع والخامس عشر . وخصصت بعض هذه الأعياد لتقديس الموتى وأرواح العالم السفلى ؛ وكان يقصد بالأعياد وما يقام فيها من احتفالات استرضاء الموتى وإقصاء غضبهم ، فكانت الأسر الرومانية تحتفل في الأيام ما بين ١١ ، ١٣ من شهر مايو احتفالاً رهيباً بعيد الأرواح الميتة Lemures ، فكان الأب في هذا العيد يبصق من فمه فولا أسود وهو ينادى : « بهذا القول أنجى نفسي وأبنائي . . . إذهبي يا أطيف أسلافي ! » (١٩) ولم تكن أعياد البارنتاليا parentalia والفراليا Feralia التي تقام في شهر فبراير إلا محاولات أخرى من هذا النوع لاسترضاء الأموات الخيفين ؛ لكن معظم الأعياد كانت مناسبات للمرح وملء البطون ؛ وكثيراً ما كان العامة يتخذونها فرصاً للإباحية الجنسية ، وشاهد ذلك ما يقوله أحد الأشخاص في مسرحية هزلية لبلوتس : « في وسعك أن تأكل ما تشاء ، وتذهب حيث تشاء ، وتحب من تشاء ، وعلى شريطة أن تمتنع عن الاتصال بالأرواح والأرامل والعذارى ، والغلمان الأحرار (٢٠) » ويلوح أنه كان يحس بأن ثمة بعد هذا مجالا واسعاً للاختيار .

وكانوا يحتفلون في اليوم الخامس عشر من شهر فبراير بعيد عجيب هو عيد لوبركاليا المخصص للاله فوننس Faunus الحامي من الذئب lupercus ، وكان يضحى في هذا العيد بالمعز والضأن ، وكان اللوبرسى luperci - وهم كهنته لا يلبسون على أجسادهم إلا مناطق من جلد المعز - يهرولون حول الهلاتين

Palatine يدعون الإله فونا أن يبعد عنهم الأرواح الشريرة ، ويضربون وهم يهرولون من يلقون من النساء بسياط من جلود الحيوانات المضحى بها ليظهرنهن ويزيدوا في قدرتهن على إنجاب الأبناء ، ثم يلقون بعد هذا دمي من القش في نهر التيبر لاسترضاء إله النهر أوختله ، ولعل هذا الإله في الأيام التي كانت أكثر من ذلك الوقت همجية كان يتطلب أن تلقى فيه ضحايا بشرية . وفي اليوم الخامس عشر من شهر مارس كان الفقراء يخرجون من أكواخهم ، ويفعلون ما كان يفعله اليهود في عيد المظلات ، فيقبضون ثم خبائماً في حقل المربخ ، ويحتفلون بالسنة الجيدة ، ويدعون الإلهة أنا پرنا Anna Perenna (حلقة السنين) أن تهيم سنين بعدد ما يحتسون من أكواب الخمر (٢١) . وكان في شهر أبريل وحده ستة أعياد آخرها كلها عيد فلوراليا Floralia . وكان هذا العيد وهو عيد فلورا Flora إلهة الأزهار والينابيع يدوم ستة أيام كلها مفرح وسكر وعريضة . وفي اليوم الأول من شهر مايو كان يحتفل بعيد الآلهة الصالحة Bone Dea ، وفي التاسع والحادي عشر والثالث عشر من هذا الشهر يحتفل بالبراليا Liberalia عيد ليبر Liber وليبرا Libera إله العنب وإلهته ، وكان جماعات من الرجال والنساء في ذلك اليوم يمجدون جهرة عضو التذكير في الرجال وهو رمز الإنخصاب (٢٢) . وفي آخر شهر مايو كان الإخوان الأرفال Arval يقودون الناس في مواكب عيد الأمبرفاليا Ambarvalia وهو عيد رهيب وإن لم يكن يخلو من المرح . ثم تحمل الأرباب فلا تقام لها أعياد في أشهر الخريف بعد أن تكون المحصولات قد أدخلت في المخازن ، حتى يقبل شهر ديسمبر فيزدحم بالأعياد مرة أخرى . فكان عيد السترناليا Saturnalia يدوم من اليوم السابع عشر إلى اليوم الثالث والعشرين من ذلك الشهر ، وكانوا يحتفلون فيه ببذر بذور العام المقبل ويحيون ذكرى حكم زحل Saturn الذي لم يكن الناس ينقسمون فيه طبقات ، والذي يتبادلون فيه الهدايا ، ويتحرون من كثير من القبود ، ويأغي فيه أو يعكس إلى حين ما بين

الأحرار والعبيد من فروق ، فكان في مقدور العبيد أن يجلسوا بجوار ساداتهم ، ويصدروا إليهم الأوامر ، ويتمكوا عليهم ، وكان السادة يقفون على الموائد لخدمة العبيد ، ولا يأكلون حتى تمتلئ بطونهم بالطعام (٢٤) .

وكانت هذه الأعياد زراعية النشأة ولكنها مع ذلك ظلت منتشرة بين أهل المدن ، وبقيت رغم ما طرأ على العقائد من تقلبات حتى القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد . وقد بلغت من الكثرة والاضطراب حداً جعل من أول واجبات التقويم الروماني إحصاءها وترتيبها لإرشاد الشعب . وكان من عادة الإيطاليين في عهدهم الأول أن يدعوا الكاهن الأكبر المواطنين في أول يوم من كل شهر ويذكروا لهم ما فيه من الأعياد التي يجب عليهم أن يحتفلوا بها في الثلاثين يوماً ؛ وقد اشتق من هذه الدعوة (Calatis) اسم Calendae الذي سمي به اليوم الأول من كل شهر . وكان معنى التقويم عند الرومان - وهو معنى لا يزال يحتفظ به إلى حد ما عند الكاثوليك المسيحيين وعند اليهود المتدينين - ثبناً كهنوتياً لأيام الأعياد وأعمال العمل ، يتخلله قليل من المعلومات المقدسة القانونية ، والتاريخية والفلكية . وتقول الروايات المأثورة إن نوما Numa ثاني ملوك رومة هو واضع للتقويم الذي ظل يضبط التواريخ والحياة الرومانية إلى أيام يوليوس قيصر . وكانت السنة حسب هذا التقويم تنقسم إلى اثني عشر شهراً قرياً ، تضاف إليها عدة أيام وأجزاء من أيام بنظام معقد يجعل متوسط مجموعها ٣٦٦ يوماً . ثم خول للأخبار في عام ١٩١ م أن يعالجوا الأخطاء المتزايدة بإعادة النظر في هذه الإضافات ، ولكنهم استخدموا السلطة التي منحت لهم لإطالة حكم من يرضون عنه من الحكام ، وتقصير حكم من لا يرضون عنه منهم ، ومن أجل هذا فإنه لم يكد ينتهي عهد الجمهورية حتى كان التقويم ، وقد تجمع فيه من الأخطاء ما يبلغ ثلاثة أشهر ، مثلاً للفوضى ووسيلة إلى التلاعب والخداع . أما ساعات النهار فكانت في الأيام الأولى لا تقدر بغير ارتفاع الشمس في

السماء ، وظل هذا هو النظام المتبع حتى جىء فى عام ٢٦٣ ق . م بمزولة شمسية من قطانا Catana فى صقلية ووضعت فى السوق العامة . ولكن هذه المزولة لم تكن تبين الوقت على حقيقته لأن قطانا كانت على بعد أربع درجات جنوبى رومة ؛ وقد ظل الكهنة مائة عام عاجزين عن أن يضبطوا هذه المزولة حتى تبين الوقت الحقيقى فى عاصمة البلاد . وفى عام ١٥٨ أقام سيبو ناسيكا Scipio Nasica ساعة شمسية عامة ، وكان الشهر يقسم إلى ثلاث فترات . يفصلها بعضها عن بعض لليوم الأول ، واليوم الخامس أو السابع واليوم الثالث عشر أو الخامس عشر . ويسمى اليوم الأول الكالند Kalend والخامس أو السابع النون none والثالث عشر أو الخامس عشر الأيد ide . وكانت الأيام تسمى بطريقة سمجة عجيبة أساسها البعد عن هذه الأيام المحددة لأقسام الشهر . مثال ذلك أن اليوم الثانى عشر من شهر مارس كان يسمى « اليوم الثالث قبل أيد مارس » . وكان « الأسبوع » عندهم يتكون من تسعة أيام أو نحوها وينتهى بيوم النندى nundinae أو اليوم التاسع ، وهو اليوم الذى يذهب فيه القرويون إلى أسواق المدن . وكانت السنة تبدأ بإبتداء فصل الربيع ، ويسمى الشهر الأول منها مارتىوس Martius باسم إله البذر ، ثم يليه أبريلس Aprilis أى شهر النبت ، ثم مايوس Maius أى شهر مايا Maia أو لعله شهر الوفرة ، ويونىوس Junius شهر يونيو Juno ، أو لعله شهر النجاح ، ثم كونكتاس Quinctilis ، فسكستلس Sextilis . فسبتمبر فأكثوبر فنوفمبر فديسمبر . وقد سميت بترتيبها العددي فى السنة ، ثم يليها يناير January ليانوس Janus وفبراير لفيروا Februa أو الأشياء السحرية التى يظهر بها الإنسان . وكانت السنة نفسها تسمى أنس Annus أى الحلقة كأنهم يريدون أن يقولوا إنه لا توجد للزمن فى واقع الأمر بداية ولا نهاية ،

٤ — الدين وأثره في الأخلاق

ترى هل أعان هذا الدين على تقويم الأخلاق ؟ لقد كان من بعض النواحي مبعث الفساد الخلقى . فادتهامه بالطقوس والمراسم يوحى بأن الآلهة لا تجزى الشخص لصلاحه بل لما يقدمه لها من الهدايا وما يتلوه من الصيغ ، وكانت الأدعية والصلوات يطلب بها على الدوام النفع المادى أو النصر الحربى . وكان ما يقام من الحفلات يمثل حياة الإنسان وتربة الأرض فى صورة المسرحية ، ولكن هذه الاحتفالات كثرت وزاد عديدها كأن هذه الأعياد ، لا صلة الجزء بالكل وإخلاصه له ، هى أساس الدين وجوهره ، وكانت الآلهة ، عدا قلة صغيرة منها ، أرواحاً رهيبة مجردة من النبيل والأخلاق الفاضلة .

ولكن الدين القديم مع هذا كله كان يدعو إلى فضائل الأخلاق ، وإلى النظام والقوة فى الفرد والأسرة والدولة . وكان هذا الدين يصوغ أخلاق الطفل ، قبل أن يتسرب إليه الشك ، ويعوده التأدب وأداء الواجب ولطف المعاشرة . كذلك كان يجعل للأسرة حقوقاً وضمائم ومعونة مقدسة : فكان يغرس فى قلوب الآباء والأبناء أقصى درجات الاحترام المتبادل والتقوى ، ويجعل للمولد والوفاة كرامة ومعنى قدسيًا خاصاً ، ويدعو إلى الوفاء بيمين الزواج ويشجع على التناسل إذ يجعل الأبوة شرطاً أساسياً لطمأنينة روح الميت وتمتعها بالهدوء والسلام . يضاف إلى هذا أن الدين ، بما كان يفرضه من المراسم والحفلات قبل كل حملة ومعركة حربية ، يرفع قوى الجندى المعنوية ويحمّله على الاعتقاد بأن القوى الروحية تحارب إلى جانبه ، وأنه كان يثبت القانون ويزيده قوة بما يعزّو إليه من أصل سماوى وصورة دينية ، وبقوله إن الجرائم تخل بنظام السماوات ويسلمها

وبوضع سلطان جوف وراء كل قَسَم . وكان الدين يخلع على كل ناحية
من نواحي الحياة العامة جلالة دينياً ، ويمتد أن يسبق كل عمل من أعمال
الحكومة طقوس وصلوات ، ويربط الدولة والآلهة برباط متين ، وحد
بين التقوى والوطنية ، وسما بحب الوطن فجعله عاطفة أقوى مما كان في أى
مجتمع آخر يعرفه التاريخ . وبهذا كله كان الدين يشترك مع الأسرة في
شرف تكوين ذلك الخلق الحديدي الذي كان هو السر في سيادة رومة على
العالم ، وفي تحمل تبعه هذا التكوين :

الفصل الثالث

الأخلاق

ترى أى مبادئ خلقية نشأت من هذه الحياة التى كانت تحياها الأسرة الرومانية بين هذه الأرباب المختلفة ؟ لقد كانت الآداب الرومانية من أيام عهد إنيوخس Ennius إلى عهد جوفنال Juvenal تجعل تلك الأجيال القديمة مثلاً أعلى وتندم على الأيام الخالية أيام البساطة والفضيلة القديمتين . وستوحى إلينا صحف هذا الكتاب أيضاً بما كان هناك من فوارق بين رومة فيبوس الرواقية ورمة نيرون الأبيقورية ، ولكن علينا ألا نغالى فى هذه الفوارق بتحيزنا فى اختيار الشواهد التى ندلل بها على وجودها ، ذلك لأنه كان فى عهد فيبوس أبيقوريون كما كان فى عهد نيرون رواقيون .

ولقد ظلت الأخلاق الجنسية عند الرجل العادى واحدة لم يطرأ عليها تغيير من بداية التاريخ الرومانى إلى نهايته : ظلت خشنة طلبقة ولكنها لا تتعارض مع الحياة الناجحة فى ظل الأسرة ، وكان يطلب إلى الفتيات فى جميع الطبقات الحرة أن يحافظن على بكارتهن ، وما أكثر القصص الملقوية التى كانت تروى لرفع شأنها ، ذلك أن الرومانى كان قوى الإحساس بحق الملكية ، شديد التمسك به ، ولهذا كان يتطلب زوجة قوية الأخلاق غير متقلبة الأهواء تضمن له أنه لن يرث متاعه بعد موته أبناء من غير صلبه . ولكن الرجال فى رومة لم يكونوا بلامون كثيراً على عدم العفة قبل الزواج إذا أظهروا الاحترام الواجب لرياء بنى الإنسان ونفاقهم ، شأنهم فى هذا شأن الرجال فى بلاد اليونان . ولما لنجد فى أقوال كتابهم وخطبائهم من عهد كانوا الأكبر إلى شيشرون عبارات صريحة يبررون

بها هذا النوع من الدنس^(٢٥) ، وليس الذى يزيد بتقديم المدنية هو فساد الطبع وإنما الذى يزيد هو الفرص التى تتاح لإظهار هذا الفساد والتعبير عنه . ولم تكن العاهرات كثيرات فى رومة فى أيامها الأولى ، وكان يحرم عليهن لبس مئزر الأمهات وهو شعار الزوجة المحترمة ، وكن محصورات فى الأركان المظلمة من رومة ومن المجتمع الرومانى . ولم تكن قد نشأت فيها وقتئذ طائفة المحظيات المتعلمات الشبيهات بطائفة المطربات فى أثينة ، كما لم يكن قد نشأ فيها بعد أولئك المومسات الرقيات اللاتى تغنى بهن أوفد Ovid فى شعره .

وكان الرجال يتزوجون فى سن مبكرة قبل السنة العشرين من عمرهم فى العادة ، ولم يكن الباعث على الزواج هو الحب الرومانى ، بل كان هو الرغبة الصادقة السليمة فى أزواج يعاونهم فى عملهم ، وأبناء ذوى فائدة لهم ، وأن يستمتعوا بحياة جنسية سليمة . وكان يقال فى حفلة الزفاف إن الغرض من الزواج هو إنجاب الأطفال . وكان للأطفال فى المزرعة كما كان للنساء فائدة اقتصادية كبرى ولم يكونوا كما هم اليوم لعباً حياً . وكان الآباء هم الذين يزوجون أبناءهم وبناتهم ، وكانت عقود الزواج تعقد أحياناً على الأبناء فى طفولتهم ، وكان رضا أبوى الزوج والزوجة ضرورياً لإتمام عقد الزواج . وكانت تصحب الخطبة مراسم وتقاليد معينة ، تعد رابطة قانونية بين الزوجين . وكان أقرباء الزوجين ، يجتمعون فى وليمة ليشهدوا عقد الزواج ، وكانت قشه stipula تكسر بين أهل العروسين علامة على اتفاقهما . وكانت شروط الزواج وبخاصة ما يتصل منها بالمهر تسجل كتابة ، وكان الزوج يضع خاتماً من الحديد فى الإصبع الرابعة من أصابع اليد اليسرى للزوجة لاعتقادهم أن عصباً يسير من تلك الإصبع إلى القلب^(٢٦) . وكانت أصغر سن يباح فيها الزواج هى الثانية عشرة للفئة والرابعة عشرة للفتى ، وكان القانون الرومانى القديم يجعل الزواج إجبارياً^(٢٧) ، ولكن اعتقادنا أن هذا

القانون قد أغفل ولم يكن يطبق قبل عام ٤١٣ ق ؛ م حين فرض الرقيب ،
كللس Camillus ضريبة على العزاب .

وكان الزواج نوعين زواجا كم مانو Cum manu وزواجا سن مانو sin manu أى زواجا يتبعه وضع العروس وما تملك تحت سلطان زوجها أو والده وزواجا لا يتبعه هذا الوضع . وكان زواج السن مانو (من غير تسليم) فى غير حاجة إلى حفلة دينية ، ولا يتطلب أكثر من رضا العروس والعريس . أما زواج وضع البد فكان يتم إما بالمعاشرة مدة عام (usus) وإما بالشراء (Coemptio) . وكان هناك نوع ثالث يعرف بالزواج بطريق الكنفرياشيو (Confarreatio) والمعنى الحرفى لهذا اللفظ هو (أكل كعكة معا) : وكان هذا النوع الأخير يتطلب حفلا دينياً ، ولا يتم إلا بين الأشراف . وقد اختفى الزواج بالشراء الفعلى فى عهد مبكر ، أو أنه انعكس فكانت الزوجة فى واقع الأمر كثيراً ما تشتري الزوج ببائنتها . وكانت هذه البائنة توضع عادة تحت تصرف الزوج ، ولكن قيمتها ترد إلى الزوجة إذا طلقت أو مات زوجها . وكان يصحب العرس كثير من الحفلات والأغاني الشعبية ، وكانت أسرتا العروسين تطعمان فى بيت العروس ، ثم يسير أفرادهما فى موكب مرخ بهيج إلى بيت والد العريس على أنغام المزامير والأناشيد والمزاح الماجن . فإذا وصلوا إلى بابه المتوج بالأزهار تقدم العريس إلى العروس وسألها : « من أنت ؟ » فأجابته بعبارة بسيطة تشعر بوفائها ومساواتها وانضمامها له وهى قولها « حيث تكون كيوس Caius أكون أنا كايا Caia » ثم يرفعها فوق عتبة بيته ، ويقدم لها مفاتيحه ، ويضع عنقها وعنقه تحت نير إشارة إلى الرابطة المشتركة بينه وبينها ، ومن ثمسمى الزواج كنيوجيوم Coniugium أى الاشتراك فى النير . ثم تشترك العروس فى الصلاة لآلهة البيت دلالة على أنها قد انضمت إلى الأسرة الجديدة .

وكان الطلاق عسيراً ونادراً فى الزيجات التى تعقد بالكنفرياشيو ، وفى زواج

الكم مانو كان الزواج وحده هو الذى يستطيع فصم عرى الزوجية ، أما فى زوج السن مانو فكان لكل من الزوجين حق الطلاق إذا أراد دون أن يتطلب هذا موافقة الدولة . وقد سجل أول طلاق فى تاريخ الرومان فى عام ٢٦٨ ق . م ؛ وتقول إحدى الروايات المشكوك فى صحتها « إنه لم يحدث قبل هذا طلاق قط منذ أسست مدينة رومة (٢٨) » ، وكانت عادات العشائر الرومانية تتطلب من الزوج أن يطلق الزوجة الخائنة أو العقيم « . وفى هذا يقول كاتو الكبير « إذا وجدت زوجتك تزنى ، فإن القانون يبيح لك أن تقتلها من غير محاكمة ؛ وإذا ما فاجأتك مصادفة وأنت ترتكب هذه الجريمة نفسها فليس لها أن تمسك حتى بأطراف أصابعها ، لأن القانون يحرم عليها هذا (٢٩) » . ويلوح أنه كانت هناك زيجات سعيدة كثيرة على الرغم من هذا التفريق ؛ فشواهد القبور تنطق بالكثير من عبارات الحب والإخلاص التى كتبت عليها بعد وفاة الأزواج . وها هى ذى عبارة مؤثرة تعظم إحدى السيدات التى أخلصت فى خدمة زوجها :

« لقد كنت ياستاتيليا Statilia بارعة الجمال إلى أبعد حد ودية لأزواجك ! ، ولو أن أول من جاء إليك قد استطاع أن يقاوم الأقدار لأقام إليك هذا الحجر ؛ أما أنا الذى نعمت بقلبك الطاهر هذه السنين السب عشرة فقد فقدتلك ، ألا ما أشد أسفى عليك » (٣٠) .

والراجع أن فتيات رومة فى عهدها الأول لم يبلغن من الجمال ما بلغته أخواتهن فى عهودها المتأخرة واللاتى يصفهن كاتلس Catullus وصف الرجل الخبير بأنهن *laneum latusculum manusque mollicellas* أى أن لهن « جانبين نحيلين أملسين كالصوف ، ويدين صغيرتين ناعمتين » . أو لعل الفتيات فى العهدين لم يكن بينهما هذا الفرق ولكن الكدح والهم فى الأيام الأولى أيام العمل فى الحقول كانا يطغيان بعد زمن يسير على جمال المراهقة . وقد اشتهرت نساء الرومان بتناسب معارفهن ، فكانت لهن أنوف صغيرة رفيعة ، وكن فى العادة

ذوات شعر أسود وعيون داكنة . وكان للشقراوات عندهن منزلة رفيعة ، وكذلك كان للصبغات الألمانية التي تكسب الفتيات هذا اللون قيمة كبيرة عند الرومانيات . أما الرجل الروماني فكان يتصف بالقوة والمهابة أكثر مما يتصف بالوسامة ، فقد قسا وجهه من أثر تربيته الصارمة والحياة العسكرية الطويلة ، ثم نعم واسترخى بعد انهماكه في الملاذ في الأيام الأخيرة . وما من شك في أن كليوباترة قد أحبت أنطونيوس لئيب آخر غير خديه المتفتحين من احتساء الخمر ، وأحبت قبصر يسحر آخر غير سحر أنفه ورأسه الشبهين برأس النسر وأنفه . لقد كان الأنف الروماني كالمخلق الروماني حاداً منحرفاً ، وظل الرومان يلتحون ويطيّلون شعر رؤوسهم حتى عام ٣٠٠ ق . م حين بدأ الحلاقون يمارسون مهنتهم في رومة . أما ملابسهم فكانت في جوهرها كملابس اليونان ، فكان الأولاد والبنات والحكام وكبار الكهنة يلبسون التوجا پراتكستا *Toga Praetexta* أي الجبة ذات الأهداب الأرجوانية . فإذا أتم الشاب السادسة عشرة من عمره استبدل بها التوجا فريلس *toga virilis* « جبة الرجولة » البيضاء دلالة على أنه قد أصبح من حقه أن يقرع في الجمعيات الوطنية ومن واجبه أن يخدم في الجيش . وكانت النساء في داخل البيوت يلبسن ثوباً (استولا *stola*) يربطنه بمنطقة تحت الثديين ، ويصل إلى القدمين ؛ فإذا خرجن من البيوت لبسن فوقه *Palla* أو عباءة . وكان الرجال وهم في البيوت يلبسون قميصاً بسيطاً *tunica* ، فإذا خرجوا منها أضافوا إليه جبة على الدوام وعباءة في بعض الأحيان . وكانت الجبة (*tegere* أي يغطي) رداء من الصوف تتكون من قطعة واحدة يبلغ عرضها ضعف عرض لابسها ، وطولها ثلاثة أضعاف طولها . وكانت تلف حول الجسم ويلقى ما زاد منها على الكتف اليسرى ، ثم تلف من تحت أبط اليد اليمنى ، وتعود مرة أخرى فتلقى فوق الكتف اليسرى . وتستخدم ثناباها التي فوق الصدر كما نستخدم نحن الجيوب ، وكانت تترك ذراع لابسها اليسرى حرة في حركتها .

وكان الرجل الروماني يصطنع المهابة الصارمة (gravitas) ويراهها نخلة ثقيلة لا يستغنى عنها الأشراف الذين يحكمون شعباً ، ثم شبه جزيرة ، ثم إمبراطورية . وكان ما يتصف به من رحمة وعاطفة رقيقة مقصوراً على الحياة المنزلية ؛ أما في الحياة العامة فقد كان على رجل الطبقة العليا أن يكون راسخاً جافاً كتتمثاله ، وأن يخفى وراء قناع من الهدوء الصارم ما في طبعه من تهيج وفكاهة لا نراها واضحين ساخرين في مسرحيات بلوتوس الفكهة فحسب بل نراها كذلك في خطب شيشرون . لقد كان يطلب إلى الروماني حتى في الوقت الذي نتحدث عنه أن يعيش عيشة اسبارطية ؛ فكان الرقيب يستهجن الرف في الملابس والمأكول ؛ بل إن الزارع إذا أهمل زرعته كان معرضاً لأن يفاجئته الرقيب ليحاسبه على هذا الإهمال . وليس أدل على تقشف الرومان من أن السفراء القرطاجنيين حين عادوا من رومة بعد الحرب البونية الأولى أخذوا يسألون أثرياء التجار في بلدهم بقولهم إنهم شاهدوا مجموعة بعينها من الصحف الفضية في كل بيت دعوا إليه ، أى أن مجموعة واحدة تنقل سرّاً من بيت إلى بيت كانت تكني طبقة الأشراف جميعها ؛ وكان أعضاء مجلس الشيوخ في ذلك الوقت يجلسون على مقاعد خشبية صلبة في بهو Curia لا يدفأ قط حتى في فصل الشتاء .

بيد أن الثروة والترف قد بدعا وسار سيراً حثيثاً بين الحربين البونيتين الأولى والثانية ؛ وشاهد ذلك أن هنيبال جمع من أصابع الرومان الذين قتلوا في معركة كانى عدداً كبيراً من الخواتم الذهبية (٣٢) ، وأن قوانين عدة قد وضعت لتحرم الجواهر المنقوشة ، والملابس المبهرجة ، والواجبات الغالية الثمن ، ولكن هذه القوانين رغم تكررها ظلت عديمة الجدوى . لقد ظلت وجبات الروماني العادى حتى القرن الثالث قبل الميلاد وجبات بسيطة ؛ فكان فطوره (ientaculum) يتكون من الخبز وعسل النحل أو الزيتون أو الجبن ؛ وكان غذاؤه (prandium)

وعشاؤه Cena يتكونان من البقول والخضر والفاكهة . أما السمك واللحم فكان يختص بهما الأغنياء (٣٣) ، ولما كانت مائدة ما تخلو من التبلد الخفيف ، أما شرب النبيذ المركز فكان يعد إفراطاً . وكانت الأعياد وللولايم من المتع الضرورية في هذا العهد الرواقى ، وكان العاجزون عن التمتع بها يقيمهم هذا العجز ويظهرون ما يحل بهم بسببه من إجهاد عصبي في تماثيلهم التى نحلفوها لمن جاءوا بعدهم .

ولم يكن للصدقات مجال في هذه الحياة المقصدة المتقشفة . وقد بقيت الضيافة من العادات التى يتبادلها الرومان لتيسر عليهم أسفارهم طالما كانت النزل فقيرة ومتباعدة ، ولكن پولبيوس يقول : « إن أحداً في رومة لا يقدم شيئاً مالمضى إنسان إذا كان ذلك الامتناع في مقدوره » (٣٤) - وما من شك أن في هذا كثيراً من المغالاة : وكان الصغار يشفقون عن الكبار ، ولكن الظرف والكياسة لم يصلا إلى رومة إلا في آخر أيام الجمهورية ، وقد غيرت الحروب والفتوح أخلاق الرومان فجعلتهم في الغالب غلاظاً قساة إلى حد بعيد ، لا يأنفون من أن يقتلوا دون أن يؤنبهم ضميرهم على القتل ، وأن يقتلوا دون أن يشكوا منه . وكان أسرى الحرب يباعون في الأسواق آلافاً مؤلفة ، عدا الملوك وقواد الجند فكانوا يقتلون عقب النصر أو يتركون ييموتوا موتاً بطيئاً من أثر الجوع . أما في دوائر الأعمال فكانت أخلاق الرومان خيراً من هذه الأخلاق . نعم إن الرومان كانوا يحبون المال ، ولكن پولبيوس (حوالى ١٦٧ ق . م) يصفهم بأنهم رجال مجدون شرفاء ، ويقول هذا المؤرخ اليونانى إن أحداً لا يستطيع أن يمنع اليونانى من الاختلاس مهما كان عدد الكتبة الذين يعيشون لمراقبته ، أما الرومان فكانوا يتصرفون في مبالغ طائلة من الأموال العامة ولم يثبت عليهم الاختلاس إلا في حالات يجد نادرة (٣٥) . على أننا رغم هذا القول نجد أن قانوناً قد صدر في عام

٤٣٢ ق . م لمنع الغش في الانتخابات . ويقول المؤرخون الرومان إن الزاهرة السياسية قد بلغت أوجها في الثلاثة القرون الأولى من عهد الجمهورية ، ولكنهم يشيرون الريبة بما يكيلونه من المدح لفالريوس كورفوس **Valerius Corvus** بقولهم إنه شغل واحداً وعشرين منصباً من مناصب الحكام ، ثم عاد إلى حقوله فقيراً كما كان حين خرج منها ؛ ولكيوريوس **Curius Dentatus** الذي لم يحتفظ لنفسه بشيء من الغنائم التي استولى عليها من الأعداء ؛ ولقايوس **Fabius Pictor** ورفاقه الذين قدموا للدولة ما أعطى لهم في مصر من الهدايا الثمينة حين ذهبوا إليها في بعثة رسمية . وكان الأصدقاء يقرضون بعضهم بعضاً من غير فائدة ؛ وكثيراً ما كانت الحكومة الرومانية تلجأ إلى الغدر في معاملتها للدول الأجنبية ، ولعل الإمبراطورية كانت أشرف من الجمهورية في علاقاتها الخارجية . ولكن مجلس الشيوخ أبي أن يتقاضى عن تسميم **Pyrhus** ، وحذره من المؤامرة التي كانت تدبر له (٣٦) . ولما أن أرسل هنيبال بعد معركة كافي عشرة أسرى إلى رومة ليفاوضوها ، في افتداء ثمانية آلاف أسير آخرين ووعده هؤلاء العشرة بالعودة إليه ، وفوا كلهم عدا واحداً منهم بما وعدوه به ، فما كان من مجلس الشيوخ إلا أن ألقى القبض على هذا العاشر وصفده بالأغلال ، وأعادته إلى هنيبال ، ويقول بوليبيوس إن سرور هنيبال لنصره « لم يبلغ من الشدة ما بلغه حزنه حين رأى ما يتصف به الرومان من ثبات وشهامة (٣٧) » . وقصارى القول أن الرومان العادى في ذلك العهد كان محباً للنظام ، محافظاً ، وفياً ، لا يفرط في الشراب ، وقوراً بخيلاً ، قاسياً ، عملياً . وكان يعجب بالنظام ويسر منه ولا يستمع إلى ما يقال من الهراء عن الحرية ؛ وكان مطيعاً يرى أن الطاعة خير سبيل إلى اعتياد الأمر والنهى . وكان يسلم بلا جدال بأن من حق الحكومة أن تثبت من أخلاقه كما تثبت من إيراده ، وأن قدره عندها لا يوزن إلا بما يقدمه للدولة من خدمات ، وكان لا يؤمن بالفردية ولا يثق بالعقريه . ولم يكن يتحلى بشيء من الجاذبية

وخفة الروح وطلاقة اللسان التي يتصف بها يونانيو أتيكا Attica . وكان إعجابه بالأخلاق الفاضلة والإرادة القوية يماثل إعجاب اليونان بالحرية والذكاء . وكان النظام مصدر تفوقه على غيره . وكان يعوزه الخيال إلى حد عجز معه عن أن ينشئ له أساطير خاصة به . وكان يحمل ببعض الجهد على أن يحب الجمال ، ولكنه قلما استطاع أن يخاق هذا الجمال خلقا . وقلما كان يجد لديه فائدة للعلوم البحتة ، وكان يرتاب في الفلسفة ، ويرى أنها وسيلة شيطانية للقضاء على الأخلاق والأساليب القديمة . ولم يكن في مقدوره بأية وسيلة كانت أن يفهم أفلاطون أو أركميدس أو المسيح ، وكل ما كان يستطيعه أن يحكم العالم :

الفصل الرابع

الآداب

لم تكن الأسرة والدين والقانون الأخلاقي وحدها هي التي تكون أخلاق الروماني ، بل إن المدرسة واللغة والآداب كان لها هي الأخرى شأن في تكوين خلقه وإن يكن أقل من شأن العوامل الثلاثة الأولى . ويقول أفلوطرخس إن أول مدرسة رومانية أنشئت في عام ٢٥٠ ق . م (٢٨) ، ولكن لبقي يقول في وصف فرجينيا Virginia محبوبة أحد الحكام العشرة ، ولعل لخياله الخصب شأن في هذا الوصف ، إنها « كانت تذهب إلى مدرسة في السوق العامة » في تاريخ مبكر جداً وهو عام ٤٥٠ ق . م . وإن مطالبة الشعب بتدوين القوانين ، ونشر الألواح الاثني عشر ، ليوحى بأن كثرة المواطنين في رومة كانت في تلك الأيام تعرف القراءة والكتابة .

وكان المدرس في العادة من العبيد أو من العبيد المحررين تستخدمه عدة أسر لتعليم أبنائها ، أو ينشئ هو لنفسه مدرسة خاصة يقبل فيها من يتقدم إليه . ويعلم فيها القراءة والكتابة والنحو والحساب والتاريخ والطاعة . وكانت التربية الخلقية مادة أساسية فيها تعلم على الدوام ، وكان يعنى بالنظام والتأديب أعظم عناية . وكان في حفظ الألواح الاثني عشر عن ظهر قلب تدريب للذاكرة وتقويم للأخلاق جميعاً . ومن أقوال هين Helne في وصف الصعود التي يلقاها من يريد تعلم اللغة اللاتينية إنه « لو اضطر الرومان لتعلم اللغة اللاتينية لما وجدوا لديهم من الوقت ما يسمح لهم بفتح العالم (٢٠) » . ولكن الرومان أيضاً قد اضطروا إلى دراسة تصريف الأفعال اللاتينية الشاذة ، ولم يلبثوا أن اضطروا إلى دراسة اللغة اليونانية ،

وكان الطالب اليوناني يدرس سير أبطال الرومان وما قامت به بلاده من جلائل الأعمال بدراسة آثار كتابها وشعرائها ، وكان يتلقى دروساً في للوطنية بدراسة حوادث لم تحدث قط ؛ ولم يكن الرومان يعنون بالألعاب الرياضية لأنهم كانوا يفضلون أن يقووا أجسامهم ويتعودوا تحمل المشاق بالقيام بالأعمال المجهدة النافعة : الحقول والمعسكرات ، لا بالمباريات في المختللات والملاعب الرياضية .

وكانت اللغة - كما كان الشعب - اقتصادية عملية محددة المعاني ، مختصرة ، جملها الأصلية والتبعية منظمة تنظيماً يوصل إلى هدف محدد . وثمة آلاف من الروابط بينها وبين اللغتين السكسكريدية واليونانية واللغات الكلتية التي كان ينطق بها الغاليون الأقدمون وسكان ويلز وأيرلندة ؛ وهذه اللغات كلها من أسرة اللغات الهندوربية ؛ وكانت اللغة اللاتينية أصيب من اللغة اليونانية خيالاً ، وأقل منها مرونة واستعداداً لتكوين الكلمات المركبة ؛ وكان لكريشيوس وشيشرون يشكوان من قلة مفرداتها ، ومن عجزها عن بيان الفروق الدقيقة في المعنى الواحد . لكنها مع ذلك كانت ذات نغمة طنانة فخمة وقوة أضحت بفضلها من أصلح اللغات للخطابة ؛ كما أن أسلوبها الجزل الموجز ، وعبارتها المنطقية ، قد جعلها صالحة لتدوين القانون الروماني . وقد انتقلت الحروف الهجائية اللاتينية إلى رومة من جزيرة خلقيس العوبية *Euobeana Chalcis* (*) عن طريق كومية وإتروريا^(١) . ومن أجل هذا نرى الحروف اللاتينية كلها يونانية الشكل في أقدم نقش لاتيني معروف يعزي إلى القرن السادس قبل الميلاد ، وكان حرف C في اللاتينية القديمة ينطق كافاً مثل حرف K في الإنجليزية كما كان حرف V ، U ينطقان مثل U ، W ؛ أما الحروف الدالة على الحركات فكانت شبيهة بمثلها في اللغة الإيطالية الحديثة . وكان معاصرو قيصر ينطقون اسمه يوليوس قيصر *Yooleous Keyssar* كما كان اسم شيشرون *Cicero* ينطق به كيكرو *Keekero* .

(*) من مجموعة جزائر عوبية في شرق بلاد اليونان . (المترجم)

وكان الرومان يكتبون بالحبر ببراعة معدنية مشقوقة (calamus, stilus) على أوراق الأشجار في بادئ الأمر (folia) ، ومن ثم كانت الكلمتان الإنجليزيتان Leaf , folio ، ومعناها صفتحتان) ؛ ثم كتبوا فيما بعد على باطن لحاء الشجر (liber) ؛ وكثيراً ما كانوا يكتبون على ألواح بيضاء من الخشب المطلي بالشمع (Album) ، وكتبوا بعد ذلك على الجلد المدبوغ . وعلى الورق . وإذا كانت لغة الكتابة اللاتينية أشد مقاومة للتغير من لغة الكلام ، فإن لغة الأدب أخذت تختلف شيئاً فشيئاً عن اللغة التي كان يتكلمها الشعب ، كما يحدث الآن في أمريكا وفي فرنسا . ولذلك نشأت اللغات الرومانسية الرخيمة : الإيطالية والأسبانية والبرتغالية ، والفرنسية ، ولغة رومانيا ، نشأت هذه اللغات من اللغة اللاتينية الخشنة غير المهذبة التي جاء بها إلى هذه الأقاليم الجنود والتجار ، والأفاقون المغامرون ، ولم تنشأ من اللغة التي جاء بها الشعراء والنحويون . ولهذا اشتقت الكلمات التي معناها حصان في اللغات الرومانسية — Caballo , Cavallo , Cheval — من اللفظ اللاتيني العامي Caballus لا من اللفظ الفصيح equus . وكان لفظ ille في اللغة اللاتينية العامة مكوناً من مقطع واحد كاللفظ li في اللغتين الفرنسية والإيطالية ، وكان حرف S وحرف M يُحذفان أو لا ينطق بهما إذا كانا في آخر الكلمات كما هي الحال في هاتين اللغتين . وعلى هذا فقد جاءت خير اللغات من مسخ أسوأها : Corruptio pesimi optima .

ترى ما هو الأدب الذي كان يقرؤه الشاب الروماني في هذه الثلاثة القرون الأولى من عهد الجمهورية ؟ لقد كان في وسعه أن يقرأ ترانيم وأغاني دينية كأغنية إخوان أرفال The Arval Brethren ، وكان لديه أيضاً قصائد شعبية تقص ماضي رومة التاريخي أو الأسطوري . وكان في ذلك العهد سجلات رسمية — معظمها مما كتبه الكهنة — للانتخابات ، والمناصب الكبرى ،

والحوادث الشهيرة ، وعلامات التشاؤم والتفاؤل ، وأيام الأعياد(*) .

وقد اعتمدك . فاييوس پكتور Q. Fabius Pictor على هذه السجلات في كتابة تاريخ لرومة خليق بالاعتبار ، وإن كان قد كتبه باللغة اليونانية ، ذلك بأن اللغة اللاتينية لم تكن تعد في ذلك الوقت صالحة لأن يكتب بها النثر الأدبي ، ولم يكن يكتب بها المؤرخون حتى زمن كاتو .

لقد كان هناك خليط من النثر يسمى ساتورى Saturae ، وهو خليط من الكلام المطرب الأجوف والغزل الهزلى - صاغ منه لوسلس Lucillus فيما بعد صورة جديدة كتب بها هوراس Horaec وجوفنال Juvenal وكان لديهم مجون هزلى فاحش أو تقليد صامت يقوم به في العادة ممثلون من إنثوريا .

وقد أطلق لفظ استريوني istriones على بعض هؤلاء الممثلين القادمين من مدينة استريا Istria ومن هذا الاسم اشتق لفظ histrio (ممثل) اللاتينى ومشتقاته في اللغات الحديثة . كذلك كانت تمثل في أيام الأسواق والأعياد مسرحيات هزلية فجأة شبه مرتجلة ، أخذت عنها كثير من المسرحيات الهزلية الإيطالية القديمة والحديثة آلافاً من شخصياتها : كالأب الغنى الأبله ، والشاب المتلاف صريع الحب ، والعدراء المفترى عليها ، والخادم الدساس الماهر ، والنهم الدائب السعى إلى وجبة ، والمهرج المرح الصخب .

وفي ذلك العهد البعثد كان المهرج يتباهى برقع ثيابه الزاهية الألوان ، وبسرويله الطويلة المنتفخة ، وبصديرتيه الواسعة الأكمام ، وبرأسه الخليق ، وهى الصورة التى لا تزال نذكرها من أيام شبابنا . ولقد وجدت على مظاهرات خرائب عبي صورة لا تفرق في شيء عن صورة « القركوز » المعروفة .

وكان أول دخول الأدب في رومة على يد عبد يونانى في عام ٢٧٢ ق . م .

ففي ذلك العام سقطت تارنتم في يد الرومان وذبح كثير من أهلها اليونان ،
ولكن ليفيوس أندريليكوس *Levius Andrenicus* أسعده الحظ بأن نجا
من القتل وصار في عداد العبيد ، ثم جرى به إلى رومة فأخذ يعلم أبناء سيده
وغيرهم من الأطفال اللغتين اللاتينية واليونانية ، وترجم لهم الأوديسة بالشعر
اللاتيني الساتورنى *Saturnian* وهو عبارة عن أبيات ذات أوزان مفككة
غير منتظمة تقاس أوتادها بالنبرات لا بالطول . ثم تحرر من الأسر جزاء
له على جهوده وعهد إليه إيديل بكتابة مأساة ومسلاة تمثلان في ألعاب
(*ludi*) سنة ٢٤٠ ق . م . فكتب المسرحيتين على النمط اليونانى ، وأرشد
ممثلهما ، ومثل هو الأجزاء الهامة فيهما ، وغنى ما فيهما من الإناشيد على
نغمة مزمار حتى بحّ صوته .

ثم جاء بشخص آخر يغنى الأبيات وهو يمثل - وهى طريقة اتبعت في
مسرحيات كثيرة بعدها مثلت في رومة ، وكان لها أثر كبير في نشأة
المسرحية الصامتة المضحكة ، وسرت الحكومة أيما سرور من دخول
المسرحية الأدبية في رومة فكرّمت أندرمكس ، بأن أباحت للشعراء أن
يؤلفوا اتحاداً لهم ، وأن يعقدوا اجتماعاتهم في هيكل منيرفا على الأفتنين
ومن ذلك الحين جرت العادة بتمثيل مسرحيات ذات مناظر في الأعياد
العامة (٤٣) .

وبعد خمس سنين من هذه البداية التاريخية جاء جندي قديم من عامة
الشعب ومن أهل كميانيا يدعى كنيس نيفيوس *Cnaeus Naevius* فأثار
غضب الأهلين المحافظين على تقاليدهم القديمة بتمثيل مسلاة سخر فيها من
المفاسد السياسية التي كانت متفشية في العاصمة في أيامه ، سخرية لا تقل
في صراحتها عن سخرية أرسطوفان *Aristophanes* .

وشكت الأسر الكبيرة من هذه السخرية فزج نيفيوس في السجن ثم
اعتذر عن عمله هذا وأطلق سراحه ، ولكنه عاد فألف مسرحية أخرى لا تقل
في سخريتها اللاذعة عن مسرحيته الأولى ، أخرج على أثرها من رومة ، وكتب

فى منفاه وهو شيخ طاعن فى السن ملحمة شعرية فى الحرب الپونية الثانية التى خاض هو نفسه غمارها ، تفيض وطنية وحماسة . وتبدأ هذه الملحمة بذكر تأسيس رومة على أيدى اللاجئين الطرواديين ، وقد استمد منها فرجيل موضوع ملحمة وكثيراً من مناظرها .

وخلقى بنا أن نقول إن الحكم الذى صدر بنفيه كان مأساة مزدوجة ؛ ذلك أن الملهاة الرومانية قد فتت فى عضدها عنت الرقابة التى كانت تعد السب جريمة يعاقب عليها بالإعدام ، وإن السياسة الرومانية قد فقدت فيه ناقداً عاماً جريئاً كان فى وسعه أن يظهرها من مفاسدها .

وكتب نيفيوس أيضاً مسرحية شعرية تعتمد على تاريخ رومة : ووقفت هذه التجربة هى الأخرى عنده ، وظلت المآسى الرومانية بعد أيامه محصورة كلها فى دائرة الأساطير اليونانية التى نصب معينها ولم تجد لها منها مخرجاً إلى غيرها من الموضوعات . ولم يبق مما كتبه نيفيوس إلا قطع قليلة منفردة تشهد ببراعته ، ومنها قطعة تصف فتاة لعبوا يقول فيها :

« إنما تنتقل من شخص إلى شخص تنقل من يلعب كرة فى حلقة ، وهى كل شئ لكل رجل ، تلقاهم بالفاظها ، وغمزات عينها ، ودلالها ، وعناقها . هذا تضغط عليه بيدها ، وذلك بقدمها ، وثالث تريه خاتمها ، ورابع ترسل له قبلة حارة مغرية من شفيتها ، وهنا أغنية ، وهناك لغة الإشارات » (٤٤) .

وخلقى بنا أن نقول إن النساء لم يكن فى ذلك الوقت أقل جمالا وسعرا مما هن الآن ، وإن الرومان لم يكونوا كلهم مترممين كما كان « كاتو » ، وإن الفضيلة كانت تنحى عن مكانها فى ظلال أبواب الهياكل نفسها .

ولم يكن للعلوم شأن فى تربية المواطن الرومانى أو ثقافته إذا استثنينا قواعد الحساب الأساسية ، وما يكفى من الهندسة لتخطيط مزرعة أو معبد . وكان

الأولاد يعدون على أصابعهم (digita) ، ولم تكن الأرقام التي يستخدمونها في العد والحساب إلا صورة للإصبع ممتدة (I) ، ولليد (V) ، أو اليدين متصلتين عند الرسغ X ، وكانوا يكتبون في تكوين الأعداد الأخرى بتكرار هذه الرموز (II ، III) وبإضافة أرقام قبل V ، X أو بعدها للدلالة على ما هو أقل منها في الحالة الأولى أو أكثر منهما في الحالة الثانية .

ومن هذا الحساب « اليدوى » وضع النظام العشري القائم على أجزاء العشرة ومضاعفاتها ، أى الأصابع العشر . وأجاد الرومان استخدام الهندسة في أعمال البناء وغيرها من الأعمال الهندسية ، ولكنهم لم يضيفوا نظرية واحدة جديدة إلى النظريات التي ابتكرها العقل اليوناني . ولسنا نسمع شيئاً عن الفلك الروماني في هذا العهد إلا ما يتصل منه بالتقويم المليء بالأخطاء ، وبالتنجيم شقيق الفلك أو موجدته .

أما للطب فقد ظل معظمه حتى القرن الثالث مقصوراً على استخدام الأعشاب والسحر والصلوات في البيوت ، وكان الاعتقاد السائد أن الآلهة وحدها هي القادرة على شفاء المرضى ، وكانوا يبتهلون في كل داء إلى إله خاص ، كما نلجأ نحن إلى الطبيب الإخصائي ، لكي يضمنوا لأنفسهم الشفاء من هذا المرض^(٤٥) ، فبعوض المناقع الرومانية كان يلجأ في اتقاء أذاه إلى الإلاهتين فبريس Febris ومفتيتس Mephitis ، كما ظل الرومان إلى القرن العشرين بعد الميلاد يلتمسون الشفاء من الحمى من « منيدة الحميات » La Madonna della Febbre^(٤٦) . وكانت الأضرحة الشافية والمياه المقدسة شائعة شيوعها في هذه الأيام .

وكان هيكل اسكيولاپيوس Aesculapius مركزاً كبيراً للعلاج الديني يعتمد فيه على التغذية المناسبة ، والمياه المعدنية ، والوسط الهادئ والنظام الرتيب الخلى من الضجيج ، والدعوات الصالحات ، والمراسم الدينية والمهدئة للأعصاب ،

ومعونة الأطباء المحبين العاملين ، ولطف مهرة المرضيين ، يعتمد فيه على هذه العوامل كلها لإعادة الثقة إلى نفس المريض ولشفائه من مرضه شفاء يظنون أنه إنما جاء عن طريق المعجزات (٤٧) .

على أنه كان في رومة إلى جانب هذه الوسائل أطباء حقيقيون ودجالون من العبيد قبل المسيح بخمسمائة عام ؛ وكان بعضهم يمارسون طب الأسنان لأن الألواح الاثني عشر كانت تحرم دفن الذهب مع الموتى إلا إذا كان مستخدماً في تغطية الأسنان (٤٨) . ونسمع في عام ٢١٩ ق . م عن أول طبيب من الأحرار في رومة ، وهو أرشجاثوس البلوونيزي Archagathus Le Peloponnes . وقد أعجب الأشراف بمجراحاته إعجاباً حمل مجلس الشيوخ على أن يطلب له مسكناً رسمياً ويمنحه حرية المدينة . وكان « شغفه الشديد الذي يبلغ حد الهوس بالتقطيع والتحريق » سبباً في تلقيه فيما بعد بالجزار Carnifex (٤٩) ، وأخذ الأطباء اليونان من ذلك الوقت يهرعون إلى رومة حتى أصبحت صناعة الطب في تلك البلاد وقفاً على اليونان .

الفصل الخامس

الزراعة

قلما كان الروماني في تلك العصور يحتاج إلى الطب ، لأن حياته اللشيطة في الزراعة والجنودية تكسبه صحة وقوة ، وكان يجد في فلاح الأرض كما يجد اليوناني في خوض عباب البحر ؛ وكانت الزراعة أساس حياته ، يقيم المدن لتكون مجتمعا للزراع يتبادلون فيها محصولات أرضهم ، وينظم جيوشه ودولته على أساس استعداداته للدفاع عن أملاكه وتوسيع رقعتها ، ويفكر في آفته على أنها أرواح الأرض الحية والسما المغذية .

ونجد الملكية الفردية قائمة في رومة من أقدم العصور المعروفة (٥٠) ؛ على أن بعض الأراضي كانت تعد من الأملاك العامة *ager publicus* التي تستولى عليها الدولة عن طريق الفتح وتحفظ لنفسها بملكيتها . وكانت أمرة الزراع في عهد الجمهورية الباكر تمتلك فدانين أو ثلاثة أفدنة ، يشغل فيها جميع أفرادها وعيادها إن كان لها عبد ، وتعيش عيشة منقشفة على ما تنتجه من الغلات . وكانوا يقرشون القش (٥١) ، ويصحون من نومهم مبكرين ، ويخرجون إلى عملهم ونصف جسمهم العاوى عار من الملابس ، ليحرثوا الأرض ويمهدوها خلف ثيران تسمدها بفضلاتها ، وتتخذ لحومها قرابين دينية وطعاما في الأعياد والولائم . وكانت فضلات الآنية تتخذ هي الأخرى سمادا ، ولكن الخصبات الكيميائية كانت نادرة في إيطاليا قبل عهد الإمبراطورية ؛ وقد استورد الرومان في ذلك العهد كتباً في الزراعة العملية في بلاد اليونان ومن قرطاجنة . وكانت الأرض تزرع حباتم خضراً ، ثم ترك من حين إلى حين لتكون مراعى حتى لا يستنفد خصبها وكانت الفاكهة والخضر موفورة ، وكانت بعد البقول أهم غذاء للأهلين ، وكان

الثوم من أحب المشميات ، وقد بلغ من شأن الزراعة عندهم أن بعض أسرار الأشراف قد اشتقت أسماءها من الخضر التي تعنى بزراعتها . ومن أمثلة ذلك أسرار *Caepiones* و *Fabii* و *Lentuli* ، وهي مشتقة من ألفاظ معناها العدس ، والبصل ، والفول أو الحمص ، ثم طغت زراعة التين والزيتون والكروم شيئاً فشيئاً على زراعة الحبوب والخضر ، واستبدل زيت الزيتون بالزبد في الطعام ، وبالصابون في الاستحمام ، واستخدم للإضاءة في المشاعل والمصابيح ، كما كان العنصر الأساسي في أدهان الشعر والجلد التي كانت رياح البحر الأبيض المتوسط الجافة وشمسه المحرقة في فصل الصيف تحتم عليهم استعمالها . وكان الضأن أهم قطعانهم لأن الإيطاليين كانوا يفضلون نسيج الصوف على غيره من المنسوجات . وكانت الخنازير والدجاج تربي في ساحة المزرعة ، وكان لكل أسرة تقريباً حديقة للأزهار (٥٤) هـ

ثم غيرت الحروب هذه الصورة القروية وما فيها من كدح ، ذلك أن كثيرين من الزراع الذين استبدلوا السيف بالمحراث قد غلبوا على أمرهم في ميدان القتال أو اجتذبتهم حياة المدن فلم يعودوا قط إلى حقولهم ، وكثيرون غيرهم وجدوا أن أرضهم أتلفتها الإهمال ، أو الجيوش ، فلم يجدوا لديهم من الشجاعة ما يحملهم على أن يبدأوا العمل فيها من جديد ، ومنهم من قصمت ظهورهم الديون الباهظة ، فاضطر هؤلاء كلهم إلى أن يبيعوا أرضهم بأثمان زهيدة إلى الأشراف أو الممولين الزراع ، وضم هؤلاء المزارع الصغيرة بعضها إلى بعض وكونوا منها ضياعاً واسعة كبيرة *Latifundia* ، واستبدلوا بزراعة الحبوب في هذه الضياع مراعى للضأن والماشية ، وبساتين وكروم ، وحشدوا فيها عبيداً من أسرى الحروب يعملون فيها على أعين مشرفين ، كانوا هم أيضاً عبيداً في أغلب الأحيان وكان الملاك يأتون إلى هذه الضياع بين الغينة والفينة ليلقوا نظرة على

أملاكهم ؛ ولم يكونوا هم أنفسهم يقومون فيها بعمل من الأعمال ، بل كانوا يعيشون عيشة الملاك الغائبين عن أملاكهم في منازل ذات حدائق في الريف ، أو في قصور في رومة . وقد بدأ هذا الاتجاه الجديد قبل القرن الرابع ، حتى إذا حل القرن الثالث قبل الميلاد نشأت في الريف طائفة من المستأجرين الذين أنقلتهم الديون ، وفي العاصمة طائفة من الصعاليك الذين لا ملك لهم ، وانتشرت بينهم روح التمر والغضب من وضعهم ، وما لبث هذان التدمير والغضب أن قضا على الجمهورية التي أقامها كدح الفلاحين .

الفصل السادس

الصناعة

لم تكن أرض إيطاليا غنية بمعادنها - وكان لفقرها في هذه المعادن أكبر الأثر في تاريخ إيطاليا الاقتصادية والسياسي ؛ فلم يكن في البلاد ذهب قط ، وكانت الفضة جدد نادرة ، وكان فيها قدر لا بأس به من الحديد ، كما كان بها بعض النحاس والرصاص ، والقصدير ، والخارصين ، بكميات قليلة لا تكفي لقيام الصناعات . وكانت جميع المناجم في الإمبراطورية كلها مأكلاً للدولة ، ولكنها كانت تؤجرها للأفراد يستغلونها استغلالاً مجزياً على أيدي آلاف من العبيد . ولم تتقدم صناعة التعدين أو الفنون الصناعية في البلاد إلا قليلاً ؛ ولكن البرنز في ذلك العهد كان لا يزال أكثر استعمالاً من الحديد ؛ ولم تكن الآلات الرافعة والدلاء ذات السلاسل التي أقامها أركميدس Archimedes وغيره من العلماء في صقلية ومصر تستخدم إلا في خير المناجم الإيطالية وأحدثها . وكان الخشب أهم أنواع الوقود تقطع له الأشجار كما تقطع أيضاً لاستخدامها في بناء البيوت وصنع السفن والأثاث ؛ ومن أجل هذا أخذت الغابات تنقص مساحتها وتندعم شيئاً فشيئاً من سفوح الجبال ، حتى وصل التقطيع إلى الحد الأعلى الذي لا تنمو فوقه الأشجار . وكانت أروج الصناعات وأكثرها ازدهاراً صناعة الأسلحة والعدد في كبرانيا . ولم يوضع قط نظام للمصانع إذا استثنينا مصانع الأسلحة والفخار ، ولم يكن الفخاريون يصنعون الصحاف وحدها بل كانوا يصنعون معها الآجر ، والقرميد ، والأنابيب ، والقنوات التي تجري الماء إلى البيوت . وكان في أريتيوم وغيرها يقلدون النماذج اليونانية ويتعلمون صناعة الآنية الفنية . ولم يحل القرن السادس قبل الميلاد حتى كانت صناعة الفسيج قد تخطت المرحلة المنزلية في نقش

التبل والصوف وإعدادهما وصبغهما ، وذلك على الرغم من أن صناعة الغزل كان يقوم بها البنات والأزواج والعبيد . أما الفساجون الأحرار وغير الأحرار فقد جمعوا في مصانع صغيرة لا تنتج للأسواق المحلية وحدها بل تنتج كذلك ما يلزم منها لتجارة التصدير .

أما الإنتاج الصناعي للاستهلاك غير المحلي فقد كانت تعطله صعاب النقل . ذلك أن الطرق كانت رديئة والقناطر غير مأمونة ، والعربات التي تجرها الثيران بطيئة ، والنزل في الطرق نادرة ، وكان اللصوص كثيرين ، ومن ثم اتجهت حركة النقل إلى القنوات والأنهار ، أما المدن الساحلية فكانت تستوود حاجتها من البضائع بطريق البحر لا من المدن الواقعة خلفها بطريق البر . وما أن حلت سنة ٢٠٢ ق . م حتى كان الرومان قد أنشأوا ثلاثة من الطرق « القنصلية العظيمة » وقد سميت طرقاً قنصلية لأنها كانت تسمى عادة باسم القناصل أو الرقباء الذين كانوا يبدأونها . وما لبثت هذه الطرق العامة أن فاقت في صلابتها واتساعها الطرق الفارسية والقرطاجية التي اتخذها الرومان نماذج لهم في بادئ الأمر . وكان أقدم هذه الطرق طريق قبا لاتينا *via Latina* الذي خرج به الرومان حوالي عام ٣٧٠ ق . م إلى تلال ألبان . وبدأ أبديوس كلوديوس *Appius Claudius* الضريع في عام ٣١٢ طريق قبا أيبا *via Appia* أو الطريق الأيباوي الذي يصل رومة بكمپوا *Capua* واستخدم في إنشائه آلافاً من المجرمين (٥٥) ، ثم مد هذا الطريق فيما بعد إلى بنفتنم ، وقنوزيا *Venusia* ، وبرنديزيوم *Brundisium* ، وتارنتم . وكان هذا الطريق البالغ طوله ٣٣٣ ميلاً لإنجلترا يربط ساحلى شبه الجزيرة الشرق والغربي ، وييسر التجارة مع بلاد اليونان والشرق كما كان هو وغيره من الطرق عاملاً كبيراً في توحيد إيطاليا . وفي عام ٢٤١ ق . م شرع الرقيب أورليوس كوتا *Aurilius Cotta* في إنشاء الطريق الأوربلى الممتد من رومة إلى أنتيبس *Antibes* مخترقاً مدينتى پيزا *Pisa* ،

وجنوى Genoa . وافتتح كيوس فلامينوس Calus Flaminus فى عام ٢٢٠
الطريق الفلامينى المؤدى إلى أرمينوم Ariminum ، ثم أنشئ حوالى ذلك
الوقت نفسه الطريق القلبرى Valerian بين تيدور Tipur وكرفينيوم
Corifinium . وهكذا أخذت شبكة الطرق الفخمة تتسع شيئاً فشيئاً : فصعد
الطريق الإميلى Aemilian نحو الشمال من أرمينوم مخترباً بونوليا Bononia
وموتينا Mutina إلى بلاسنتيا Placentia (عام ١٨٧) ، وربط الطريق
الپستونى Postumian جنوى بقرونا Verona (١٤٨) وسار طريق بوبليا
Via Popilia من أرمينوم مخترباً رافنا Ravenna إلى پدوا Padua
(١٣٢) ثم أنشئت الطرق فى القرن التالى من إيطاليا إلى خارجها - إلى
يورك York ، وفيينا Vienna ، وثلونيكيا ، وThessalonica ، ودمشق ،
كما امتدت على طول ساحل إفريقيا الشمالى . وأفادت هذه الطرق فى الدفاع
عن الإمبراطورية وتوحيدها ، وبعث الحياة فيها ، وذلك بمساعدتها الجيوش
على سرعة الحركة ونشر الأنباء والعادات والأفكار فى ربوعها ، كما أضحت
مسالك عظيمة للتجارة ، وكان لها شأن أیما شأن فى تعمير إيطاليا وأوربا
وزيادة ثرائها .

لكن التجارة لم ترج فى إيطاليا على الرغم من هذه الطرق الكبرى
رواجها فى شرق البحر الأبيض المتوسط . ذلك أن رجال الطبقات العليا
كانوا ينظرون بعين الاحتقار إلى الشراء بأثمان بخسة والبيع بأثمان مرتفعة ،
ولذلك تركوا التجارة الداخلية لليونان والمحربين من أبناء الشرق ، هذا
فى المدن ، أما الريف فقد كان أهله يكتفون بالأعياد التى تقام من حين
إلى حين ، وبأسواق اليوم التاسع فى المدن .

كذلك لم تبلغ التجارة الخارجية شأواً عظيماً لأن النقل البحرى كان معرضاً
للأخطار ، فقد كانت السفن صغيرة الحجم لا تزيد سرعتها على ستة أميال فى
الساعة سواء أكانت تسير بالشرع أم بالحاذيف ، ولم تكن تبعد عن الشاطئ

ولا يجروء معظمها على الخروج من الموانى من شهر نوفمبر إلى شهر مارس كذلك كانت قرطاجنة تسيطر على غربى البحر الأبيض المتوسط والممالك الإغريقية تسيطر على شرقه ، وكان لصوص البحار ينقضون من مكانهم من حين إلى حين على التجار الذين هم أكثر منهم شرفاً إلى حد ما ٥

وفوق هذا كله كان نهر التيبر دائب العمل على طمر مصبه وسد مدخل ميناء رومة عند أستييا Ostia ؛ وقد حدث أن غرقت مئتا سفينة فى هذا الميناء على أثر عاصفة هوجاء . يضاف إلى هذا وذلك أن التيار كان قوياً بحيث يجعل سير السفن صاعدة فيه إلى رومة عملاً لا يوازى ما يتطلبه من مشقة وما يتكلفه من مال ، ومن أجل هذا بدأت السفن حوالى عام ٢٠٠ ق . م ترسو عند بتيولى على بعد مائة وخمسين ميلاً جنوبي رومة ، ومنها تنقل حولتها برآ إلى العاصمة ٥

وكان لا بد لتيسير هذه الحركة التجارية الداخلية والخارجية من وضع نظام للنقود ، والمقاييس ، والمكاييل ، والموازين ، مضمون من الدولة (*) .

لقد ظلت الماشية حتى القرن الرابع قبل الميلاد تتخذ وسيلة للتبادل ، ذلك لما لها من قيمة عند جميع الناس ، ولأنها كان يسهل نقلها من مكان إلى مكان . فلما اتسع نطاق التجارة استخدمت قطع من النحاس ، خشنة الصنع خير مهذبة تسمى الإيس Aes واسطة للتعامل (حوالى ٣٣٠ ق : م) ٥ وقد اشتقت الكلمة الإنجليزية الدالة على القيمة estimate من كلمتي Aes timare أى تقويم النحاس . وكانت الوحدة المستعملة فى تقويم الأشياء هى الآس As (الواحد) وكان وزنها رطلاً من النحاس ، ولما أن سكنت

(*) وإلى القارئ بعض المقاييس والمكاييل الرومانية : الموديوس Modius ومقداره ربع بوشل (والبوشل يساوى ٣٥٢٤ لترا) ، والقدم ومقدارها ١١ ٨ بوصة إنجليزية ؛ وكانت خمس أقدام رومانية تساوى خطوة (Passus) ، وألف خطوة مساوى ميلاً (Mil a passum) ومقداره ١٦١٩ ياردة إنجليزية ، وكان الأيوجيرم (iugerum) يساوى ٢٠ فدان إنجليزى Acre تقريباً ؛ وكانت (اثنتا عشرة أوقية (Unciae) تساوى رطلاً .

الدولة عملة نحاسية حوالى عام ٣٣٥ ق . م كانت تطبع عليها في الغالب صورة ثور ، أو شاة ، أو خنزير ، ومن ثم سميت بيكونيا pecunia (من بيكس pecus أى ماشية) .

ويقول بلنى إنه لما شنت الحرب اليونانية الأولى « ولم تجد الجمهورية من الأموال ما يفي بحاجاتها ، خفضت وزن الآس إلى أوقيتين من النحاس ، وبهذه الوسيلة اقتصدت ٥ قيمته ، وأقلحت في تصفية الدين العمومى » (٥٦) . وما أن وافى عام ٢٠٢ حتى كان وزن الآس قد نقص إلى أوقية واحدة ، ثم خفض في عام ٨٧ إلى نصف أوقية لتستعين الدولة بذلك على تمويل الحرب الاجتماعية . وفي عام ٢٦٩ سككت قطعتان من النقود الفضية أولاها الديناريوس Denarius وكان يساوى عشرة آسات ، أى قيمة الدرخمة الأثينية في صورتها الهلينية المخفضة ، والأخرى الستريوس ومقدارها آسان ونصف آس أو ربع ديناريوس . وفي عام ٢١٧ ظهرت أول عملة ذهبية رومانية - الأورى aurei - وكانت قيمته عشرين أو أربعين أو ستين مستريوس .

أما من حيث قيمة المعادن التى تحتويها كل قطعة من هذه النقود فقد كان في الآس ما قيمته $\frac{1}{4}$ والستريوس $\frac{1}{16}$ والديناريوس $\frac{1}{64}$ من الريال الأمريكى .

ولاذ كانت المعادن الثمينة أقل كثيراً منها في هذه الأيام ، وكانت قيمتها الشرائية لهذا السبب أضعاف قيمتها في الوقت الحاضر (٥٧) ، فإن في وسعنا إذا غضضنا النظر عن تقلبات الأثمان في عهد نيرون أن نقوم الآس والستريوس والثالث (٦٠٠٠ ديناريوس) في عهد الجمهورية الرومانية بـ $\frac{1}{16}$ ، $\frac{1}{32}$ ، $\frac{1}{64}$ ، $\frac{1}{128}$ ، ٣,٦٠٠ ريال أمريكى على التوالى حسبما كانت قيمة الريال في عام ١٩٤٢ (٥٨) .

(٥) وكان البوشل من القمح في شمال إيطاليا يباع حوالى عام ٢٥٠ ق . م بنصف ديناريوس (أى $\frac{1}{32}$ من الريال) وكان المبيت والطعام في النزول مدة يوم يتكلفان نصف آس ($\frac{1}{32}$ من الريال) (٥٨) ، وكانت أجرة المنزل المتوسط القيمة في ديلوس Delos في القرن الثاني قبل الميلاد أربعة دنانير (٢٤ ريال) في الشهر ، وكان ثمن الطبق والفنجال في رومة عام ٥٠ ب . م نصف آس ($\frac{1}{32}$ من الريال) (٥٩) .

وكان إصدار هذه العملة المضمونة عاملاً مهماً في تدعيم الأعمال المالية في البلاد ، فقد كان الرومان الأولون يستخدمون الهياكل في أعمال المصارف ، كما نتخذ نحن المال إلهاً لنا والمصارف هياكل نعبده فيها من دون الله . وقد ظلت الدولة تتخذ الأضرحة القوية البناء مستودعات للأموال العامة ، ولعلها كانت ترى أن الدين قد يلقي الرعب في قلوب اللصوص فلا يقدمون على السرقة ، وكان إقراض المال من أقدم الأعمال في رومة ، وشاهد ذلك أن الألواح الاثني عشر تحرم الربا إذا زاد على $\frac{1}{3}$ ٪ في السنة (١٠) ، ثم خفض سعر الفائدة القانوني في عام ٣٤٧ إلى خمسة في المائة ، ثم حرم الربا على الإطلاق في عام ٣٤٢ ق . م

ولكن المرابين كان في وسعهم أن يروغوا من هذا التحريم الأرسطاطيلي ، وكان أقل سعر للفائدة يتقاضونه فعلاً لا يقل عن ٢ ٪ . وفضلاً عن هذا فقد كان الربا الفاحش (الذي يزيد على ١٢ ٪) واسع الانتشار ، وكان يحدث من حين إلى حين أن يتخلص المدينون من ديونهم بالإفلاس أو التشريع ، وحدث في عام ٣٥٢ ق . م أن استخدمت الحكومة وسيلة جد حديثة للتخفيف عن المدينين : ذلك أنها تكلفت هي بالرهون التي كان الوفاء بها مرجحاً أكثر من غيرها ، وأقنعت الزاهنين بأن يقبلوا عن الرهون الأخرى فوائد أقل من التي تعاقدوا عليها (١١) ، وأصبح أحد الشوارع المجاورة للسوق العامة Forum حتى رجال المصارف ، وازدحمت فيه حوانيت المقرضين (argentarii) والصيارفة مبدلي النقود (trapezitae) ، وكان في وسع الأهلين أن يقرضوا المال بضمان الأرض والمحاصيل الزراعية والأوراق المالية ، والعقود الحكومية ، كما كان في وسعهم أن يقرضوا لتمويل المشروعات التجارية والرحلات البحرية ، وكان يحل محل التأمين الصناعي السائد في أيامنا الحاضرة نظام الإقراض التعاوني ، وكان يحدث أن يشترك عدد من أصحاب المصارف في تقديم الأموال اللازمة لمشروع ما بدل أن ينفرد واحد منها بتمويله . وكانت هناك شركات مساهمة أشهر ما كانت تقوم به من الأعمال تنفيذه

العقود الحكومية التي يبرمها الرقيب بعد أن تقدم إليه عنها عطاءات . وكان أصحاب هذه العطاءات يحصلون على المال اللازم لقيامهم بهذه الأعمال ببيع ما لديهم من الأسهم والسندات للجمهور في صورة « أجزاء صغيرة » أي أسهم *particulae* أو (*partes*) . وقد اضطلعت هذه الشركات المولفة من رجال يقومون بالمشروعات العامة أو مشروعات الدولة بعمل خطير في تموين الجيش والأسطول في الحرب الهونية الثانية بما يحتاجه من المؤن والعتاد ونقلها إليهما ، ولم يفتها في هذا العمل أن تحاول ما يحاوله غيرها من الشركات ، وهو أن تخدع الحكومة (٦٢) ، وكان رجال الأعمال *equites* هم الذين يديرون هذه المشروعات الكبرى ، أما ما كان أصغر منها فكان يديره الأرقاء المحررون . وكانت المشروعات غير الحكومية يديرها مديرو الأعمال *negotiatus* وكان هؤلاء يديرون لأنفسهم ما يلزمهم من المال .

وكانت الصناعة في أيدي صناع مستقلين يشتغل كل منهم في حانوته الخاص ، وكان معظم هؤلاء الصناع من الأحرار ولكن كان إلى جانبهم عدد من المحررين ومن الأرقاء أخذ يتزايد على مر الأيام . وكانت الأعمال التي يقوم بها هؤلاء الصناع مختلفة كل الاختلاف ، وكان أكثر ما ينتجون للسوق لا للعميل الخاص . وقد أدى التنافس بين العمال الأحرار والأرقاء إلى خفض أجور الأولين ، فانحط مستوى العمال إلى درجة من البؤس لا تقل عن بؤس أفقر عمال المدن الذين يعيشون في أقذر الأحياء في هذه الأيام . ولم يكن لإضراب هؤلاء العمال عن العمل ذا فائدة لهم ولذلك كان نادر الحدوث (٦٣) ، غير أن الفتن بين الأرقاء كانت كثيرة ، ولم تكن « حرب الأرقاء الأولى » (١٣٩ ق م) أولى هذه الفتن . ذلك أن التذمر إذا اشتد وضاق الناس ذرعاً بمعيشتهم ، كان من السهل تلمس سبب للحرب تهيئ أعمالاً للمتعتلين ، وتيسر انتشار النقود المنخفضة القيمة ، وتوجه غضب الشعب نحو عدو خارجي يطعم الرومان من أرضه إذا انتصروا ،

أو تستبيلهم هذه الأرض متى أو أسرى إذا هزموا (٦٤) . وكان للأحرار من العمال اتحادات أو جماعات طائفية (Collegia) . ولكنهما قلما كانت تعنى بمسائل الأجور أو ساعات العمل أو ظروفه . وتعزو الروايات المتواترة إلى نوما Nums فضل إنشاء هذه الاتحادات أو الاعتراف بمشروعيتها . وسواء صح هذا أو لم يصح فإننا نعرف أنه كان في القرن السابع قبل الميلاد منظمات للزمارين ، والصانعين ، والنحاسين ، وطارقي الحديد ، والحذائين ، والفخريين ، والصباغين ، والنجارين (٦٥) . وكانت جماعات « الفنانين الديونيزيين » Dionysian Artists — الممثلين والموسيقيين — من أكثر الجماعات انتشاراً في العالم القديم . وقد كان في رومة قبل بداية القرن الثاني قبل ميلاد المسيح جماعات طائفية للطباخين ، ودابغى الجلود ، والبنائين ، وصناع البرنز ، والحداين ، وصانعى الخبال ، والنساجين ، ولكن الراجح أن هذه الطوائف كانت قديمة قدم الطوائف السالفة الذكر . وكان أهم أهداف هذه الاتحادات وأمثالها مجرد السرور الذى تبعته الصلات الاجتماعية في قلوب أعضائها . وكان الكثير منها جمعيات تعاونية تكفل نفقات دفن الموتى .

ولم تكن الدولة تنظم شئون هذه الاتحادات والجماعات الطائفية وحسب ، بل كانت تنظم كذلك كثيراً من النواحي في حياة رومة الاقتصادية ، فكانت تشرف على استغلال المناجم وعلى غيرها من الامتيازات والعقود التى كانت تبرمها الحكومة ، وكانت تهدئ الاضطرابات التى يثيرها العامة باستيراد الطعام وتوزيعه بأثمان اسمية على الفقراء أو على كل من يطلبه . وكانت تفرض الغرامات على الاحتكارات ؛ وقد أمت صناعة تعدين الملح لتقضى بذلك على احتكار هذه الصناعة ، بعد أن ارتفع من الملح بسبب هذا الاحتكار ارتفاعاً جعله في غير متناول طبقة العمال . وكانت رومة تتبع سياسة حرية التجارة ، ولذلك فإنها لما تغلبت على قرطاجنة فتحت غرب البحر المتوسط لتجارة الأمم جميعها ؛ وقررت حماية يتكا Utica ثم دياوس مشطرة عليها في نظير هذه الحماية أن يظلا ميناءين

حرين تدخل فيهما البضائع وتخرج منهما دون أن تؤدي لهما رسوماً ،
على أنها كانت في بعض الأحيان تحرم تصدير السلاح ، والحديد ، والخمر ،
والزيت ، والحبوب . وكانت تفرض على معظم الغلات التي تدخل رومة
عوائد جمركية تقدر عادة باثنين ونصف في المائة من قيمتها ، ثم امتدت
هذه الضريبة القليلة فيما بعد إلى غيرها من المدن ، وظلت حتى عام ١٤٧ ق . م
فرض ضريبة على الأملاك (tributum) في جميع أنحاء إيطاليا . ويمكن
القول بوجه عام إن إيرادات الدولة لم تكن كثيرة وإن أهم ما كانت
تستخدم فيه هو نفقات الحرب ، شأنها في هذا شأن غيرها من الدول
المتحضرة (٦٦) .

الفصل السابع

المدينة

أصبحت رومة في عام ٢٠٢ ق . م من كبريات المدن الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، بفضل ما كان يدخل خزائنها من الضرائب والغرامات التي تفرضها على أعدائها ، وبفضل من كان يفد إليها من الخلائق ليسكنوا فيها .

وقد سجل فيها الإحصاء الذي أجرى في عام ٢٣٤ قبل الميلاد ٢٧٠٧١٣ من المواطنين - أى من الذكور الراشدين الأحرار . ثم نقص هذا العدد نقصاً فجائياً خلال الحرب الكبرى ، ولكنه ارتفع في عام ١٨٩ إلى ٢٥٨٣١٨ وإلى ٣٢٢٠٠٠ في عام ١٤٧ ، وفي وسعنا أن نقدر سكان دولة المدينة في عام ١٨٩ ق . م بما يقرب من ١٠٠٠٠٠٠ ولربما كان ٢٧٥٠٠٠ من هؤلاء يسكنون في داخل أسوار رومة . وكان في إيطاليا جنوب الرويكون Rubicon نحو ٥٠٠٠٠٠٠ من السكان (٦٧) . وكانت الهجرة وامتصاص الشعوب المغلوبة ، وتدفق السكان ، وتحرير الأرقاء ومنحهم الحقوق السياسية - كانت هذه العوامل كلها قد أخذت تحدث في رومة تلك التغيرات العبقريّة التي جعلتها في عهد نيرون نيويورك الزمن القديم ، نصف سكانها من البلاد الأصليين والنصف الآخر خليط من كافة الأجناس »

وكان في المدينة شارعان رئيسيان متقاطعان يقسمانها إلى أحياء منفصلة ، لكل منها موظفوه الإداريون وأربابه الواقون . وقد شيدت إلى آلهة ملتي الطرق **Lares Compitales** معابد عند ملتي للطرق الهامة وأقيمت لها تماثيل عند ملتي الطرق الأقل من هذه أهمية - وهي عادة لطيفة لا تزال متبعة في

ليطاليا . وكانت معظم الطرق بحالها الطبيعية ، وكان بعضها مرصوفاً بمجازة
ملساء مستخرجة من أقواع الأنهار ككثير من مدن البحر الأبيض المتوسط
في هذه الأيام ، وقد دامت هذه الحال حتى شرع الرقيب حوالى عام ١٧٤
يغضى أرض الشوارع الكبرى بكتل من اللحم البركانية . وقد بنى أبيوس
كلوديوس الأعمى في عام ٣١٢ أولى القنوات المعروشة لجر المياه العذبة إلى
المدينة التى ظلت حتى ذلك الوقت تعتمد على العيون والآبار ومياه النهر العكرة .

وأقام الأشراف صهاريج تستمد الماء من هذه القنوات ، ومدت منها
الأنابيب في بيوتهم ، وركبت عليها الصنابير ، فاستطاع الأشراف أن
يستحموا بمائها أكثر من مرة في الأسبوع ؛ ثم افتتحت رومة حماماتها
الأولى التابعة للمدينة بعد هزيمة هنيبال بزمن قليل . وشاد المهندسون
الرومان أو التسكان في وقت غير معروف المجرى الأكبر Cloaca Maxima
لتنقل مياهها القذرة ، وقد بلغت العقود الحجرية الضخمة لهذا المجرى درجة
من الاتساع تسمح بمرور عربة محملة بالدريس من تحتها (٦٨) . ثم أنشئت
مجارى صغرى لصرف مياه المناقع التى كانت تحيط برومة وتغير عليها في
بعض الأوقات ، وكانت مياه الأمطار والمياه القذرة تجري من فتحات في
الشوارع إلى هذه المصارف ، ثم تنتقل منها إلى نهر التير . وقد ظلت مياهه
الملوثة مشكلة المشاكل في الحياة الرومانية .

وربما كانت المعابد هى مظاهر الزينة الوحيدة التى كانت في المدينة .
ذلك أن البيوت ظلت مستمسكة بالطراز التسكاني البسيط الذي وصفناه
من قبل ، لا يفترق عنه إلا في شيء واحد وهو أن جدرانها الخارجية
كانت تبني في الغالب من الآجر أو تطلّى بمسحوق الجبس الناعم ،
وكثيراً ما كانت هذه الجدران تشوه بما يخدش عليها من الشعر أو النثر في
ذكر حداث من الحوادث التافهة التى لا يلبث الناس أن ينسوها بعد وقوعها .
ولم يكونوا يقصدون بكتابتها إلا أن يدلوا على ازدياد نسبة من يعرفون

منهم القراءة والكتابة ، وكانت الهياكل تبني في الغالب من الخشب ، وكانت واجهاتها وزينتها من الطين المحروق ، وكان طرازها هو الطراز التسكاني . وقد أقيمت على تل الكپتولين هياكل لجوبيتر ، ويونو ، ومنيرفا ، وأقيم ميكل آخر لنديانا على الأفنتين Aventine ، وأقيمت هياكل غيرها (قبل عام ٢٠١ ق . م) ليونو ، والمريخ ، ويانوس Janus ، والزهرة ، ولانصر . والحظ السعيد ، والأمل وما إليها . وفي عام ٣٠٣ ق . م أضاف كيوس فابيوس إلى اسم عشيرته النباتي لقب پكتور Pictor أى المصور . وذلك لأنه عمل مظلمات في هياكل الصحة القائم على الكپتولين . وأقام المثاليون اليونان في رومة تماثيل للآلهة الرومانية والأبطال الرومانيين من الآجر ، والرخا . والبرنز ، وقد أقاموا في عام ٢٩٣ على الكپتول تماثلا لجوبيتر بلغ من ضخامته أن كان يراه الواقف عند تلال ألبان Alban التي تبعد عنه عشرين ميلا . وفي عام ٢٩٦ أقام الأيديلون (الموظفون الرومان المشرفون على المباني العامة والألعاب وغيرها) تماثلا من البرنز لذئبة أضاف إليه الفنانون فيما بعد صورتين لرميوليوس وريموس . ولسنا نعرف أهذه هي المجموعة التي جاء وصفها على لسان شيشرون أم أنها مجموعة أخرى ، وإن لم تكن فهل هذا أو تلك هي بعينها « ذئبة الكپتول » التي لا تزال باقية إلى هذا اليوم . ومهم يكن من شيء فإن هذا التمثال الأخير آية فنية أوفت على الغاية في الإتقان ، فهي تمثال من الجهاد ينبض بالحياة في كل عضلة من عضلاته وكل عصب من أعصابه .

وبينا كان الأشراف يخلدون انتصارهم ويمتدحون أسلافهم كان العامة يتأسون بسماع الموسيقى ، وبالرقص ، والمسرحيات المضحكة ، والألعاب . وكانت طرقات إيطاليا وبيوتها تردد أصداء الأغاني الفردية والجماعية ، فكان الرجال يغنون في المآدب والأولاد البنات يرددون الترانيم في المواكب الدينية ، وكانت حفلات الزواج لا تخلو قط من الأناشيد كما كانت الأغاني تصحب جنازات الأموات . وكان المزمارة أكثر آلات الطرب شيوعاً ولكن القيثارة أيضاً كاد

لها من يهواها حتى أضحت الآلة المحبوبة التي ينشد على نغماتها الشعر الغنائى .
وكان الرومان فى أيام الأعياد الكبرى يجتمعون فى المدرجات وساحات اللعب
يكتوون بنار الشمس ، بينا كان المستأجرون والأمري والمجرمون والأرقاء
يعدون ، أو يقفزون ، أو يقتتلون ، ويموتون : وكان الاقتتال والموت أحب
إلى الجماهير من العدو والقفز : وكان فى المدينة مدرجان كبيران هما الساحة
الكبرى (ويقال إن الذى أنشأها هو تاركوين الأول) وساحة فلامينوس
(٢٢١ ق م) - وكان يدخلهما من غير أجر كل من يصل إليهما من الرجال
والنساء فى الوقت الذى يمكنهم من أن يجدوا فيهما مكاناً . وكانت الدولة فى
بادئ الأمر هى التى تتكفل بالإتفاق على الملعبين ، ثم تكفل بهما بعدئذ
الإيديلون ، أما فى العهد المتأخر من حياة الجمهورية فكان ينفق عليهما
المرشحون لمنصب القناصل ، وأخذت هذه النفقات تزداد جيلا بعد جيل حتى
أضحت فى واقع الأمر سداً منيعاً يحول بين الفقراء وبين التقدم لمنصب القناصل

ولعل من واجبنا أن نضم إلى هذه الألعاب « حفلات النصر » التى
كانت تقام للقواد العائدين من ميادين القتال : ولم تكن هذه الحفلات
تقام إلا لمن انتصروا منهم فى حرب قتل فيها من الأعداء خمسة آلاف
أو يزيدون . أما للقائد المنحوس الذى انتصر ولكنه لم يقتل من أعدائه هذا
العدد كله فلم يكن يلقى هذا النوع من الترحيب ، ولم يكن يضحى له
بثور بل بشاة ovis : وكان الناس ينتظمون فى الموكب خارج المدينة ،
وكان يطلب إلى القائد هو وجنوده عند حدودها أن يلقوا أسلحتهم ،
ثم يدخلها الموكب من تحت قوس نصر ، اتخذ فيما بعد طرازاً لعشرات المئات
من الآثار . وكان النافخون فى الأبواق يتقدمون الموكب ثم تأتى من
بعدهم أبراج أو أرمات تمثل المدن التى استولى عليها ، وضور تدل على
ما قام به المنتصرون من أعمال البطولة . ثم تكرر من بعدها عربات
مثقلة بالذهب والفضة : ومنتهجات الفن وغيرها من الأسلاب . وقد اشتهر

موكب النصر الذى أقيم لمسلسل بما كان فيه من التماثيل المسروقة من سرقوسة (٢١٢) ، وعرض سبيو الإفريقى فى عام ٢٠٧ أربعة عشر ألف رطل من الفضة ، وفى عام ٢٠٢ مائة وثلاثة وعشرين رطلا استولى عليها فى أسبانيا وقرطاجنة ، وتبعها سبعون ثوراً أبيض تسير إلى مصرعها سير الفلاسفة ، ومن ورائها زعماء العدو المأسورون ثم الجلادون ، والضاربون على اللقيثار ، والزمارون ، وحاملو آنية البخور ، ومن بعد هؤلاء كلهم يمر القائد نفسه فى عربة زاهية مزينة ويلبس جبة أرجوانية ، وعلى رأسه تاج من الذهب ، وفى يده صولجان من العاج وغصن من شجر الغار ، وهما رمز النصر ، وشعار جوف جove . وكان يركب معه فى العربة أحياناً أبنائه ، ويركب فى عربة تسير بجوارها أقاربه ، ثم يأتى من خلفهم أمناء سره من المدنيين والعسكريين ، ويأتى فى آخر الموكب الجنود يحمل بعضهم ما فالوه من الأعطية ، وعلى رأس كل منهم تاج ، يمتدحون قوادهم ، وبعضهم يسخرون منهم . ذلك أن التقاليد المرعية التى لا يمكن خرقها كانت تترك للجنود فى هذه الفترات القصيرة كامل الحرية فى أن ينطقوا بما يريدون أن ينطقوا به دون أن يعاقبوا عليه ، وذلك لكى يذكروا المنتصرين المزهوين بنصرهم أنهم كسائر الناس معرضون للأخطاء ، وكان القائد يصعد الكهتول إلى جوبتر ، ويونو ، ومينرفا ، ويضع قدمه عند أقدام الآلهة ، ويضحى بحيوان ما ، وكان يأمر عادة بأن يذبح زعماء من الأسرى مبالغة فى شكر الآلهة . وكان هذا الموكب منظماً تنظيمًا يثير فى النفس المطامع العسكرية ، ويجزى القواد والجند أحسن الجزاء على جهودهم الحربية ؛ ذلك أن زهو الإنسان وغروره لا يخضعان إلا للجوع والحب .

الفصل الثامن

بعد الموت

لقد كانت الحرب أروع النواحي الروائية في حياة الرجل الروماني ، ولكنها لم يكن لها ذلك الشأن الخطير الذي تحدثنا عنه صحف المؤرخين الرومان . ولعل حياة الروماني كانت تدور كلها حول أسرته وبيته أكثر مما تدور حولها حياة الرجل منا في هذه الأيام . وكانت أخبار العالم لا تصل إليه إلا متأخرة ، ومن أجل هذا لم يكن ما يتجمع في العالم من اضطراب يستثير عواطفه في كل يوم ، ولم تكن الحوادث العظمى التي تبرز به في حياته هي السياسة والحرب ، بل كان أهم ما يعنى به مولد الأطفال وحفلات الزواج وأخبار الموت المحزنة .

ولم يكن كبر السن تلازمه تلك الوحشية والهجران اللذان ينفصان على الكبار حياتهم في العصور التي تشيع فيها الفردية . ذلك أن الصغار كانوا يرون أن من الفروض الواجبة عليهم أن يعنوا بالكبار ، وقد ظل هؤلاء إلى آخر عهود الجمهورية أجدر الناس بالرعاية وأعظمهم سلطاناً ، وكانت قبورهم بعد وفاتهم مواضع التكریم ما دام لهم أبناء أو أحفاد على قيد الحياة . ولم تكن الجنازات تقل فخامة وتعظيماً عن مواكب الأفراح ، فكان يسير في طليعتها جماعة من الناديات المأجورات فلما تغالين في عويلهن وهوسهن قيد هذا التغالى بنص في الألواح الاثني عشر (٧١) يحرم عليهم اقتلاع شعرهن . ويتلو هؤلاء النسوة الزمارون وقد حدد القانون عددهم باثني عشر ، ثم الراقصون يمثل الميت واحد منهم . ويأتى من بعد هؤلاء عرض عجيب لجماعة من الممثلين يلبسون أقنعة الموت أو وجوهاً من الشمع في صورة آباء الميت الذين شغلوا مناصب ذات شأن في الدولة . ثم تتلو هؤلاء جميعاً جثة الميت محوطة بمظاهر تبلغ من الفخامة ما يبلغه موكب القائد المنتصر ، وعابها كامل

اللباس المخصص لأعظم منصب شغله صاحبها في حياته ، وموضوعة في نعش بسطت عليه أغطية مطرزة باللونين الأرجواني والذهبي ، ومن حولها الأسلحة والدروع التي غنمها ممن قتلهم من الأعداء ، ويسير خلف النعش أبناء المتوفى وعليهم أثواب وأقنعة سوداء ، وبناته سافرات ، وأقاربه وأبناء عشيرته وأصدقائه ومواليه وعبيده . فإذا وصلت الجنازة إلى السوق العامة وقفت ورثي الميت أحد أبنائه أو أقاربه ، لقد كانت الحياة في تلك الأيام خليفه بأن يحياها الإنسان ولو لم ينل منها إلا هذا التكريم بعد الوفاة .

وكان الموتى من أهل رومة في القرون الأولى من حياتها يحرقون ، ثم جرت العادة بعدئذ بأن يدفنوا وإن كان بغض المحافظين من أبنائها ظلوا يفضلون إحراق موتاهم . وسواء اتبعت هذه السنة أو تلك فقد كانت بقايا الميت تدفن في قبر أضحي فيها بعد مزاراً ومكاناً للعبادة ، كان الأتقياء من أبناء الميت وأحفاده يضعون عليه من حين إلى حين طاقات الزهر وقليلاً من الطعام . وكان لعبادة الأسلاف والاعتقاد بأن أرواحهم تحيا في مكان ما وترقب الأحياء أكبر الأثر في استقرار الأخلاق والمجتمع الروماني ، كما كان لها نفس الأثر في بلاد اليونان والشرق الأقصى . وكان الموتى حسب الأساطير الرومانية التي اصطبغت بالصبغة الهلينية يلتقلون إلى جنات النعيم أو إلى جزائر المقبمين ؛ على أنهم كلهم تقريباً كانوا ينزلون إلى الأرض ليستقروا في مملكة الأشباح التي يسيطر عليها أوركوس Orcus وبلوتون Pluto ، وكان ثانيهما — وهو الصورة اليونانية للإله هيديز Hades اليوناني — يحمل في يده مطرقة يضرب بها الميت حتى يغيب عن وعيه . أما أوركوس (وهو الاسم الذي اشتقت منه الكلمة الإنجليزية ogre أى الغول) فكان هو الهولة التي تلتهم جثة الميت بعدئذ . وإذا كان بلوتو أعظم الأرباب في باطن الأرض وأعلاها مقاماً ، وإذا كانت الأرض هي المورد الأخير للثروة ، وهي في كثير من الأحيان مستودع ما يتجمع من الطعام والسلع ، فقد كان بلوتو يعبد

أيضاً على أنه إله الثروة والأثرياء ، وأضحت زوجته — پرسپرینا Prosperpina
الضالة — ابنة سيريز Ceres إلهة الحلب النامي . وكان الرومان يتمثلون بالحجم
في بعض الأحيان على أنها موضع العقاب (٧٢) ، وكانوا يصورونها في
الأغلب الأعم على أنها مسكن الأشباح النصف المجردة التي كانت في حياتها
رجالاً يمتاز بعضهم عن بعض بثواب أو عقاب بل يعانون كلهم على السواء
عذاب الظلام الأبدي والنسيان النهائي . « وهناك » كما يقول أوسيان Lucian
« يجد الإنسان في آخر الأمر الديمقراطية المنشودة (٧٣) » .

الباب الخامس

فتح بلاد اليونان

٢٠١ - ١٤٦ ق م

الفصل الأول

الاستيلاء على بلاد اليونان

لما تحالف فليب ملك مقدونيا مع هنيبال على رومة (٢١٤) ، كان يأمل أن تسير في ركابه بلاد اليونان كلها لإهازق روح ذلك الجبار الناشئ في الغرب ؛ ولكن الشائعات ما لبثت أن انتشرت تقول إنه كان يعتزم إذا ما انتصرت قرطاجنة أن يفتح أرض اليونان كلها بمعونة حلفائه القرطاجنيين ؛ ومن أجل ذلك وقعت العصبة الإيتولية Aetolian ميثاقاً تعهدت فيه أن تساعد رومة في محاربها ضد فليب ؛ واستطاع مجلس الشيوخ بفطنته أن يستفيد من هذا الخللان فيقنع فليب بعقد صلح منفرد مع رومة (٢٠٥) . وما كاد الرومان ينتصرون في معركة زاما حتى أخذ مجلس الشيوخ - وهو الذي لم ينس قط لإساءة وجهت إلى بلاده - يكدد لمقدونية ويستعد للثأر منها . ذلك أن هذا المجلس كان يشعر بأن رومة لا تستطيع أن تأمن على نفسها ما دام من ورائها تلك القوة العظيمة التي لا يفصلها عنها إلا بحر ضيق . ولما أن عرض مجلس الشيوخ اقتراحاً بإعلان الحرب اعترضت الجمعية على هذا الاقتراح وقام أحد التريبونين يتهم الأشراف بأنهم يريدون أن يحولوا أنظار الشعب عما في البلاد من فساد^(١) ؛ ولكن المعارضين

في الحرب سرعان ما أخذت أصواتهم واهتموا بخور العزيمة وضعف الوطنية ؛
وما وافى عام ٢٠٠ ق . م حتى أبحرت . كونكتوس فلامينوس T. quintus
Flaminus إلى مقدونية .

وكان فلامينوس فني في الثلاثين من عمره ، وكان من أفراد تلك الدائرة
الحررة المعينة بصنغ البلاد بالصبغة الهلينية ، والتي كانت تنجمع في رومة
حول آل سيبو . والتقى بفليب عند سينوسفلى Cynoscephalae بعد عدة
حركات عسكرية ماهرة ، وهزمه هزيمة منكرة (١٩٧) . ثم أدهش جميع
أمم البحر الأبيض المتوسط ، ولعله أدهش رومة نفسها أيضاً ، بأن أعاد
فليب ، بعد أن عاقبه على فعلته ، إلى عرشه المفاش الهزبل ، وعرض على
بلاد اليونان كلها أن يعيد إليها حريتها . واحتجت العصبة الاستعمارية من
أعضاء مجلس الشيوخ ولكن الأحرار تغلبوا إلى وقت ما ؛ وأعلن رسول
من قبل فلامينوس في عام ١٩٦ إلى حشد كبير اجتمع في الألعاب التي
كانت قائمة في البرزخ اليوناني أن بلاد اليونان مستحرة من سيطرة رومة
ومقدونية ، وستعفى من أداء الجزية ، وأن الحماية الرومانية نفسها ستسحب
منها . ويقول أفلاطرخس إن الجمهور المحتشد هتف له هتافاً عالياً بلغ من
شدته أن ماتت الغربان التي كانت تطير فوق الملعب وهوت إلى الأرض (٢) .
ولما أظهر العالم المتشكك ريبته في نيات القائد الروماني ، بدد شكوكه
بسحب جيشه إلى إيطاليا ، وكان هذا العمل صفحة ناصعة البياض في
تاريخ الحروب .

ولكن الحرب تستتبع الحرب على الدوام ، فقد استاء الحلف الإيتولي من
تحرير المدن اليونانية التي كانت من قبل خاضعة له ، وطلب إلى أنتيوخوس
الثالث Antiochus III أن يحرر بلاد اليونان من حريتها . واغتر أنتيوخوس

بما حازه من نصر رخيص في بعض المعارك التي خاض عمارها في الشرق ، فسولت له نفسه أن يهبط سلطانه على غرب آسية بأجمعه . وخشيت برجوم عاقبة بغيه فلدجأت إلى رومة تستعينها عليه ، وأرسل مجلس الشيوخ سبيو الإفريقي وأخاه لوسيوس Lucius مع أول جيش روماني تظاً أقدامه أرض آسية ، والتحم الجيشان عند مجنيزيا Magnesia (١٨٩) وانتصر الرومان نصراً كان بداية الفتوح التي شملت بلاد الشرق ذى الصبغة اليونانية . وزحفت الجيوش الرومانية نحو الشمال وردوا الغالين إلى جلاشيا Jalatia (الأناضول) وكانوا من قبل يهددون برجوم وحمد لهم اليونان سكان الجزائر الأيونية حسن صنيعهم هذا .

لكن اليونان في أوروبا لم يعجبهم هذا العمل لقد أضحت الجيوش الرومانية تحيط ببلاد اليونان من الشرق والغرب ، وإن كانت لم تظاً بعد أرضها ، ولقد حررت رومة اليونان من عدوهم ولكنها اشترطت أن يضعوا حداً لحرب الطبقات والحروب الخارجية . غير أن حياة الحرية بغير حرب كانت حياة جديدة شاقة على دول المدن التي تتكون منها هلاس ، وكانت الطبقات العليا تنوق إلى فرض سلطانها السياسي على المدن المجاورة لبلادها ، كما أن الطبقات الفقيرة أخذت تنهم رومة بأنها أينما حلت تعين الأغنياء على الفقراء . وكانت نتيجة هذه العوامل مجتمعة أن عقد پرسسيوس Perseus بن فليب الخامس وخليفته على عرش مقدونية حلفاً مع سلوقس الرابع Seleucus IV ومع أهل جزيرة رودس ، وأهاب باليونان في عام ١٧١ أن يثوروا معه على رومة ، ولكن لوسيوس إيميليوس پولس ابن القنصل الروماني الذي قتل في معركة كانى هزم پرسسيوس في پدنا Pydne بعد ثلاث سنين من ذلك العام ، وخرب سبعين مدينة مقدونية ، وأسر پرسسيوس نفسه وسار به مصفداً يزين موكب نصره في شوارع رومة — وعوقبت رودس بتحرير كل المدن الآسيوية التي كانت تؤدى إليها الخراج ، وبإنشاء ميناء منافس لها في ديلوس . وقبض على ألف

من اليونان ومنهم المؤرخ پوليبوس Polybius واتخذوا رهائن في إيطاليا ، وظلوا في النفي ستة عشر عاماً مات منهم في خلالها سبعمائة (*) .

وسارت العلاقات بين اليونان والرومان خلال العشرة الأعوام التالية سيرا حثيثاً نحو العداوة السافرة : ذلك أن المدن والأحزاب والطبقات المتنافسة في بلاد اليونان لحأت إلى مجلس الشيوخ في رومة تطلب إليه العون ، وهيات لرومة بطلبها هذا سبيلاً للتدخل انتهى بأن أضحت بلاد اليونان خاضعة خضوعاً فعلياً إلى رومة وإن ظلت بالاسم حرة مستقلة .

ولم يستطع أشياع سبيو وأسرته في مجلس الشيوخ أن يصمدوا أمام الواقعيين الذين كانوا يشعرون أن النظام والسلام لا يستقيان في بلاد اليونان إلا إذا خضعت خضوعاً كاملاً لحكم الرومان وبينما كان النزاع قائماً بين رومة من جهة وقرطاجنة وأسبانيا من جهة أخرى خرجت مدائن الحلف الآخر على رومة وثارَت مطالبة بحريتها ، وتزعَم الحركة زعماء الطبقات الفقيرة ، فحرروا العبيد وسلحوهم ، وأجلوا الوفاء بالدبون ، وأشعلوا مع الحرب نار الثورة في البلاد . ولما دخل الرومان يقودهم موميوس Mummius بلاد اليونان وجدوا أهلها منقسمين على أنفسهم ،

(*) وقد وجه پولوس Paulus ، وهو سائر إلى هذه الحرب ، تحيته المشهورة إلى الحياة الخبيرين في الفنون الحربية والتي قال فيها : « إن في المناصب العامة جميعها ، وفي الأحزاب الخاصة : رجالاً يعرفون أين يجب أن تحشد الجيوش في مقدونية ، وأى النقاط الحربية ذات المنفعة يجب أن تحتلها جيوشنا ... وهم لا يكتفون بأن يقرروا ما يجب علينا أن نفعله ، ولكنهم يتجاوزون ذلك إلى السخيرية من القنصل إذا ما استقر الرأي على شيء لا يتفق مع آرائهم ، سخيرية لا تقل عن اتهامه بالخيانة ... وهذا عمل يعطل سير الحرب إلى غايتها المرجوة تعطيلاً خطيراً ... فإذا كان (أحد منكم) يحس بأن في وسعه أن يسد إلى النصب السيد فليس معنى إلى مقدونية ... أما إذا ظن أنه لا يطيق هذا السير فعليه ألا يعمل عمل المرشدين في البحار وهو على ظهر الأرض (٢) » .

وكان من السهل عليهم أن يهزموا الجيوش اليونانية غير المدربة وحرق مومبوس كورنثة Corinth وذبح رجالها وباع نساءها وأطفالها بيع الرقيق ، ولم يكن يترك فيها شيئاً من الثروة المنقولة أو الآثار الفنية بل نقلها كلها تقريباً إلى رومة ، وأصبحت مقدونية وبلاد اليونان من ذلك الحين ولاية تابعة لرومة يحكمها حاكم روماني ، وكانت أثينا واسبارطة هما المدينتان الوحيدتان اللتين سمحت لهما رومة بأن تحتفظا بشرائعهما . واختفت اليونان من تاريخ العالم السياسي مدى ألفي عام .

الفصل الثاني

تبديل أحوال رومة

ونمت الإمبراطورية الرومانية نمواً تدريجياً ، ولم يكن معظم هذا النجاح نتيجة خطة موصوعة عن قصد وتدبير ، بل كان الدافع إليه ضغط الظروف وتراجع الحدود تراجعاً يتطلبه سلامة البلاد . فقد أخضعت الفيالق الرومانية مرة أخرى بلاد غالة الجنوبية في معركة كرمونا Cremona (٢٠٠) وموتينا (١٩٣) ، ودفعت حدود إيطاليا الشمالية حتى أوصالها إلى جبال الألب ، كذلك كان لا بد لرومة أن تحتفظ بسيطرتها على أسبانيا بعد أن استعادتها من قرطاجنة كيلا تعود هذه إلى الاستيلاء عليها ، هذا إلى ما في تلك البلاد من ثروة معدنية عظيمة تشمل الحديد والفضة والذهب . وقد فرض عليها مجلس الشيوخ جزية سنوية باهظة من المعادن الغفل والنقود ، وكان حكامها الرومان يعرضون أنفسهم تعويضاً سخياً عن السنة التي يقضونها فيها بعيدين عن موطنهم . وحسبنا أن نذكر دليلاً على هذا أن كونتس منوسيوس Quintus Minucius ، لما عاد إلى رومة بعد فترة قصيرة فضاها قنصلاً في أسبانيا ، جاء إليها بأربعة وثلاثين ألفاً وثمانمائة رطل وخمسة وثلاثين ألف دينار من الفضة ، وكان الأسبان يجندون في الجيش الروماني فكان منهم أربعون ألفاً في القوة التي استولى بها سيبو إميليانوس Scipio Aemilianus على نومانتيبا Numantia الأسبانية . ولما ثارت على الحكم الروماني ثورة عنيفة في عام ١٩٥ ق م أخضعها ماركس كاتو Marcus Cato ولكنه جرى في إخضاعها على سنة الرومان الأفاضل الذين كان جيلهم آخذاً في الانقراض ، فكان عادلاً رحماً . ووفق تيبيريوس سمپرونيوس جراكس Tiberius Sempronius Gracchus (١٧٩) توفيقاً مشوباً بالعطف والرافة بين

حكمه وبين أخلاق الأهليين وحضارتهم ، واتخذ له أصدقاء من زعماء القبائل ، ووزع الأراضي على الفقراء ، ولكن واحداً من خلفائه يدعى لوسيوس لوكاس Lucius Lucullus (١٥١) أدخل بشروط المعاهدات التي عقدها جراكس وهاجم من غير سبب كل قبيلة يستطيع أن يجد عندها مالا يغتصبه منها ، وقتل أو استعبد آلافاً من الأسبان دون أن يكلف نفسه عناء البحث عن حجة يبرر بها هذا الاعتداء . واتبع هذه السنة نفسها ساپسيوس جلبا Sulpicius Galba (١٥٠) فاستقدم إلى معسكره سبعة آلاف من الأهليين بعد أن عقد معهم معاهدة يعدم فيها بأنه سيوزع عليهم بعض الأراضي ، فلما جاءوا أمر أعواله بأن يحيطوا بهم ثم ذبحهم أو استرقهم . وفي عام ١٥٤ شلت قبائل لوزتانيا Lusitania (البرتغال) على رومة حرباً دامت سبع سنين ، وظهر بين هذه القبائل زعيم قدير يدعى فرياثوس Viriathus قوى البلية ، فارح الطول ، شجاعاً ، صبوراً ، شهماً ، نبيلاً ، وظل ثمان سنين يكيل الضربات إلى كل جيش روماني يرسل لقتاله ويوقع به الهزيمة حتى ابتاع الرومان آخر الأمر من يقتله غيلة . وصبر الكلثريان Celtibrians الثائرون أهل أسبانيا الوسطى على الحصار في ثومانتيا خمسة عشر شهراً ، لا يتناولون من الطعام إلا جثث موتاهم ، حتى أرغهم سيبو إيمليانوس في عام ١٣٣ على التسليم . ويمكن القول بوجه عام إن السياسة التي سارت عليها الجمهورية الرومانية في أسبانيا قد بلغت من الوحشية والغدر حداً جعل ضررها برومة أكثر من فائدها لها . وفي هذا يقول ممسن Mommsen المؤرخ الألماني « إن التاريخ كله لم يشهد حرباً تضارع هذه الحرب الأسبانية فيما انطوت عليه من ضروب الغدر والقسوة والجشع (٤) » .

وكانت الثروة المنتهبة من الولايات هي التي أمدت رومة بالمال الذي تتطلبه حياة التهلك والفساد والأناية التي أشعلت نار الثورة في البلاد ، وقضت آخر الأمر على الجمهورية ، ذلك أن الغرامات الحربية التي فرضتها رومة على قرطاجنة

وسوريا ، والعبيد الذين سيقوا إليها من جميع مبادين النصر ، والمعادن الثمينة التي استولت عليها بعد فتح بلاد الغالة الجنوبية وأسبانيا ، والأربعمائة ألف ألف نسترس (وهي تساوى ستين مليون ريال أمريكي) التي انتزعها من أنتيوخوس ، وپرسیوس ، وال ٤٥٠٣ رطل من الذهب ، وال ٢٢٠.٠٠٠ رطل من الفضة التي اغتصبها مانليوس فُلُسو Manlius Vulso في حروبه الآسيوية ، هذه كلها وغيرها من أسباب الثراء الفجائى الذى ساقته إليها المقادير بدلت طبقات الملوك في رومة في مدى نصف قرن من الزمان (٢٠٢ - ١٤٦ ق . م) من رجال ذوى موارد وسطى مكتسبة إلى أشخاص مترفين يستمتعون براء ونعيم لم يعرفها قبلهم إلا الملوك . وكان الجند يعودون من هذه الغارات يجر الحقائب بالمال والأسلاب ، ولما أخذت النقود يتضاعفت مقدارها في رومة أسرع من المباني فإن أصحاب الأملاك العقارية تضاعفت ثروتهم ثلاثة أضعاف دون أن يحركوا في سبيل ذلك عضلة أو عصباً . واضمحلت الصناعة وراجت التجارة ، ولم تكن رومة في حاجة إلى إنتاج السلع ، فقد كانت تأخذ أموال العالم لتؤدي منها أثمان بضائعه . وازدادت الأعمال العامة زيادة لا عهد للرومان بها ، وأثرى منها المكاسون الذين كانوا يعيشون من العقود التي تبرمها الحكومة ، وزاد عدد أصحاب المصارف المالية وأثروا . وكانوا يصرفون فوائد عن الودائع ، ويقضون التحاويل المالية (praescriptions) ، ويخصمون السفائح لعملائهم ، ويقترضون المال ويقترضونه ، ويستثمرون ما يتجمع لديهم من الأموال أو يديرون المشروعات المالية ، وأثروا من الرها الفاحش الذى كانوا ينتزعونه بلا رحمة حتى أصبح القتال (sector) والمرابى يعبر عنها بلفظ واحد (٧) . وهكذا أخذت رومة تخطو خطوات واسعة في أن تكون المركز المالى والسياسى — لا المركز الصناعى والتجارى — للعالم الذى يسكنه الجنس الأبيض .

وبهذه الوسائل وأمثالها انتقل الأشراف ومن يلوونهم من رجال الطبقة

الوسطى بخطى واسعة من البساطة الرواقية إلى التثعم والترف الطليق ، وبلغ هذا التبدل أقصى مداه أو كاد في أيام كاتو (٢٣٤ — ١٤٩) ؛ فانتسعت البيوت ، وتناقصت الأسر ، وتسابق الناس في تأسيس دورهم بأفخم الأثاث وأغلاء ثمتا ، فأخذوا يشتررون الطنافس البابلية بأغلى الأثمان ، ويبتاعون الأسرعة المطعمة بالعاج أو الفضة أو الذهب ؛ وكانت الأحجار والمعادن الثمينة تتلأل على النضد والكراسى وأجسام النساء ، وسروج الخيل . ولما قل المجهود الجسمى وزاد الثراء استبدل الناس بغذائهم القديم البسيط وجبات ثقيلة طويلة من لحوم الحيوان والطيور وغيرهما من ألوان الطعام الشهى والتوابل والمشهيات ، وأصبحت الأطعمة النادرة المسفورة من خارج البلاد لا تخلو منها موائد ذوى المكانة فى المجتمع ومن يدعون أن لهم فيه مكانة . وحسبنا شاهداً على هذا الإسراف أن أحد كبار الموظفين قد ابتاع حيوانات بحرية فى وجبة واحدة بألف سسترس ، واستورد آخر « أنشوجة » بألف وستمائة سسترس للبرميل ، وابتاع ثالث كمية من البطارخ بألف ومائتى سسترس ، وكان الطاهى الماهر يباع بأغلى الأثمان فى سوق النخاسة . كذلك كان شأن الشراب ، فقد انتشر وزادت مقاديره . وكان لا بد أن تكون الكؤوس كبيرة ومصنوعة من الذهب قدر المستطاع ، وقل مقدار ما يمزج به الخمر من ماء ، بل إنه كان يشرب أحياناً هلاماً على الإطلاق . وسن مجلس الشيوخ قوانين صارمة تحدد مقدار ما ينفق من الأموال على المآدب والملابس ، ولكن الشيوخ أنفسهم كانوا يتجاهلون هذه القوانين ولذلك لم يأبه بها غيرهم من الأهلىن . وفى ذلك يقول كاتو فى ألم وحسرة : « إن المواطنين لم يعودوا يستمعون للنصح لأن البطون لا آذان لها » . وأخذ للناس يشعرون بأنهم أفراد لا شأن للدولة بهم ، وثاروا عليها وعلى تدخلها فى شئونهم ، كما ثار الابن على أبيه ، وكما ثارت المرأة على الرجل .

وقد جرت العادة من قديم الزمان أن يقوى سلطان المرأة كلما زادت ثروة

المجتمع ؛ ذلك أنه إذا امتلأت البطون أخلى الجوع الميدان للحب ، ولذلك فشت الدعارة في رومة وانتشر اللواط حين اتصل الرومان ببلاد اليونان وبلاد آسية ، فكان كثير من الأغنياء يدفع الواحد منهم ثالنتا (٣٦٠٠ ريال أمريكي) ثمناً للغلام الوسيم ، وشكوا كاتو من أن ثمن الولد الجميل يزيد على ثمن مزرعة (١٠) . على أن النساء لم يخلين الميدان لهؤلاء الغزاة اليونان والسوريين ، فأخذن يتجهان بكل وسائل التجميل التي هيأتها لهن الثروة الجديدة ، وأصبحت الأدهان ضرورة لا غنى لهن عنها ، وشرعن يستوردن من غالة أنواعاً من الصابون تخفى لون شعرهن الأشيب وتحيله أحمر (١١) . وكان الثرى من أهل الطبقة الوسطى يتباهى بأن يزين زوجته وبناته بالملابس والجواهر الغالية ويطلقهن في المدينة يعلن عن ثروته ، وزاد شأن النساء في دور الحكم نفسها ، وفي ذلك يقول كاتو : « إن الرجال في جميع أنحاء العالم يحكمون النساء ، أما نحن الرومان الذين نحكم جميع الرجال فإن نساءنا يحكمننا (١٢) » . وحدث في عام ١٩٥ ق . م أن خرجت نساء رومة الحرائر إلى السوق العامة ونادين بإلغاء قانون أبوس Appius الصادر في عام ٢١٥ والذي يحرم على النساء التحلى بالذهب والملابس الكثيرة الألوان وركوب انعربات . وأنذر كاتو الرومان بأن رومة سيحل بها الخراب إذا ألغى هذا القانون ، وينطقه ليقي بهذه الخطبة التي قرأها كل جيل من الأجيال من ذلك الوقت إلى هذه الأيام :

« لو أننا كلنا قد استمسكنا في بيوتنا بحقوق الأزواج وسلطانهم ، لما تورطنا الآن في هذه المشاكل مع نساتنا . أما ونحن لم نستمسك بهذه الحقوق وهذا السلطان فإن نفوذنا الذي قضى عليه استبداد النساء في البيت قد وطئته الأقدام وقضى عليه هنا في السوق ... ألا فلتذكروا جميع النظم والقوانين الخاصة بالنساء ، والتي حاول بها آباؤنا أن يقللوا من فجورهن ويجعلوا منهن زوجات طائعات لأزواجهن ، ومع ذلك فلأنكم رغم هذه القيود لا تستطيعون أن تكبحوا جماهن » .

فما بالكم إذا ما تساوين بأزواجهن ؟ هل تظنون أنكم في هذه الحال ستطبقونهن ؟ إن الساعة التي يصبحن فيها مساويات لكم ستكون هي الساعة التي يصرن فيها ذوات الأمر والنهي عليكم^(١٢) . ويخبر منه النساء وألزمه الصمت وأصررن على طلبهن حتى ألغى القانون . وانتقم كاتولنفسه وهو رقيب بأن زاد الضرائب المفروضة على السلع التي يحرمها قانون أبيوس إلى عشرة أضعاف ما كانت عليه . ولكن التيار كان جارفاً ، ولم يكن في وسع أحد أن يصدّه ، فألغيت القوانين الأخرى التي كانت تحد من حرية النساء أو عدلت أو أغفلت ؛ فأصبح للنساء الحق المطلق في الإشراف على استئثار هائنتهن ، وصرن يطلقن أزواجهن أو يجرحنهم السم في بعض الأحيان ، وبدا لمن أن ليس من سداد الرأي أن يلدن الأبناء في عصر ازدهت فيه المدن بالسكان وكثرت فيه حروب الفتح والاستعمار .

وكان كاتول وهوليوس قد أدركا في عام ١٦٠ ق . م أن السكان يتناقصون ، وأن الدولة عاجزة عن أن تجند من الجيوش ما استطاعت أن تجنده لقتال هنيبال ، وورث الجيل سيادة العالم ، ولكنه لم يجد لديه من الوقت أو الرغبة ما يستطيع بهما أن يدافع عنه ؛ ذلك أن الاستعداد لتلبية نداء الحرب كلما دعا لها الداعي ، وهو الاستعداد الذي كان من خصائص الملك الروماني ، لم يعد له وجود ، بعد أن تركزت الملكية في أيدي أسر قلائل ، وغضت أقدر أحياء رومة بالصعاليك الذين لا مصلحة لهم في البلاد يخافون عليها أو يدافعون عنها وأصبح الناس شجعاناً بالنيابة إن صح هذا التعبير . فقد كانوا يهرعون إلى المدرجات لمشاهدوا الألعاب التي تجري فيها الدماء ، وكانوا يستأجرون المجالدين ليضطربوا أمامهم في ولائهم . وأنشئت مدارس للبنين والبنات يتعلم فيها كلا الشبان والشابات الغناء والموسيقى والمشي الرشيق^(١٣) . ورقت طباع الطبقات العليا بعد أن فسدت أخلاقها ، أما الطبقات الدنيا فقد ظلت طباعها غليظة خشنة قوية ، وكانت وسائل طوها في الغالب عنيفة ولغتها بذينة . وإنا لذشم رائحة هذه البذاءة في بلوتس Plautus

وندرك السبب في أن الجماهير كانت لا تطبق مشاهدة مسرحيات ترويس Terence ه ولما أن حاولت فرقة من الموسيقيين أن تعزف في أحد مواكب النصر في عام ١٦٧ أرغم النظارة أولئك الموسيقيين على أن يستبدلوا بعزفهم مباراة في الملاكمة (١٥) .

وسيطرت النزعة التجارية على الطبقات الوسطى المطردة الزيادة ، ولم يعد أساس ثرائها هو العقار كما كان من قبل ، بل أصبح هذا الأساس هو الاستثمار التجاري أو إدارة الأعمال التجارية . ولم يكن في وسع القانون الأخلاقي القديم أو في وسع حفنة من الرجال من طراز كاتو أن يحولوا بين هذا العهد الجديد عهد رؤوس الأموال المتحركة أن يصيغ الحياة الرومانية كلها بصيغته . فكان كل إنسان يسعى جاهداً للحصول على المال ، وكان كل إنسان يقدر ويقدر غيره بما عنده من المال ، وكان المتعاقدون على الأعمال يغشون ويخدعون ، وبلغ من غشهم وخداعهم أن تخلت الحكومة عن كثير من أملاكها — كنتاجهم مقدونية — لأن المتعاقدين معها على استغلالها كانوا يسخرون العمال ويبتزون أموال الدولة ابتزازاً أصبحت معه المشروعات مصدر بلاء للدولة لا مورد ربح لها (١٦) . وتخلق الأشراف بالخلق الجديد ، وشاركوا غيرهم في الثروة الجديدة — إذا جاز لنا أن نصدق أقوال المؤرخين ، ومن واجبتنا ألا نصدقهم — بعد أن كانوا من قبل يرون أن الشرف أعلى قدراً من الحياة . وأصبحوا لا يفكرون في الأمة ، بل يفكرون في امتيازاتهم ومطالبهم الطائفية والفردية ، وصاروا يقبلون الهدايا والرشا الكبيرة لكي يمنحوا عطفهم على الأفراد والدول ، وما أسهل ما كانوا يجدون سبباً لشن الحرب على البلاد التي فيها من الثروة أكثر مما فيها من القوة . وكان الأشراف يعترضون العامة في الطرقات ويستجلبونهم أصواتهم أو يبتاعونها منهم ؛ وأصبح من الأمور المألوفة أن يختلس الحكام الأموال العامة كما أصبح من غير المألوف أن يحاكم هؤلاء على ما يختلسون

منها . ومنها الذى يعاقب اللصوص من زملائه إذا كان نصف أعضاء مجلس الشيوخ قد ائتمروا على خرق المعاهدات ، وسرقة الأحلاف ، وانتهاج اللولايات ؟ وفى ذلك يقول كاتو : « من يسرق مال مواطن يقضى بقية أيامه مكبلاً بالسلاسل والأغلال ، ولكن من يسرق مال المجتمع يقضى بقية أيامه رافلاً فى أفخر الثياب ومتحلياً بالذهب الوهاج » (١٧) .

ومع هذا فإن منزلة مجلس الشيوخ قد علت عما كانت عليه من قبل ، ذلك بأن رومة بقيادته قد خرجت ظافرة من الحريين البونيتين ومن الحرب المقدونية الثلاث ، وتحدت كل منافسيها ، وتغلبت عليهم ، وكسبت صداقة مصر ، وبسطت عليها نفوذها ، واستولت على جزء كبير من ثروة العالم أمكنها به أن ترفع عن إيطاليا كلها فى عام ١٤٦ عبء الضرائب المباشرة . وقد اغتصب مجلس الشيوخ فى خلال أزمنة الحرب والسياسة كثيراً من اختصاصات الجمعيات والحكام ، ولكن النصر الذى نالته رومة قد برر هذا الاغتصاب ، وفوق هذا فإن تحول البلاد إلى إمبراطورية متسعة الرقعة قد جعل الجمعية أداة سمجة غير صالحة للحكم ، ذلك أن الشعوب الثائرة التى خضعت وقتئذ لحكم مجلس شيوخ كثرة أعضائه من الساسة المهنكين والقواد الظافرين ، لم يكتولوا يقبلون أن يتصرف فى شئونهم بضعة آلاف من الإيطاليين الذين يستطيعون حضور الجمعيات الوطنية فى رومة . إن الحرية أساس الديمقراطية ، والنظام أساس الحرب ، وكلاهما لا وجود له مع الآخر . ذلك أن الحرب تتطلب قدراً عظيماً من الذكاء والشجاعة ، والحزم والسرعة فى اتخاذ القرارات ، والعمل الجماعى المتحد ، والطاعة العاجلة لأوامر الرؤساء ، ومن أجل هذا قضت كثرة الحروب على الديمقراطية ، وكان القانون ينص على أن من حق الجمعية المثوية وحدها أن تعلن الحرب وتعقد الصلح ؛ ولكن مجلس الشيوخ كان يستطيع بما له من حق الهيمنة على صلات الدولة الخارجية أن يدفع الأمور إلى حيث لا تجد الجمعية مناصاً من الخضوع لرأيه (١٨) . وكان مجلس الشيوخ هو المشرف على خزانة الدولة ، كما كان هو المسيطر على

الشئون القضائية ، وذلك بحكم القاعدة المتبعة من قديم الزمن وهى أن جميع المناصب القضائية الهامة كان يختار شاغلوها من أعضاء المجلس أو المرشحين لعضويته ، يضاف إلى هذا كله أن وضع القوانين وشرحها كانا من اختصاص طبقة الأشراف .

وكان فى داخل هذه الأرستقراطية الجركية محصورة فى الأسر ذات السلطان ، ذلك أن التاريخ الرومانى قد ظل إلى عهد صلا Sulla سجلا لأعمال الأسر لا أعمال الأفراد ؛ فلسنا نرى فيه أسماء ساسة عظماء بارزين ولكننا نرى جيلا فى إثر جيل أسماء بعينها تشغل أعلى مناصب الدولة ؛ ترى من بين مائتى قنصل شغلوا هذا المنصب الخطير بين عامى ٢٣٣ ، ١٣٣ ق . م مائة وتسعة وخمسين ينتمون إلى ست وعشرين أسرة ، ومائة ينتمون إلى عشرة أسر . وكانت أقوى أسرة فى ذلك العهد هى آل كورنيليوس Cornelius . وليس تاريخ رومة الحربى والسياسى من أيام بيليوس كورنيليوس سيبو Publius Cornelius Scipio الذى خسر معركة تريبيا Trebia فى عام ٢١٨ أيام ولده سيبو الإفريقى قاهر هنيبال وأيام حفيد ثانيهما وتنهاء سيبو إيمليانوس الذى دمر قرطاجنة فى عام ١٤٦ ، نقول ليس تاريخ رومة الحربى والسياسى طوال ذلك العهد فى جملته إلا تاريخ هذه الأسرة ، ولقد بدأت الثورة التى قضت على طبقة الأشراف على يد ابنى جراكس وهما حفيدا إيمليانوس . ولقد أصبح سيبو الإفريقى بعد انتصاره فى واقعة زاما التى أنجحت رومة من الدمار محبباً لجميع الطبقات ، وظلت رومة فترة من الزمان على استعداد لأن تمنحه أى منصب يرغب فيه ،

فلما أن عاد هو وأخوه لوسىوس Lucius من ميدان القتال فى آسية (١٨٧) طلب أشباغ كاتو أن يعرض على المجلس حساب الغرامة الحربية التى أداها إليه أنتيوخوس ليعث بها إلى رومة ، وأبى سيبو الإفريقى أن يجيب أخوه هذا الطلب ، ومزق سجلات الحساب أمام مجلس الشيوخ ، وحوكم

لوسبوس أمام الجمعية وحكم عليه بأنه اغتصب الأموال العامة ، ولم ينجه من العقاب إلا رفض التربيون تيبيريوس سمپرونيوس جراكس **Tiberius Sempronius Gracchus** زوج ابنة سيديو الإفريقى أن يجيز هذا العقاب بما له من حق الرفض . واستدعى سيديو الإفريقى إلى المحاكمة فما كان منه إلا أن عطل الإجراءات القضائية بأن دعا الجمعية وسار أمام أعضائها إلى هيكىل جوبيتر للاحتفال بذكرى معركة زاما . ولما دعى مرة ثانية أبى أن يجيب الدعوة وسافر إلى ضيعته فى لىترنوم **Liternum** وبقي فيها بقية أيامه لا يجروا أحد على أن يمس بسوء : وكان يقابل هذه النزعة الفردية فى السياسة نمو الفردية فى التجارة وفى الأخلاق . وما لبثت الجمهورية الرومانية أن قضى عليها نشاط عظماء رجالها وجهودهم الطليقة من جميع القيود

وقد رفع من شأن الأرستقراطية ومن شأن هذا العهد كله ، ما سرى فى نفوس تلك الطبقة من تقدير للجمال . ذلك أن اتصال الرومان بالثقافة اليونانية فى إيطاليا وصقلية وآسية قد جعلهم على علم بكل مستازمات الحياة المترفة ، وبكل ثمار الفنون الجميلة فى العالم القديم . ولما عاد الفاتحون إلى بلادهم جاءوا معهم بكثير مما اشتهر فى أنحاء العالم من روائع الصور الملونة ، والتماثيل ، والكؤوس ، والمرايا ، والمعادن المنقوشة ، والمنسوجات الغالية ، والأثاث الثمين . وقد ارتفع الجيل القديم حين رأى مرسلس **Marcellus** يزين الميادين الرومانية بالتماثيل التى اغتصبها من سرقة وسنة . ولم يكن ما يشكو منه أهل ذلك الجيل اغتصاب قائدهم لهذه التماثيل ، بل كانوا يشكون « البطانة ولغو الحديث » للذين أصبحوا عادة لازمة للمواطنين المحجدين الذين يقفون الآن « ليفحصوا عن السفاسف وينتقدوها (١٩) » . واغتصب فلقيوس **Fulvius** ١٠١٥ تمثالا من مجموعة تماثيل پرس **pyrrhus** فى أمبراشيا **Ambracia** . وشحن إميلئوس پولس خمسين غربة فى موكب نصره بالكؤوز الفنية التى استولى عليها من بلاد اليونان ضمن ما استولى عليه منها نظير تحريرها . وفعل هذا الفعل نفسه صلا **Sulla** ، وفريس **Verres** ، ونىرون **Nero** ومثات

غيرهم من الرومان خلال مائتي عام من تاريخ البلاد جردوا منها بلاد اليونان من روائع فنها ليكتسى بها العقل الرومانى .

وطغى هذا الغزو على الفن الإيطالى فنبد صفاته الأصلية ، وطرأه الوطنى واستسلم بأجمعه - إلا فى شىء واحد - إلى الفنانين اليونان وإلى الموضوعات والأشكال اليونانية . وأقبل المثالون ، والمصورون ، والمهندسون اليونان إلى رومة حيث كان الذهب يتدفق فى جيوبهم ، وما لبسوا أن صبغوا عاصمة فاتحى بلادهم بالصبغة اليونانية . وشرع سراة الرومان يشيدون قصورهم على الطراز الرومانى حول فناء غير مسقوف ، ويزينونها بالعمد ، والتماثيل ، والصور اليونانية ، وبالأنثا اليونانى . أما الهياكل فقد تحولت على مهل حتى لا تغضب الآلهة من هذا التحول وبقي جسم الهيكل القصير والقاعدة المرتفعة للتماثيل - وهما من مميزات الفن التस्कاني - القاعدة المتبعة فى بناء الهياكل ونحت التماثيل . فلما أن زاد عدد الآلهة الأولمبية ، رأى الرومان أن من حق تلك الآلهة أن تبني بيوتها على الطراز الهلبنى الرفيع . غير أن الفن الرومانى قد ظل فى ناحية واحدة جوهرية يعبر بوسائله الخاصة وبقوته الفذة عن الروح الإيطالية الفنية ، وإن ظل يسترشد بالفن اليونانى . أما فيما عدا هذا فقد استبدل المهندسون الرومان القوس بالعارضة الراكزة على الأعمدة فى الأبنية التى خلدوا بها نصرهم أو زينوا بها دورهم ، وفى القنوات التى تجر الماء لدورهم وفى أبنية محاكمهم . وعلى هذا النحو شاد كاتو من الحجارة فى عام ١٨٤ الدار المعروفة باسم باسلكا پورشيا *Basilica portia* ، وبعد خمس سنين من ذلك العام شاد إيميلوس پولس باسلكا إيميليا *Basilica Aemilia* فى صورتها الأولى التى أصلحها فيما بعد أبناؤه وأحفاده جيلا بعد جيل ، وجعلوها أحسن تجميل (*) . وكانت الباساكا الرومانية النموذجية

(*) وكانت الباساكا تطبيقاً من جانب اليونان للعقود على هندسة القصور الفارسية والأبهاء المصرية ذات السقف المركزة على العمدة . وكانت ديلوس وسرقوسة قد أقامت مثل هذه المباني فى القرن الثالث قبل الميلاد .

داراً تقام لتصرف الأعمال التجارية والفضائية ، وتتألف من بناء في شكل مستطيل طويل يقسمها إلى ممشى وأفنية صفان من الأعمدة الداخلية ، يعلوها في العادة سقف في صورة قبة مصندقة ، وهو طراز أخذ في الأصل من الإسكندرية (٢٠) . وإذا كان الممشى مرتفعاً عن الأفنية فقد كان من المستطاع حفر شبكة من الفتحات في الحجارة فوق كل فناء يدخل منها الضوء والهواء ، ذلك بطبيعة الحال هو الشكل الأساسي للجزء الداخلي من الكنائس الكبرى في العصور الوسطى ، وبهذه الصروح الضخمة شرعت رومة تتخذ لنفسها مظهر القوة والرفخامة الذي امتازت به في مستقبل أيامها حتى بعد أن لم تكن عاصمة العالم كله .

الفصل الثالث

الآلهة الجدد

ترى ماذا كان شأن الآلهة القديمة في ذلك العهد ، عهد التحول السريع الذى لا يبنى ولا يبنى ؟ يلوح أن شيئاً من الكفر بهذه الآلهة قد سرى من الأشراف إلى عامة الشعب ، وإلا فكيف يرضى شعب لا يزال يؤمن بالآلهة القديمة عن هذه المسرحيات الهزلية التى يسخر فيها بلوتس *plautus* - مهما كانت حجته في أنه إنما يحاكي النماذج اليونانية - من أعمال جوبتر مع ألكمينا *Alcmena* ، ويجعل من عطارود مهرجا ضحكة ، ثم هو لا يرضى عن هذا فحسب بل يحى هذه المشاهد بالصخب والضجيج . إن كانوا أنفسهم وهو الحريص على العادات القديمة ، كان يعجب من قدرة اثنين من العرافين إذا التقيا على ألا يسخر كلاهما من الآخر (١) . لقد طالما خضع هؤلاء العرافون لأساليب الختل السياسية ، وكثيراً ما كان القائل والطيرة ينطق بهما لتكليف الرأى العام كما يهوى الزعماء ، وكثيراً ما كانت أصوات الشعب في الاقتراع على أمر من الأمور تكفيها وسائل التهريج والشعوذة الدينية . وإطالما رضى الدين بأن يُحوَّل استغلال الشعب إلى واجب مقدس تتطلبه الآلهة .

ولقد كان من الدلالات السيئة أن يكتب پولبيوس حوالى عام ١٥٠ ق . م ، بعد أن عاش سبعة عشر عاماً في أرقى المجتمعات في رومة ، ما يستدل منه على أن الدين الرومانى لم يكن إلا أداة طيعة من أدوات الحكم :

« إنى أرى أن الميزة التى تمتاز بها الجمهورية الرومانية ، والتى ترفع من درها فوق سائر بلاد العالم ، إنما هى طبيعة دينها ، ذلك أن ما يعد عند الأمم الأخرى عيباً من العيوب وسبة في الأعقاب - وهو الخرافات - هو نفسه

العامل الأكبر في تماسك الدولة الرومانية . فهذه الشئون تكتسى بثوب من الآهة والفخامة ، وتسرى في الحياة الخاصة والعامة مرياناً لا يضارعها فيه غيره من الأديان ويقينى أن الحكومة قد نهجت هذا النهج لخير الشعب . ولو أنه كان مستطاعاً إقامة دولة كل رجالها من الحكماء ، لما كان هذا النهج واجباً محتوماً . ولكن الجماهير كلها بلا استثناء متقلبة الأهواء لا تثبت على حال ، تملأ قلوبها الرغبات الطليقة التى لا تنقيد بقانون ، والشهوات التى لا تخضع لحكم العقل ، والانفعالات العنيفة ، ومن أجل هذا كان لا بد من وجود أسباب للإرهاب لا تراها العين ، ومواكب ومظاهر دينية فخمة تمسك هذه الجماهير بعضها ببعض . »

ولعله كان في وسع پولبيوس أن يؤيد قوله هذا بحوادث في أيامه تثبت أن الخرافات لا تزال هى المسيطرة على عقول الرومان ، على الرغم من بلوتس وعلى الرغم من الفلسفة . من ذلك أنه لما حلت بالرومان كارثة كانى Cannae ، ولاح أن رومة لن يعصمها عاصم من هنيبال ، استولى الرعب على الشعب الرومانى المهتاج ونادى : « أى إله نرتجيه لينجى رومة من البلاء الذى هى فيه ؟ »

وحاول مجلس الشيوخ أن يسكن هذا الذعر بالتضحية البشرية ، ثم بالصلاة إلى الآهة اليونانية ، ثم باستخدام الطقوس اليونانية في عبادة الآهة كلها الرومانية منها واليونانية على السواء . ثم قرر المجلس في آخر الأمر أنه إذا كان قد عجز عن القضاء على الخرافات فإنه سينظمها وسيطر عليها . من ذلك أنه أعلن في عام ٢٠٥ أن الكتب السبيلية Sibylline تنبئ بأن هنيبال سيغادر إيطاليا إذا جرى بالأم الكبرى Magna Mater — وهى صورة من الإهة سيديل Cybele — من پسينس pessinus في فريجيا Phrygia إلى رومة . ووافق على ذلك أنالس Attalus ملك برجموم ونقل الحجر الأسود الذى كان فى اعتقادهم جسد الأم الكبرى إلى أستيا حيث استقبله سيبو الإفريقى وطائفة من فضليات

السيدات بمظاهر التكريم . ولما أن ارتطمت السفينة التي كانت تحمله بطين
نهر التيبر رفعتها العذراء كلوديا الفستية ، وجرتها في النهر صعداً إلى رومة
بما للعفة من قوة سحرية ، ثم أمسكت السيدات جميعهن كل واحدة بعد
الأخرى بالحجر في يدها وحملته في موكب رهيب إلى هيكل النصر ، وأخذ
الأهلون الأنقياء يحرقون البخور أمام بيوتهم أثناء مرور الأم الكبرى ،
وارتاع مجلس الشيوخ حين وجد أن المعبود الجديد لا بد أن يقوم على
خدمته كهنة يخصصون أنفسهم . وكان من المستطاع العثور على رجال يقبلون
هذا ، ولكن الرومان لم يكن يسمح لهم بأن يكونوا من بينهم . وشرعت
رومة من ذلك الوقت تحتفل في شهر إبريل من كل عام بعيد الآلهة الكبرى
Magalesia ، واتخذ الاحتفال في بادئ الأمر صورة الحزن العنيف ،
ثم انقلب بعدئذ إلى المرح العنيف . ذلك أن سيبيل كانت إلهة نباتية ،
وتروى الأساطير أن ابنها أتيس Attis رمز الخريف والربيع مات وانتقل
إلى الجحيم Hades ، ثم عاد إلى الحياة من بين الأموات ٥

و غادر هنيبال إيطاليا في عام ٢٠٥ ، وهنا مجلس الشيوخ نفسه على الطريقة
التي اتبعها في علاج الأزمة الدينية ، ولكن الحروب التي دارت مع مقدونية
قد فتحت لرومة أبواب اليونان والشرق . وقد جاء أثر الجنود للذين
عادوا بأسلاب الشرق وأفكاره وأساطيره أفواج من الأسرى اليونان
والأسيويين ، ومن الرقيق واللاجئين ، والتجار والسياح ، والرياضيين
والفنانين والممثلين والموسيقيين ، والمدرسين والمحاضرين ، والناس إذا
هاجروا جاءوا معهم بآلهتهم . واغتنبت الطبقات الدنيا في رومة بما عرفت
عن ديونيسس باخوس Dionysus Bacchus ، وأرفيوس Orpheus
ويريديس Eurydice ، والطقوس الغامضة الخفية وهي في اعتقادهم مصدر
الإحياء الإلهي ، والخمر القدسي ، والاتصال الروحي ، الذي يكشف
عن الآلهة التي تبعث حياة وتعيد عبادها الخلود . وارتاع مجلس الشيوخ في
عام ١٨٦ حين علم أن من الشعب أقلية كبيرة قد اعتنقت الطقوس الديونيسية ،

وأن الإله الجديد تقام له حفلات تدار فيها كوئوس الخمر على المحتفلين .
وإذ كانت هذه الحفلات تقام سرّاً وفي الليل فقد راجت الإشاعات القائلة
بأنها كانت حفلات حمراء يصحبها الخمر والفجور الطليق ، وقد وصفها ليفي
بقوله : « إن الفسق بالرجال كان أكثر من الفسق بالنساء » ، ثم يقول
بعد هذا - ولعله في ذلك ينزل لغو القول منزلة التاريخ المحقق : « ومن لم
يكن يرضى بالدنس . . . كان يضحى به قرباناً للإله » (٣) . وحرم مجلس
الشيوخ هذه الطقوس الدينية ؛ وقبض على سبعة آلاف من القائمين بها ،
وقضى بإعدام مئآت منهم . وكان هذا نصراً مؤقتاً في الحرب العوان التي
خاضت رومة غمارها لصمد تيار الأديان الشرقية (*) .

الفصل الرابع

بداية عصر الفلسفة

كانت الطريقة التي غزت بها بلاد اليونان رومة أن بعثت إلى عامتها بالدين اليوناني والمسرحيات الهزلية اليونانية ، مولى الطبقات العليا من أبنائها بالأخلاق وبالفلسفة اليونانية . واثتمرت هذه الهدايا اليونانية مع الثروة الرومانية ومع الإمبراطورية الرومانية على تقويض دعائم دين رومة وأخلاقها ، وكان هذا لإحدى السبل التي اتبعتها هلاس في انتقامها الطويل المدى من غزاتها . وبلغ هذا الغزو غايته في الفلسفة اليونانية من أبيقورية لكريشيوس الرواقية إلى رواقية سنكا الأبيقورية . وفي الدين المسيحي غلبت فلسفة ما وراء الطبيعة اليونانية الآلهة الإيطالية ، ولما نشأت القسطنطينية كانت الغلبة فيها للثقافة اليونانية ، فنافست في بادئ الأمر الثقافة الرومانية ، ثم حلت في آخر الأمر محلها ؛ ولما أن سقطت القسطنطينية عادت الآداب والفلسفة والفنون اليونانية فغزت إيطاليا وأوربا كلها في عصر النهضة . ذلك هو المجرى الرئيس في تاريخ الحضارة الأوروبية ، أما ما عداه فتيارات فرعية وروافد جانبية . وفي ذلك يقول شيشرون : لم يكن منشأ الفيض الذي أقبل من بلاد اليونان إلى مدينتنا مجرى صغيراً بل كان منشؤه نهراً خضماً من الثقافة والعلم (٢٤) ، أصبحت حياة رومة الذهنية والفنية والدينية من بعده جزءاً من العالم المصطنع بالصبغة الهلينية (*) .

ووجد الغزاة اليونان في مدارس رومة وقاعات المحاضرات فيها ثغرة طيبة ينفذون منها إلى رومة ، وموقعاً صالحاً يثبتون فيه أقدامهم . فجاء في أعقاب

(*) من أقوال هوراس ذلك القول الذي ملت الأذن سماعه « أمرت بلاد اليونان المنلوقة غالبها الحمقى ١٢٤ »

الجيش الرومانية التي عادت من بلاد الشرق تيارداق من « اليونان الصغار » Graeculi كما كان يسميهم الرومان استهزاء بهم . وكان منهم أرقاء كثيرون استخدموا معلمين في الأسر الرومانية ، ومنهم النحاة الذين أنشأوا الدواسات الثانوية في رومة بما افتتحوه من المدارس لتعليم لغة اليونان وآدابهم ، ومنهم البلغاء الذين كانوا يلقون محاضرات عامة في فن الخطابة والأدب والإنشاء والفلسفة ، أو يعطون فيها دروساً خاصة . وشرع الخطباء الرومان — حتى من كان منهم يبخس الثقافة اليونانية أمثال كاتو — يتخلون خطب لسياس Lysias ، وإيسكين Aeschines ودمستين Demosthenes نماذج لهم فيفسجون على منوالها .

ولم يكن هؤلاء المدرسين اليونان دين يؤمنون به إلا القليلين منهم ، وأقل من هؤلاء المتدينين من كانوا يبثون في قلوب تلاميذهم شيئاً من العقيدة الدينية . وكانت منهم أقلية صغيرة تحذو حذو أبيقور ، وتسبق لكريشيس في وصفه الدين بأنه أكبر الشرور في حياة البشر . وأدرك الأشراف مهيب العاصفة وحاولوا أن يسدوا عليها الطريق ، فتنى مجلس الشيوخ من البلاد في عام ١٧٣ اثنين من الأبيقوريين ، وأصدر في عام ١٦١ قراراً يقضى بأن لا يبق في رومة أحد من للفلاسفة أو البلغاء . ولكن العاصفة لم تسكن ، فقد جاء إلى رومة في عام ١٥٩ كراتس الملوسي Crates of Mallus مدير المكتبة الملكية الرواق في بروجوم في عمل رسمي ، وكسرت فيها ساقه ، فأقام بها ، وأخذ وهو في دور النقاهة يلقي محاضرات في الأدب والفلسفة . وفي عام ١٥٥ بعثت أثينة إلى رومة سفراء من أهلها كانوا زعماء المدارس الفلسفية الثلاث العظيمة : كارنيدس Carneades الأكاديمي أو الأفلاطوني ، وكرتولوس Critolaus المشائي أو الأرسطاطيلي ، وديوجين Diogenes الرواق السالوسي (of Seclucia) . وكان قدوم هؤلاء إلى رومة مبعث نهضة علمية وفلسفية لا تكاد تقل في قوتها عما بعثه قدوم كرسولوراس Chrysoloras إلى إيطاليا في عام ١٤٥٣ . وتحدث كارنيدس عن البلاغة

بفصاحة حملت الشبان على أن يجتمعوا حوله في كل يوم ليستمعوا له (٢٥) .
وكان الرجل شكاكاً إلى أقصى حد ، فكان يشك في وجود الآلهة ، ويقول
إن في الإمكان تبرير الظلم بأسباب لا تقل في وجاهتها عن الأسباب التي يبرر
بها العدل . وفي هذا تسليم من جانب الفلسفة الأفلاطونية بآراء ترازيماكس

Thrasymachus

ولما سمع كاتو - وكان وقتئذ شيخاً طاعناً في السن - بهذا القول طلب
إلى مجلس الشيوخ أن يأمر بإعادة السفراء الثلاثة إلى بلادهم ، فعادوا ولكن
بعد أن ذاق الحيليل الجديد لذة الفلسفة ؛ ومن ذلك الحين أخذ الأثرياء من
شباب رومة يذهبون إلى أثينة ورودس ليستبدلوا فيها بليمانهم القديم أحدث
ما فيها من تشكك .

وكان الذين فتحوا بلاد اليونان هم أنفسهم الذين نشروا الثقافة اليونانية
والفلسفة اليونانية في رومة ، وكان فلامينوس **Flaminus** يحب الآداب
اليونانية قبل أن يغزو مقدونية ويخرب اليونان ، فلما أن غزاها تأثر كثيراً
بما رأى في بلاد اليونان من فنون ومن مسرحيات . وخليق بنا أن نذكر
لرومة أن بعض قوادها العسكريين كانوا يستطيعون فهم بوليكليتس
polycleitus وفيدياس **Pheidias** وإن كانوا قد تغالوا في تقدير هذين
الفنانين إلى حد السرقة . ولما أن انتصر إيميليوس پولس على پرسوس لم يستبق
لنفسه من كل ما جاء به من اللغنائم إلا مكتبة الملك ليرثها أبنائه من بعده ،
وقد حرص على أن يتعلم هؤلاء الأبناء الآداب والفلسفة اليونانية حرصه
على أن يتعلموا فنون الصيد والحرب الرومانية ، وكان يشترك معهم في هذه
الدراسات بالقدر الذي تسمح له به واجباته الرسمية .

ولما مات پولس تبنى أصغر أبنائه صديقة ب كرتيلوس سيبو ابن
الإفريقي واتخذ الابن المتبنى اسم الرجل الذي تبناه جرياً على عادة الرومان
وقتئذ ، وأضاف إليه اسم عشيرة أبيه فأصبح اسمه بعدئذ ، كرتابوس

سبيو إميليانوس وهو الذى سنطلق عليه اسم سبيو فى صحائف هذا الكتاب ه وكان شامها وسيم الطلعة قوى البلية ، بسيطاً فى عاداته ، متزناً فى حديثه ، رقيق القلب ، كريماً ، شريفاً طاهر اليد ، ولم يترك وراءه عند وفاته إلا ثلاثة وثلاثين رطلا من الفضة ورطلين من الذهب ، وإن كانت جميع غنائم قرطاجنة قد مرت بين يديه ، وإن كان قد عاش عيشة العالم المتكشف لا عيشة الرجل الثرى ، وقد التقى فى شبابه ببوليبوس اليونانى الذى نفى من بلاده وأسدهاه بوليبوس النصيح والكتب القيمة ، وكانت هذه يد حفظها له الشاب طول حياته . وذاعت شهرته وهو لا يزال شاباً يحارب تحت إمرة أبيه فى بدنا pydna ، ولما استخف به عدوه فى أسبانيا وطلب إليه أن يبارزه قبل هذا التحدى وانقصر فى المباراة (٢٧) .

وقد جمع حوله فى حياته الخاصة طائفة من الرومان الممتازين الذين شغفوا بالأفكار اليونانية . ومن أعظم هؤلاء شهرة جايوس ليلبوس Gaius Laelius وهو رجل حكيم فى رأيه ، وفى صداقته ، عادل فى أحكامه ، تقى السيرة ، طاهر السريرة ، لا يفوقه فى فصاحة اللسان وجمال الأسلوب إلا إميليانوس نفسه . وقد أحب شيشرون ليلبوس وأعجب به بعد مائة عام من وفاته ، ومضى باسمه مقالته عن الصداقة ، وكان يتحنى أن لم يعيش فى عصره المضطرب بل فى تلك الدائرة الرفيعة التى كانت تضم شباب رومة المفكر .

وكان لهذه الدائرة أبلغ الأثر فى الأدب الرومانى ، ولقد كسب ترنس Terence بفضل اشتراكه فيها ما امتازت به لغته من دقة فى التعبير وجمال فى الأسلوب ، ولعل جايوس لوميلوس (١٨٠ — ١٠٣) قد أفاد منها قدرته على أن يجعل لهجته اللادع التى كان يسلطه على رذائل عصره وترفه هدفاً اجتهافياً .

وكان اللذان يشران على هذه الفئة من اليونان رجلين هما بوليبوس Polybius وبانيتيوس Panaetius . وقد عاش أولهما سنين كثيرة فى بيت سبيو . وكان رجلاً واقعياً عقلياً ، قليل الاغترار بالناس وبالبدول . أما بانيتيوس فقد جاء من

رودس ، وكان كزميله بوليبيوس من الأشراف اليونان . وعاش كثيراً من
السنين مع سيبو ينعم بصداقته ويشاركه في نفوذه وسلطانه . وهو الذى
غرس في نفس سيبو فضائل الرواقية ونبلها ، وأكبر الظن أن سيبو هو
الذى حمل على أن ياطف من المطالب الخلقية المتطرفة لهذه الفلسفة ، ويجعل
منها عقيدة عملية . ولقد شرح بانيتيوس في كتاب له « في الواجبات »
المبدئين الأساسيين للفلسفة الرواقية . وأنها أن الإنسان جزء من كل يجب أن
يتعاون معه — مع أسرته ، وبلده ، ومع روح العالم القدسي ، وأنه لم
يوجد في العالم ليستمتع بملاذ الحواس وإنما وجد ليؤدي واجبه من غير أن
يشكو أو يتململ . ولم يكن بانيتيوس كالرواقين الأولين يدعو إلى الفضيلة
الكاملة أو عدم المبالاة التامة بطيبات الحياة ومتعها . واستمسك الرومان
المتعلمون بهذه الفلسفة واتخذوها بديلاً كريماً مقبولا من دينهم القديم الذى
لم يعودوا يؤمنون به ، ووجدوا في مبادئها قانوناً أخلاقياً يتفق كل الاتفاق
مع تقاليدهم ومثلهم العليا .

وهكذا أصبحت الرواقية هى الملهمه لسيبو والمطمح الذى يصبو إليه
شيشرون ؛ كما كانت هى خير ما فى سنكا ، والمرشد الهادى لـ تراجان
Trajan ، والمواسية لأوريليوس Aurelius . وجملة القول أنها أصبحت هى
ضمير رومة .

الفصل الخامس

النهضة الأدبية

لقد كان الغرض الذى يهدف إليه سيبو وجماعته أن يناصروا الفنون والفلسفة ، وأن يجعلوا اللغة اللاتينية لغة رقيقة سلسلة أدبية ، وأن يجتذبوا ربات الشعر الرومانية إلى ينابيع الشعر اليونانى المتدفقة ، وأن يهيشوا للكتاب والشعراء الناهضين مستمعين وقرءاء . من ذلك أنه لما أن جاء كاتو — وهو العدو الألد لكل شىء يمثل سيبو وأكرم مثواه . وكان هذا الشاعر هو كونتس إينيوس Quintus Ennius . وكان قد ولد فى عام ٢٣٩ بالقرب من برنديزيوم Brundisium من أبوين أحدهما يونانى والآخر إيطالى . وتلقى علومه فى تارتوم ، وكان ذا روح حماسية تأثرت أشد التأثر بالمرحيات اليونانية التى كانت تعرض على مسرح تلك المدينة . واسترعت شجاعته العسكرية فى سردينيا الثقات كاتو . ولما جاء إلى رومة أخذ يشغل بتدريس اللغتين اليونانية واللاتينية ، وينشد أشعاره لأخصائه . وسرعان ما وجد سبيله لجماعة سيبو وأصدقائه ؛ ولم يكن ثمة بحر من بحور الشعر إلا حاوله ، وكتب عدداً قليلاً من المسالى وما لا يقل عن عشرين مأساة ، وكان يعجب بيورپديز ويعبث مثله بالآراء المتطرفة ، ويغيبز الأتقياء بما ينطق به من الأمثال التهمكية الأبيقورية كقوله : « أسلم معكم أن ثمة آلهة ولكنهم لا يبالون بما يفعله الآدميون ، وإلا لكانت عاقبة الطيبين الخير وعاقبة الخبيثين الشر — وهذا قلما يحدث (٢٨) » . ويقول شيشرون إن من استمعوا لهذا القول طربوا له وصفقوا له استحساناً (٢٩) . وقد ترجم أو شرح كتاب « التاريخ المقدس » تأليف يوهروس Euhemerus وهو الكتاب الذى يثبت فيه كاتبة أن الآلهة ليسوا إلا أبطالاً أمواتاً ألهتهم

عواطف الشعب وتعلقه بهم . على أنه لم يكن مجرداً كل التجرد من الآراء الدينية ، وآية ذلك أنه أعلن في وقت ما أن روح هوميروس قد تنقلت في عدة أجساد منها جسم فيثاغورس ومنها جسم طاووس ثم استقرت في جسم إينيوس Ennius . وقد كتب تاريخاً حماسياً لرومة في صورة ملحمة كبيرة تبدأ من مجيء إيلياس Aeneas إلى بيرس Pyrrhus ، وقد ظلت هذه الحوليات إلى أيام فرجيل الملاحم القومية لإيطاليا ؛ وبقيت منها قطع صغيرة قليلة العدد أشهرها كلها بيت لا يعمل المحافظون الرومان ترديده وهو :

قوام الدولة الرومانية أخلاقها القديمة ورجالها العظماء .

وكانت القصيدة من حيث الوزن تعد ثورة على الأوزان الشعرية القديمة . فقد استبدل فيها بالوزن المهلهل غير المنتظم الذي كان يستخدمه نيفيوس Naevius الشعر المرن السداسي الأوتاد الذي كان يستخدم في الملاحم اليونانية . وصاغ إينيوس الشعر اليوناني في صور جديدة ، وبث فيه قوة جديدة ، وغمر أبياته بالأفكار ، وأعدده من حيث طريقته وألفاظه وموضوعه وأفكاره للكريشيس وهوراس وفرجيل . وقد توج أعماله الأدبية برسالة عن ملاذ الفم ، ومات بذات الرثة في سن السبعين بعد أن ألف هذه القبرية التي يفخر فيها بنفسه :

لا تبكوا على ولا تحزنوا لوفاتي ؛ فإن أبقى على شفاه الرجال وأحيا (٣٠) .

ونجح إينيوس في كل شيء عدا المسلاه ، ولعل سبب إخفاقه أنه عني بالفلسفة عنابة جدية فوق ما يجب ، ونسى نصيحته التي قال فيها « يجب على الإنسان أن يتفلسف دون أن يسرف في فلسفته (٣١) » . وكان الناس يفضلون الضحك على الفلسفة وكانوا في ذلك على حق ؛ وقد أغنوا بهذا التفضيل بلوتس وأفقروا إينيوس . ولهذا السبب عينه لم تلق المآسي المسرحية شيئاً من التشجيع في رومة . نعم إن الأشراف قد أعجبوا بمآسي يكوفقيوس Pacuvius وأكيوس Accius ، ولكن الشعب تجاهلها والزمان لم يبق على ذكرها .

وكان موظفو الدولة يعرضون المسرحيات على الجماهير ، رومة ، كما ن
أمثالهم يعرضونها عليه في أئينة ، على أنها جزء من الحفلات التي تقام في
الأعياد الدينية أو في جنازات المواطنين الممتازين . وكان الملهى الذى تمثّل
فيه مسرحيات بلوتس وترنس يتكون من محالة(*) خشبية تعلوها خلفية
مزخرفة scaena أمامها طوار مستدير للرقص جزؤه الخلفى هو المسرح
Proscenium . وكان هذا البناء الهش الرقيق يهدم عقب كل حفل كما نفعل
نحن بالمقاعد والحواجز التي نقيمها للاستعراض في هذه الأيام . وكان
النظارة يشاهدون الألعاب وهم وقوف أو جلوس على مقاعد يأتون بها
معهم ، أو يتربعون على الأرض في العراء . ولم تبني في رومة دار كاملة
للمثيل قبل عام ١٤٥ ق . م ، وحتى في ذلك الوقت كانت الدار لا تزال
بناء خشبياً لا سقف له ، ولكن به مقاعد مصفوفة على نظام المدرجات
اليونانية نصف الدائرية . ولم يكن النظارة يؤدون لدخولها أجراً ، وكان
في مقدور الأرقاء أن يدخلوا دون أن يكون لهم حق الجلوس ، أما النساء
فلم يكن يسمح لهن إلا بالجلوس في المقاعد الخلفية ، ولعل النظارة في ذلك
العهد كانوا أحسن من شهدهم تاريخ التمثيل كله وأشدّهم غباوة — فكانوا
جماعة من الصخابين المتزاحمين الوضيعين . وكثيراً ما كان يطلب إليهم في
بداية التمثيل أن يراعوا قواعد الأدب والأخلاق ، كما أن الفكاهات
والنكات السمجة والأفكار البسيطة العادية كان يطلب تكرارها لكي يستطيع
النظارة إدراكها . وكان يطلب إلى الأمهات في بعض الأحيان أن يتركن
أطفالهن في منازلهن ، وكانت الخطب الافتتاحية تنذر الأطفال بالعقاب
إذا أحدثوا شيئاً من الضجيج ، أو تحذر النساء من الثرثرة في أثناء
التمثيل . وترى هذه المطالب كلها مدونة حتى في وسط المسرحيات التي نشرت
فيها بعد (٣٢) . وإذا حدث أن صحب التمثيل صراع ينال المتفوق فيه جائزة ،
أو ألعاب بهلوانية على الجبال ، فقد كان التمثيل ينقطع أحياناً حتى ينتهى الصراع

(*) المحالة الخشبية التي يستقر عليها الطيانون وهي المعروفة بالسقالة : (المترجم)

أو تنتهى الألعاب ، وهما أشد إثارة لحماسة النظارة من التمثيل ، وعند ختام تمثيل مسلاة رومانية كانت تلقى العبارة الآتية : « والآن فليصفق الجميع » أو ما فى معناها للدلالة على أن الرواية قد انتهت وأن التصفيق مباح ،

وكان التمثيل خير ما فى المسرح الرومانى ، وكان مدير المسرح من الأحرار ، وكان هو الذى يمثل الدور الرئيسى عادة ، أما غيره من الممثلين فكان معظمهم من الأرقاء اليونان . وكان كل مواطن يتخذ التمثيل حرفة له يفقد بذلك حقوقه المدنية — وهى عادة ظلت قائمة إلى أيام قلتير : وكان الرجال يمثلون أدوار النساء : وكان النظارة قليلى العدد ، ومن أجل ذلك لم يكن الممثلون يلبسون أقنعة بل كانوا يكتفون بالأصباغ والشعر المستعار ، فلما أن ازداد عدد النظارة أصبحت الأقنعة واجبة لتمييز أشخاص المسرحية بعضهم من بعض ، وكان يطلق على القناع لفير پرسونا *persona* وهو فى أغلب اللظن مشتق من الكلمة التسكانية فرسو *ph rsu* بمعنى قناع : وكانت الأدوار تسمى دراماتيس پرسوفى *dramatis personae* أى أقنعة المسرحية . وكان ممثلو الأدوار المخزنة يلبسون أحذية عالية *cothurnus* أما ممثلو الأدوار المضحكة فكانوا يحتدون نعالاً وطيفة *soccus* : وكانت بعض أدوار المسرحية تغنى على أنغام المزمار ، وكان المغنون فى بعض الأحيان يغنون الأدوار ، والممثلون يمثلونها تمثيلاً صامتاً بالإشارات .

وقد كتبت ملاهى بلوتس بالشعر السهل المكون من أسباب وأوتاد يتلو بعضها بعضاً تقليداً لأوزان الشعر اليونانى وموضوعاته ، ومعظم الملاحى اللاتينية التى وصلت إلينا مأخوذة من المسرحيات اليونانية مباشرة ، أو بمزج مسرحيتين يونانيتين أو أكثر بعضها ببعض ، وهى مأخوذة فى الغالب من مسرحيات فيلمون *Philemon* ومناندر *Menander* أو غيرهما من كتاب « المسلاة الجديدة » فى أثينة ، وكان اسم المسرحية الرومانية واسم مؤلفها يكتبان عادة على الصفحة الأولى . وقد حظرت الاقتباس من مسرحيات أرسطوفان و « المسلاة القديمة » بمقتضى

قانون الألواح الاثني عشر الذى كان يغاقب على الهجاء السياسى بالإعدام (٢٣) . ولعل خوف كتاب المسرحيات اللاتين أن يطبق عليهم هذا التشريع الرهيب هو الذى حدا بهم إلى الاحتفاظ بالمناظر والشخصيات والعادات والأسماء ، وحتى النقود ، كما كانت فى الأصل اليونانى . ولولا بلوتس لكان القانون الرومانى قد أبعد الحياة الرومانية كلها تقريباً عن المسرح الرومانى . ولكن هذه الرقابة الصارمة لم تمنع فحش القول وبديته أن ينطق به على المسرح ، فقد كان الهدف الذى يبتغيه المشرفون على التمثيل هو تسليية النظارة لا رفع مستواهم ، ولم يكن جهل العامة ليسوء قط الحكومة الرومانية ، وكان النظارة يفضلون المزاح السمج على الفكاهة الرقيقة ، ويعجبهم الهزل والتهريج أكثر مما يعجبهم الخلق والدهاء ، ويطربهم فحش القول أكثر مما يطربهم الشعر ، وكان بلوتس أحب إليهم من ترنس .

وكان أول دخول تيتس مكسيوس بلوتس Titus Maccius Plautus أى تيتس المهرج ذى القدم الكرشاء(*) فى أمبريا Umbria عام ٢٥٤ ق . م ؛ ولما قدم إلى رومة عمل فيها خادماً من خدم المسرح وادخر بعض المال وحرص على استثماره ولكنه أضاعه . واضطره العيش إلى كتابة المسرحيات ، وسر الجاهل بما كان يثبته من الإشارات الرومانية فى مسرحياته المقتبسة من المسرحيات اليونانية . واستطاع بهذه الطريقة أن يجمع بعض المال وأن يمنح مواطنة رومة . وكان بلوتس رجلاً شعبياً شديداً المرح ضحاكاً صخاباً ، يضحك مع كل إنسان على كل إنسان ، ولكنه كان طيب القلب عطوفاً على الناس جميعاً . وقد بلغ عدد ما كتبه أو صقله من المسرحيات مائة وثلاثين بقيت منها إلى الآن عشرون . ومن هذه المسرحيات الباقية مسرحية Miles Gloriosus وهى صورة مريحة لجندى صخاب يغلبه خادمه وينفخه بالأكاذيب .

(*) القدم الكرشاء هى التى استوى أخمصها وانبطحت على الأرض فى عرض وظلظ فيها .

الخدام : أرأيت الفتاتين اللتين استوقفتاني بالأمس ؟

الضابط : ماذا قالتا لك ؟

الخدام : لما مررت بنا سألتاني :

« يا عجبا ! هل هنا أخيل العظيم ؟ » فأجبتهما :

« كلا ! وإنما هو أخوه » . ثم قالت الأخرى :

« في الحق إنه لجميل ! ياله من رجل نبيل !

« ما أبهى شعره ! » . . . وتوسلت إلى كلتهما :

. . . أن أطلب إليك أن تخرج اليوم مرة أخرى .

حتى تستطيعا رؤيتك عن قرب .

الضابط : ألا ما أكثر ما يجره الجمال على الإنسان من متاعب (٣٤) !

وفي مسرحية أمپتريون Ampitryon تنصب السخرية على خوف Jove فهو يتنكر في صورة زوج السكينا Alcmena ويدعو نفسه ليستمع إلى قسمه ، ويقرب القربان إلى جوبيتر (٣٥) . وفي اليوم التالي يغفر بهذه السيدة فتتّم . ويطلب بلوتس إلى الإله في آخر المسرحية أن يعفو عنه وأن يتقبل من الجماهير أكبر قسط من الثناء . وقد نالت هذه القصة من إعجاب الجماهير في رومة أيام بلوتس بقدر ما نالت في أثينة أيام متاندر Menander وفي باريس أيام مليير Molière ، وما تناله في نيويورك في الوقت الحاضر ، أما مسرحية أولولاريا Aulularia فهي قصة رجل بخيل يكثر المال ، وفيها من العطف عليه أكثر مما في رواية البخيل Avare لمليير . وترى البخيل فيها يجمع قلامة أظفاره ويتحسر على ما خسره من الماء فيما أذرفه من الدموع . ومسرحية منكبي Menacchi هي القصة القديمة : قصة التوأمن اللذين يختلط أمرهما على الناس ثم يتبينونهما ، ويرى لسنج Lessing أن مسرحية الأسير Captive خير مسرحية مثلت في ملهى (٣٥) . وقد أعجب بها بلوتس أيضاً ويقول في مستهلها :

ليست مبتذلة ولا هى كغيرها من المسرحيات :
وليس فيها سطور قدرة يستنكف الإنسان أن ينطق بها .
ونيس فيها قواد كاذب ولا مومس خبيثة .

وهو قول حق ، ولكن حبكة المسرحية معقدة غاية التعقيد ، وتعتمد
كل الاعتماد المصادفات غير المتوقعة ، وعلى الرؤى العجيبة التى لا يلام
صاحب العقل الحريص على صدق التاريخ أن يمر بها دون أن يعبرها أية
عناية . ولم يكن سر نجاح هذه المسرحيات هو حبيكتها القديمة بل كثرة
ما فيها من الحوادث الفكاهة المضحكة والنكات اللفظية المرححة التى لا تقل
فحشاً عما فى مسرحيات شيكسبير ، والصخب القذر البذىء ، والنساء الطائشات
وما يظهرنه فى بغض الأحيان من عواطف طيبة : وقد كان فى وسع النظارة
فى كل مسرحية أن يثقوا من وجود حادثة من حوادث الحب ، وتغريب
هفتاة ، وبطل وسيم فاضل ، وعبد أرجح عقلا من كل من فيها من
الشخصيات مجتمعة . وفى هذه المسرحيات نرى الأدب الرومانى منذ بدايته
تقريباً وثيق الارتباط بالرجل العادى ، ويصل بما اقتبس من المسرحيات
اليونانية إلى حقائق الحياة ، ويبلغ فى هذا حداً لم يبلغه قط فيما بعد .

وفى السنة التى توفى فيها بلوتس على الأرجح (١٨٤ ق . م) ولد
فى قرطاجنة بيليوس ترنتيوس آفر Publius Terentius من أصل فينيقى ،
ولربما كان من أصل إفريقى . ولسنا نعرف عنه شيئاً قبل أن يكون
عبداً من عبيد ترنتيوس لوكانس Terentius Lucanus فى رومة . فقد
أدرك هذا الشيخ مواهب الشاب الحى فعلمه ووهبه حريته ، وتسمى
الشاب باسم سيده اعترافاً منه بفضلله عليه . وفى وسعنا أن نعرف شيئاً
من أخلاق الزومان الطيبة حين نسمع أن ترنس « الفقير الخلق
الثياب » جاء إلى بيت كاسيليوس استاتبيوس Caecilius Statius - وكانت
مسرحيات هذا المؤلف المضحكة هى المسيطرة فى ذلك الوقت على المسرح

الرومانى - وقرأ عليه المشهد الأول من مسرحية أندريا ، وأعجب كاسيليوس بهذا المشهد إعجاباً حمله على أن يستبقى الشاعر إلى العشاء معه وأن يستمع إلى بقية المسرحية فى طرب وإعجاب (٢٧) . وما لبث ترنس أن استرعى أسماع إميلوس Aemilius وليليوس ، وقد حاول كلاهما أن يصقل أسلوبه فيجعلوه هو الأسلوب اللاتينى الحبيب إلى قلبه . ومن ثم راجت الإشاعة القائلة بأن ليلوس هو الذى كان يكتب لترنس مسرحياته ، وهى إشاعة رأى المؤلف كياسة منه وحصافة إلا يؤيدها أو ينكرها (٢٨) . واستمسك ترنس فى أمانته وإخلاص بأصول المسرحيات اليونانية التى نقلها إلى اللاتينية وأطلق على هذه المسرحيات أسماء يونانية ، وتحاشى أن يشير فيها إلى الحياة الرومانية ، ولم يدع لنفسه أكثر من أنه مترجم لهذه الروايات - وهو تواضع منه وبخس لأعماله (٢٩) . ولعل الذى دفعه إلى هذا هو تأثره بالهلينية المتغلبة على سبيل وجماعته .

ولسنا نعرف ماذا كان مصير تلك المسرحية التى كان كاسيليوس يحبها ويعجب بها أشد الإعجاب ، ولكننا نعرف أن هسيرا Hecyra مسرحية ترنس الثانية قد أخفقت لأن النظارة غادروا الملهى فى أثناء الفئيل ليشهدوا صراعاً للدبية . ثم بسم له الحظ فى عام ١٦٢ حين كتب أشهر مسرحياته كلها وهى مسرحية « المعذب نفسه » Heauton Timoroumenos وهى تروى قصة أب منع ابنه أن يتزوج الفتاة التى اختارها لنفسه ، ولكن الابن تزوجها رغم هذا ، فما كان من الأب إلا أن تبرأ منه ونفاه من البلاد ، ثم أنبه ضميره وندم على فعلته وعاقب نفسه على ما فعل بامتناعه عن أن يمس ثروته وبأن يعيش عيشة الكدح والفقر ، ثم عرض عليه جار له أن يتدخل فى الأمر ليحل مشكلته ، فيسأله الأب عما يدعو به إلى الاهتمام بغيره والإشفاق عليهم ، فيرد عليه الجار بهذه العبارة المعروفة فى جميع أنحاء العالم والتى صفت لها النظارة طرباً وإعجاباً وهى : Hums sum humani nihil a me alienum puo « إنى إنسان ، ولا أرى أن شيئاً من

يتصل بالإنسان غريب على^١ . ومثلت في السنة التالية مسرحية « الخصى » وبلغ من إعجاب النظارة بها أن مثلت مرتين في يوم واحد (ولم يكن ذلك مألوفاً في تلك الأيام) ، وربع منها ترنس ثمانية آلاف سترس (نحو ١٢٠٠ ريال أمريكي) في يوم ولياة^(٢) . وظهرت بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت رواية « الفورميو » وقد سميت كذلك نسبة إلى الخادم الفكه الذى أنقذ سيده من غضب أبيه ، والذى أصبح فيما بعد نموذجاً لشخصية فيجارو Figaro القوية في رواية بومارشيه Beaumarchais . وفي عام ١٦٠ ق . م مثلت آخر مسرحية لترنس وهى مسرحية أدلفى أو « الإخوة » في الألعاب التى أقيمت بمناسبة وفاة إيميلوس پولس . وبعد قليل من ذلك الوقت سافر الكاتب بطريق البحر إلى بلاد اليونان ، ثم مرض وهو عائد منها ، ومات في أركاديا فى الخامسة والعشرين من عمره .

وانصرف الجمهور بعض الانصراف عن مسرحياته الأخيرة ، لأن الصبغة الهلينية التى اصطبغت بها قد أعلت من قدره فوق ما يجب . فقد كان يعوزه مرح پولتس وخفة روحه وفكاهته ؛ هذا إلى أنه لم يكن فى مسرحياته بمعالجة الحياة الرومانية ، فلم يدخل فى المضحك منها أنذالا فاسدين أو مومسات طائشات ، بل صور كل النساء فى تلك المسرحيات فى صور رقيقة ، حتى العاهرات منهن كن يحمن على حافة الفضيلة . وقد احتوت تلك المسرحيات سطوراً تعد من جوامع الكلم ، وعبارات جرت مجرى الأمثال ، منها hinc illae lacrimae (ومن ثم كانت تلك الديموع) ومنها fortes Portuna- adiuuat (الحظ يواتى الشجعان) ، quot homines tot sententiae (عدد الآراء كعدد الرجال) ، وعشرات العشرات من أمثالها . ولكن هذا الحكم لا يقدرها إلا أصحاب الذهنية الفلسفية أو الحساسة الأدبية ، وهما ما لم يجدها العبد الإفريقى فى جمهرة الشعب الرومانى . ومن أجل هذا النقص لم يعبأ ذلك الشعب بمسالية التى توشك أن تكون مآسى ، وبجيكاته المتقنة البناء ولكنها تسير فى بنائها على مهل ،

وبدراسته الدقيقة للشخصيات الغريبة ، وبحواره الهادئ ، وبأسلوبه المفرط في الهدوء ، وفي نقاء لغته نقاء يكاد أن يكون إهانة للشعب الروماني ؛ وكان النظارة وهم يشاهدون هذه المسرحيات كانوا يشعرون بأن قد حدث بينهم وبين الأدب الروماني صدع لن يلائم قط . وقد كان شيشرون - وهو القريب من كتلس قريباً لا يمكنه من أن يراه عن حقيقته ، والخصيف حصافة تحول بينه وبين الإعجاب بلكريشيوس - نقول كان شيشرون يظن أن ترنس أرق شعراء الجمهورية . وكان قيصر أعدل في حكمه عليه حين أثنى عليه بقوله إنه « المحب للكلام الطاهر » ، ولكنه آسف لأنه لم يوهب القدرة على الضحك vis csmica ووصفه بأنه « نصف مناندر » Dimitiatius Menander . على أن ترنس قد أفلح في شيء واحد على الأقل ؛ ذلك أن هذا الرجل السامي الأجنبي ، الذي تشبع بروح ليليوس وبلاد اليونان ، قد صاغ من اللغة اللاتينية أداة أدبية هي التي استطاع بها شيشرون في القرن التالي أن يكتب نثره وفرجيل أن ينشئ شعره .

الفصل السادس

كاتو والمعارضون المحافظون

وامتلأت قلوب الرومان أصحاب النزعة المحافظة خوفاً كما امتلأت نفوسهم اشمئزازاً من هذا الغزو اليوناني لآداب الرومان ، وفلسفتهم ، ودينهم ، وعلومهم ، وآدابهم ؛ ومن هذا الانقلاب العنيف في أخلاقهم ، وعاداتهم ، ودمائهم . وكان من هؤلاء الرومان القدامى المحافظين شيخ متقاعد يدعى فاليريوس فلاكوس Valerius Flaccus يقيم في مزرعة سبيلية ؛ وأخذ هذا الشيخ بأسف لما أصاب الأخلاق الرومانية القديمة من ضعف وانحلال ، وما أصاب السياسة من فساد ، ومن حلول الأفكار والأساليب اليونانية محل « أساليب أجدادنا » . وكان الرجل شيخاً طاعناً في السن لا تمكنه قواه من أن يكافح بنفسه هذا التيار الجارف ، ولكن اتفق أن كان في مسكن بالقرب منه وفي جوار بلده ريت Reate ، وفي خارج حدودها ، شاب مزارع من العامة اجتمعت له كل الصفات الرومانية القديمة ، فكان يحب فلاحة الأرض ولا يعمل العمل المجهد الشاق ، وكان مقصداً يعيش عيشة البساطة القديمة ، ولكنه مع ذلك يتحدث حديث المتطرفين النابيين . وكان اسم هذا الرجل ماركس پورسيوس كاتو Marcus Porcius Cato وكان سبب تسميته پورسيوس أن أسرته ظلت أجيالاً عدة تربي الخنازير ، أما سبب تسميته كاتو فإن أفراد هذه الأسرة كانوا على جالب عظيم من الدهاء . وأشار عليه فلاكوس أن يدرس القانون ، فعمل كاتو بنصيحته وكسب ما رفعه جيرانه من القضايا في المحاكم المحلية ، ثم نصحه فلاكوس أن يسافر إلى رومة ، ففعل ، وما زال يرقى في المناصب العامة حتى أصبح كوسترا يشرف على الشؤون المالية Quaestor ولما يبلغ الثلاثين من عمره (٢٠٤) . وفي عام ١٩٩ عين إندبلا مشرفاً على

الأشغال العامة والملاعب والأسواق والشرطة . وما وافقت سنة ١٩٨ حتى كان پريٲٲورا Praetor ىلى القنصل فى المرتبة ، ثم صار قنصلا فى عام ١٩٥ ، ثم تزىيونا فى عام ١٩١ ، ثم رقىبا Censro فى عام ١٨٤ . وكان فى هذه المدة قد خدم فى الجيش ستة وعشرين عاماً ، وكان فيها كلها جنديا شجاعا ، وقائدا محنكا ، قاسى القلب شديد البأس . وكان من رأيه أن النظام أساس الأخلاق والحرية ، وكان يحقر الجندى « الذى يستخدم يديه فى المشى وقدميه فى الحرب ، والذى يعلو غطيظه فى النوم على صراخه فى الحرب » . ولكنه كسب احترام جنده بسيره إلى جانبهم على قدميه ، وبإعطاء كل منهم رطلا من الفضة من غنائم الحرب ، وعدم احتفاظه بشىء من هذه الغنائم لنفسه (٤١) .

وكان فى فترات السلم يندد بالخطابة والخطباء ، وأصبح بهذا العمل أقوى خطباء زمانه : وكان الرومان يستمعون إليه وهم مأخوذون على الرغم منهم بسحر بيانه ، لأن أحدا من قبله لم يتحدث إليهم بمثل ما تحدث به هو من الإخلاص الواضح والفكاهة اللاذعة . وكان فى مقدوره أن يسلط سوط لسانه على أى إنسان يستمع خطبه ، ولكن من يستمعه كان يسره أن يرى هذا السوط يسلط على جاره . وظل كاتو يكافح الفساد والرشوة فى رومة غير عابئ بما يصيبه فى هذا الكفاح ، ولم تغرب عليه شمس يوم من الأيام إلا وقد خلق له فيه عدوا جديدا . وقلما كان أحد يحبه لأنه كان يقلق بال الناس بوجهه الكثير الندب ، وشعره الأحمر الأشعث ، ويخيفهم ويهددهم بأسنانه الكبيرة ، ويخجلهم بتقشفه ، ويسبقهم بجده وكسحه ، وتنفلد نظراته التى يلقىها عليهم من عينيه الخضراوين خلال الفاظهم إلى مكنون صدورهم ، فيطلع فيها على أناليتهم . وحاول أعداؤه من الأشراف أن يقضوا عليه بما وجهوه إليه من التهم العلنية ، ولكنه فى كل مرة كان ينجيه من هذا الاتهام اعتراض الزراع الذين كاثوا لا يقلون عنه بغضا للفساد والترف (٤٢) . ولما أن رفعت أصوات العامة إلى منصب الرقيب وجفت قلوب

الرومان أجمعين . وما أن تولى هذا المنصب حتى أخذ ينفذ النذر التي أُنذر بها ،
والتي كسب بها المعركة الانتخابية ، وفرض الضرائب الباهظة على الكماليات ،
وأوقع غرامة على أحد أعضاء مجلس الشيوخ لإسرافه ، وأخرج من هذا
المجلس ستة من أعضائه وجد في سجلاتهم أحكاماً قضائية . وطرده منه
مافايوس لأنه قبل زوجته علناً ، وقال عن نفسه أنه لم يعانق قط زوجته إلا
وقت قصف الرعد - وإن كان يسره أن يقصف الرعد . وأتم كاتو نظام
المجاري في المدينة ، وقطع الأنابيب التي تأخذ الماء خفية وخيانة من القنوات
المبنية العامة ، وأجبر الملاك على أن يهدموا ما كان يمتد من مبانيهم في عرض
الطريق أو فوقه ، وخفض ما كانت تؤديه الدولة ثمناً للأعمال العامة ، وأرغم
جبهة الضرائب على أن يؤدوا لخزانة الدولة نصيباً أوفى مما كانوا يجنونونه من
الاهلين (٤٨) . وبعد أن قضى خمس سنين يجاهد جهاد الأبطال في أعمال
تتعارض مع طبيعة الإنسان ، اعتزال منصبه واستثمر ما كان له من المال -
استثماراً ناجحاً ، وملاً ضيعته التي اتسعت رقعتها في ذلك الوقت بالعبيد ،
وأخذ يقترض المال بربا فاحش وبيتاع الرقيق بأبخس الأثمان ، ثم يدرهم
على بعض الأعمال التي تتطلب شيئاً من المهارة ، ويبيعهم بأغلاها ،
وبذلك أثري إثراء ممكنه من أن ينقطع لتأليف الكتب - وهي مهنة
كان يزديها

وكان كاتو أول كاتب عظيم من كتاب النثر اللاتيني ، وقد بدأ كتاباته بنشر
بمجموعة خطبه ، ثم أصدر كتاباً في فن الخطابة دعا فيه إلى التزام الأسلوب الخشن
الروماني بدل أسلوب الخطباء الإيزوقراطى Isocratean (*) الرقيق ، وعرف الخطيب
بأنه «رجل صالح برع في الكلام vir bonus dicendi peritus» وهما صنفان قل
أن اجتماعهما في إنسان » ، وبهذا التعريف أوجد مجالا لجلد كونتليان quintilian

(*) نسبة إلى إيزوقراطيس الخطيب والكاتب الأثيني البليغ (٤٣٦ - ٣٣٥ ق . م)

(المترجم)

ونقاشه • وكتب رسالة جمع فيها تجاربه في الزراعة وسماها *De agricultura* • وهى الكتاب الوحيد الذى وصل إلينا من كتب كاتو • وأقدم كتاب فى اللغة اللاتينية الأدبية أتى عليه الدهر • وقد كتب هذا الكتاب بأسلوب سهل رصين مركز تركيزا يجعله من جوامع الكلم • فهو لا يسرف فى الألفاظ ، وقلما ينزل فيه إلى استخدام حرف من حروف الوصف ، وفى هذا الكتاب يقدم النصائح المفصلة لمن يريد أن يشتري أو يبيع الرقيق (فيقول مثلا : إن كبار السن منهم يجب أن يباعوا قبل أن يصيروا مصطنع خسارة لسادتهم) ، ولن يؤجر الأرض بجزء من غلتها ، ولزراع الكروم والأشجار ، وتدبير شئون المنازل والصناعات ، وصنع الأسمت وطهو أصناف الطعام النادرة الشمية ، وعلاج الإمساك والإسهال ، ومداواة لسع الأفاعى بروث الخنازير ، وتقريب القربان للآلهة . ويسأل كاتو نفسه فى هذا الكتاب عن أحكم الطرق للإفادة من الأرض الزراعية ، ثم يجيب عن هذا السؤال بقوله إنها « تربية الماشية المربحة » ، وتليها « تربية الماشية المتوسطة الربح » ، وتليها « تربية الماشية العديمة الربح » ، وتليها كلها « حرث الأرض وزرعها » . وهذه هى الحجج التى أوجدت الضياع للراعية فى إيطاليا .

ولعل أهم كتبه كلها هو كتاب « الأصول » *Origines* الذى لم يعثر عليه حتى الآن ، وهو محاولة جريئة للبحث فى آثار إيطاليا ، وشعوبها ، ونظمها ، وتاريخها منذ نشأتها إلى السنة التى مات فيها كاتو ، ولا نكاد نعرف من هذا الكتاب أكثر من أن مؤلفه أراد أن يغيظ الأشراف بالسخرية من أسلافهم فلم يذكر فيه اسم أحد من قواد الحرب ، ثم ذكر فيلا باسمه ، وأثنى عليه لأنه قاتل بيرس *Pyrrhus* قتال الأبطال (٥) . وكان الغرض الذى يهدف إليه كاتو من تأليف هذا الكتاب ومن مقالاته عن الخطابة ، والزراعة والصحة العامة ، والعلوم العسكرية ،

والقانون ، أن يؤلف دائرة معارف يستعين بها على تربية ولده . وكان يرجو من الكتابة اللاتينية أن تحمل الكتب المكتوبة بهذه اللغة عمل الكتب المدرسية اليونانية التي كان يرى أنها تربك عقول شباب الرومان وتفسدها ويلوح أنه ، وإن كان هو نفسه قد درس اليونانية ، كان مخلصا في اعتقاده أن دراسة الأدب اليوناني والفلسفة اليونانية ستعجل بالقضاء على العقائد الدينية لدى شباب الرومان ، فلا يكون في حياتهم الخلقية ما يحميها من الشرارة والخصام والغرائز الجنسية ، وكان يسخط على سقراط كما يسخط عليه نيتشه ، ويصفه بأنه أشبه بالقابلة العجوز الثرثار ، ويقول إن قتله مسموماً كان جزاء حقا على إفساده أخلاق أثينة وشرائعها (٤٦) . وحتى الأطباء اليونان أنفسهم كانوا من أبغض الناس إليه ، وكان يفضل على طهيم العلاج المنزلي القديم ، ولا يثق بالجراحين الذي يعجلون باستعمال المبضع في أكثر الحالات . وقد كتب إلى ولده يقول :

« اليونان جنس مجرم عنيد وأؤكد أن هذا الشعب إذا ما غمر أدبه رومة سيقضى على كل شيء فيها وسيكون هذا القضاء عاجلا إذا ما بعث إليه بأطبائه ، لتمد أجمعوا أمرهم بينهم على أن يقتلوا كل « البرابرة » . . . حذار أن تكون لك صلة بالأطباء » (٤٧)

وكان وهو الذي يعتنق هذه الآراء العدو الطبيعي الأكبر للندوة السيبونية ، وهي التي كانت ترى أن انتشار الآداب اليونانية في رومة عاملا لا بد منه لرفع الآداب اللاتينية والعقلية الرومانية إلى كمال نموها ، وكان كاتو من أشاروا بمحاكمة سيبو الإفريقي وأخيه ، وقال إن القوانين التي تحرم الرشوة والفساد يجب ألا يفرق فيها بين الأشخاص . أما الدول الأجنبية فكان بنادى بأن تعامل جميعها ، إلا واحدة منها بالعدل ، وألا تتدخل رومة في شئونها ، وكان يحقر اليونان وإن كان يعظم به دم ويحلها . ولما أن قام دعاة الاستعمار النهابون من أعضاء مجالس الشيوخ يدعون إلى محاربة رودس الغنية ألقي عليهم خطبة قوية يدعو فيها إلى

السلام وإلى مصالحة أهل تلك الجزيرة . أما الدولة التي كان يستثنائها من المعاملة العادلة ، ومن عدم التدخل في شئونها فهي - كما يعلم العالم كله - قرطاجنة . ولما أرسل إليها في بعثة رسمية عام ١٧٥ هـ ما رأى من انتعاش المدينة واستعادتها حياتها بعد الذي أصابها في حروب هنبال ، وما وقعت عليه عيناه من بساتين الفاكة والكروم ، وما يتدفق فيها من الثروة الناتجة من انتعاش تجارتها ، وما كانت تخرجه دور الصناعة فيها من أسلحة : فلما عاد أمسك أمام المجلس بكمية من التين الطازج قطفها من أشجار قرطاجنة منذ ثلاث أيام ليتخذها رمزاً لرخاء المدينة وقربها من رومة ، وهما القرب والرخاء اللذان كانا نذيرى شوئ لرومة ، وتنبأ بأنه إذا تركت قرطاجنة وشأنها فلنأبى أن يكون لها من الثراء ومن القوة ما يحفزها إلى العودة إلى كفاحها للسيطرة على البحر الأبيض المتوسط . وظل من ذلك اليوم يختم كل خطاب له في مجلس الشيوخ أياً كان موضوعه بتلك العبارة التي تنم عن عقيدته وعناده ، ويصر عليها لإصراراً عجيباً : « هذا إلى أنى أعتقد أن قرطاجنة يجب أن تدمر »

Ceterum censes delendum esse Carthaginem . وكان دعاة الاستعمار في مجلس الشيوخ متفقين معه في رأيه ، ولم يكن ذلك لأنهم يطمعون تجارة قرطاجنة ، بل لأنهم كانوا يرون في حقول شالي إفريقية ، وهي الحقول الخصبة التربة الجيدة الإرواء ، مجالاً جديداً يستثمرون فيه أموالهم ويفلحونه على أيدي الرقيق . وكانوا والحالة هذه ينتظرون على أحر من الجمر حجة يتلوعون بها لحوض غمار الحرب البونية الثالثة .

الفصل السابع

يجب أن تمحى قرطاجنة من الوجود

وجاءتهم هذه الحجة من أعجب حكام ذلك الوقت - مسينسا Masinissa ملك نوميديا Numidia - وهو ملك عمر تسعين عاماً (٢٣٨ - ١٤٨) ورزق ولدأ وهو في السادسة والثمانين من عمره (٤٨) ، ووضع لنفسه نظاماً صارماً لحياته استمسك به كل الاستمساك ، واستبقى به صحته وقوته إلى آخر أيامه تقريباً . وقد أفلح هذا الملك في تنظيم رعاياه البدو ، وبدلم من حياة الترحال حياة الاستقرار الزراعية ، وأنشأ منهم دولة منظمة ظل حكمها حكماً صالحاً مدى ستين عاماً ؛ وجعل مدينة سرتا Cirta حاضرة البلاد بما أنشأه فيها من المباني الفخمة . ودفن بعد وفاته في قبره وهو الحرم العظيم الذي لا يزال باقياً إلى اليوم قرب مدينة قسطنطينية في بلاد تونس . واستطاع هذا الملك أن يكسب صداقة رومة ، وكان يدرك ما عليه قرطاجنة من ضعف سياسي ، فأخذ يغير المرة بعد المرة على أراضيها ، وينتقصها من أطرافها ، فاستولى على لبتيس Leptis العظيمة وغيرها من المدن ، وما زال على هذه الخطة حتى سيطر بها على جميع المسالك البرية المؤدية إلى العاصمة المنهكة القوى . وإذا كانت المعاهدة المعقودة بين رومة وقرطاجنة تحرم على ثانيتهما الاشتباك في حرب إلا برضاء أولاهما فقد أرسلت قرطاجنة سفراء من عندها إلى مجلس الشيوخ في رومة ليحتجوا على عدوان مسينسا . فما كان من هذا المجلس إلا أن نبه هؤلاء السفراء إلى أن الفينيقيين على بكرة أبيهم دخلاء في إفريقية ، وأنهم ليس لهم فيها حقوق تضطر أية أمة مسلحة أن تحترمها . فلما أدت قرطاجنة إلى رومة آخر الإقساط السنوية الخمسين من الغرامة المفروضة عليها بمقتضى معاهدة زاما وهي ٢٠٠ تالنت ظنت أنها بهذا الأداء قد تهررت من التزاماتها ، وأعلنت الحرب على

مومبيديا في عام ١٥١ ، وفي السنة الثالثة أعلنت رومة الحرب على قرطاجنة ووصل هذا النبا الأخير إلى مسامع القرطاجنيين ، ووصل معه أن الأسطول الروماني قد أقلع إلى إفريقيا . ولم تكن المدينة القديمة مسعدة لخوض غمار حرب عوان مهما يكن من كثرة سكانها وضخامة تجارتها ؛ ذلك أن جيشها كان صغيراً وأن أسطولها كان أصغر من جيشها ، ولم يكن لها جنود مرتزقة ولا حلفاء يضاف إلى هذا أن رومة كانت تسيطر على البحار ، ومن أجل هذا أعلنت أنكاء انضمامها إلى رومة ، وحال مسيئسا بين قرطاجنة وبين الاتصال بالأرض التي خلفها في القارة الإفريقية ، وأرسلت قرطاجنة بعثة عاجلة إلى رومة وأمرت أن تجهزها إلى جميع مطالبها فوعدها مجلس الشيوخ الروماني بأنه إذا أسلمت قرطاجنة إلى القنصلين الرومانيين في صقلية ثلثمائة من أبناء أشرف الأسر فيها ليكونوا رهائن لديهما ، وأجابت القنصلين إلى جميع مطالبهما أيا كانت هذه المطالب ، احتفظت في نظير ذلك بحريتها وسلامة أرضها ؛ وأرسل مجلس الشيوخ أوامر سرية إلى القنصلين لينقلا ما صدر إليهما قبل من الأوامر : وأسلم القرطاجنيون أطفالهم بقلوب واجفة وعيون باكية ، واحتشد آباؤهم عند شاطئ البحر يودعونهم . وهم في أشد الألم والحسرة ، وحاولت أمهاتهم في آخر لحظة أن يمنعن السفن من المسير ، وألقت بعضهم أنفسهن في الماء ، وأخذن يسبحن فيه ليلقين آخر نظرة على أطفالهن . وأرسل القنصلان الأطفال إلى رومة ، وعبر البحر إلى يتكا Utca على رأس الجيش والأسطول ، واستدعيا سفراء قرطاجنة ، وطلبوا أن تسلم بلدهما كل ما بقي لها من السفن ، وكية كبيرة من الجيوب وجميع الأسلحة والمعدات الحربية . فلما أجيب هذه المطالب كلها ، طلب القنصلان بعدئذ أن يخرج جميع سكان قرطاجنة منها ، وأن يقيموا على بعد عشرة أميال من المدينة ، لأنهما سيأمران بإحراقها عن آخرها . وحاول السفراء عبثاً أن يقتنعوا الرومان بأن تدمير مدينة أسلمت إلى أعدائها رهائن من أهلها وجميع أسلحتها من غير قتال غدر وبخيانة

لا نظير لهما في التاريخ كله . وعرضوا ان يقدموا حياتهم فداء لمدينتهم
وتكفيرا عما عساها أن تكون قد اقترفته من الذنوب ، وخرّوا على الأرض
سجداً وأخذوا يضربونها برؤوسهم . فأجابهم القنصلان بقولهم إن هذه هي
شروط مجلس الشيوخ وإنهما لا يستطيعان أن يغيرا منها شيئاً .

: ولما سمع أهل قرطاجنة بما هو مفروض عليهم جن جنونهم ، وطاشت
أحلامهم ، فأخذ آباء الأطفال الذين أسلموا رهائن إلى رومة يقطعون أجسام
القواد الذين أشاروا بتسليمهم ، وقتل آخرون القواد الذين أشاروا بتسليم
السلاح ، وأخذ غيرهم يحرقون السفراء العائدين في شوارع المدينة ويرجمونهم
بالحجارة ، ومنهم من قتلوا كل من وجدوه في المدينة من الإيطاليين ، ومنهم
من وقفوا في دور الصناعة الحالية من السلاح يبكون وينتحبون . وأعلن مجلس
شيوخ قرطاجنة الحرب على رومة ، وأهاب بكل من فيها من البالغين رجالاً
ونساء ، أرقاء وأحراراً ، أن يجيشوا جيشاً جديداً ، وأن يصنعوا أسلحة
جديدة يدافعون بها عن المدينة . وثبت الغضب قلوبهم ، وقوى عزائمهم ،
وأخذوا يهدمون المباني العامة لينتفعوا بما فيها من خشب وحديد ، وصهرت
تمائيل الآلهة الأعضاء لتصنع منها السيوف ، وجزت شعور النساء لتصنع منها
الخيال ، ولم يمض على المدينة المحصورة إلا شهران حتى أخرجت ٨٠٠٠
درع ، ١٨٠٠٠ سيف ، ٧٠٠٠ رمية ، وستين ألف قذيفة منجنيقية ،
وبنت في مينائها الداخلي عمارة بحرية مؤلفة من ١٢٠ سفينة (٤٩) .

وقاومت المدينة الحصار براً وبحراً ثلاث سنين ، كان القنصلان
في خلاصهما يهاجمان أسوارها بجيوشهما ، وكانا في كل مرة يرتدان
عنها خائبين . ولما كان سيديو إيميليانس وحده - وهو أحد التريونين
العسكريين - هو الذي أظهر في هذا الحصار براعة ودهاء ، فقد عينه
مجلس الشيوخ الروماني والجمعية قنصلاً وقائداً في عام ١٤٧ ، ولم يعارض
هذا التعيين أحد حتى كاتو نفسه . ولم يمض على ذلك إلا قليل
حتى نجح ليبيوس في تساقط أسوار المدينة . ودافع القرطاجنيون

عنهما شارعاً شارحاً ، وإن كان الجوع قد أضناهم وأهلك الكثيرين منهم ، ولكنهم واصلوا دفاعهم ستة أسابيع كاملة ، وأعداؤهم يحصدونهم حصداً بلا شفقة ولا رحمة . ولما رأى سيبو أن قناصة الأعداء يصيدون رجاله وهم كامنون وراء الجدران ، أمر أن تشعل النيران في كل الشوارع التي يستولون عليها ، وأن تدك مبانيها دكاً ، فاحترق في اللهب كثير من الجنود المختبئين في الدور . ووجد القرطاجنيون آخر الأمر أن لا بد لهم من التسليم بعد أن نقص عددهم من خمسمائة ألف إلى خمسة وخمسين ألفاً . وطالب قائدهم هزدروبال أن يؤمن على حياته فأجابه سيبو إلى ما طلب ، ولكن زوجته غيرته يجنبه . وألقت بنفسها وبأولادها في اللهب . وبيع من بقي من الأهالي حياً في سوق الرقيق ، وأسلمت المدينة إلى الجيوش الرومانية يهبونها ويعيثون فيها فساداً . وأحجم سيبو عن تدميرها ، وأرسل إلى مجلس الشيوخ يسأله رأيه الأخير ، فرد عليه المجلس بأن قرطاجنة نفسها وكل ما انضم إليها في الحرب من البلاد التابعة لها يجب أن تدمر عن آخرها ، وأن تحرث أرضها وتغطي بالملح ، وأن تصب اللعنات على كل من يحاول بناء شيء في موضعها ، وظلت النار مشتعلة في المدينة سبعة عشر يوماً كاملة .

ولم يعقد صلح أو توقع معاهدة ، لأن الدولة القرطاجنية لم يبق لها وجود ، وتركت يتكا *Utica* وغيرها من مدن إفريقية التي ساعدت رومة حرة تحت حمايتها ، وأما ما بقي من أملاك قرطاجنة فقد جعل ولاية خاضعة لرومة وسمى ولاية « إفريقية *Africa* » . وجاء الممولون الرومان وقسموا الأرض ضياعاً ، وورث التجار الرومان التجارة القرطاجنية ، وأضحى الاستعمار العامل المحرك الدافع للسياسة الرومانية ، والغرض السافر الصريح الذي تعمل له عن قصد وتدبير ، وضمت سرقوسة إلى ولاية صقلية الرومانية ، وأخضعت بلاد غالة الجنوبية لتكون هي الطريق البري لأسبانيا بعد أن خضعت كلها لرومة ، ولم تجد رومة

صعوبة في إقناع مملكتي مصر وسوريا المصطبغتين بالصبغة الهللية بالخضوع
لى رغبات رومة - كما اضطر پوپليوس Popilius أنتيوخوس Antiochus
الرابع - إلى الخضوع لها بلا قتال . وإذا نظرنا إلى تدمير قرطاجنة وكورنثة
فى عام ١٤٦ من الناحية الأخلاقية - وهى نظرة لها شأنها على الدوام فى السياسة
الدولية - حكمنا دون تردد بأن هذا العمل من أفظع الفتوح وأشدها وحشية
فى التاريخ كله . أما من ناحية الاستعمار وبناء الإمبراطوريات - أى من ناحية
السلامة والثراء - فقد كان هذا الفتح حجر الزاوية فى سيادة رومة التجارية
والبحرية ، فقد أضحت منذ تلك اللحظة هى المسيطرة على البحر الأبيض
المتوسط ، والمتصرفة فى مصائره ، وارتبط تاريخه بتاريخها أوثق ارتباط .

ومات فى أثناء هذه الحرب من أشعلوا نارها تحيطهم هالة من النصر
والفخار : فمات كاتو فى عام ١٤٩ ، ومسينا فى عام ١٤٨ ، وترك الرقيب
الطاعن فى السن (*) أثرأ عميقاً فى التاريخ الرومانى وظل الناس قروناً كثيرة
يرون فيه الرومانى النموذجى فى عصر الجمهورية ، واتخذه شيشرون فى كتابه
De Senectute المثل الأعلى للرجال ، وحاول حفيد حفيده أن يأخذ نفسه
بفلسفته خالية من فكاهته كما حاول ماركس أورليوسى أن يتخذة نموذجاً له
ينسج على منواله ، وكان فرنطو Fronto يهيب بالأدباء اللاتين أن يعودوا
إلى أسلوبه البسيط الخالى من الالتواء والتعقيد . ولكنه مع ذلك لم يفلح إلا
فى أمر واحد وهو تدمير قرطاجنة ، أما مقاومته للهلينية ومحاولته أن يمنعها
من السيطرة على الحياة الرومانية فقد أخفق فىهما كل الإخفاق ، واستسلمت
كل نواحي الحياة الرومانية من أدب ، وفلسفة ، وخطابة ، وعلم ، وفن ،
ودين ، وأخلاق وعادات ، وملابس ، استسلمت هذه كلها لتأثير اليونان .
لقد كان كاتو يكره الفلاسفة اليونان ؛ ولكن حفيده الشهير كان يحيط نفسه
بهم ، وظلت العقيدة الدينية التى فقدوها هو تضمحل رغم ما بذل من الجهود

(*) يريد كاتو .

لإحيائها وأهم من هذا كله أن الفساد السياسى الذى قاومه فى شبابه أخذ
ينتشر ويعظم كلما زادت مخاطر المناصب الحكومية باتساع رقعة الإمبراطورية •
وكان كل فتح حربى جديد يزيد فى ثراء رومة كما يزيد فى فسادها
ووحشيتها ، وكانت قد كسبت كل حرب خاضت نمارها عدا حرب
الطبقات ، وأزال تدمير قرطاجنة آخر عائق قائم فى سبيل الانقسام والفتن
فى المدينة ، وجوزيت رومة على تملكها العالم بثورات طاحنة وفقن صماء
دامت قرناً من الزمان .

الكتاب الثاني

الثورة

١٤٥ - ٣٠ ق . م

جدول للحوادث التاريخية

مرتبة حسب أزمانها

ق . م

١٣٩ -	حرب الرقيق الأولى في صقلية .
١٣٣ -	تعيين ثيبيريوس جراكس تربيوناً واحتياطه
١٣٢ -	وما بعدها - لوسليوس بانثيوس في رومة .
١٢٤ - ١٢٣	كيسوس جراكس تربيون .
١٢٢ -	كيسوس جراكس يبدأ نظام توزيع الجيوب عن قبل الدولة .
١٢١ -	انتحار كيسوس جراكس تربيون .
١١٩ -	ماريوس تربيون .
١١٦ -	ثم بريطور .
١١٣ - ١٠١	حروب رومة ضد السبريين والتبوتون .
١١٢ - ١٠٥	الحرب البجرثية .
١٠٧ و ١٠٤ -	٧٨ ، ١٠٠ ماريوس قنصل .
١٠٦ -	مولد شيشرون وپمپي .
١٠٥ -	السبريون يهزمون الرومان قرب أروسيو .
١٠٣ - ٩٩	حرب الرقيق الثانية في صقلية .
١٠٣ - ١٠٠	سترنبيوس تربيون .
١٠٢ -	ماريوس يهزم السبريين عند أكواسكتيا .
١٠٠ -	ماريوس يقهر سترنيوس ؟ مولد يوليوس قيصر .
٩١ -	إصلاحات م . ليقيودروسن واغتياله .
٩١ - ٨٩	الحرب الاجتماعية في إيطاليا .
٨٨ -	صلا قنصل ؟ فرار ماريوس .
٨٨ - ٨٤	الحرب المثرذاتية الأولى .
٨٧ -	تمرد سنا وماريوس ؟ حكم الإرهاب المتطرف .
٨٦ -	صلا يستولى على أثينة ويهزم أركيلاوس في قبرونية .
٨٦ -	ماريوس وسنا يخلعان صلا ؟ موت ماريوس .
٨٥ - ٨٤	القنصلتان الثالثة والراية وموت سنا .
٨٢ - ٨١	الحرب المثرذاتية الثانية .

ق . م	
٨٣ -	صلا ينزل في برنيزيوم .
٨٢ -	صلا يستولى على رومة . حكم الإرهاب الرجعى .
٨١ -	القوانين الكرنيلية لصلا .
٨٠ - ٧٢	ثورة مرتوزيوس في أسبانيا .
٧٩ -	استقالة صلا وموته في عام ٧٨
٧٦ وما بعدها -	قرو .
٧٥ - ٦٣	الحرب المتردائية الثالثة - انتصارات لوكنس وپمپى .
٧٥ -	شيشرون يعين كوسترا في صقلية .
٧٣ - ٧١	حرب الرقيق الثالثة : إسبارتكوس وپمپى .
٧٠ -	كراسس وپمپى قنصلان للمرة الأولى . محاكمة قُرس . مولد فرجيل .
٦٩ -	تيتس پمپى نفوس أنكس .
٦٨ -	قيصر كوستر في أسبانيا .
٦٧ -	پمپى يخضع القرصنة .
٦٦ -	كتاب شيشرون <i>Pro lege manilia</i> .
٦٣ -	شيشرون يفضح كتلين . مولد أكتافيوس .
٦٣ - ١٢	م . ث . أجريبا .
٦٢ -	قيصر هريطور مهندس . مسلك كلوديوس السيسى .
٦١ -	قيصر حاكم في أفاصى أسبانيا . عودة پمپى . واثصاره .
٦٠ -	الحكومة الثلاثية الأولى : قيصر وكراسس وپمپى .
٦٠ - ٥٤	قصائد كاتلس ؛ كوفليوبس نيپوس .
٥٩ -	قيصر قنصل .
٥٨ -	كلوديوس تريبون يخرج شيشرون من البلاد ؛ قيصر يهزم هنتى وأريزنس في غالة .
٥٧ -	عودة شيشرون ؛ قيصر يهزم بلجا .
٥٦ -	الانتقاء أعضاء الحكومة في لوکا .
٥٥ -	پمپى وكراسس قنصلان ، ملهى پومپى ؛ قيصر في ألمانيا وبريطانيا .
٥٤ -	غزو قيصر لبريطانيا للمرة الثانية .
٥٣ -	أعمال العنف التى قام بها كلوديوس وميلو في رومة ، هزيمة كراسس في كارهى .
٥٢ -	مقتل كلوديوس ؛ محاكمة ميلو ؛ پمپى ينفرد بالقنصلية ؛ ثورة فرسختركنس .
٥١ -	شيشرون حاكم قليقية ؛ كتاب شيشرون <i>de re publica</i> ، كتاب <i>de bello Gallico</i> قيصر

رقم	
٥٩ -	قيصر يهبر الريبكون ويسقولى على رومة .
٤٨ -	ميركتا دراكيوم وفرسالس .
٤٨ - ٤٧	قيصر فى مصر وصوريا ؛ فنروقيوس المهندس المهارى ؛ كولوملا النباى .
٤٧ -	انتصار قيصر فى زيلاوئيسوس ؛ انتحار كاتو الأصغر .
٤٦ -	قيصر يهين دكتاتوراً لمدة عشر سنوات ، تعديل التتويم ، سالت المؤرخ كتاب شيشرون Pro marcello .
٤٥ -	قيصر يهزم أنصار يهين فى أسبانيا ؛ كتابا شيشرون Academia De Finibus .
٤٤ -	اغتيال قيصر ؛ كتب شيشرون Disputationes Tusculanae .
٤٣ -	De nature pecorum, De officii . الحكومة الثلاثية الثانية ؛ أنطونيوس ، أكتافيان وليبيدوس ، مقتل شيشرون .
٤٢ -	موت بروتس وكاسيوس فى فلپاى .
٤١ -	أنطونيوس وكليوباترة فى طرطوس .
٤٠ -	صلح أنطونيوس وأكتافيان فى برنديزيوم ، نشيد الرعاة الرابع لفرجيل .
٣٦ -	أنطونيوس يفوزو بارثيا .
٣٢ -	أنطونيوس يتزوج كليوباترة .
٣١ -	أكتافيان يهزم أنطونيوس فى أكتيوم .
٣ -	انتحار أنطونيوس وكليوباترة ؛ ضم مصر إلى الإمبراطورية ؛ أكتافيان يحكم رومة بمفرده .

الباب السادس

الثروة الزراعية

١٤٥ - ٧٨ ق. م

الفصل الأول

العوامل التي هيأت البلاد للثورة

كان للثورة أسباب كثيرة ، وكان لها نتائج يخطئها الحصر ، وكانت الشخصيات التي أطاحت بها الأزمة من ابتداء ابنى جراكس إلى أغسطس من أقوى الشخصيات في التاريخ ، ولم تنشب قط قبل الحرب أو بعدها إلى أيامنا هذه حرب كان لأهدافها مثل الخطر مثل ما كان لتلك الحرب ، ولم تمثل على المسرح العالمي في يوم من الأيام مأساة ما تمثيلاً أقوى مما مثلت به مأساة تلك الأيام ، وكان أول أسباب هذه الثورة تدفق الحبوب الناتجة من عمل الرقيق في صقلية وسردانية وإسبانيا وإفريقية ، وما أحدثه تدفقها من خراب محلّ الزراع الإيطاليين ، إذ خفض ثمن الحبوب التي تنتجها أراضيهم إلى أقل من تكاليف إنتاجها . وكان سببها الثاني تدفق الرقيق الذين حلوا محلّ الزراع في الريف والعمال الأحرار في المدن ، وكان ثالث هذه الأسباب زيادة عدد الضياع للواسعة ، وكانت الدولة قد أصدرت في عام ٢٢٠ قانوناً يحرم على أعضاء مجلس الشيوخ أن يتعاقدا على الأعمال العامة أو يستثمروا أموالهم في التجارة ، فلما أن زاد ثراؤهم من غنائم الحرب اشتروا بهذه الأموال مساحات واسعة من الأراضي الزراعية ، وكانت الأرض في البلاد المفتوحة تقسم في بعض الأحيان قطعاً صغيرة وتباع للرومان

المستعمرين ، وقلت بذلك حدة الفتن والنزاع القائم في المدن ، وأعطى جزء كبير من هذه الأراضي للممولين وفاء ببعض ما أقرضوه للدولة من أموال في أثناء الحروب ، أما الجزء الأكبر منها فقد ابتاعه أعضاء مجلس الشيوخ ورجال الأعمال أو استأجروه بشروط حددها مجلس الشيوخ نفسه ، وكان من أثر انتشار هذه الضياع الواسعة أن اضطرت الممالك الصغيرة إلى اقتراض المال بأرباح فاحشة يستحيل عليه الوفاء بها ، فلم يلبث أن وقع في هاوية الفقر أو الإفلاس أو فقد أرضه ونزح إلى المدن ليسكن في أحيائها القليلة الفقيرة الوبيئة . وآخر ما تذكره من أسباب الثورة ما طرأ على حال الفلاح نفسه من تغير كبير لقد جند هذا الفلاح في الجيش وهبأت له انتصاراته سبيل انتهاب الثروة من العالم ، وأصبح يكره العمل الانفرادي الرتيب الخالي من المغامرات في الحقول ولا يستطيع الصبر عليه ، وكان أحب إليه من هذا العمل أن ينضم إلى صعاليك المدينة المشاغبين ، ويرقب الألعاب المثيرة في الميولات بلا أجر ، ويأخذ الحبوب من الحكومة بأرخص الأثمان ، ويبيع صوته في الانتخابات لمن يبتاعه بأعلى الأثمان أو لمن يمينه بأعظم الأمانى ، ويهتفي في غمار الجماهير المدممة الحاملة للوضيعة .

وأصبح المجتمع الروماني يزداد اعتماده شيئاً فشيئاً على الانتهاب من الخارج واسترقاق في الداخل ، بعد أن كان في أول الأمر مؤلفاً من زراع أحرار . فأما في المدن فكانت كل الخدمات المنزلية ، وكان كثير من الصنائع اليدوية . ومعظم الأعمال التجارية ، وكثير من الأعمال المصرفية ، وكل أعمال المصانع والأشغال العامة ، كانت هذه الأعمال كلها يقوم بها الأرقاء ، وقد أدى ذلك إلى انخفاض أجور العمال الأحرار انخفاضاً يكاد يجعل الكدح والبطالة في الكسب سواء . وكان الأرقاء في الضياع الواسعة يفضلون على العمال الأحرار لأنهم لم يكونوا يلزمون بالخدمة العسكرية ، لأن عددهم كان يمكن الاحتفاظ به جيلاً بعد جيل نتيجة المتعة الوحيدة التي كان يسمح لهم بها أو نتيجة الرذيلة التي كان ينهمك فيها

سادتهم (*) ؛ وكانت الغارات لا تنقطع على بلاد البحر الأبيض المتوسط كلها للمجيء بالأداة الحية اللازمة للمزارع التي تصنعت . وكان يضاف إلى أسرى الحرب الذين يساقون إلى رومة بعد كل معركة تنتصر فيها جيوشها ضحايا القراصنة الذين كانوا يقبضون على العبيد أو الأحرار على سواحل آسية أو بالقرب منها ، وضحايا الموظفين الرومان الذين كانوا يقتنصون الناس اقتناصاً منظماً ويستعيدون من أهل الولايات كل من لا يجرؤ حكامها المحليون على حمايته (١) . ولم يكن يمضى أسبوع لا يأتى فيه النخاسون بفرائثهم البشرية من إفريقية ، وإسبانية ، وغالة ، وألمانية ، والبلاد الواقعة على ضفتى نهر الطونة ، والرومية ، وآسية ، واليونان — من هذه الأقاليم كلها إلى ثغور البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود . ولم يكن من هذه الحوادث غير المألوفة أن يباع في ديلوس مائة ألف من الأرقاء في يوم واحد . وقد قبضت الجيوش الرومانية في عام ١٧٧ على أربعين ألفاً من أهل سردانية ، وفي عام ١٦٧ على مائة وخمسين ألفاً من أهل أپيروس ، بيعوا في أسواق النخاسة . وكان ثمن الواحد منهم في الحالة الثانية لا يزيد على ما يعادل ريالاً أمريكياً (٢) . وكان مما خفف من شقاء الأرقاء في المدينة ما كان يرم من العقود الإنسانية بينهم وبين سادتهم ؛ وما كانوا يطعمون فيه من نيلهم حريتهم ؛ أما في الضياع فلم يكن يسمح للصلوات الإنسانية بأن تتدخل في أعمال الاستغلال ؛ فلم يعد العبد في تلك الضياع عضواً في الأسرة كما كان في بلاد اليونان أو في رومة نفسها في عهدها الأول ؛ وقبلما كان العبد يرى مالكة ، وكان يطلب إلى الحراس أن يعتصروا من هذه الآلات البشرية الموكولة إلى أسواطهم كل ما يستطيعون اعتصامه منها ، وبقدر هذا الاعتصام يكون أجر هؤلاء الحراس . أما أجر العبد نفسه في الضياع الواسعة فلم يكن يزيد على ذلك القدر من الطعام والكساء الذى يمكنه من أن

(١) يقصد بهذه العبارة تناسل هؤلاء الأرقاء فيما بينهم أو بين النساء وأسماهن .

(المترجم)

يكسح. كدحاً متواصلاً في كل يوم من شروق الشمس إلى غروبها — هذه بعض أيام الأعياد — حتى تدركه الشبخوخة . فإذا شكاً أو عصى أمر حارمه ألزم أن يعمل ورجلاه مكبلتان بالأغلال ، وأن يقضى الليل في جيب تحت الأرض *ergastulum* لا تكاد تفلو منه كل ضيعة واسعة . لقد كان في هذا النظام من التلف والخسارة الاقتصادية بقدر ما فيه من الوحشية ، لأنه لم يكن يعول إلا نحو جزء من عشرين جزءاً من الأسر التي كانت تعيش من قبل على هذه الأرض نفسها معيشة الأحرار من الناس .

وإذا ذكرنا أن نصف هؤلاء الأرقاء ، إن لم يكن أكثر من نصفهم ، كانوا من قبل أحراراً (لأن الأرقاء قلما كانوا يشتركون في الحروب) ، كان مقدورنا أن نتصور ما يشعر به هؤلاء البائسون المحطمون من مرارة و لا يسعنا إلا أن نعجب من ندمرة ما كانوا يلجئون إليه من الثورات . وقد حدث في عام ١٩٦ ، أن ثار أرقاء الريف في إتروريا وعمالها الأحرار ، ولكن الجيوش الرومانية أربعتهم « وقتلت الكثيرين منهم أو أسرتهم ومنهم من جلدوا أو صلبوا عقاباً لهم على فعلتهم » كما يقول لبي^(٣) . وحدثت مثل هذه الثورة عام ١٨٥ في أبوليا ، فقبض على سبعة آلاف من العبيد وحكم عليهم أن يعملوا في المناجم^(٤) . وكان أربعة آلاف من الأرقام الأسبان يعملون في مناجم قرطاجنة الجديدة وحدها . وفي عام ١٣٩ شبت نار « حرب الأرقاء الأولى » في صقلية^(٥) ، فقد لبي دعوة إينوس *Eunus* أربعمئة من الأرقاء وذبحوا الأحرار من أهل مدينة إنا *Enna* ، ثم أقبلت أفواج العبيد من الضياع ومن الأجباب الخاصة في صقلية ، فضاغفوا عدد الثوار حتى بلغ سبعين ألفاً . وما لبثوا أن احتلوا أجرينتم *Agrigentum* ، وهزموا الجيوش الرومانية التي كانت في الولاية ، واستولوا على الجزيرة كلها تقريباً ،

واحتفظوا بها حتى عام ١٣١ : وفي تلك السنة حاصروهم جيش القنطل في
إنا ومنع الزاد حتى اضطروهم الجوع إلى الاستسلام : وسبق لمينوس إلى
رومة ، وألقى في جب تحت الأرض ، وبقي فيه حتى قضى عليه الجوع
والقمل^(٥) . وقامت للثورات أقل من هذه شأنًا التهمت بإعدام مائة وخمسين
من الأرقاء في رومة ، وأربعمائة وخمسين في منتورنا *Menturnae* وأربعة
آلاف في سينوما *Sinuessa* . وفي تلك السنة استصدر نيبيريوس جراكس
Tiberius Dracchus القانون الزراعى الذى فتح باب الثورة الرومانية
على مصراعيه .

الفصل الثاني

تيبيريوس جراكس

هو ابن تيبيريوس سيمبرينوس جراكس **Tiberius Sempronius Gracchus** الذي تدين له أسبانيا بالشكر لأنه حكمها حكماً عادلاً كريماً ، والذي عين قنصلاً مرتين ورفيقاً مرة ، والذي أنقذ من الهلاك أخا سيبيو الإفريقي وتزوج ابنته ، وأنجب كرنليا اثني عشر طفلاً توفوا كلهم إلا ثلاثة منهم قبيل البلوغ ، وتحملت هي بعد وفاته عبء تربية تيبيريوس وكيوس وأخت لها - تدعى أيضاً كرنليا - صارت فيها بعد زوجه سيبيو إميليانس ؛ وكان للزوج والزوجة نصيب من الثقافة الهلينية ، وكان ممن يعطفون على الدائرة الثقافية السيبيونية ؛ وكان لكرنليا ندوة أدبية ، وكتبت رسائل بأسلوب سليم رشيق جعلها مع خبير ما كتب في الآداب اللاتينية ، ويقول أفثوطوخس إن ملكاً من ملوك مصر عرض عليها بعد أن تزلمت أن تزوجه ، وأن ينزل لها عن عرشه ؛ فأبت وآثرت أن تبقى ابنة لسيبيو ، وحماة لسيبيو وآخر وأماً لجراكس .

ونشأ تيبيريوس وكيوس جراكس في جو مشبع بطرائق الحكم والفلسفة عرفاً فيه مشاكل الحكومة الرومانية ونظريات الفلسفة اليونانية . وقد تأثرا بآراء بلسيوس **Blossius** وهو فيلسوف يوناني من كومي **Cumae** بعث فيهما نزعة حرة قوية استخضت بقوة المحافظين في رومة . ويكاد الأخوان أن يكونا متماثلين في طموحهما ، وكبريائهما ، وإخلاصهما وفصاحتهم التي لا يكاد يصدقها العقل ، وشجاعتهما التي لا تشوبها قط شائبة . ويحدثنا كيوس أن تيبيريوس شاهد مأساة الزراع ، وتأثر بها أشد التأثر حين كان مسافراً في إتروريا « فرأى قلة السكان ولاحظ أن الذين كانوا يحرقون

الأرض ويرعون قطعان الضأن هم العبيد الأجانب (٦) ، وإذا كان تيبيريوس يعرف وقتئذ أن الملاك وحدهم هم الذين يجندون للخدمة في الجيوش فقد سأل نفسه كيف تستطيع رومة أن تحتفظ بزعامتها أو استقلالها إذا حل محل زراعيها الأقوياء الذين كانوا يؤلفون الكثرة الغالية في الفيلق الرومانية عبيد غرباء لا تربطهم بها صاة ما ؟ وكيف تكون الحياة الرومانية حياة طيبة ، الديمقراطية الرومانية ديمقراطية صالحة ، إذا غصت بصعاليك المدن المعدمين بدل الزراع الأباة الأعزاء الذين يمتلكون الأرض ويفلحونها بأنفسهم ؟ وخيل إليه أن توزيع الأرض على المواطنين الفقراء هو الحل الصحيح البين الذى لا بد من الالتجاء إليه لحل المشاكل الثلاثة القائمة وقتئذ في البلاد : الاسترقاق في الريف ، والازدحام والفساد الخلق في المدن وضعف الروح الحربية بين المواطنين ٥

وما كاد تيبيريوس جراكس يختار تربيونا في مستهل عام ١٣٣ حتى أعلن أنه يعتزم أن يعرض على الجمعية القبلية ثلاثة اقتراحات (١) ألا يسمح لأى مواطن أن يمتلك أكثر من ٣٢٣ فداناً — أو ٦٦٧ فداناً إذا كان له اثنان من الأبناء — من الأراضى المشتراة أو المستأجرة من الدولة (٢) وأن يُرد إلى الدولة كل ما عدا هذا القدر من الأرض العامة التى باعتهما أو أجزتها للأفراد ، على أن ترد الدولة لهم أثمانها أو الإيجار الذى أدوه مضافاً إلى قدر من المال نظير ما أنفقوه في إصلاحها (٣) وأن تقسم هذه الأراضى التى ترد إلى الدولة لإقطاعيات مساحة كل منها عشرون فداناً توزع على المواطنين الفقراء على شرط أن يعهدوا بالألا يبيع أحد منهم نصيبه من هذه الأرض ؛ وأن يؤدوا عنها ضريبة سنوية إلى خزانة الدولة ولم يكن هذا الإصلاح الزراعى خيالا متعذراً للتنفيذ ، بل كان مجرد محاولة لتنفيذ قوانين ليسنيوس كلفس Licinius Calvus الصادرة في عام ٣٦٧ ق . م والى ألغيت ولم تنفذ قط . وقد قال تيبيريوس لل العامة الفقراء في إحدى خطبه الشهيرة التى تعد من أعظم الخطب في التاريخ الرومانى كله :

« إن لحيوانات الأرض جمورها ولطير الهواء أوكارها وغابها ، أما الرجال الذين يحاربون ويموتون من أجل إيطاليا فلا يستمتعون فيها إلا بالضوء والهواء . إن قواد الجيش ينادون جنودهم أن يقاتلوا دفاعاً عن قبور آبائهم وأضرحتهم ، ولكن نداءهم هذا نداء سخيف باطل ، إذ ليس في وسعك أن تدلهم على مذبح آبائهم يقربون فيه لألهتهم ، وليس للفقراء مقابر لأسلافهم . لأنكم أيها الفقراء تقاتلون وتموتون لينعم غيركم بالثروة والترف ، ويقال لكم : لأنكم سادة العالم ، ولكنكم لا تجدون في هذا العالم موضعاً لقدم ، في وسعكم أن تقولوا إنه ملك لكم » (٧) .

وأعلن مجلس الشيوخ أن هذه الاقتراحات ليست في واقع الأمر إلا مصادرة لأموال الناس ، وأتهم تيير يوس بأنه يعمل ليكون طاغية حاكماً بأمره ، وأقنع أكتاف يوس وهو تريبون آخر أن يستخدم ماله من حق الاعتراض في منع عرض المشروع على الجمعية ، فما كان من جراكس إلا أن تقدم باقتراح يقضى بأن كل تريبون يعمل ضد مصالح من يمثلهم يجب أن يسقط على الفور من عداد أعضاء الجمعية . ووافقت الجمعية على هذا الاقتراح وأخرج حراس تيير يوس أكتاف يوس قوة واقتداراً من قاعة الجمعية على الفور ، ووافقت الجمعية بعدئذ على الاقتراحات الأصلية فأصبحت قانوناً واجب التنفيذ ، ثم أوصلته محروساً إلى منزله لحوفها أن يغتاله مغتال في الطريق (٨) .

غير أن تحكمه غير المشروع في حق التريبون في الاعتراض ، وهو الحق الذي جعلته الجمعية نفسها من أقدم الأزمان حقاً مطلقاً غير مقيد بقيد ما ، قد وضع في معارضيه سلاحاً يشهره في وجهه ويقضون به على قانونه . فجهروا بعزمهم على أن يهتموه في نهاية العام الذي يتولى فيه منصبه بالخروج على دستور البلاد واستخدام العنف ضد أحد التربيونيين . وأراد تيير يوس أن يحمي نفسه بالسخرية من الدستور مرة أخرى ، وذلك بترشيح نفسه

لأن يعاد اختباره تريبونا في عام ١٣٢ . وإذا كان إيميليانس ولبليوس وغيرهما من الشيوخ الذين عضدوا اقتراحه الأول قد تخلوا عنه الآن ، فقد لجأ بكلية إلى العامة ووعدهم بأن ينقص إذا اختاروه مدة الخدمة العسكرية ويلغى استئثار الشيوخ بأعمال الخلفين ، وأن يجعل حلفاء رومة من الإيطاليين مواطنين رومانيين . ورفض مجلس الشيوخ في هذه الأثناء اعتماد الأموال التي طلبتها اللجنة الزراعية التي نيط بها تنفيذ قوانين تيبيريوس فلما أوصى أتلس الثالث Atallus III ملك برجوم Pergamum بمملكته لرومة في عام ١٣٣ عرض جراكس على الجمعية أن تباع أملاك أتلس الخاصة والمثقلة ، وأن يوزع ما يتحصل من بيعها على من نالوا إقطاعات من أراضي الدولة ليبتاعوا بها ما تحتاجه مزارعهم من أدوات ؛ وأثار هذا الاقتراح غضب مجلس الشيوخ لأنه رأى أن ما له من سيطرة على الولايات وعلى الأموال العامة قد أخذت تنتقل إلى جمعية قوية الشكيمة غير ممثلة للبلاد ، معظم أعضائها من أصل وضع ومن غير أبناء البلاد الأصليين ، فلما كان يوم الانتخاب ظهر جراكس في السوق العامة بملابس الحداد ومن حوله حراس مسلحون للدلالة على أن هزيمته في الانتخاب ستؤدي إلى اتهامه وإعدامه . وحدث في أثناء الاقتراع أن لجأ كلا الطرفين إلى العنف . ونادى سيبو نسكا Seipio Nasica بأن تيبيريوس يريد أن ينصب نفسه ملكاً ، وقاد الشيوخ إلى السوق العامة مسلحين بالهراوات . وارتاع أنصار جراكس حين شاهدوا أبواب الأشراف الفخمة فتخلوا عنه ، وأصيب تيبيريوس بضربة على أم رأسه خر على أثرها صريعاً وهلك معه بضعة مئين من أتباعه . ولما طلب كيوس Caius أخوه الأصغر أن يؤذن له بدفنه لم يجب إلى طلبه ، وألقيت جثث العصاة الموتى في نهر التيبر وكرنليا في أثناء ذلك حزية باكية .

وأراد مجلس الشيوخ أن يهدئ من ثورة العامة فوافق على تنفيذ قوانين جراكس . ويستدل من ازدياد عدد المواطنين المدونة أسماءهم

في السجلات بمقدار ٧٦٠٠٠ من عام ١٣١ إلى ١٢٥ على أن مساحات واسعة من الأراضي قد وزعت حقاً على الزراع ، ولكن اللجنة الزراعية وجدت نفسها أمام عقبات كثيرة . ذلك أن كثيراً من الأراضي التي يراد توزيعها كانت قد أخذت من الدولة قبل ذلك الوقت بعدة سنين أو بعدة أجيال ، وأصبح لمن يمتلكونها وقتئذ حقوق اكتسبوها بوضع أيديهم عليها زمناً طويلاً ، وأن منها أراضي كثيرة أخرى قد ابتاعها الملاك الجدد بأثمان غالية ممن اشتروها من الحكومة بأثمان منخفضة . ولجأ أحلاف رومة الإيطاليون الذين أضرت القوانين بحقوقهم التي اكتسبوها بوضع اليد إلى سيبوليميانس ليحميهم من اللجنة الزراعية ، واستطاع بما له من النفوذ أن يوئجل عملها فاستشاط الرأي العام غضباً عليه لهذا العمل ، واتهمه بالخيانة وعدم الوفاء بذكرى جراكس التي أضحت وقتئذ ذكرى عزيزة مقدسة . وفي صباح يوم من أيام عام ١٢٩ وجد الرجل ميتاً في فراشه ، وأكبر الظن أن يبدأ أليمة قد اغتالته ولم يعرف أحد من هو هذا المقتال

الفصل الثالث

كيوس جراكس

وأخذ النامون الذين خلت قلوبهم من الرحمة يشيعون أن كرنليا قد انتمرت مع ابنتها زوجة سهيو المشوهة المكروهة على قتل تيبيريوس ؛ وأخذت كرنليا وسط هذه الكوارث الفاحشة تواسى نفسها بالعكوف على العناية بابنها الذى لم يبق لها فى هذا العالم عزيز سواه . ولم يكن ما أثاره مقتل تيبيريوس فى قلب أخيه كيوس هو مجرد الرغبة فى الانتقام ، بل أثار فيه صادق العزم على أن يتم ما بدأه أخوه . وكان قبلئذ قد أظهر كثيراً من اللدناء والشجاعة فى أثناء خدمته بقيادة إميليانس فى نوماتيا ، ونال إعجاب للناس على اختلاف مشاربهم باستقامته وبساطة معيشته ، وكان رجلاً حاد المزاج جياش العواطف ، إذا ثار زادت حدتها لطول كبته ، وقد أصبح بفضلها أعظم خطباء الرومان قبل أيام شيشرون ، وفجحت أمامه أبواب المناصب كلها تقريباً فى مجتمع كان للفصاحة فيه المحل الثانى بعد الشجاعة فى رقى الرجال وبلوغهم أسنى المراتب . لهذا كله اختير تربوناً فى خريف عام ١٢٤ .

وكان كيوس رجلاً واقعياً أكثر من أخيه ، ومن ثم أدرك أن لا بقاء لأى إصلاح إذا لم يقو على مغالبة القوة الاقتصادية أو القوة السياسية فى الدولة ، ولذلك استقر رأيه على أن يضم إلى جانبه خمس طبقات من طبقات الشعب المختلفة : طبقة الزراع ، والجيش وعامة المدن ورجال الأعمال . فأما الطبقة الأولى فقد ضمها إليه بالعودة إلى القوانين الزراعية التى سنّها أخوه ، ووسع مداها بأن طبقها على الأراضى الزراعية التى تمتلكها الدولة فى الولايات التابعة لها ، ثم أعاد تشكيل لجنة الأراضى ، وأشرف بنفسه على أعمالها ، وحقق مطامع الطبقات الوسطى بإنشاء مستعمرات جديدة فى كبوا ، وتارنم وناربو Narbo ، وقرطاجنة ، وبنيمة هذه

المستعمرات وجعلها مراكز مزدهرة للتجارة . وأرضى الجنود بأن قرر أن تؤدي أثمان ملابسهم من الخزانة العامة ، وأرضى عامة المدن بإصدار قانون الحبوب *lex frumentaria* وبمقتضاه أخذت الحكومة على نفسها أن تعطى القمح لكل من يطلبه بسعر ستة أسات وثلث آس لكل مودْيوس *Modius* (أى بما يعادل $\frac{3}{4}$ من الريال الأمريكى لكل جالونين) وهو نصف ثمنه في السوق . وكان هذا العمل الأخير صدمة عنيفة للمبادئ الرومانية القديمة — مبادئ الاعتماد على النفس — كما كان له آثار خطيرة في التاريخ الرومانى كله . وكان كيوس يعتقد أن تجار الحبوب يبيعونها للجمهور بضعفى نفقات إنتاجها ، وأن الإجراء الذى اتخذته لن يكلف الدولة خسارة ما لأن توحيد عمليات البيع والشراء سينزل بالنفقات إلى حد كبير . وسواء كان هذا أو لم يكن فإن القانون قد جعل الفقراء من سكان المدن الأحرار يناصرون ابنى جراكس ويناصرون من بعدهما مارينوس وقيصربدل أن كانوا موالى للأشراف وأتباعاً لهم ، يعملون لإطعامهم وتوفير أسباب الترف لهم ، كما كان عماد الحركة الديمقراطية التى بلغت ذروتها في كلوديوس *Clodius* وقضى عليها فى أكتيوم .

وكان الإجراء الخامس يهدف إلى تثبيت سلطان الحزب الذى ينتمى إليه بالقضاء على السنة المتبعة من زمن قديم واثنى تجعل الأغنياء يقرعون في الجمعية المثوية قبل غيرهم من الطبقات ، فاستبدل كيوس بهذه السنة تقليداً جديداً يجعل المثات في الجمعية يعطون أصواتهم حسب نظام يعين بالقرعة . ثم استرضى رجال الأعمال بأن جعل لهم وحدهم حق العمل محلفين عند النظر في جرائم الولايات ، فأصبحوا بذلك حكاماً في قضاياهم إلى حد بعيد . ولم يكتف بهذا بل أراد أن يستثير مطاعمهم فاقترح أن تفرض على جميع غلات آسية الصغرى ضريبة توازي عشر هذه الغلات يجونها هم أنفسهم . ثم زاد ثراء المقاولين ، وأنقص عدد المتعطلين ، بأن وضع برنامجاً لإنشاء الطرق في كافة أنحاء إيطاليا . ولقد

كانت هذه القوانين في مجملها - رغم ما يغشى بعضها من خداع سياسي - أعظم مجموعة من التشريع الإنشائي سنت لرومة قبل أيام قيصر .

واستطاع كيوس باعتماده على هذا العون المتعدد النواحي أن يطرح ما جرت به العادة من قديم ، وأن يُختار تربيوناً للمرة الثانية . وأكبر الظن أنه قد فكر في ذلك الوقت في السيطرة على مجالس الشيوخ بإضافة ثلثمائة عضو جديد إلى أعضائه الثلثمائة ، تختارهم الجمعية من بين رجال الأعمال . واقترح كذلك أن يعطى حق الانتخاب كاملاً لجميع الأحرار من سكان لاتيوم ، وأن يعطى هذا الحق مقصوراً إلى سائر الأحرار من سكان إيطاليا . وكانت هذه أجراً حركاً قام بها في طريق الديمقراطية السياسية ، ولكنها كانت أيضاً أول ما ارتكب من أغلاط في خطته . ذلك أن من كان لهم حق الاقتراع لم يتحمسوا كثيراً لأن يشترك معهم غيرهم في هذه الميزة التي اختصوا بها حتى ذلك الوقت ، ولو كان شركاؤهم فيها قوم لا يستطيع حضور جلسات الجمعيات في رومة إلا أقلية صغيرة منهم ، ولم يدع مجلس الشيوخ هذه الفرصة تفلت من بين يديه ، ذلك أن كيوس كاد يتجاهله ولا يحسب له حساباً حتى ظن أنه قد فقد كل ما كان له من قوة ومكانة في البلاد ، ولم يرق هذا التربيون النابه لا زعيماً شعبياً مستبداً يريد أن يستحوذ لنفسه على أكبر قسط من السلطة بتوزيع أملاك الدولة وأموالها ذات اليمين وذات الشمال ؛ ولاح له فجأة حليف جديد هو صعاليك رومة الغيورون على حقهم القديم ، وانهز فرصة غياب كيوس ، وكان قد غادر رومة ليثبت قواعد مستعمرته الجديدة في قرطاجنة ، فأشار على تربيون آخر هو ماركس ليفيوس دروسس **Marcus Livius Drosus** أن يضم إليه الزراع الجدد بإصدار قانون يلغى به الضرائب المفروضة على أراضيهم بمقتضى قوانين جراكس ، وأن يسترض صعاليك المدن ويضعفهم في الوقت نفسه بأن يقترح إنشاء اثنتي عشرة مستعمرة جديدة في إيطاليا . تسع كل واحدة منها لثلاثة آلاف من رجال رومة . ووافقت الجمعية من فورها :

على هذين المشروعين ، ولما عاد كيوس وجد دروسس قد كسب قلوب الشعب ، ينازعه الزعامة عند كل خطوة يخطوها . ورشح كيوس نفسه لأن يختار تربيونا مرة ثالثة ولكنه هزم ، وقال أصدقاؤه إنه انتخب ولكن أصوات الناجين قد تناولها الغش والزوير ، غير أنه نصح أتباعه بالآلا يلجئوا إلى وسائل العنف واعتزل السياسة وفضل عليها الحياة الخاصة .

وأشار مجلس الشيوخ في العام الثاني أن تجلو رومة عن المستعمرة المنشأة في قرطاجنة ، وفسرت الأجزاء جميعها هذا الاقتراح - سرّاً أو جهراً - بأنه مقدمة لحرب يشنها المجلس على قوانين جراكس لإلغائها . وجاء بعض أنصار جراكس إلى الجمعية مسلحين ، وقتل أحدهم رجلاً من المحافظين همّ بالقبض على كيوس . فما كان من أعضاء مجلس الشيوخ إلا أن خرجوا في اليوم الثاني على استعداد تام للقتال ، ومع كل منهم عبدان مسلحان ، وهاجموا أنصار جراكس المتحصنين فوق تل الأثنتين . وبذل كيوس كل ما في وسعه لتسكين الفتنة ، ومنع اعتداء كلتا الطائفتين على الأخرى ؛ فلما عجز عن ذلك ولى هارباً وعبر نهر التبر ، ولما أن لحقه أعداؤه أمر خادمه أن يقتله ، وصدع الخادم بالأمر ثم قتل نفسه . وقطع أحد أصدقاء كيوس رأس صديقه ، وحشاها بالرصاص المصهور ، وحملها إلى مجلس الشيوخ ، وكان المجلس قد أعلن أنه يكافئ من يأتي بهذا الرأس بما يساوي وزنه ذهباً^(٩) . وقتل من أنصار كيوس في المعركة مائتان وخمسون ، وأعدم ثلاثة آلاف غيرهم تنفيذاً لقرار أصدره مجلس الشيوخ ؛ ولما أُلقيت جثته وجثث أتباعه في نهر التبر لم يحتج على هذا العمل غوغاء المدينة الذين كان يعمل لخبرهم ، ذلك أن هؤلاء الغوغاء كانوا وقتئذ في شغل عن هذا الاحتجاج بنهب بيته^(١٠) : وحرم مجلس الشيوخ على كرنليا أن تلبس ثياب الحداد حزناً على ولدها .

الفصل الرابع

ماريوس

واستخدم الأشراف الظافرون كل ما وهبوا من ذكاء لهدم العناصر الإنشائية من تشريعات كيوس لا العناصر التي أراد بها كسب محبة الشعب الروماني . فلم يجرعوا مثلاً على إخراج رجال الأعمال من منصب الخلفين في القضايا ، أو أن يحرموا المكاسب والمفاولين مراع صيدهم الوفيرة في آسية ، ورضوا بأن يظل توزيع الحبوب على الأهليين كما كان حتى لا يثور الشعب . ثم أفسدوا ذلك القرار الصالح قرار توزيع الأراضي على الفقراء بأن أضافوا إليه مادة تجزئ للملاك هذه الأراضي الجديدة أن يبيعوها ، فلم يمتض إلا قليل من الوقت حتى باع آلاف منهم ما يمتلكون إلى كبار ملاك الرقيق ، وأخذت الضياع الكبيرة تعود إلى سابق عهدها . ثم ألغيت لجنة الأراضي في عام ١١٨ ، ولم تحتج الجماهير في العاصمة على الإلغاء ، لأن الجماهير قد عقدت النية على أن الأكل من قمح الدولة في المدينة خير من فلاح الأرض أو الكدح في المستعمرات الناشئة . وتعاون الكسل والتخريف (ونقول التخريف لأن أرض قرطاجنة كانت في زعمهم أرضاً منحوسة ملعونة) على إبطال كل محاولة بذلت قبل أيام قيصر للتخفيف من حدة الفقر بالهجرة إلى خارج البلاد . وزاد ثراء الأثرياء ولكن عدد الأثرياء لم يزد على ما كان من قبل ، وقد قرر أحد الديمقراطيين المعتدلين في عام ١٠٤ أن عدد الملاك من المواطنين الرومان لا يزيد على ألفي مالك (١١) . وفي ذلك يقول أبيان Oppian : « إن الفقراء قد أصبحت حالهم أسوأ مما كانت من قبل وقد كانت من قبل سيئة » . . . فقد خسر العامة كل شيء . . . وظل عدد المواطنين والجنود يتناقص يتناقصاً مطرداً (١٢) . وكان لا بد من سد النقص في صفوف الجند بمجندين من الولايات

الإيطالية ، ولكن هؤلاء لم يكن لهم صبر على القتال ، ولم تكن قلوبهم عامرة بحب رومة ؛ وأخذ عدد الفارين من الجند يتضاعف على مدى الأيام ، واحتل النظام في الجيش وانحطت قدرة المدافعين عن الجمهورية إلى أدنى حل :

ولم تلبث أن هاجمها الأعداء ، وكاد هجومهم عليها أن يكون من الشمال ومن الجنوب وفي وقت واحد . ذلك أن قبيلتين من قبائل الكلت وهما قبيلتا السمبريين والتوتون انحدرت بهوعهما كالسبر الجارف فاخترقت للآيا عام ١١٣ في عربات مغطاة ، وكانت عليتهن ثلثائة ألف في المخابر ، ومعهم أزواجهن وأبنائهم ودوابهم ، وكأنهم أرادوا أن يشعروا رومة بما يهددها من أخطار في المستقبل القريب . ولعل هؤلاء الأقوام قد تراءى لهم من فوق جبال الألب أن رومة قد اقتننت بالثروة وكرهت الحرب . وكان القادمون الجدد طوال القامة ، أقوىاء البنية ، شجعاناً لا يجد الخوف ميلاً إلى قلوبهم ، وكانوا بيض البشرة شقر الشعر حتى قال عنهم الإيطاليون إن شعر أطفالهم أبيض كشعر الشيوخ . والتفوا بجيش روماني في نوربا Noreia وهي نورماكت Neurmarkt الحالية في كارنثيا) وأقنوه عن آخره ؛ ثم عبروا نهر الرين وهزموا جيشاً رومانياً آخر ، ثم تدفقوا غرباً إلى غالة الجنوبية وبددوا شمل جيش روماني ثالث ورابع وخامس . وأسفرت معركة أروسيو Arausio (أورنج) عن قتل ثمانين ألفاً من الجيوش الرومانية النظامية ، وأربعين ألفاً من المدليين الذين يعقبون معسكرات الجنود (١٢) . وتفتحت أبواب إيطاليا بعد هذه المعارك أمام الغزاة ، واستوى الرعب على رومة وكان رعباً لم تعرف له مثيلاً منذ أيام هنيبال .

وفي الوقت عينه تقريباً شتت نار الحرب في نوميديا . وذلك أن يوجورثا Jugurtha حفيد هاسنسا عذب أخاه تعدياً انتهى بموته وحاول أن يحرّم أبناء عمه حقهم في الملك ، فأعلن مجلس الشيوخ الحرب عليه في عام ١١١ لمعه يستطيع أن يجعل نوميديا ولاية رومانية ويفتح أبوابها للتجارة ولروؤوس

الأموال الرومانية ، واستطاع يوجورثا أن يبتاع بالمال بعض الأشراف لبدافعوا عن قضيته وعن جرائمه أمام مجلس الشيوخ ، وأن يرشوا القواد الذين أرسلوا لقتاله ، فعمدوا معه مسلحا مواتيا أو اكتفوا بمناوشات لا تلتحق به أذى . ولما استدعى إلى رومة كان أكثر سخاء منه قبل قدومه إليها ، واستطاع بذلك أن يعود إلى عاصمته دون أن تقام في سبيله العقوبات (١٤) .

ولم يخرج من هذه الحروب موفور الكرامة سليم الشرف إلا ضابط واحد هو جايوس ماريوس *Gaius Marius* . وقد ولد هذا القائد كما ولد شيشرون في *Arpinum* وكان والده عاملا يتقاضى أجراً يومياً قليلاً ، وقطوع في الجيش وهو صغير السن ، وأصيب بعدة جراح في نوميديا *Numantia* ، وتزوج من عمة لقيصر ، واختير تريونا رغم جهله وسوء أخلاقه أو بسبب جهله وسوء أخلاقه ، ولما عاد من الخدمة العسكرية في خريف عام ١٠٨ ، وكان وقتئذ ياوراً لكونتس متلس *Quintus Metellus* القائد الضعيف العاجز في إفريقية ، اعتلى منصة الخطابة وطلب أن يختار قنصلاً بديل متلس ، وقطع على نفسه عهداً إذا اختير لهذا المنصب أن يقود الجيوش الرومانية إلى النصر في الحرب البوجورثية . فأجابه الشعب إلى طلبه ، وتولى قيادة الجيش ، وأرغم يوجورثا على الاستسلام له في عام ١٠٦ ، ولم يعلم الشعب وقتئذ أن أكبر من عمل للنصر في هذه الحرب شاب جرىء من الأشراف هو لوسيوس صلا *Lucius Sulla* وإن كان قد عرف منه ذلك فيما بعده ، أما في ذلك الوقت فقد استمتع ماريوس بباعظم ما يستمتع به القائد المنتصر ، وبلغ من حب الشعب له أن تجاهلت الجمعية نصوص الدستور المحتضر ، وصارت تلتخبه قنصلاً عاماً بعد عام (من ١٠٤ - ١٠٠) . وناصره رجال الأعمال لأن انتصاراته قد فتحت آفاقاً جديدة لمشروعاتهم الاستغلالية من جهة ، ولأنهم رأوه الرجل الوحيد الذي كان في استطاعته أن يرد جحافل الكلت من جهة أخرى . وتبينت رومة من ذلك الوقت

في عم قبصر منافع القيصرية - ذلك أن الدكتاتورية الممثلة في قائد محبوب من الشعب ، ومن ورائه جيش مخلص له ، قد بدت للكثيرين من الرومان المنهوكى القوى البديل الوحيد من المساوى الأجرىة التي تلازم الحرية .

وكانت الجافل السمرية بعد انتصارها في أروسيو قد أجلت زحفها على رومة ، وعبرت جبال البرانس ، وعاشت في أسبانيا فساداً ، غير أنها عادت إلى غالة في عام ١٠١ ، وهى أكثر عدداً مما كانت قبل ، وانفقت مع الثيوتون على أن يهاجما السهول الغنية في شمال إيطاليا من طريقين مختلفين . ولجأ ماريوس في ضد هذا الخطر المحدق بالمدينة إلى طريقة جديدة من طرق التجنيد أحدثت انقلاباً خطيراً في الجيش أولاً وفي الدولة نفسها فيما بعد . ذلك أنه دعا إلى الخدمة العسكرية كل من شاء من المواطنين سواء كان له ملك أو لم يكن . وعرض أجوراً مغرية على المتطوعين ، ووعدهم أن يطلق سراحهم وأن يقطعهم أرضاً في نهاية الحرب . وكان معظم الجيش الذى جمع بهذه الطريقة مكوناً من فقراء المدن ، وكانت عواطفه معادية للجمهورية الأشراف ، وكان إذا حارب لا يحارب دفاعاً عن بلاده بل يحارب في سبيل قائده ومن أجل الغنائم . وبهذه الوسيلة وضع ماريوس الأساس العسكرى للثورة القيصرية ، ولعله فعل ذلك على غير علم منه . وكان ماريوس جندياً لا رجلاً سياسياً ، ومن ثم فإنه لم يكن يتسع وقته لتدبر العواقب السياسية البعيدة . فلما أن ألف الجيش بهذه الطريقة السالفة الذكر قاده فوق جبال الألب وقوى أجسام جنده بالسير الطويل والتدريب ، كما قوى قلوبهم بالهجوم على مواقع كان من السهل التغلب عليها ، وكان يرى أن من المجازفة أن يلتحم وإياهم في حرب حقيقية إلا بعد أن يتم تدريبهم على هذا النحو . ومر الثيوتون بمعسكره دون أن يلقوا مقاومة ما ، وكانوا يسألون الرومان ساخرين هل يريدون أن يبعثوا معهم برسائل إلى زوجاتهم اللاتي يوشك هؤلاء أن يستمتعوا بهن . وفي وسع للقارىء أن يتصور عدد هؤلاء الثيوتون إذا علم أنهم قضوا في مرورهم بمعسكر

الرومان ستة أيام كاملة . فلما أن تم مرورهم أمر ماريوس جنده بالانقضاء
على مؤخرتهم ؛ ودارت بين الجيشين معركة عند أوكوا سكستيا Sextia
Aqua (١٠٢) (وهى مدينة إكس Aix فى مقاطعة روفانس Provence)
وبلغ عدد القتلى والأسرى من جيوش النيوتون مائة ألف . وفى ذلك يقول
أفلوطينس : « ويقال إن أهل مرسيليا أقاموا حول كرومهم أسواراً من
عظام القتلى وإن الأرض بعد أن تحللت فيها أجسامهم وهطلت عليها أمطار
الشتاء أخصبها ما تسرب إليها من المواد المتعفنة ، حتى بلغ محصولها فى الموسم
الذى تلا ذلك الفصل درجة من الوفرة لم يكن لها مثيل من قبل (١٥) » .
وبعد أن أراح ماريوس جيشه عدة شهور رجع على رأسه إلى إيطاليا والتقى
بالسمرين فى فرسلا Vercellae بالقرب من هرالو (١٠١) فى المكان
الذى انتصر فيه هنيبال على الرومان فى أول معركة خاض عمارها معهم .
وأراد البرابرة أن يظهروا قوتهم وبأسهم ، فساروا عراة الأجسام وسط
الثلوج ، وتسلقوا الجبال المكسوة بالجليد ، وخاضوا منافسة العميقة إلى
قلل الجبال ، ثم انزلوا منها وهم يهللون ويضحكون فوق المنحدرات
الوعرة ، واستخدموا دروعهم مزالق فى أقدامهم (١٦) ، فلما دارت المعركة
بعدئذ بينهم وبين الرومان لم يكذبى منهم أحد على قيد الحياة .

واستقبل ماريوس فى العاصمة المبتهجة كأنه « كميلوس ثان » صد عنها غارة
كلتية ، « ورميولوس » آخر أنشأ رومة من جديد « ووهبته جزءاً من الغنيمة التى
جاء بها مكافأة له على عمله ؛ فأصبح بذلك من أثرياء المدينة يمتلك من الضياع
ما « يكفى لأن يكون وحده مملكة » . وفى عام ١٠٠ ق . م اختير قنصلاً للمرة
السادسة . وكان زميله فى القنصلية لوسيوس ستورنيس Lucius Saturninus
وكان رجلاً متطرفاً حاد الطبع عقد النية على أن يبلغ الهدف الذى كان يسعى له
إبناً جراً كس بالشرع إن استطاع وبالقوة إن لم يستطع . وكسب ود ماريوس بأن
مرض على الجمعية قانوناً يقضى بتوزيع بعض أراضي المستعمرات على الجنود

المضرمين الذين اشتروا في المعارك الحديثة ؛ ولما أنهض ثمن القمح الذي توزعه الدولة على العامة من ستة آسات وثلاث آس (أى ما يعادل ٣٩ من الريال الأمريكى) إلى خمسة أسداس آس (أى نحو ٥٠ من الريال الأمريكى) لكل مودىوس لم يعارض ماريوس في هذا الإجراء . وأراد مجلس الشيوخ أن يحمى خزانة الدولة ، ويحمى نفسه بتحريض أحد التربيونين على أن يمنع الاقتراع على هذين المشروعين . ولكن ستورنيس لم يعبأ بهذا الاعتراض وتقدم بهما إلى الجمعية : واحتدم النزاع بين الطرفين ، ولجأ كلاهما إلى العنف . ولما أن قتل أنصار ستورنيس كىوس ميمىوس Caius Memmius ، وكان من أكبر الأشراف مقاماً ، لجأ مجلس الشيوخ إلى آخر سهم في كثنائته واسمعه خدم حقه في حماية الشعب *senatus consultum de re publica defendenda* وأمر ماريوس بوصف كونه قنصلاً أن يحمى الفتنة . وكان على ماريوس أن يختار بين أمرين ليس فيهما حفظ لختار ، وكان هذا الاختيار أسوأ ما مر عليه طول حياته . فقد كان شديداً على نفسه أن يختم جهاده الطويل للخدمة العامة من أهل رومة هذه الحاجة العسة فيهاجم زعماءهم وأصدقائه السابقين ، على أنه هو أيضاً كان لا يرضى عن استخدام العنف ويعتقد أن الثورة تلتج من الشرور أكثر مما تستطيع علاجه . وأخيراً سار على رأس قوة لمهاجمة الثوار وسمح بأن يقتل ستورنيس وجماً بالحجارة ، ثم طلق السياسة وهاش في عزلة عيشة نكدية يالسة ، يحتمره العامة الذين دافع عنهم وأخذ بناصرهم ، والأشراف الذين أنجاهم من البلاء .

الفصل الخامس

ثورة إيطاليا

كانت الثورة في ذلك الوقت تتطور إلى حرب أهلية داخلية ، ولما استعان مجلس الشيوخ أحلاف رومة من ملوك الشرق لصدد غارات السامريين رد عليه قومبيدس ملك بثينيا بقوله إن جميع الرجال القادرين على حمل السلاح في مملكته قد بيعوا في سوق الرقيق للوفاء بمطالب جباة الضرائب الرومانيين الفادحة . ورأى مجلس الشيوخ أن الجيش في ذلك الوقت أفضل من الرقيق فأصدر قراراً يقضى بتحرير كل من أصبحوا أرقاء لعجزهم عن أداء للضرائب ، فلما سمع الأرقاء بهذا القرار اجتمع مئات منهم في صقلية ، وكان كثيرون منهم من يونان بلاد الشرق الهلنستية ، وتركوا سادتهم واحتشدوا عند باب قصر البريتور وطالبوا بحريتهم ، فعارض أسيادهم في ذلك الطلب واحتجوا عليه ، واستمع البريتور إليهم وأجل تنفيذ قرار التحرير ، ونظم الأرقاء أنفسهم بقيادة دعى دينى يسمى سلفيوس Salvius وهاجوا مدينة مورجنتيا Morgantia . واستطاع مواطنو المدينة أن يضمّنوا وفاء معظم عبيدهم حين وعدوهم بأن يحرروهم إذا صدوا هجمات المغيرين ، فلما صدوها أخلف سادتهم وعدهم ولم يحرروهم ، فانضم معظمهم إلى الثائرين . وثار حوالى ذلك الوقت نفسه (١٠٣) نحو ستة آلاف من الأرقاء في طرف الجزيرة الغربى بقيادة أثليون Athenion ، وهورجل متعلم ذو عزيمة ماضية ، وهزمت هذه القوة تباعاً عدداً من الجيوش التى سيرها البريتور لإنحاد ثورتها ، ثم تحركت نحو الشرق وانضمت إلى الثوار الذين كانوا تحت قيادة سلفيوس . وتغلّبت جموعهم على جيش بعثت به رومة من إيطاليا نفسها ، ولكن سلفيوس مات في ساعة النصر ، ثم عبرت جيوش رومانية أخرى مضيق صقلية

بقيادة القنصل مانيوس أكويليوس (١٠١) ؛ فبارز أثليون هذا القنصل وقتله في المباراة وأصبح الأرقاء بلا قائد ، فهزموا وقتل آلاف منهم في الميدان ، وأعيد آلاف آخرون إلى سادتهم ، ونقل مئاة منهم على ظهور السفن إلى رومة ليقاتلوا الوحوش في الألعاب التي أقيمت احتفالاً بانتصار أكويليوس ، ولكن الأرقاء لم يقاتلوا الوحوش بل أعمد كل منهم خنجره في قلب زميله وماتوا عن آخرهم .

وبعد بضع سنين من هذه الحرب - حرب الأرقاء الثانية - امتشقت إيطاليا كلها الحسام . وسبب ذلك أن رومة - وهي أمة صغيرة بين كومي وكيري Caere ، وبين جبال الأبين والبحر - قد ظلت نحو قرنين من الزمان تحكم سائر إيطاليا كما تحكم الشعوب المغلوبة ؛ وبلغ من أمرها أن مدناً غربية منها مثل تيبور Tibur وبرانستي Praeneste لم يكن لها من يمثلها في الحكومة التي تصرف أمورها ، بل كان مجلس الشيوخ والجمعيات والقناصل يصدرون المراسيم والقوانين إلى الهيئات الإيطالية كأنها ولايات أجنبية مغلوبة على أمرها ؛ وكانت موارد هؤلاء « الأحلاف » من مال ورجال تستنزف في الحروب التي لم يكن لها هدف إلا ملء خزائن عدد قليل من الأسرى رومة ، ولم تنل الولايات التي ظلت موالية لها في صراعها المبرر مع هنيبال على هذا الولاء جزاء يستحق الذكر ، أما التي قدمت إلى هنيبال في هذا الصراع شيئاً من المعونة أيا كان نوعها فقد كان عقابها أن أخضعت إلى رومة خضوعاً أذلها إذلالاً جعل كثيراً من أهلها ينضمون إلى الأرقاء في ثورتهم عليها . وكان عدد قليل من أثرياء المدن قد منحوا حق مواطني رومة ، وكانت رومة نفسها تستخدم سلطانها في كل مكان لمساعدة الأغنياء على الفقراء ؛ وفي عام ١٢٦ حرمت الجمعية على سكان المدن الإيطالية أن يهاجروا إلى رومة ، وفي عام ٩٥ أخرجت هذه العاصمة الغنية كل من لم يكن من أهلها مواطناً رومانياً بل كان مواطناً إيطالياً فحسب

وحاول أحد الأشراف أن يصلح هذه الحال فكان جزاؤه على منه

المحاولة الإعدام . كان م . لشيوس دروسس M. Livius Drusus ابن
لتربيون الذى كان ينافس تيبيوس جراكس ، ولما كان متهناه قد
أصبح والد زوجة أغسطس ، فإن الأسرة ربطت مصيرها بمبادئ الثورة ،
وجرياً وراء هدفها هذا عرض لفيوس دروسس ، بعد أن اختير تربيوناً
في عام ٩١ ، ثلاثة إجراءات وهى (١) أن يوزع مقدار آخر من أراضى
الدولة على الفقراء (٢) أن ترد إلى مجلس الشيوخ حقوقه القضائية التى
كانت مقصورة عليه ، مشروطاً أن يضم إليه في الوقت نفسه ثلثائة من
رجال الأعمال (٣) أن يمنح جميع الأحرار في إيطاليا حقوق المواطنين
للرومانيين وأجازت الجمعية الاقتراح الأول وهى مفتعلة ، وأجازت
الثاني دون أن تبدى اغتباطاً أو استياء ، ولكن مجلس الشيوخ رفض
الاقتراحين كليهما وأعلن أنه لا يرتبط بشيء منهما ، أما الاقتراح الثالث
فلم يعرض للاقتراح لأن مغتالاً مجهولاً طعن دروسس طعنة قاتلة في منزله .

وبعثت هذه الاقتراحات الأمل في نفوس الولايات الإيطالية وأيقنت
مما حل بها أن مجلس الشيوخ والجمعية لن يقبلا بطريقة سلمية أن يشترك
غيرهما معهما فيما يعود عليهما من المزايا بفضل هذه الاقتراحات . فأخذت
هذه الولايات تستعد للثورة . وتألفت منها جمهورية اتحادية ، عاصمتها
كنفرنوم *Confirnum* ، وعهدت بالحكم إلى مجلس الشيوخ مؤلف من
خمسائة عضو يختارون من جميع القبائل الإيطالية عدا التسكان والأمبريان
الذين رفضوا الانضمام إلى هذا الاتحاد . فلم يسع رومة إلا أن تعلن الحرب
من فورها على المنشقين . واشتركت أحزاب العاصمة كلها في الحرب
التى كانت في رأيهم دفاعاً عن وحدة إيطاليا ، وملأ الخوف قلوب الرومانيين
على بكرة أبيهم من انتقام الدول المتمردة إذا انتصرت في هذه الحرب
الاجتماعية (*) القائمة بين الإخوة بعضهم وبعض . وخرج ماريوس من عزلته ،

(*) هذه هى الترجمة الخاطئة للمبارة اللاتينية *Bellum Sociale* - أى حرب الأحلاف
(*social*) ضد رومة . وهى ترجمة أكسبتها الأيام حرمة لا تستحقها .

وتولى القيادة ، وانتصر في معركة بعد معركة مع أن جميع القواد الرومانيين—
ما عدا صلا — قد منوا بالهزيمة ، وقتل في ثلاث سنين حوالى ثلثائة
ألف نفس ، وخربت إيطاليا الوسطى أشد تخريب . ولما أوشكت إتروريا
وأمبريا أن تنضما إلى الثوار استرضتهما رومة بأن منحت أهلها جميع حقوق
المواطنين الرومانيين ، وفي عام ٩٠ منحت حقوق الرومان السياسية لجميع
الأحرار والمحريين الإيطاليين الذين يقسمون يمين الولاء لرومة . وكان من
أثر هذه الامتيازات القليلة أن ضعفت قوة الأخلاف المناوئين لرومة ،
فألقت المدن واحدة بعد الأخرى سلاحها ، ولم يحل عام ٨٩ حتى كانت
هذه الحرب الوحشية الضروس قد وضعت أوزارها ، واختتمت بسلام
نكد لا خير فيه للطرفين ، ذلك أن الرومان قد قضوا على ما منحوه للولايات
الإيطالية من حقوق سياسية ، بأن جمعوا المواطنين الجدد في عشر قبائل
جديدة لا تقترح إلا بعد أن تفرع الخمس والثلاثون قبيلة التي كانت موجودة
قبل من الاقتراع ، وبذلك لم يكن لاقتراعها هذا قيمة في معظم الأحيان ،
يضاف إلى هذا أنه لم يكن في وسع المواطنين الجدد أن يحضروا الجمعيات
في رومة إلا قلة ضئيلة منهم . لذلك صبرت الجماعات التي غرر بها والتي
أضلتها الحرب وخربت بلادها على مضض ، فلما أن مضت على ذلك
الوقت أربعون سنة فتحت أبوابها لقيصر يعرض عليها حقوق المواطنين في
جمهورية لا وجود لها .

الفصل السادس

صلا السعيد

ولم يلبث النزاع بين الرومانيين والإيطاليين أن قام من جديد بعد بضعة سنين قلائل ساد فيها للسلام ، وكل ما في الأمر أن تبدل اسم هذا النزاع من نزاع « اجتماعي » إلى نزاع « أهلي » وأن تبدل ميدانه من المدن الإيطالية إلى رومة نفسها . وتفصيل ذلك أن لوسيوس كرنيليوس صلا اختير ليتولى في عام ٨٨ ق . م منصب القنصلية . وتولى قيادة الجيش الذي كان يعبأ لقتال مثراداتس Mithridates حاكم پنتس Pontus ، ولكن التريون سليبيسيوس روفس Sulpicius Rufus لم يكن يرضى أن يتولى رجل محافظ مثل صلا قيادة هذه القوة العظيمة ، وأقنع الجمعية بأن يتولى القيادة ماريوس ، وكان وقتئذ رجلاً بديناً في التاسعة والستين من عمره ، ولكنه مع ذلك لم تفارقه مطامعه العسكرية . وأبى ماريوس أن تفلت من عمره ، ولكنه مع ذلك لم تفارقه مطامعه العسكرية . وأبى ماريوس أن تفلت من يده فرصة القيادة التي طال انتظارها ، وأن تفلت منه لما لاح له أنه نزوة من نزوات جمعية خاذمة لتأثير زعيم شعبي مهرج ، وللرشا التي لم يكن يشك في أنها قد تلقتها من التجار الذين يحبون ماريوس . فلم يكن منه إلا أن فر إلى نولا Nola وكسب ولاء الجيش وزحف به على رومة .

وكان صلا رجلاً فذاً في منشئه ، وأخلاقه ، ومصيره . فقد ولد فقيراً ولكنه أصبح المدافع عن الأشراف ، كما أصبح ابناً جراكس ودروسس Drusus وقيصرو وعم من الأشراف زعماء الطبقات الفقيرة وتأثر لنفسه من الحياة إذ جعلته شريفاً ومعدماً ؛ وذلك بأنه حين أصبح رب المال استخدمه في قضاء شهواته ، فأطلق لها العنان ، ولم يتقيد فيها بعرف ، ولم يؤنبه على إسرافه فيها ضمير . وكان دميم الخلق — له عينان زرقاوان برأقتان في وجه أبيض

تلتطخه بقع شديدة الحمرة — كأنه توت منشور عليه دقيق (١٧) ، لكن هذه الملامح كانت تخفى وراءها تعليماً راقياً ، فقد كان يتقن الآداب اليونانية والرومانية ، وكان مولعاً بجمع روائع الفن دقيقاً في اختيارها (مستعيناً على ذلك في العادة بالوسائل العسكرية) . وأمر أن تحمل له من أثينة مؤلفات أرسطو طاليس ، واختص بها نفسه لتكون جزءاً من أئمن غنائه ، ووجد خلال أيام الحرب والثورة من الوقت ما استطاع فيه أن يكتب مذكراته ليضلل بها الناس من بعده . وكان رقيقاً مرحاً لطيفاً ، وصديقاً كريماً ، يدمن الخمر ، ويشتهي النساء ، ويولع بالحرب ، ويطرب للغناء ؛ ويقول عنه سلسـت Sallust إنه « كان يعيش عيشة البذخ ، ولكن ملذاته لم تحل قط بينه وبين أداء واجباته ، إذا استثنينا من ذلك التعميم أنه كان في وسعه أن يجعل سلوكه مع زوجته أشرف مما كان (١٨) » . وسلك الرجل طريقه إلى الحمد سلوكاً شريعاً ، وخاصة في الجيش وسيلته الموفقة إلى أغراضه . وكان يعامل جنوده معاملة الزميل لزميله ، يشترك معهم في أعمالهم وفي سيرهم ، ويتعرض لما يتعرضون له من الأخطار ؛ « وكان همه الوحيد ألا يسمع لإنسان ما أنه يفوقه في حكمته وشجاعته (١٩) » . ولم يكن يؤمن بآلهة الرومان ، ولكنه يؤمن بالخرافات . وفيما عدا هذا كان الرجل من أكثر الرومان واقعية كما كان أشدهم قسوة ، خياله ومشاعره خاضعة لسلطان عقله . وبما قيل عنه أنه كان نصف أسد ونصف ثعلب ، وأن الثعالب فيه كان أشد خطراً من الأسد (٢٠) . قضى نصف أيامه في ميادين القتال ، وقضى العشر السنين الأخيرة منها في الحروب الأهلية ، ولكنه رغم هذا ظل محتفظاً بفكاهته ومرحه إلى آخر أيام حياته ، يوشى قسوته ووحشيته بكتابة المقطوعات الشعرية الفكاهية ، ويملاً رومة ضحكا ، خلق لنفسه مائة ألف عدو ومات في فراشه .

وكان يلوح أن هذا الرجل الذى يتألف من مزيج كيميائى من الفضائل والذائل هو الذى تحتاجه البلاد لقمع الثورة فى الداخل والقضاء على مثر داتس فى الخارج ؛ وكان من السهل على رجاله المدربين البالغ عددهم ٣٥٠٠٠ أن

يبدوا غملاً الأشقات غير المتجانسين الذين جمعهم ماريوس ارتجالاً في رومة .
فلما أيقن ماريوس بخرج موقفه قرأ إلى أفريقية ، وقتل ملبسيوس إذ غدر به
بجاذبه . وأمر صلاً أن يدق رأس الثرييون في منبر الخطابة الذي كان منذ
قليل تتجاوب فيه أصداء خطبه البليغة ؛ وحرر العبد مكافأة له على خدمته ،
ثم أمر بقتله جزاء له على غدره . وبينما كان جنوده يسيطرون على السوق
العامة أصدر قراراً بالآلا يعرض أى أمر على الجمعية إلا بإذن مجلس الشيوخ ،
وأن يكون نظام الاقتراحات هو النظام المقرر في « دستور سرفيوس » ،
وهو الذى يجعل الأولوية والميزة للطبقات العليا ؛ ثم عمل على أن يكون هو
القنصل الأول وسمح بأن يختار نيوس أوكتافىوس Cnaeus Octavius
وكرنبىوس سننا Cornelius Cinna قنصلين (٨٧) ، ثم سار للقاء
مترداتس العظم .

ولكنه لم يكذ يغادر إيطاليا حتى قام النزاع من جديد بين طبقة العامة
وطبقتى الأشراف والفرسان الممتازين ، ونشب القتال في السوق العامة بين
انتصار أكتافىوس المحافظين وأتباع سننا المتطرفين ، وقتل من الفريقين في
يوم واحد عشر آلاف رجل ، وانتصر أكتافىوس في آخر الأمر وفر سننا
لينظم الثورة في المدن المجاورة ، ثم أبحر إلى إيطاليا بعد أن قضى الشتاء
مختفياً ، وأعلن تحرير الرقيق ، وسار على رأس قوة مؤلفة من ستة آلاف
رجل لقتال أكتافىوس في رومة . وانتصر الثوار وذبحوا آلافاً مؤلفة
من أعدائهم ، وزينوا منابر الخطابة برؤوس الشيوخ المقتولين ، وساروا
في الشوارع صفوفاً صفوفاً ورؤوس الأشراف فوق رماحهم ، وأضحت
هذه سنة جرى عليها الثوار فيما بعد . واستقبل أكتافىوس الموت في هدوء
واطمننان وهو جالس على كرسي الثرييون مرتدياً ملابسه الرسمية . ودامت
المنذحة خمسة أيام لبليائها ، كما دام الإرهاب عاماً كاملاً ، واستدعت محكمة
الثورة الأشراف للمثول أمامها ، وقضت بإدانتهم إذا كانوا قد قاوموا ماريوس
وصادرت أملاكهم . وكانت لبيعة ماريوس تكفى لأن تطيح برأس أى إنسان

مهما كانت منزلته ، وكان يقتل في أغلب الأحيان لساعته قبل أن يرحل مكانه . وقتل بهذه الطريقة أصدقاء صلا جميعهم ؛ وصودرت أملاكه ، وعزل لمن قيادة الجيش ، وأعلن أنه عبدو الشعب . ولم يسمح بدفن الموتي بل تركت جثثهم في الشوارع تلتهم الكلاب والطيور البخارحة . وانطلق الأرقاء المحررون في البلدة ينيبون ، ويفسقون ، ويقتلون الناس بلا تمييز بينهم ، وظلوا على هذه الحال حتى جمع سنا أربعة آلاف منهم ، وأحاطهم بمجنود من الغاليين وأمر بقتلهم عن آخرهم (٢١) .

ثم اختير سنا قنصلاً مرة ثانية ، كما اختير ماريوس للمرة السادسة ، ولكن ماريوس توفي في الشهر الأول بعد توليه منصبه وهو في الواحدة والسبعين من عمره . منهوك القوى من فرط ما لاقى من الشدائد وضروب العنف . وانتخب فلوريوس فلاكوس Valerius Flaccus قنصلاً بدلاً منه ، وأصدر مرسوماً بإلغاء ثلاثة أرباع الديون جميعها ، ثم زحف شرقاً على رأس جيش مؤلف من اثني عشر ألفاً تلحق صلا من القيادة ، وبقي سنا في رومة يتولى فيها الحكم بمفرده ، فاستبدل بالجمهورية دكتاتورية ، وعين جميع موظفي المناصب الكبرى ، وعمل على أن ينتخب قنصلاً أربع سنين متتالية .

ولما غادر فلاكوس إيطاليا كان صلا يحاصر أثينة لأن هذه المدينة انضمت إلى مثردياتس في ثورته على رومة . ولما حبس عنه مجلس الشيوخ المال اللازم لمرتبات جنوده عمد إلى إهياكل والكنوز في أولمبيا وإيدورس ودلفي فنهبا ليمون بها جنده ويفتق منها على حروبه . وفي شهر مارس من عام ٨٦ اقتحم الجند أحد الأبواب في أسوار أثينة ، وتدفعوا منه إلى داخل المدينة ، وانتقموا لما عانوه من طول الحصار ومشاقه بأن عاثوا في المدينة فساداً ، يقتلون وينهبون . ويقول أفلو طرخس « إن عدد القتلى كان يخطئه الحصر . . . وقد جرت الدماء أنهاراً في شوارع المدينة ، وخرجت منها إلى الضواحي النائية (٢٢) » . وأخيراً أمر صلا

بوقف المذبحة ، وقال إنه « يصفح عن الأحياء إكراماً للموتى » . ثم قاد جنوده نحو الشمال بعد أن استراحوا من متاعب القتال ، وهزم قوة كبيرة عند قبرونية *Chaeronea* ، وأركومينس *Orchomenus* ، وطارد فلولها إلى آسية مجتازاً مضيق الهلسينث (الدردنيل) ، وأخذ يعد العدة للقاء القسم الأكبر من جيش ملك پلت (*) ، ولكن فلاكوس كان قد وصل في هذه الأثناء إلى آسية على رأس جيشه ، وأبلغ صلاماً مرة أخرى أن عليه أن يتخلى عن القيادة ، ولكنه استطاع أن يقنع فلاكوس بأن يتركه حتى يتم حملته ، وكانت نتيجة هذا أن قتل فلاكوس بيد ياوره فبريا *Fimbria* ، ثم نصب هذا الضابط نفسه قائداً للجيش الرومانية كلها ، وتقدم شمالاً للملاقاة صلاماً . فما كان من صلاماً أمام هذا الخرق إلا أن عقد مع مثردياتس صلحاً (٨٥) ينزل هذا الملك بمقتضاه عن كل ما ظفر به من الفتوح في تلك الحرب ، ويسلم إلى رومة ستين سفينة حربية ، ويؤدى لها غرامة مقدارها ألفي تالنت . ثم اتجه صلاماً بعدئذ نحو الجنوب والتقى بفمبريا في ليديا ، فانضمت جنود فبريا إلى صلاماً ، وانتحر قائدها وأصبح صلاماً سيد بلاد الشرق اليونانية ، ففرض عليها غرامة حربية مقدارها عشرون ألف تالنت ، وشرع يجبي الضرائب من مدائن أيونيا الثائرة . ثم سارع مع جيشه بطريق البحر إلى بلاد اليونان ، وزحف على پترى *Patrae* ووصل إلى برانديزيوم في عام ٨٣ . وحاول سناً أن يقف زحفه ولكن جنوده قتلوه .

وحمل صلاماً إلى خزائن رومة خمسة عشر ألف رطل من الذهب ، ومائة وخمسة عشر رطلاً من الفضة ، مضافة إلى ما حمله من النقود ومن روائع الفن التي خص بها نفسه . ولكن الزعماء للدمقراطيين ، وكانوا لا يزالون أصحاب الأمر والنهي في رومة ، ظلوا يتهمون بأنه عدو الشعب ، ووصفوا المعاهدة التي عقدها مع مثردياتس بأنها مذلة قومية ، واضطر صلاماً على الرغم منه أن يزحف بجنوده

(*) يقصد ملك الهلاد الواقعة على شاطئ البحر الأسود . (المترجم)

الأربعين ألفاً على رومة ، وواصل هذا الزحف حتى بلغ أبوابها ، وخرج كثيرون من الأشراف لينضموا إليه ، وجاء إليه أحدهم وهو نبوس بمبي بفيلق يتألف كله من موالى أبيه وأصدقائه ، وسار ابن ماريوس على رأس جيش للملاقاة صلا ، فهزم وفر إلى برانست ، بعد أن أرسل إلى البريتور الشعبي بأمره بأن يقتل كل من لا يزال في العاصمة من زعماء الأشراف ، وصعد الرجل بالأمر فجمع لسن الشيوخ وقتل جميع هؤلاء الزعماء وهم جلوس في مقاعدهم أو في أثناء فرارهم . ثم جلت القوات الديمقراطية هن رومة ودخلها صلا دون أن يلقى مقاومة ، ولكن جبشاً مع السمينين قوامه مائة ألف مقاتل زحف من الجنوب وانضم إلى فلول القوات الديمقراطية ليأثر للولايات الإيطالية ويضلل عار الهزيمة التي منيت بها في « الحرب الاجتماعية » : وخرج صلا للملاقاتهم وانتصر عليهم عند باب كلين Colline بجيشه البالغ خمسين ألفاً في معركة تعد من أشد معارك التاريخ القديم هولاً ، جرت فيها الدماء أنهاراً : وبعد أن تم له النصر أمر بقتل ثمانية آلاف من الأسرى ربما بالسهام بحجة أنهم وهم أحياء يسببون له من المتاعب أكثر مما يسببون له منها وهم أموات : ورفعت رؤوس من أسر من الزعماء على أسنة الرماح أمام أسوار برانست ، حيث كان آخر جيوش الديمقراطيين محصوراً ، ثم سقطت برانست ، وانتحر ماريوس الصغير ، وعرض رأسه مسمراً في السوق العامة — وهو عمل كانت السوابق الكثيرة قد جعلته في نظر الناس أمراً مألوفاً مشروعاً .

ولم يجد صلا بعدئذ صعوبة في إقناع مجلس الشيوخ بأن ينصبه دكتاتوراً ، فلما تم له ذلك أصدر من فوره حكماً بإعدام أربعين من الشيوخ ، وألفين وستمائة من رجال الأعمال ، وكان هؤلاء الرجال ممن أعانوا ماريوس عليه وابتاعوا أملاك الشيوخ الذين قتلوا في أثناء حكم المتطرفين ، وعرض صلا مكافآت لمن يبلغونه عن أسماء هؤلاء الرجال ، كما عرض مكافآت قدرها اثنا عشر ألف دينار (٧٢٤٠ ريال أمريكي) على من يأتونه بالحكم عليهم أمواتاً كانوا أو أحياء ، وزينت السوق

العامة برووس القتل وبقواثم بأسماء المحكوم عليهم تتجدد من آن إلى آن ، ولم يكن يسع المواطنين إلا الاطلاع عليها بعد الفينة والفينة ليعرفوا مصيرهم أهوال الموت أم الحياة . وانتشرت أهوال المذابح والنفي ومصادرة الأملاك من رومة إلى الولايات ، وكان ضحاياها هم الثوار الإيطاليين وأتباع ماريوس أينما وجدوا ، وكان عدد من قتلوا في هذا الإرهاب الأرستقراطي حوالى أربعة آلاف وسبعمائة نفس . ويصف أفلوطرخس هذا الإرهاب بقوله : « وكان الأزواج يذبجون بين أحضان زوجاتهم ، والأبناء في حجور أمهاتهم » . وقد حكم على كثيرين ممن وقفوا على الحياد أو كانوا من المحافظين ، فبعضهم من قتل ومنهم من نفي ، وقيل إن صلا قد فعل بهم ذلك لحاجته إلى أموالهم ، ينفقها على جنوده أو في ملذاته . أويكاه بها أصدقاءه . وكانت الأملاك المصادرة تباع لمن يعرض فيها أغلى الثمن ، أو للمقربين ذوى الخطوة عند صلا ، وأضحت هذه الأملاك أساساً لثراء كثيرين من الناس أمثال كراسس Crassus وكاتلين Catiline . واستخدم صلا حقوقه الدكتاتورية في إصدار طائفة من المراسيم - تعرف بالقوانين الكرنيلية نسبة إلى العشيرة التي ينتمى إليها - كان يرجو أن ينشئ بها دستوراً أرستقراطياً يظل دستور رومة طوال حياتها . وأراد أن يسد ما طرأ على عدد مواطني رومة من النقص بسبب الموت ، فأعطى حق المواطنين لكثير من الأسبان وللكت وللبعض الأرقاء السابقين ، فأضعف من سلطان الجمعيات بمحشد هؤلاء الأعضاء الجدد فيها وهم المديونون له بعضويتها ، وبتمجده القانون القديم القاضي بالاعراض قانون على الجمعية لإجماعه مجلس الشيوخ . ثم عمل على وقف نزوح الإيطاليين إلى رومة فوقف توزيع الغلال من قبل الدولة على الأهلى ثم قلل ازدحام السكان في المدينة بتوزيع الأراضي الزراعية على اثني عشر ألفاً من جنوده الأقدمين ، وأراد أن يمنع القنصل الذى يختار لمنصبه جملة مرات متتالية أن يكون دكتاتوراً فعلياً ، فأصر على تنفيذ السنة القديمة التي كانت تحرم على أى موظف أن يشغل منصبه مرة

قائمة إلا بعد مضي عشر سنوات على خروجه منه في المرة السابقة : وأنقص مكانة التربيون بتقييد حقه في الرقص وحرمان التربيون السابق من حق التعيين في أى منصب من المناصب الكبرى ، واسترد من رجال الأعمال حقهم الذى كان مقصوراً عليهم في أن يكونوا محلفين في المحاكم العليا ، ورد هذا الحق إلى مجلس الشيوخ ، واستبدل بنظام الالتزام في الضرائب نظام جبايتها من الولايات نفسها وإرسالها إلى خزينة الدولة مباشرة . ثم أعاد تنظيم المحاكم ، وزاد في عددها ضماناً لسرعة البت في القضايا ، وحدد اختصاصها ومدى سلطتها تحديداً دقيقاً ، ورد إلى مجلس الشيوخ كل ما كان له قبل ثورة ابنى جراكس من مزايا تشريعية وقضائية وتنفيذية واجتماعية ، وحق أعضائه في لبس زى خاص . وقد فعل هذا ليقينه أن الحكم المملوكى أو الأرستقراطى هما اللذان يصلحان دون غيرهما من النظم لحكم الإمبراطوريات حكماً حازماً حكماً ، ثم عمل على زيادة عدد أعضاء مجلس الشيوخ إلى الحد المقرر ، فأجاز للجمعية القبلية أن ترقى إلى عضويته ثلثائة من طبقة « الفرسان » ، وأراد أن يبرهن على ثقته بعدالة هذا الإجراء الشامل واطمئنانه له فسمح جيوشه وقرر ألا يسمح ببقاء جيوش في إيطاليا كلها . وبعد أن ظل حاكماً بأمره عامين تخلى عن سلطته بأجمعها ، وأعاد الحكم القنصلى ، واعتزل الحياة الدامة (عام ٨٠ ق . م) .

وكان في حياته الجديدة آمناً على نفسه ، لأنه قد قتل قبل كل من يستطيعون الاثمار به . ولذلك سرح حرسه وقواصيه ، وكان يسير في السوق العامة لا يخشى أذى ، وعرض أن يفسر أعماله الوطنية لكل مواطن يطلب إليه أن يفسرها . ثم ذهب ليقضى أيامه الأخيرة في قصره الصغير في كومي ، بعد أن ملل الحرب والسلطان والمجد ، ولعله قد مل أيضاً صحبة الناس ، فأحاط نفسه بالمغنيين والمغنيات والراقصين والراقصات ، والممثلين والممثلات ، وأخذ يكتب شروحه Commentarii ويتلى بصيد الحيوان والسمك ، والانهماك في الطعام والشراب : وأطاع عليه الناس

من ذلك الوقت اسم « صلا السعيد » لأنه انتصر في كل معركة ، واستمتع بكل لذة ، واستحوذ على كل سلطة ، وعاش عيشة لا يساوره فيها خوف ولا ندم ، وتزوج خمس نساء طلق منهن أربعاً واستكمل متعته بالمحاضى ، ولما بلغ الثامنة والخمسين من عمره أصيب بخراج في القولون بلغ من شدته « أن اللحم الذن استحال قلا ، بلغ من الكثرة حداً كان لا بد معه من استخدام كثير من الرجال والنساء لقتله ، ولكن القمل أخذ يزداد ويتضاعف حتى لم تتلوث به ثيابه ، وحماماته . وآنيته فحسب ، بل تلوث به أيضاً طعامه نفسه ، (٢٣) على حد قول أفلوطرخس : ومات صلا على أثر نزيف في الأمعاء ، ولم يكده يقضى في عزلته عاماً واحداً (٧٨ ق : م) ولم يفته أن يملأ قبره قبل وفاته : « لم يخدمنى قط صديق ، ولم يسئ إلى أبداً علماً ، إلا جزيت الأول على خدمته والثاني على إساءته الجزاء الأولي » .

الباب السابع

الحركة الرجعية الأجرية

٧٧ - ٦٠ ق . م

الفضل الأقل

الحكومة

عل أن صلا قد أخطأ مرتين بإسرافه في الكرم . وكان خطؤه الأول أنه أبقى حياة رجل كان ابن عدو له وابن أخى عدو آخر . ذلك هو كيوس بوليوس قيصر المرح التابه الذى كان يوشك أن يبدأ العقد الثالث من عمره في مبنى الإرهاب . وكان صلا قد طلب إعدامه فيمن طلب إعدامهم ، ولكنه عفا عنه استجابة لشفاعة أصدقائه وأصدقاء الشاب . على أنه لم يكن مخطئاً في حكمه حين قال : « إن هذا الشاب هو ماريوس مكرراً » . ولعله أخطأ كذلك إذ جعل باعتزال الحياة السياسية وأسرف في الملاذ فقرب إسرافه أجله . ولو أنه أوتى من الصبر وبعد النظر بقدر ما أوتى من القسوة والشجاعة لأنجى رومة من الفوضى التي ضربت أطنابها فيها خمسين عاماً ، ولأمكنها أن تستمتع في عام ٨٠ ق . م بالأمن والسلام والنظام والرخاء التي أعادها إليها أغسطس قيصر حين عاد إليها من أكتيوم ، ولأكان ما عمله أغسطس خلقاً وإبداعاً لا إرجاعاً للقديم .

ولم تكن تمضى على وفاته عشر سنين حتى ذهبت كل أعماله . ذلك أن الأشراف قد غرهم ما أوتوا من نصر في صراعهم المرير ، فأهملوا واجبات الحكم وسعوا لكسب المال من طريق التجارة لينفقوه في ترفهم وشهواتهم . واستمر

النزاع بين الأشراف والعامّة قوياً مريراً لا ينقصه إلا فرصة فتاح حتى يلجأ الطرفان فيه إلى أشد ضروب العنف . وكان الأشراف : « خيار الناس » *optimates* يستمسكون بنبيلهم ، ولكن لم يكن معنى استمسكهم به أن يرفعوا بسبب هذا النبيل عن ارتكاب الدنيايا ، بل كان معناه في نظرهم أن الحكم الصالح يطلب قصر المناصب العليا في الدولة على الذين تولوها أسلافهم من قبل ، فإذا تقدم لمنصب منها رجل لم يكن آباؤه ممن تولوها قبله سخرُوا منه وسموه « رجلاً حديثاً » *Novus homo* أى « حديث النعمة » ، وكان من هؤلاء الحديثى النعمة ماريوس وشيشرون . أما العامة فكانوا يطلبون أن تتاح الفرصة للذوى المواهب والكفايات ، وأن تكون السلطة كلها في يد الجمعيات ، وأن توزع الأراضي الحرة على الفقراء والجنود المسرحين . ولم يكن الأشراف ولا العامة ممن يؤمنون بالديمقراطية بل كانت كلتا الطبقتان تسعى لأن تكون هي الحاكمة بأمرها ، وتلجأ إلى ضروب الإرهاب والفساد والرشوة على ملأ الناس بلا خوف ولا وخز ضمير . واستحالت الجماعات التي كانت من قبل جمعيات خيرية لتبادل البر بين أعضائها وكالات لبيع أصوات العامة في الانتخابات كتلاً ، وارتقت عملية ابتياع الأصوات حتى تطلبت درجة كبرى من التخصص ، وطائفة من الإخصائيين ، فكان منهم المشترون *divisores* الذين يبتاعون الأصوات ، والوسطاء *interpretes* والحراس *sequestres* الذين يحتفظون بالمال حتى تعطى الأصوات (٢) . وفي أقوال شيشرون وصف للمرشحين وهم يسرون بين الناخبين في حقل المريخ وأكباس نقودهم في أيديهم (٣) . واستطاع بمي أن يحمل الناس على اختيار صديقه أفراانيوس *Alranius* قنصلاً بدعوة زعماء القبائل إلى حدائقه ، وفيها أعطى كل زعيم أثمان أصوات قبيلته (٤) . وبلغ ما كان يستدان من المال لشراء أصوات الناخبين حداً رفع سعر فائدة الأموال التي تفترض في أثناء الحملة الانتخابية إلى ثمانية في الشهر الواحد (٥) .

وكانت المحاكم نفسها — بعد أن اختص بها أعضاء مجلس الشيوخ — لا تقل فساداً عن عمليات الانتخاب ، وفقدت الأيمان كل ما كان لها من قيمة في الشهادة ، وفشت شهادة الزور كما فشت الرشوة . ولما أن اتهم ماركس مسالا **Marcus Messala** بأنه ابتاع بالمال الأصوات التي انتخب بها قنصلاً في عام ٥٣ برىء بالإجماع ، وإن كان أصدقاؤه أنفسهم شهدوا عليه واعترفوا بجريمته^(٦) . وكتب شيشرون لابنه يصف هذه الحال بقوله : « لقد أصبح المال أساس كل المحاكمات ، ولذلك لن يحكم على إنسان إلا في جرائم القتل »^(٧) ، وكان خليقاً به أن يقول « إنسان ذى مال » ، « وبغير المال وبغير الحمى القدير » كما قال محام آخر في ذلك الوقت « قد يتهم إنسان ساذج برىء بأية جريمة لم يرتكبها قط ، ثم يحكم عليه ما في ذلك شك »^(٨) . ولما برىء لنتولس صوراً **Lentulus Sura** بأغلبية صوتين حزن أشد الحزن على ما أنفق من مال في رشوة قاض أكثر من العدد الذي كان يجب عليه أن يرشوه^(٩) . ولما أدان المخلفون من أعضاء مجلس الشيوخ البريتور كونتس كليدس **Quintus Calidus** قال « لأنهم لم يكن في وسعهم مع احتفاظهم بشرفهم أن يطلبوا أقل من ثلثائة ألف سسترس إذا أريد منهم أن يحكموا على بريتور »^(١٠) .

وكان ولاية الأقاليم من أعضاء الشيوخ السابقين ، وجباة الضرائب ، والمرابون ، ووكلاء التجار ، يبتزون الأموال من الأقاليم تحت حماية هذه المحاكم ابتزازاً لو سمع به أسلافهم لغضبوا له غيرة من هؤلاء وحسدوا لهم . ولسنا ننكر أنه كان من بين حكام الأقاليم طائفة من الكفاة الأشراف ، أما أكثرتهم العظمى فإذا عسى أن ينتظر منها ؟ لقد كانوا يعملون بلا أجور ، وكانت العادة المألوفة أن يظلوا في مناصبهم عاماً واحداً ، وكان عليهم في خلال هذه الفترة القصيرة أن يجمعوا من المال ما يكفي للوفاء بديونهم ، وابتاع منصب جديد ، وأن يضمنوا لأنفسهم فيما بعد عيشاً رغداً يليق بالرومان العظم . ولم يكن البلاد

من يحول بينهم وبين أطعامهم إلا مجلس الشيوخ ، وكان في وسع الحكام أن يشقوا بأن الشيوخ وهم سادة مهذبون يمنعهم كرم محتدهم أن يكونوا سبباً في لفظ غير محبوب لأنهم كلهم قد فعلوا مثل ما فعله هؤلاء الحكام ، أويرجون أن يفعلوا مثله بعد قليل ؛ ولنضرب لذلك مثلاً يوليوس قيصر نفسه ، فقد ذهب ليحكم أسبانيا في عام ٦١ ق . م وعليه من الديون ما يعادل ٧٥٠٠٠٠٠ ريال أمريكي . فلما عاد في عام ٦٠ ق . م وفي بهذا الدين كله دفعة واحدة . وكان شيشرون يظن أنه رجل شريف متمت شرفه إلى حد يؤله أشد الألم ، لأنه لم يجمع في السنة التي ولى فيها حكم قليقية أكثر من ١١٠٠٠٠ ريال أمريكي ، وكان يملأ رسائله بالدهشة من اعتداله .

وكان القواد الذين يفتحون الولايات أول من يستفيد منها . فقد كان لوكلس بعد حروبه في الشرق مضرب المثل في الترف ، وجاء بمجي من تلك البلاد نفسها بما قيمته أحد عشر مايون ريال أمريكي لنفسه ولأصدقائه ، وإذا قلنا إن قيصر جمع لنفسه من بلاد الغالة ملايين يخططها الحصر فإن قولنا هذا لا يعدو الحقيقة إلى الحجاز . ويلى هؤلاء الحكام في ابتزاز المال الملتزمون وكانوا يجمعون من الأهليين ضعف ما يرسلونه إلى رومة ، فإذا عجزت مدينة أو ولاية عن أن تجمع من سكانها ما يكفي من المال لأداء ما يجب عليها أن تؤديه من الخراج أو الضرائب أقرضها المليون أو الساسة الرومان ما تحتاجه من المال بفائدة تتراوح بين اثني عشر وأربعين في المائة ، على أن يتجمع منها رأس المال وفائدته ، إذ لزم الأمر ، الجيش الروماني نفسه بحصارها أو فتحها أو نهبا . وقد حرم مجلس الشيوخ على أعضائه أن يشتركوا في هذه القروض ، ولكن عظماء الأشراف أمثال پمبي ، والصالحين منهم أمثال بروتس ، لم يعدموا وسيلة للاحتيال على القانون باستخدام الوسطاء في إقراض المال . وحسبنا دليلاً على ما وصلت إليه هذه الحال أن أقاليم آسية

الرومانية قد أدت إلى الرومان فوائد على ما اقترضته منهم ضعف ما أدته إلى
الملتزمين وإلى الخزنة الرومانية^(١١) . وفي عام ٧٠ ق . م بلغ ما أدته وما لم
تؤده مدن آسية الصغرى من فوائد على الأموال التي اقترضتها للوفاء بمطالب
صلا في عام ٨٤ ستة أضعاف هذه القروض : ولم تجد العشائر والجماعات
وسيلة لأداء أرباح هذا الدين للفادح إلا أن تباع أبنيتها العامة وتمثيلها ،
وأن يبيع الآباء أطفالهم في أسواق الرقيق ، وذلك لأن المدين الذي يعجز
عن أداء دينه كان يعذب على العذراء : فإذا ما بقي في الولاية شيء من
موارد الثروة بعد هذا كله هرعت إليها من إيطاليا وسوريا وبلاد اليونان
جماعات من المقاولين ، تعاقدهم معهم مجلس للشيوخ على تنمية ثروة الولاية
المعدنية والخشبية وغيرهما : وكانت التجارة تسير على الدوام في ركاب العلم
الرومانى ، فن التجار من كانوا يشترون الأرقاء ، ومنهم من كانوا
يشترون السلع أو يبيعونها ، ومنهم من كانوا يشترون الأرض وينشئون في
الأقاليم ضياعاً أوسع رقعة من ضياع إيطاليا . وفي ذلك يقول شيشرون
في عام ٦٩ ق . م مبالغاً في قوله كعادته : « لا يستطيع رجل من الغالين
أن يقوم بعمل تجارى إلا عن طريق مواطن رومانى ، ولا يلتفتل درهم
واحد من يد إلى يد دون أن يمر بسجل أحد الرومان » .

وقصارى القول أن التاريخ القديم لم يشهد في جميع أدواره حكومة
تضارع حكومة ذلك العهد في ثرائها وسطوتها وفسادها .

الفصل الثاني

أصحاب الملايين

ورضى رجال الأعمال بحكم مجلس الشيوخ لأنهم كانوا أكثر من الأشراف استعداداً لاستغلال موارد الولايات ، وبهذا تم « اثنتان الطبقات » أو تعاون الطبقتين العاليتين وهو المثل الأعلى الذى كان ينادى به شيشرون والذى أصبح حقيقة واقعة فى شبابه ؛ فقد اتفقت الطبقتان على الاتحاد والغزو . وكان رجال الأعمال ووكلاؤهم المعتدون يملأون أروقة رومة وطرقاتها ، وتغص بهم أسواق الولايات وحواجزها . وكان رجال المصارف يصدرون خطابات الاعتماد إلى الهيئات المالية المرتبطة بهم (١٣) ، ويقرضون المال لكل غرض من الأغراض حتى لخوض غمار الحياة السياسية . وكان التجار يتذبذبون بين العامة والأشراف فيعينون بنفوذهم الأولين إذا زادت أنانية الشيوخ ، ثم يعودون إلى الشيوخ إذا حاول الزعماء الدهمقراطيون أن يبروا بوعودهم التى قطعوها للطبقات الفقيرة قبل الانتخاب .

وبعد كراسس Crassus ، وأتكس Atticus ولوكلس Lucullus نماذج صادقة لمظاهر الثراء الرومانى الثلاثة : الحصول عليه ، والمضاربة به ، ثم استخدامه للتنعم والترف . كان ماركس ليسينيوس كراسس Marcus Licinius Crassus ينحدر من أسرة شريفة ؛ فقد كان أبوه خطيباً مصقلاً ذائع الصيت ، وقنصلاً ، ورفيقاً ، حارب إلى جانب صلاتم فضل الانتحار على التسليم لماريوس ؛ وفأكما صلاتم بأنه سمح له بشراء أملاك المحكوم عليهم المصادرة بطريق المساومة ؛ وكان ماركس فى شبابه قد درس الأدب والفلسفة ، واشتغل بجد فى الأعمال القضائية ، ولكن رائحة المال أسكرته فى تلك الأيام الأخيرة . فأنشأ فرقة لإطفاء الحريق - وكان ذلك عملاً جديداً لم تله رومة من قبل ؛

وكانت إذا شئت النار سارعت إلى مكانها ، وعرضت أن تستأجر لإطفائها ، أو ابتاعت المباني المعرضة لخطر الحريق بأثمان امجية . ثم أطفأت الحريق . وحصل كراسس بهذه الطريقة على مئات من البيوت والمساكن كان يؤجرها بأجور مرتفعة . واشترى كذلك عدداً من مناجم الدولة حين أخرجها صلا عن نطاق الأملاك العامة . وما لبثت ثروته أن ارتفعت بهذه الطريقة من سبعة ملايين سسترس إلى مائة وسبعين مليوناً (أى نحو ٢٥٠٠٠٠٠ ربال أمريكى) — أو ما يقرب من جميع دخل الخزانة العامة في عام كامل . ويقول كراسس إنه لا يحق لإنسان ما أن يعد نفسه غنياً إذا لم يكن في مقدوره أن يجند لنفسه جيشاً ، ويعد له كل ما يلزمه من سلاح وعتاد ويحتفظ به (١٤) . وقد شاءت الأقدار أن يكون هلاكه بسبب ثرائه الذى يحدده هذا التحديد . ذلك أنه بعد أن أصبح أغنى رجل في رومة ظل حليف الشقاء ، شديد الرغبة في أن يشغل منصباً عاماً ، وأن يكون والياً على أحد الأقاليم وقائداً لحملة أسبوية . ومن أجل ذلك كان يطوف الشوارع يستجدى الناس أصواتهم في ذلة وخضوع ، ويحتفظ بالأسماء الأولى لعدد لا حصر له من المواطنين ، ويتظاهر بشطف العيش ، ويعمل على ضم ذوى النفوذ من رجال السياسة إليه بإقراضهم المال من غير فائدة على شرط أن يؤدوه له متى طالبهم بأدائه . على أنه رغم حرصه وطمعه كان طيب القلب ، لا يصد عن بابيه من يريد لقائه ، يكرأ أصدقائه إلى أقصى حدود الكرم ، يسدى للنصيحة لكلا الحزبين السياسيين بالحكمة التى امتاز بها أمثاله من الرجال على مدى الأيام ، وقد حقق في حياته كل آماله ، فاختر قنصلاً في عام ٧٠ ق : م ، واختبر إلى هذا المنصب مرة أخرى في عام ٥٥ ، وحكم سوريا ، وأعان على تجميع الجيش العظيم الذى قاده لفتح پارثيا parthia . وهُزم في كارهى Carrhae وأسر غدرًا وخيانة ، ثم قتل قتلة وحشية في عام ٥٣ ، فقطع رأسه ، وصب أعداؤه الذهب المصهور في فمه .

وكان تيتس ، تيتوس أنكس Titus Pomponius Atticus أصدق

أرستقراطية من كراسس ، ومن طراز من أصحاب الملايين أسمى من طرازه : فقد كان يضارع في الشرف والأمانة ماير أنشل سليل آل رتشيلد Meyer Anschel of the rot Schild ولا يقل علماً عن لورنزو ده مديشي Lorenzo de Medici وكان حاذقاً في الشئون المالية حذق فليتر Voltaire . ونحن نسمع به في هادئ الأمر وهو يطلب العلم في أثينة حين سحر بحديثه وبقراءته للشعر اليوناني واللاتيني لب صلا ، فألح عليه هذا القائد السفاح أن يعود معه إلى رومة ليكون فيها رفيقاً له ، فأبى تيتس أن يستجيب لإلحاحه . وكان عالماً ومؤرخاً ، كتب تاريخاً موجزاً للعالم^(١٥) . وعاش معظم حياته في الأوساط الفلسفية في أثينة ، وسمى أتكس لعلمه الغزير ببلاد أتكا وجهه العظيم لأهلها . ورث الرجل عن أبيه وعمه أموالاً تبلغ قيمتها نحو ٩٦٠,٠٠٠ زيل أمريكي استثمرها في مزرعة عظيمة لتربية الماشية في إبيروس Epirus وفي شراء الدور في رومة وتأجيرها ، وفي تدريب المصارعين وأمناء السر وتأجيرهم ، وفي نشر الكتب : وكان إذا تهيأت أسباب المشروعات النافعة أقرض المال بفوائد مجزية ، ولكنه كان يقرض أثينة وأصدقائه قرضاً حسناً من غير فائدة^(١٦) . وكان شيشرون وهورتنسيوس Hortensius وكاتو الأصغر يودعون عنده ما ادخروه من المال ، ويعهدون إليه تدبير شئونهم ، ويحلونه لبعده نظره واستقامته وعظم ما يؤديه إليهم من الأرباح .

وكان يسر شيشرون أن يستشره فيما يبتاعه من البيوت ، وفيما يختاره لتزيينها من القاميل وفيما يملأ به مكتبته من الكتب . وكان أتكس يولم الولائم في قصد واعتدال ، ويعيش في تواضع الأبيقوري الحق ، ولكن بشاشته لأصدقائه وحديثه المطرب المثقف جعلاً بينه ملتقى العظماء من رجال السياسة . وكان يعاون الأحزاب جميعها ، وقد نجا من اضطهادها جميعاً . ولما بلغ السابعة والسبعين من عمره . وأصيب بداء عضال آلمه ويئس من شفائه منه . أمات نفسه جوعاً .

وأبحر لوسيوس لوسيوليوس لوكس Lucius Lucinius Lucullus وهو

رجل من أسرة من كبريات الأسر الشريفة ، عام ٧٤ ليتم ما بدأه صلا من حرب مثرانس : وظل ثمان سنين يقود جنوده القلائل في شجاعة ومهارة حتى أوشكت حملته أن تظفر بالنصر المؤزر على عدوه ؛ ثم تمرد جنوده المتعبون ، فقادهم هو وهم مرتدون من أرمينية إلى أيونية وسط مخاطر لا تقل عن المخاطر التي خلدت اسم زينوفون Zenophon . ولما أفلحت للدسائس في إبعاده عن قيادة الجيش ، عاد إلى رومة حيث قضى بقية حياته في هدوء وترف ونعيم . وشاد على تل پنسيوس Pincius قصراً واسع الأبعاد ، وبوائك ، ودور كتب ، وحدائق . وكان له في تسكولم Tusculum ضيعة تمتد عدة أميال ، وابتاع له في ميسينيوم قصراً صغيراً ذا حديقة بعشرة ملايين مسترس (أى نحو مليون ونصف مليون ريال أمريكي) ، وحول جزيرة نسيديا Nesida بأكلها إلى مصيف له لا يشاركه فيه سواه . وذاعت شهرة حدائقه بما حوت من غروس لم يكن لها نظير من قبل في رومة . من ذلك أنه هو الذى أدخل شجرة الكرز إلى إيطاليا من بلاد پننس ، ومن إيطاليا نقلت هذه الشجرة إلى شمالى أوربا وإلى أمريكا . وكانت مواعده من الحادثات الهامة التى يتناقل الناس أخبارها في رومة طوال العام . ولقد حاول شيشرون في يوم من الأيام أن يعرف كيف يتغاطى لوكلس طعامه إذا كان بمفرده ، فطالب إليه أن يدعوه هو وجماعة من أصدقائه ليتعشى معه ذات ليلة ، ولكنه استحلف لوكلس ألا يخبر بذلك أحداً من خدمه . ووافق لوكلس على هذا ولم يشترط إلا أن يسمح له بأن يخبر رجاله بأنه سيتعشى في « قاعة أبلون تلك الليلة » ؛

ولما أقبل شيشرون ومن معه وجدوا مائدة فخمة . ذلك أنه كان للوكلس عدة حجرات للطعام في قصره بالمدينة يختار كل واحدة منها حسب فخامة الوليمة . وكانت قاعة أبلون مخصصة بالواجبات التى تكلف الواحدة

منها مائتي ألف سسترس أو أكثر (١٧) . ولكن لوكلس لم يكن بالرجل
النهم ، وكانت بيوته بمثابة معارض لروائع الفن المختارة أحسن اختيار ،
وكانت مكتباته مورداً غنياً للعلماء والأصدقاء ، وكان هو نفسه ضليعاً في
الآداب القديمة وفي الفلسفة على اختلاف أنواعها ، وكان يفضل منها بطبيعة
الحال فلسفة أبيقور . وكان يسخر من حياة عجمي الشاقة المجهدة ، ويرى أن
حسب المرء طول حياته حملة حربية واحدة ، وأن كل ما زاد على ذلك
غرور لا خير فيه .

وحلدا حلوه كثيرون من أثرياء رومة وإن لم يكن لهم ذوقه ، وسرعان
ما أخذ الأشراف والأثرياء يتنافسون في مظاهر الترف والنعيم ، على حين
كان مريض نار الثورة يلوح في الولايات المفلسة ، والناس يموتون جوعاً في
أكواخهم القلعة الحقيمة . وكان الشيوخ لا يستطيعون من نوحهم إلا وقفة
الظهيرة ، وقلماً كانوا يحضرون جلسات المجلس . وكان بعض أبنائهم
يتزيون بأزياء العاهرات ، ويتخالفون في الطرقات كاختياهن ، على أجسامهم
ثياب مطرزة مزركشة ، وفي أرجلهم صنادل كصنادل النساء ، متعطين
متحليين بالجوهر ، لا يقبلون على الزواج ، وإذا تزوجوا عملوا على
ألا يكون لهم أبناء ، ويتنافسون شبان اليونان في التخنث . وكان الشيخ
الواحد في رومة ينفق على بيته ما لا يقل عن عشرة ملايين سسترس . وقد
بنى كلوديوس زعيم العامة قصرأ كلفه ٨٠٠٠٠٠٠ ر ١٤ . وكان الحمامون
أمثال شيشرون وهورتنسيوس Hortensius يتنافسون في تشييد القصور
تنافسهم في الخطابة رغم قانون سنسيوس الذي يحرم الأجور القضائية ،
وكانت حدائق هورتنسيوس تحوى أكبر مجموعة من الحيوانات في إيطاليا
كلها . وكان لكل رجل ذي مقام منزل ذو حديقة في بابا Baiae أو بالقرب
منها ، حيث كان الأشراف يتمتعون بحمامات البحر وجمال خليج نابلي ،

ويطلقون لشهواتهم الجنسية العنان ، وقامت قصور أخرى من نوعها على التلال المجاورة لرومة . وكان لكل ثرى عدد من هذه القصور ، فكان يتنقل من قصر إلى قصر في فصول السنة المختلفة . وكانت الأموال تنفق جزافاً في تزيينها من الداخل ، وفي تأنيثها وشراء ما يلزمها وما لا يلزمها من الصحف الفضية وحسبنا أن نذكر أن شيشرون أنفق خمسمائة ألف سسترس على نصد من خشب الليمون . ولم يكن غريباً أن ينفق أمثاله مليون سسترس على نصد آخر من خشب السرو ، ولقد قيل إن كاتو الأصغر ، وهو الذى كان مضرب المثل في الفضائل الرواقية بأجمعها ، قد ابتاع من مدينة بابل أغطية خوان بها مائة ألف سسترس (١٨) .

وكان يقوم بالخدمة في هذه القصور جيوش من الأرقاء لإخصائيوهم في أعمالهم المختلفة — منهم خدام حجرة السيد نفسه ، ومنهم حاملو رسائله ، وموقدو مصابيحهم ، وموسيقيوه ، وأمناء سره ، وأطباؤه ، وفلاسفته ، وطهااته . وأصبح الأكل وقتئذ أهم أعمال الطبقات العليا في رومة . وكان القانون الأخلاقي عندهم هو قانون متردورس القائل بأن : « الشيء الطيب هو ما له صابة بالبطن » . وحسبنا دلالة على فهم أهل ذلك العصر وتفنتهم في ملء بطونهم أن نذكر أن وليمة أقامها كاهن كبير في عام ٦٣ ق . م وحضرها خليط من الجلسين منهم قيصر وعلارى قستا ، كانت المشميات فيها بلح البحر ، وطيور الدج بالخنجل (الاسفراخ) والطيور البسمينة ، وفطائر البطلينوس (**) ، وحشيشة القريض البحرية ، وشرائح البطارخ والسماك الصدفى الأحمر ، والطيور المغردة . ثم يجيء بعد هذا كله الطعام نفسه ويتكون من أئداء الخنازير ، ورووسها ، والسماك ، والبط المنزلى والبرى ، والأرانب ، والدجاج ، والفطائر والحلوى (١٩) . وكانت الأطعمة الشهية النادرة تستورد من جميع أجزاء الإمبراطورية ومن البلاد الخارجية ، فالطاوويس تستورد

(•) فيلسوف أبيقورى يونانى (؟ - ٢٧٧ ق . م) .

(**) حيوان بحرى . (المترجم)

من جزيرة ساموس Samos ، والقطا من فريجيا ، والكركى من أيوليا ،
والتي (التونة) من خلقدونية Chalcedon والشيقي (٢٠) من جاديز Oades ،
والبطلييوس من تارنتم Tarentum والدخس (٢١) من رودس . وكانت
الأطعمة التي تلتجها إيطاليا نفسها تعد حقيرة بعض الشيء لا تليق
إلا بالسوقة ؛ وقد أولم الممثل أيزوپس Aesopus وليمة أكل فيها من الطيور
المفردة ما ثمنه خمسة آلاف ريال أمريكي بنقود هذه الأيام (٢٢) . وظلت
القوانين تصدر بتحريم الإسراف في الطعام ، ولكن أحياناً لم يكن يأبه
بها . وحاول شيشرون أن ينفذ هذه القوانين فلا يأكل إلا الخضر المباحة
شرعاً ، وظل عشرة أيام يشكو زحار البطن .

وأنفقت بعض الثروة الجديدة في إقامة الملاهي الرحبة والألعاب على
أوسع نطاق ؛ من ذلك أن إميلبوس اسكورس Aemilius Scaurus شاد
ملهى يحتوى ثمانية آلاف مقعد ، وثلثمائة وستين عموداً ، وثلاثة آلاف
تمثال ، ومسرحاً ذا ثلاث طبقات وثلاثة صفوف من الأعمدة منها صف
من الخشب ، وصف من الرخام ، وثالث من الزجاج . وتمرد عبيده
لشدة ما أرمهمهم من العمل فحرقوا الملهى بعد الفراغ من بنائه ، وحملوه ديناً يبلغ
مائة مليون سسترس (٢٣) . وقدم بمبي في عام ٥٥ ما يلزم من المال لإقامة أول ملهى
حجري دائم في رومة — وكان يحتوى على ١٧٥٠٠ مقعد ، وعلى بستان
فسيح ذى أروقة يتنزه فيها النظارة بين الفصول ، وأقام اسكريبونوس
كوريو Scribonius Curio أحد قواد قيصر عام ٥٣ ملهى من الخشب
كلاهما على شكل نصف دائرة يتصلان بظهريهما ، وكان الملهىان يعرضان
مسرحيات في الصباح ، فإذا انتهى التمثيل دار البناءان ، والنظارة لا يزالون
في مقاعدهم ، على قطبيهما وعجلهما فاستحال نصفا الدائرتين مدرجاً ،

(*) نوع من السمك ويسمى أيضاً مريئة و « أبو مريئة » .

(**) نوع آخر من السمك Sturgeon (المترجم)

وأضحى المسرحان حلبة للمصارعة^(٢٤) . ولم تبلغ الألعاب في بلد من البلاد أو في عصر من العصور من الكثرة وعظيم النفقة وطول الزمن مثل ما بلغت في رومة^(٢٥) : وحسبنا دليلاً على ذلك أن ألعاباً أقامها قيصر اشترك فيها يوم واحد عشرة آلاف مجالد ، وقتل فيها الكثيرون منهم . وعرض صلاً قتالاً للآساد اشترك فيه مائة أمد ، وعرض قيصر قتالاً آخر كان فيه أربعائة ، وعرض بمي قتالاً كان فيه ستائة . وكانت الوحوش في هذه الألعاب تقاتل الرجال والرجال يقاتل بعضهم بعضاً ، والنظارة الذين تغص بهم الساحات يشاهدون مناظر الموت وهم مغتبطون .

الفصل الثالث

المرأة الجديدة

كان ازدياد الثراء وفساد الأخلاق من أكبر العوامل في الانحلال الخلقي وانفصام رابطة الزواج . وظلت الدعارة منتشرة في البلاد رغم ازدياد التنافس من النساء ومن الرجال . وازداد عدد الموابير والحانات التي تأوى هؤلاء العاهرات زيادة جعلت بعض الساسة يلجئون في الحصول على أصوات الناخبين إلى اتحاد أصحاب الموابير (٣٥) . وأصبح الزنى من الأمور العادية ، وألفه الناس حتى لم يعد يستلقت أنظار إنسان ما إلا إذا استخدم للأغراض السياسية . ولم يكن ثمة امرأة موسرة إلا طلقت مرة على الأقل ، ولم يكن اللوم في ذلك واقعاً على النساء ، فقد كان أكبر أسباب انتشار الطلاق أن الزواج عند الطبقات العليا أصبح خاضعاً للمال وللسياسة . ذلك أن الرجال كانوا يختارون أزواجهم أو كانت الأزواج يخترن للشبان ليحصلوا منهن على أكبر البائنات أو على صلات يفيدون منها جاهاً ومالاً . وقد تزوج صلاح وبمبي خمس مرات ، وأراد صلاً أن يضم بمبي إلى جانبه فأقنعه بالتخلص من زوجته الأولى والاقتران بإميليا ربيبة صلاً ، وكانت وقتئذ متزوجة وحاملاً . ووافقت إميليا على هذا الزواج مكرهة ولكنها ماتت في أثناء الوضع عقب انتقالها إلى بيت بمبي . وزوج قيصر ابنته يوليا Julia إلى بمبي ليضمن بذلك انضمامه إليه في الحلف الثلاثي . وأغضبت كاتو هذه الحال فوصفها بقوله « إن الإمبراطورية أصبحت توكيلاً لإدارة شؤون الزواج » (٣٥) . ولم تكن هذه الزيجات إلا زيجات سياسية ، وإذا تم النفع المرجو منها تطلع الزوج إلى زوجة أخرى يرقى على كتفها إلى منصب أعلى أو مال أوفر . ولم يكن ثمة حاجة إلى سبب يديه ، وحسبه أن يرسل إليها خطاباً يبلغها فيه أنها أصبحت حرة في شؤونها كما أصبح

هو حرراً في شئونه . وامتنع بعض الرجال عن الزواج امتناعاً تاماً ، وكانت حاجتهم في هذا أن المرأة الجديدة قد ذهب حياؤها وأسرفت في حريتها ، واكتفى كثيرون منهم باتخاذ السرارى والإماء . وكان الرقيب متلس المقدونى Metellus Macedonicus (١٣١) يرجو الرجال أن يتزوجوا وينجبوا الأبناء لأن هذا واجب تفرضه عليهم الدولة مهما ضاقت نفوسهم بالزوجات (٢٦) ، ولكن عدد الأعذاب والزيجات العقيمة أخذ بعد هذا النصيح يزداد أسرع من ازدياد قبله ، وأصبح الأطفال من الكماليات التى لا يطبقها إلا الفقراء .

وهل تلام المرأة وهى تعيش فى هذه الظروف إذا استخففت بقسم الزواج ووجدت فى الصلات الجنسية غير المشروعة الحب والعطف اللذين لم ينلها إياهما الزواج السياسى . لقد كانت هناك بطبيعة الحال كثرة من النساء الصالحات حتى بين الأغنياء أنفسهم ، ولكن الحرية الجديدة أخذت تحطم ما كان للأب من سيطرة تامة على أسرته Patria Potestas كما أخذت تحطم كيان الأسرة بأكملها . وخلعت النساء الرومانيات العذار ، وكان هن من الحرية مثل ما للرجال سواء بسواء ، واتخذن هن أثواباً من الحرير المهال الشفاف المستورد من الهند والصين ، وأرسلن رسلهن يجوبون أسواق آسية ليأزوهن بالحلى والعطور ، واختفى الزواج الذى يتبعه انتقال الزوجة إلى دار زوجها Marriahe cum manu ، وكانت النساء يطلقن أزواجهن كما يطلق الرجال زوجتهم ، وأخذت طائفة متزايدة من النساء تنفس عن نفسها بالأعمال الثقافية . وأخذت طائفة متزايدة من النساء تنفس عن نفسها بالأعمال الثقافية ، فتعلسن اللغة اليونانية ، ودرسن الفلسفة ، وكتبن الشعر ، وألقين المحاضرات العامة ، ولعبن وغنن ورقصن ، وأقن الندوات الأدبية واشتغل بعضهن بالتجارة والشئون المالية ، ومارست فئة قليلة منهن صناعة الطب أو الحمامة •

وكانت كلوديا Clodia زوج كورنثس كاسيليوس متلس Quintus Caecilius Metellus أشهر النساء اللاتي أكملن ما فى أزواجهن من نقص بالقيام بطائفة

من أعمال الفروسية والشهامة ، فقد تملكها نزعة قوية للدفاع عن حقوق النساء ، وهزت مشاعر الجليل القديم بسيرها بعد زواجها مع أصدقائها الرجال دون أن يكون معها محرّم ، وكانت تستقبل من تعرف من أصدقائها وتقبلهم أحياناً على ملأ من الناس ، بدل أن تغض الطرف وتنزوى في عربتها شأن النساء الراقيات في عرف تلك الأيام ، وكانت تولم الولاثم لأصدقائها من الرجال ، وكان زوجها يعتمد الغياب في أثنائها كما كان يفعل بعدئذ ماركيزده شاتليه Marquis ds châtelet ، ويصف شيشرون — وهو الرجل الذى لا يوثق بوصفه — « حبها ، وزناها ، وعهرها ، وأغانيتها ، وما كانت تقيمه من حفلات موسيقية وولاثم الطعام ، ومقاصف الشراب في بايا Baiae برأ وبحراً » (٣٧) . وكانت في الحق امرأة ماهرة إذا زلت في ظرف وكياسة ، يعجز الإنسان عن ألا يزل معها ، ولكنها أخطأت في الاستخفاف بأنانية الرجال . لقد كان كل واحد من عشاقها يحب أن يستأثر بها حتى تفتر شهوته ، كما كان كل واحد منهم يصبح عدوها الألد حين تتخذ لها صديقاً غيره . ومن أجل ذلك لطخها كتاس Cutullus (إذا كانت هى التى يسميها ليزبيا Lesbia) بالنكتات البذيئة ، وذكرها كاليوس Caelius في حديث له عن الذى تُبتاع به أفقر العاهرات ، ووصفها علناً في المحكمة بأنها المرأة التى تُبتاع بربع آس Quadrantaria (أى ما يعادل $\frac{1}{4}$ من الريال الأمريكى) ، ذلك بأنها كانت قد اتهمته بأنه حاول قتلها بالسم واستأجر هو شيشرون للدفاع عنه ، ولم يتورع الخطيب المبدع عن اتهامها بالفسق مع محارمها وبالقتل ، وقال فى خلال دفاعه إنه رغم هذا « ليس عدواً للنساء وأولى له ألا يكون عدواً لامرأة هى صديقة لكل الرجال » . وبرئ كتلس مما اتهم به وجوزيت كلوديا بعض الجزاء لأنها أخت پيليوس كلوديوس أشد الزعماء تطرفاً في رومة وألد أعداء شيشرون .

الفصل الرابع

كاتو ثانٍ

وقام في وسط هذا الفساد والانحلال رجل كان بقية من رجال الأيام الخالية وداعية للسير على سننها . ذلك هو ماركس بورسيوس كاتو *Marcus Porcius Cato* الأصغر . وكان قد خرج على مبدأ من مبادئ جده الأعلى فدرس اللاتينية وأفاد منها تلك الفلسفة الرواقية التي بعثت فيه مع عقيدته الجمهورية إخلاصه القوي الذي لم يفارقه قط طول حياته . وورث كاتو من المال مائة وعشرين تالنتا (أى ما يعادل ٤٣٢,٠٠٠ ريال أمريكي) ولكنه عاش عيشة بسيطة كلها جد ونشاط ، وكان يقرض المال ولكنه لا يتقاضى عن قروضه فوائد ؛ وكانت تعوزه فكاهة جده الأعلى الخشنة ، وقد أزعج الناس بما كان يتصف به في ظنهم من الاستقامة الصارمة العنيدة والاستمسك بالمبادئ استمسكاً لا يتفق في رأيهم مع روح العصر الذي يعيش فيه ؛ ذلك أن حياته نفسها كانت آتاهم لا يغفرونه له ، وكانوا يتمنون أن لو مال قليلاً نحو الرذيلة ، ولو لم يكن هذا إلا احتراماً لعادات بنى الإنسان وتادباً في حقهم . وما من شك في أنهم قد ابتهجوا حين فعل كاتو فعلة تكاد تنم عن سحرته بالمرأة واعتقاده أنها ليست إلا أداة للتناسل « فأعار » زوجته مارسيليا إلى صديقه هورتنسيوس *Hortensius* — أى طلقها وحضر زواجها بالخطيب الذائع الصيت — ولما مات هورتنسيوس بعدئذ أعادها إلى عصمته (٢٨) . ولم يكن في وسع معاصريه أن يجوه لأنه كان ألد أعداء الخيانة والسفالة . وأشد المدافعين عن حقوق الآباء على أبنائهم وأسرههم . وكان نقده لأخلاق ذلك العصر أقسى وأشد صرامة من نقد الرقيب كاتو الأكبر نفسه . وقلما كان يضحك أو يبتسم ، ولم يحاول

قط أن يكون لطيفاً بشوشاً ، وكان يؤنب كل من يجروء على تملقه أشد التأنيب . وقد قال شيشرون إنه أخفق في أن ينتخب قنصلاً لأنه كان يحيا حياة مواطن في جمهورية أفلاطون لا حياة روماني بين حشالة أبناء وميولوس^(٢٩) ،

ولما عين كوسترا كان سوط عذاب يصب على العجز وعلى استغلال سلطان الوظيفة ، وحفظ أموال الخزانة العامة من جميع الغارات السياسية ، ولم تضعف يقظته وحرصه على هذه الخزانة بعد أن انقضت فترة توليه منصبه . وكان يصب تهمه على جميع الأحزاب على حد سواء ، وقد أفاد من هذه التهم آلاف المعجبين ولكنها لم تترك له صديقاً واحداً . ولما كان بريتورا أقنع مجلس الشيوخ بأن يصدر قراراً بأن يأمر كل مرشح للقنصلية أن يحضر إلى ساحة القضاء ، وبعد أن يقدم اليمين يعرض على للقضاة بياناً مفصلاً بما أنفقه أثناء الحملة الانتخابية ، وما اتبعه فيها من الوسائل ، وأزعج هذا القرار كثيراً من السياسيين لأن الكثرة الغالبة منهم كانت تعتمد في انتخابها على الرشا ، فلما أن ظهر كاتو بعدئذ في السوق العامة أخذوا هم ومواليهم يسبون ويرمون بالحجارة ، فلم يكن منه إلا أن اعتلى المنصة وواجه المجتمعين وهو ثابت الجنان ، وما زال يخطب فيهم حتى خضعوا له . ولما اختير تريبونا سار على رأس جيش إلى مقدونية ، وامتطى خدمه وأتباعه الجياد ، أما هو فسار راجلاً . وكان يهزأ برجال الأعمال ويدافع عن الأرستقراطية أو حكم أبناء الأسر الشريفة ، ويرى أنه إن لم يحكم البلاد هؤلاء الأشراف فلا مفر من أن يحكمها ذوو الثراء ، وهذا شر أيما شر . وشن حرباً شعواء لا هوادة فيها على الذين كانوا يفسدون السياسة الرومانية بالمال والأخلاق الرومانية بالترف ، وظل إلى آخر أيام حياته يقاوم كل خطوة يخطوها بمى أو قيصر نحو الطغيان الفردى . ولما أن قضى قيصر على الجمهورية تخلص سماتو من حياته بيده وإلى بجانبه كتاب من كتب الفلسفة .

الفصل الخامس

اسبارتكومن

ووصل سوء الحكم وقتئذ إلى غايته كما تأصت الديمقراطية فيه بدرجة قلما نجد لها نظيراً في تاريخ الدول . وحدث في عام ٩٨ ق . م أن أعاد القائد الروماني ديدايوس Didius مافعله من قبله سايسوس جلبا Swpicius Galba فقد خدع قبيلة كاملة من الأسبان المشاغبين حتى استدرجهم إلى معسكر روماني في أسبانيا مدعياً أنه يريد أن يسجل أسماءهم ليوزع الأرض الزراعية عليهم ، فلما دخلوا المعسكر هم وأزواجهم وأبنائهم أمرهم فذبجوا عن آخرهم ، ولما عاد إلى رومة احتفل بعودته احتفال الظافرين (٣٠) : ولم يطق هذه الفظائع وأمثالها من ضروب الوحشية التي كان يقرؤها رجال الإمبراطورية ضابط سبيني في الجيش الروماني يدعى كونتس سرتوريوس Quintus Sertorius فذهب الأسبان ، ونظم صفوفهم ودرجهم على القتال وقادهم من نصر إلى نصر على الجيوش الرومانية التي سبرت لإخضاعهم ، وظل ثماني سنين (٨٠ - ٧٢) يحكم مملكة ثائرة خارجة على حكم الرومان ، كسب في خلالها قلوب الأسبان بحكمه العادل وإنشاء المدارس لتعليم أبنائهم ، وعرض مجلس القائد الروماني مائة تالنت أي ما يقرب من ٣٦٠.٠٠٠ ريال أمريكي ، وعشرين ألف فدان من الأرض مكافأة لأي روماني يقتل سرتوريوس ، وكان لهذا العرض السخى أثره فدعاه برپنا Perpenna ، وهو لاجئ روماني في معسكره ، إلى وليمة ، واغتاله ، وتولى قيادة الجيش الذي دربه سرتوريوس ، وأرسل بمجي لقتال برپنا ولم يلق صعوبة ما في التغلب عليه . وأسر برپنا وأعدم وعاد الرومان إلى استغلال أسبانيا من جديد .

وكان العمل الثاني من أعمال الثورة من فعل الأرقاء لا من فعل الأحرار .

ذلك أن لتولس بتيانس *Lentulus Batiales* قد أنشأ في كپوا مدرسة للمصارعين ، وجالها من الأرقاء أو المجرمين المحكوم عليهم ، ودرهم على صراع الحيوانات أو صراع بعضهم بعضاً ، في حلبة للصراع العامة أو في البيوت الخاصة . ولم يكن ينتهى الصراع حتى يقتل المصارع . وحاول مائتان من هؤلاء المصارعين أن يفروا ، ونجح منهم ثمانية وسبعون ، وتسلموا واحتلوا أحد سفوح بركان فيزوف ، وأخذوا يغيرون على المدن المجاورة طلباً للطعام (٢٧) . واختاروا لهم قائداً من أهل تراقية يدعى اسپارتكوس *Spartacus* يقول فيه أفلو طرخس إنه « لم يكن رجلاً شهماً شجاعاً وحسب ، بل كان إلى ذلك يفوق الوضع الذى كان فيه ذكاء في العمل ودمائة

الأخلاق » (٢٨) . وأصدر هذا القائد نداء إلى الأرقاء في إيطاليا يدعمهم إلى الثورة ، وسرعان ما التف حوله سبعون ألفاً ، ليس منهم إلا من هو متعطش للحرية وللانتقام ، وعلمهم أن يصنعوا أسلحتهم ، وأن يقاتلوا في نظام أمكنهم به أن يتغلبوا على كل قوة سبرت عليهم لإخضاعهم . وقذفت انتصاراته الرعب في قلوب أثرياء الرومان ، وملأت قلوب الأرقاء أملاً ، فهرعوا إليه يريدون الانضمام تحت لوائه ، وبلغوا من الكثرة حداً اضطر معه أن يرفض قبول متطوعين جدد بعد أن بلغ عدد رجاله مائة وعشرين ألفاً لأنه لم يكن يسهل عليه أن يعنى بأمرهم . وصار يجيوشه صوب جبال الألب ، وغرضه من هذا « أن يعود كل رجل إلى بيته بعد أن يجتاز هذه الجبال » (٢٩) . ولكن أتباعه لم يكونوا متشبعين مثله بهذه العواطف الرقيقة السلمية ، فتمردوا على قائدهم ، وأخذوا ينهبون مدن إيطاليا الشمالية ، ويعيشون فيها فساداً ، وأرسل مجلس الشيوخ قوات كبيرة بقيادة القنصلين ثأديب العصاة ، والتقى أحد الجيشين بقوة منهم كانت قد انشقت على اسپارتكوس وأفنتها عن آخرها . وهوجم الجيش الثانى قوة العصاة الرئيسية فهزمته وبددت شملها . ثم سار اسپارتكوس بعدئذ صوب جبال الألب والتقى في أثناء سيره بجيش ثالث يقوده كاسيوس فهزمه شرهزيمة ، ولكنه وجد جيوشاً

رومانية أخرى تقف في وجهه وتسد عليه المسالك فولى وجهه شطر الجنوب وزحف على رومة .

وكان نصف الأرقاء في إيطاليا متأهين للثورة ، ولم يكن في وسع أحد في العاصمة نفسها أن يتنبأ متى تنشب هذه الثورة في بيته ، وكانت تلك الطائفة الموسرة المترفة التي تتمتع بكل ما في وسع الرق أن يتمتع بها ، كانت تلك الطائفة كلها ترتعد فرائصها فرقاً حين تفكر في أنها ستخسر كل شيء - السيادة والملك والحياة نفسها - ونادى الشيوخ وذوو الثراء يطالبون بقائد قدير ، ولكن أحداً لم يتقدم للاضطلاع بهذه القيادة ، فقد كان القواد كلهم يخافون هذا العدو الجديد العجيب ، ثم تقدم كراسس Crassus آخر الأمر وتولى القيادة ، وكان تحت إمرته أربعون ألفاً من الجنود ، وتطوع كثير من الأشراف في جيشه لأنهم لم ينسوا كلهم تقاليد الطبقة التي ينتمون إليها ولم يكن يخفى على اسبارتكوس أنه يقاتل إمبراطورية بأكملها ، وأن رجاله لا يستطيعون أن يصرفوا شئون العاصمة بله الإمبراطورية نفسها إذا استولوا عليها ، فلم يعرج في زحفه على رومة وواصل السير حتى بلغ ثوريي Thuriى مخترقاً إيطاليا كلها من شمالها إلى جنوبها ، لعله يستطيع نقل رجاله إلى صقلية أولاً لإفريقية ، وظل ستة ثالثة يصد الهجمات التي يشنها عليه الرومان ، ولكن جنوده نفذ صبرهم وشتموا القتال ، فخرجوا عليه وعصوا أوامره ، وأخذوا يعيثون فساداً في المدن المجاورة ، والتي كراسس بجاعة من أولئك النهابين وفلك بهم ، وكانوا اثني عشر ألفاً وثلاثمائة ظلوا يقاتلون إلى آخر رجل فيهم . وفي هذه الأثناء كان جنود بمبي قد عادوا من أسبانيا فأرسلوا لتقوية جيوش كراسس ، وأيقن اسبارتكوس أن لا أمل له في الانتصار على هذه الجيوش الحاررة ، فالتص على جيش كراسس وألقى بنفسه في وسطه مرحباً بالموت

في وسط المعركة ، وقتل بيديه ضابطين من ضباط المئين ، ولما أصابته طعنة ألقتة على الأرض وأعجزته عن النهوض ظل يقاتل وهو راحع على ركبتيه إلى أن مات وتمزق جسمه لم يكن من المستطاع أن يتعرف عليه . وهلك معه معظم أتباعه ، وفر بعضهم إلى الغابات ، وظل الرومان يطاردونهم فيها ، وصلب مئة آلاف من الأسرى في الطريق الألباوى المحتد من كهوا إلى رومة (٧١) . وتركت أجسامهم المتعفنة على هذه الحال عدة شهور تطميننا لجميع السادة وإرهاباً لجميع العبيد .

الفصل السادس

بمبي

ولما عاد كراسس وبمبي من هذه الحملة لم يسرحا جنودهما أو يجرداهم من سلاحهم عند أبواب رومة استجابة لرغبة مجلس الشيوخ وإطاعة للقانون ، بل عسكرا بهم خارج أسوار المدينة ، وطالبا أن يؤذن لهما بأن يرشحا نفسيهما للقنصلية دون أن يدخلتا المدينة — وخالفنا بذلك مرة أخرى كل السوابق المألوفة . وزاد بمبي على ذلك أن طالب أرضاً لجنوده وموكبه بنصر لنفسه . ولكن مجلس الشيوخ لم يجبه إلى طلبه ، وكان يرجو أن يفرق بين القائدين ويثير كلا منهما على الآخر . غير أن كراسس وبمبي اتفقا فيما بينهما ، وعقدا حلفاً فجائياً مع الطبقات الدنيا ومع رجال الأعمال ، ونجحوا بفضل الرشا السخية في أن يختارا قنصلين في عام ٧٠ ق . م وقد تاصرهما رجال الأعمال لغرضين عاجلين أولهما رغبتهما في أن يستعيدوا ما كان لهما من سلطان في مناصب المحلفين الذين يحاكمونهم ، وثانيهما أن يستبدلوا بلوكلس Lucullus — الذي كان يحكم الشرق حكماً صالحاً لا نفع فيه لهما رجالاً من طبقتهما يعمل بمبادئهم . وقد وجدوا في بمبي ضالتهما المنشودة .

وكان بمبي وقتئذ في الخامسة والثلاثين من عمره ولكنه كان جندياً خرسته الحروب وخاض معارك كثيرة . وكان من أسرة غنية من طبقة الفرسان ، نال إعجاب مواطنيه أشجاعته واعتداله وحذقه كل ضروب الألعاب وفنون الحرب . وكان قد ظهر صقلية وإفريقية من أعداء صلا ولقبه القنصل الفكه بلقب « العظم » جزاء له على زهوه وانتصاره في الحروب . وقد أحرز بعض النصر وهو شاب أمرد (٣٣) . وقد باغ

من الجمال حدا أنطق فلورا Flora إحدى سرارى ذلك الوقت بقولها إنها لم تكن تستطيع أن تفارقه قط دون أن تعضه (٢٤) . وكان مرهف الشعور ، شديد الحياء ، يحمر وجهه من شدة الخجل إذا اضطر إلى خطابة في اجتماع عام ، أما في الحرب فقد كان في تلك الأيام باسلا مقداماً يخوض غمارها ولا يبالي بما يتعرض له من الأخطار . ولما تقدمت به السن أثر حياؤه كما أثرت بدانته في قدرته على القيادة ، وكان تردده سهياً في هزائمه . ولم يكن أليماً سريع الخاطر أو عميق التفكير ؛ ولم يكن هو الذى يرسم الخطط التى يسير عليها ، بل يضعها غيره . كان يضعها له في أول الأمر السياسيون من طبقة العامة ثم الأثرياء من الشيوخ . وكان ثراؤه الواسع سهياً في انتشاره من المغريات السياسية الدينية ؛ فكان وهو في وهدة الفساد والأناثية التى يتردى فيها أهل زمانه علماً في الوطنية والاستقامة ؛ وبلوح أنه كان في أعماله يستهدف الصالح العام مع صالحه الخاص . وكان أبرز عيوبه غروره وكبرياؤه ، ومنشأ ذلك أن انتصاراته الأولى قد جعلته يغالى في تقدير مواهبه ، وكان مما يعجب له ولا يستطيع فهمه أن تتلكأ رومة هذا التلكؤ الطويل في أن تجعله يستمتع بكل ما يستمتع به الملوك إلا الاسم وحده .

ولما تسنم صنيعتا صلا منصب القنصلية أخذا يعملان ما فى وسعهما لتقويض أركان الدستور الذى وضعه ولى نعمتهما ، وأراد عمى وكراسس أن يوفيا بما عليهما من دين للعامة فأقرا مشروع قانون يهدف إلى إرجاع ما كان للتربيون من سلطات ، ووطدا دعائهم حلفهما مع رجال الأعمال فأمرأ لوكلس أن يحول المترزين الإشراف التام على جباية الضرائب فى بلاد الشرق ، وأيدا التشريع الذى يقضى بأن توزع مقاصب الخلفين بالتساوى بين أعضاء الشيوخ وطبقتى الفرسان ورجال المال . ومضى على كراسس خمسة عشر عاماً قبل أن يلتى جزاءه — وهو أن يصب الذهب فى جوفه صبا فى بلاد آسية . أما عمى فقد نال جزاءه فى عام ٦٧ حين تحولته الجمعية سلطة تكاد أن تكون مطلقة من كل قيد فى

تأديب قراصنة قليقية . ذلك أن جزيرة رودس قد استطاعت في الأيام السالفة أن تظهر بحر إيجة من هؤلاء القراصنة ، فلما أن ذلت رودس وافتقرت على يد رومة ودبلوماس لم يكن في مقدورها أن تحتفظ بالعمارة البحرية التي تمكنها من هذا العمل ، ولم يكن الأشرف ملاك الأراضي المسيطرون على مجلس الشيوخ شديدي الحرص على أن تبقى مسالك التجارة البحرية آمنة من الأخطار . أما التجار والعامة فقد تأثروا بهذه الحال أشد التأثر ، فقد تعدت التجارة لو كادت في بحر إيجة بل وفي القسم الأوسط من البحر الأبيض المتوسط ، ونقص المستورد من الحبوب نقصاً سريعاً ارتفع بسببه ثمن القمح في رومة حتى بلغ عشرين سيسترس لكل موديس (*) أو نحو ثلاثة ريالات أمريكية لكل جالونين . وتباهى القراصنة بنصرهم فرفعوا على سفنهم التي تبلغ عدتها ألف سفينة الساريات المذهبة والأشرعة الأرجوانية ، وجهازها بالمخاديف المصفحة بصفائح الفضة ، وقد استولوا على أربعائة من المدن الساحلية ، واحتفظوا بها ، ونهبوا الهياكل في سمثريس Samothrace . وساموس Samos ، وإلبدورس Epidaurus ، وأرجوس Argos ولوكاس Leucas وأكتيوم Actium ، وعمدوا إلى اختطاف الموظفين الرومان ، وبلغت بهم الجراءة أن هاجموا سواحل أبوليا Apulia وإنروزيا .

وأراد جابينيوس Gabinias صديق بومي أن يعالج هذا الموقف ، فتقدم بمشروع قانون يجعل له السيطرة التامة مدى ثلاث سنوات على جميع الأساطيل الرومانية وعلى جميع الأشخاص المقيمين على مدى خمسين ميلاً من شاطئ البحر الأبيض المتوسط . وعارض كل الشيوخ ، ما عدا قيصراً ، هذا الإجراء العجيب ، ولكن الجمعية أجازته في حماسة بالغة ووافقت على أن تمد بومي بجيش مؤلف من ٢٠٠٠٠ مقاتل وأسطول مؤلف من ٥٠٠ سفينة ، وأبلغت خزانة

(٥) مكياج روماني منتهى هو جالونين . (المترجم)

الدولة أن تضع تحت تصرفه ١٠٠,٠٠٠ و ١٤٤ سسترس . وكان هذا المشروع في واقع الأمر سلباً للسلطة من مجلس الشيوخ ، وختاماً لعودة « صلا » إلى الحكم ، وإقامة الملكية مطلقة . موثقة كانت فاتحة الملكية قيصر ومثلاً له يحتذيه .

وكانت نتيجة هذا العمل مؤيدة لهذه السابقة الخطيرة ، فلم يمتنع على تنصيب پمبي إلا يوم واحد حتى أخذ ثمن القمح في الانخفاض ، وقبل أن يمضى عليه في هذا المنصب ثلاثة شهور أتم العمل الذي نيط به — فاستولى على سفن القراصنة ومعاقلهم وأعدم زعماءهم وإن لم يسيء استعمال السلطة غير العادية التي وضعت بين يديه . وتشجع التجار فأنشطت التجارة الخارجية ، وغمرت السفن عباب البحار ، وتدفق على رومة سيل من الحبوب .

وقبل أن يعود پمبي من قليقية عرض صديقه منليوس Manilius على الجمعية مشروع قانون بنقل قيادة الجيوش وحكم الولايات التي كان يقودها ويحكمها لوكلس^(٦٦) إلى پمبي ، وإطالة الفترة التي حددها قانون جابينيوس لسلطاته المتعددة . وعارض مجلس الشيوخ في هذا المشروع ، ولكن التجار والمرابحين أيدوا الاقتراح تأييداً قوياً ، ذلك أنهم كانوا يؤمنون أن يكون پمبي أقل ليناً من لوكلس لمدينهم في آسية ، وأن يعيد إلى الملتزمين حق جباية الضرائب ، وأنه لن يكتفى بفتح بئينا وبنفس بل سيعتج كذلك كبدوكيا وسوريا وبلاد اليهود ، وأن هذه الحقول الغنية ستفتتح أبوابها إلى التجارة والأموال الرومانية تحت حماية الجيوش الرومانية . وقام « رجل جديد » هو ماركس تليوس شيشرون Marcus Tullius Cicero كان قد اختير بريتورا في ذلك العام بمعونة رجال الأعمال فأيد « قانون منليوس » ، وهاجم العصبية المالية الحاكمة في مجلس الشيوخ بفصاحة وتمور لم يسمع بمثلهما في رومة من أيام ابنى جراكس ، وبصرامة لم تعهد قط في السياسيين . ومن أقواله في هذا الهجوم :

« إن جميع النظم الخاصة بالمال والايمان التي تسير عليها رومة ترتبط بمخارج

الولايات الآسيوية ارتباطاً لا انفصام له ، فإذا ما حمّز هذا الخراج انهارت جميع نظم المال والائتمان في هذه البلاد . : وإذا ما خسر بعض الناس أموالهم كلها جزّوا معهم كثيرين غيرهم : فأنقذوا الدولة من هذه الكارثة : : . وابتدلوا في الحرب على مئرداتس كل ما استطعتم من جهود حتى تحفظوا بشرف رومة وسلامة أحلافنا ، وبأئمن جزء من مواردنا ، وبثروة عدد لا يحصى من المواطنين : .

وأجازت الجمعية من فورها مشروع القانون ، ولم يكن ذلك لأن النعمة يعنون أقل عناية بأموال المالكين ، بل لأنهم كان يسرهم أن يجدوا في تحويل قائد من القواد سلطات واسعة غير محدودة وسيلة لإلغاء تشريعات « صلا » وانقضاء على سلطان مجلس الشيوخ عدوهم القديم .

ومن ذلك اليوم أخذ أجل الجمهورية ينصرم ، وأخذت حياتها تقترب من نهايتها . ذلك أن الثورة الرومانية مستعينة بفصاحة عدوها الألد ، كانت قد خطت خطوة أخرى نحو طغيان قيصر .

الفصل السابع

شيشرون وكاتلين

يقول أفلوطررخس إن ماركس تليوس إنما سمي شيشرون لأن أحد أجداده كانت له على أنفه ثؤلولة تشبه الحصاة الجبلية (cicer) . ولكن أرجح من هذا التعايل أن أباه قد اكتسبوا هذا اللقب لما كانوا ينتجعونه من حصص ذائع الصيت . ويصف شيشرون في كتاب « القوانين » وصفاً رقيقاً يجلب اللب بيته الصغير المتواضع الذي شهد مولده بالقرب من أربينوم Arpinum في منتصف المسافة بين رومة ونابلى على التلال المتصلة بجبال أابين Appenine . وكان لولده من الثروة ما يكفيه لأن يعلم ولده خبر تعلم يستطيع أن يناله في ذلك الوقت ، فاستأجر الشاعر اليوناني أركياس Archias ليعلم ماركس الأدب واللغة اليونانية ، ثم أرسله ليدرس القانون مع كوينتس موسيوس أسكيولا Quinctus Mucius Scaevola أعظم رجال القانون في عصره .

وكان شيشرون يستمع في شوق وانتباه إلى المحاكمات والمناقشات التي تدور في السوق العامة ، وسرعان ما أتقن الفنون والأساليب المتبعة في الخطب القانونية . وقد قال في إحدى المناسبات : « من أراد النجاح في القانون فعليه أن يتخلى عن جميع مسراته ، ويتجنب كل ضروب اللهو . ويودع التسلية والألعاب والطرب ، وأكد أقول إن عليه أن يقطع صلاته أصدقائه (٣) » .

وسرعان ما كان هو نفسه يشتغل بالقانون ويلقى خطباً رنانة حوت من البلاغة والشجاعة ما أكسبه شكر الطبقات الوسطى والدنيا . وقد قاضى أحد صنائع صلا وشهر بما كان يرتكبه من الاضطهاد حين كان حكم الإرهاب

الذى أقامه صلا على أشده (٨٠ ق : م) (٢٧) . ثم سافر بعد قليل من ذلك الوقت إلى بلاد اليونان ، ولعله سافر إليها فراراً من غضب ذلك الطاغية ، وظل في تلك البلاد يدرس الفلسفة وفن الخطابة . وبعد أن قضى ثلاث سنين في أثينة هنيئاً سعيداً انتقل إلى رودس حيث استمع إلى محاضرات أبولونيوس Appollonius بن مولون Molon في البلاغة ، وإلى محاضرات بوسيدونيوس Poseidonius في الفلسفة ، وتعلم من أولهما تراكيب الجمل المتعاقبة وعفة اللفظ وهما الصفتان اللتان كان يمتاز بهما أسلوبه ، وتعلم من ثانيهما تلك الرواقية المعتدلة التي نادى بها بعدئذ فيها كتبه من مقالات عن الدين وفن الحكم والصدقة والشيوخة .

ثم عاد إلى رومة في سنه الثلاثين ولزوج ترنشيا Terentia واستطاع بإقالتها السخية أن يشتغل بالسياسة ، وعلا شأنه ونبه ذكره بعدله وحسن إدارته حين كان كوستراً في صقلية عام ٧٥ ق . م ولما عاد إلى الاشتغال بالمهاماة في عام ٧٠ ق . م أهاج عليه طبقة الأشراف إذ قبل أن يوكله قضية أقامتها مدن صقلية على كيويس فيرس Caius Verre عضو الشيوخ ، واتهمته فيها بأنه وهو صاحب الخراج في تلك الجزيرة (٧٣ - ٧١) كان يبيع المناصب والأحكام ، ويخفض الضرائب بنسبة ما يناله من الرشا ، وأنه لم يكن يبتغى في سرقوسة شيئاً من ثمايلها ، وأنه وهب لإيراد مدينة بأكملها إلى إحدى سراريه ، وأسرف في الظلم ، وابتزاز الأموال والمرقات حتى غادر الجزيرة وهي أكثر خراباً مما كانت بعد حربين من حروب الرقيق ، وشر من هذا كله أن فيرس قد اختص نفسه ببعض ما كان يختص به الملزمون عادة ، وناصر رجال الأعمال شيشرون في اتهاماته ، أما هرتسيوس الزعيم الأرستقراطي للمحامين الرومان فقد تولى زعامة المدافعين عن فيرس ، وأجبر لشيشرون أن يقضى في صقلية حوالي مائة يوم يجمع فيها الأدلة ، ولكنه اكتفى منها بخمسين يوماً ، وعرض في خطبته الافتتاحية من الأدلة للدامغة ما جعل هرتسيوس - وكان قد زين حديثه ببعض ما نخبه

فیرس من التائیل . یتخلى عن موكله . وحکم على فیرس بغرامة قدرها أربعون مليون سنترس ، ففر إلى خارج البلاد . ونشر شیشرون بعدئذ الخمس الخطب الإضافية التي كان قد أعدّها ، وكانت كلها هجوماً عنيفاً على فساد الحکم الرومانی فی الولايات . وبلغ ما أحرزه من تأييد الشعب بجدّه وشجاعته أنه حين رشح نفسه للقنصلية فی عام ٦٣ ق . م انتخب بحماسة بالغة منقطعة النظیر .

وكان شیشرون من أبناء طبقة الفرسان ، ولذلك كانت ميوله بطبيعة الحال مع الطبقة الوسطى ، وكانت تسمّز نفسه من كبرياء الأشراف ويستنكر امتيازاتهم سوء حکمهم ، ولكنه كان يخشى أشد خشية أولئك الزعماء المتطرفین ، فقد كان يرى أن منهمجهم ، بوضعه أزمة الحکم فی أيدي الغوغاء ، يعرض الملكية لأشد الأخطار . ولهذا كانت الخطة السياسية التي وضعها لنفسه حين تولى الحکم أن یقیم « حلفاً من الطبقات » — أى تعاوناً بين الأشراف ورجال الأعمال ، یحول دون عودة تيار الثورة الجارف .

على أن أسباب التدمير وقواه كانت أعمق وأكثر من أن یقضى عليها بسهولة . فقد كان كثيرون من الفقراء یستمعون إلى الخطباء ینادون بوجوب قیام دولة مثالية ، وكان بعض من یستمعون إليهم على استعداد لأن یستخدموا أساليب العنف فی تحقیقها . وكان یعلو عن هؤلاء قليلاً جماعات من العامة خسروا أملاكهم لعجزهم عن أداء ما عليها من رهون . وكان بعض جنود صلا القداى قد عجزوا عن استغلال أراضيهم استغلالاً مربحاً ، وكانوا مستعدين للاشتراك فی أى اضطراب یتیح لهم فرصة لانتهاب المال بلاکد . وكان بين الطبقات العليا طائفة من المدينین المفاسين العاجزين عن أداء ديونهم ، والمضاربين الذين فقدوا كل أمل أو رغبة فی الوفاء بالتزاماتهم ، ومنهم من كانت لهم مطامع سياسية ولكنهم وجدوا سبل الرق تسلسها عليهم طائفة من المحافظین طالبت آجالهم فوق ما یذنی لها أن تطول . وكان إلى جانب هؤلاء كلهم عدد قليل من الثوار المخلصین لمثلهم العليا الذين

لا يخالجهم شك في أنه لا سبيل إلى تلطيف ما ثمن منه الدولة الرومانية من فساد وظلم إلا بانقلاب كامل وثورة جارية .

ولم يحاول أحد جمع هذه الطوائف المشتقة وضمها كلها في قوة سياسية مؤتلفة إلا رجل واحد هو لوسيوس سرجيوس كاتلين Lucius Sergius Catiline ، وهو رجل لا نعرف عنه إلا ما يصفه به أعداؤه — أي ما نستقيه من تاريخ حركته كما كتبها سلتس Sallust الغني صاحب الملايين ، وما نقرؤه من اتهامات ومثالب مقلدة في خطب شيشرون ضد كاتلين ، فأما سلتس فيصفه بأنه « روح ملطخ بالإجرام ، هو والآلهة والناس على طرق نقيض ، لا يجد الراحة في نومه ولا في يقظته لأن ضميره قد قسا عليه فأتلف عقله المضنى المنهوك » وكان هذا سبباً في صفرة وجهه ، وحمرة عينيه ، وهرجلته في مشيه ، فتارة يسرع وتارة يبطئ ، وملاك القول أن وجهه ونظراته لا تترك مجالاً للشك في أن بعقله خبالاً (٣٨) . ذلك وصف يوحى بالصورة التي رسمها لأعدائهم في الحرب أقوام يكافحون في سبيل الحياة والسلطان ، حتى إذا ما وضعت الحرب أوزارها هذبت الصورة شيئاً فشيئاً : أما صورة كاتلين فلم تهذب قط ، فقد اتهم في شبابه بافتراء عذراء فستية ، وهي أخت غير شقيقة لزوج شيشرون الأولى ، وبرأت المحكمة العذراء من هذه التهمة ولكن السنة السوء لم تبرى منها كاتلين ، بل فعلت عكس هذا إذ أضافت إلى التهمة الأولى تهمة ثانية هي أنه قتل ابنه ليرضى بقتله عشيقته الغيور (٣٩) . ولسنا نجد ما نعارض به هذه القصص إلا قولنا إن عامة الناس في رومة — « الغوغاء اليائسين الجياع » كما يسميهم شيشرون — ظلوا أوبع سنين بعد وفاة كاتلين ينثرون الأزهار على قبره (٤٠) . وينقل لنا سلتس هذه الفقرة وهي كما يلوح فعوى خطبة له :

« منذ وقعت الدولة في قبضة عدد قليل من أقوياء الرجال . . . أصبح لهم فيها كل النفوذ والمنزلة والثروة ، ولم يتركوا لنا فيها إلا الخطر والهزيمة والمحاكمات

والفقر : : وماذا بقي لنا في الحياة إلا الأنفاس التي تتردد في صدورنا ؟ . . .
أليس خيراً لنا أن نموت شجعاناً من أن نفقد حياتنا اليائسة الذليلة بعد أن
نصير لعبة في أيدي السفهاء (٤١) .

وكانت الخطة التي يريد أن يضعها لضم عناصر الثورة المتعارضة
خطة سهلة بسيطة تتلخص في كلمتين هما « سجلات جديدة » ، ويقصد
بهما إلغاء الديون كلها لإلغاء تماماً بلا قيد ولا شرط . وأخذ يعمل لهذه الغاية
بهمة لا تعادلاً إلا همة قيصر : : والحق أنه نال إلى حين عطف قيصر إذا
لم يكن قد نال في السر معونته . وقد قال فيه شيشرون : « لم يكن ثمة
شيء لا يستطيع فعله ، ولم تكن ثمة آلام لا يقاسيها في سبيل تعاون عناصر
الثورة ويقتلها وكدها . وكان في وسعه أن يتحمل البؤس والجوع
والعطش » (٤٢) . ويقول لنا أعداؤه إنه نظم فرقة قوامها أربعمائة رجل
هدد إليها قتل القنصلين والاستيلاء على أكمة الحكم في أول يوم من
عام ٦٥ ق : م فلما حل ذلك اليوم لم يحدث شيء غير هادي ، وفي عام ٦٤
ق : م رشح كاتلين نفسه للقنصلية ضد شيشرون وشن عليه حملة انتخابية
شديدة (*) ، روعت أصحاب رؤوس الأموال ، وبدأت أموالهم تتسرب
من إيطاليا : : واتحدت الطبقات العليا لتأييد شيشرون وتحقق بذلك ما كان
يتنادى به من « تعاون الطبقات » ، ودام هذا التعاون عاماً كاملاً ، وكان
هو يمثل هذا التعاون وصوته الناطق .

ولما وجد كاتلين أبواب السياسة موصدة أمامه ولى وجهه شطر الحزب ،
فجهز أتباعه سرّاً جيشاً في إتروريا من عشرين ألف مقاتل ، وجمعوا في رومة عصابة
من المتآمرين كان فيها ممثلون لجميع الطبقات من الشيوخ إلى الرقيق . وكان نها

(*) وفي هذه الحملة الانتخابية وضع كورنيلس شقيق شيشرون له دستوراً يسير عليه في
حملته فقال : « عليك بالإسراف في الوعد » لأن الوعد الكاذب أحب إلى الناس من الرفض
الصريح . . . واخترع فضيحة جديدة تزيعها عن منافسيك جريمة كانت أو رشوة أو ففحة
خلقية ، (٤٣) .

بريتوران هما سثيجس *Sethagus* ولنتولس *Lentulus* ، وتقدم كاتلين
للقنصلية مرة أخرى في شهر أكتوبر التالي .

ويقول لنا المترجمون له من المحافظين إنه أراد أن يضمن لنفسه النجاح
في هذا الانتخاب ، فدبر قتل منافسه في أثناء الحملة ، واغتيل شيشرون في
الوقت عينه . وادعى شيشرون أنه علم بهذا التدبير فلأ « ميدان المريخ »
بحرس مسلح ، وأشرف بنفسه على عملية الانتخاب ، وهزم كاتلين للمرة
الثانية رغم تأييد الطبقات الدنيا وتحمسهم له . ويحدثنا شيشرون أنه في اليوم
السابع من نوفمبر طرق بابه عدد من المتأمرين ، ولكن حراسه صدوهم عنه
وأبصر شيشرون في اليوم الثامن كاتلين في مجلس الشيوخ فأخذ يكيل
له ذلك السباب الذي كان كل تلميذ ينطق به في وقت من الأوقات . وبينما
كان الخطيب يصب اللعنات على كاتلين خلت المقاعد التي حوله واحداً بعد
واحد حتى لم يبق في المجلس غيره . وتحمل وهو صهامت سبل اتهم الجارف
والألفاظ المقذعة القاسية تنصب انصباب السياط على رأسه .

وأخذ شيشرون يستثير كل عاطفة من عواطفه ، فشبه الأمة بالأب
العام وشبه كاتلين بقاتل أبيه ، واتهمه غمراً وضمناً بغير دليل بأنه يأتمر
بالدولة ، وبالسرقه ، والزنى ، والأفعال الجنسية الشاذة ، وتوجه آخر
الأمر إلى جوف *Jove* أن يقي رومة السوء ، وأن يصب عذابه السرمدي
على كاتلين .

ولما أتم شيشرون خطبته خرج كاتلين من المجلس دون أن يعترضه أحد ،
وانضم إلى قواته في إتروريا . وأرسل قائده لوسيوس منليوس *Lucius Manlius*
آخر نداء له إلى مجلس الشيوخ وقال فيه :

إنا لنشهد الآلهة والناس على أننا لم نمتشق الحسام لنقاتل به بلدنا ،
أو نهدد به سلامة بني وطننا . وكل الذي يدفعنا نحى المعدمين البائسين الذين
تضافر علينا عنف المرابين وقسوتهم فشردونا من أوطاننا ، وحكم علينا

بالفاقة والحرمان ، وأصبحنا سخرية للساخرين — كل الذى يدفعنا إلى ما نحن فاعلوه هو رغبتنا فى أن نحى أنفسنا من الظلم . . وأما المال وأما السلطان ، وهما أكبر أسباب النزاع بين بنى الإنسان ، فلا مأرب لنا فيهما ، بل كل الذى نطلبه هو الحرية ، ذلك الكنز الذى لا يفرط فيه الإنسان إلا حين يسلم الروح . ولنا لتوسل إليكم أيها الشيوخ أن تستشعروا الرحمة على بنى وطئكم المعبدين^(٤٤) !

وخطب شيشرون فى اليوم الثانى خطبة وصف فيها أتباع منافسه العاصى بأنهم طائفة ملتفة حول عصبة من الضالين المارقين المتعطرين ، وأطلق العنان لعبقريته فاخترع كل ما أسعفته به من سخرية وسباب ، وختم خطبته مرة أخرى بنغمة دينية . وعرض على مجلس الشيوخ فى الأسابيع التالية ما زعم أنه براهين تثبت أن كاتلين قد حاول أن يشعل نار الثورة فى بلاد الغاليين ، وأقبح فى اليوم الثالث من ديسمبر أن يقنع أولى الأمر بالقبض على لتولس ، وشيخس وخمسة غيرهما من أتباع كاتلين . وصرح فى خطبة ثالثة له بالجريمة التى ارتكبوها ، وأعلن أنهم قد زجوا فى السجن ، وأبلغ المجلس والشعب أن المؤامرة قد أخفقت ، وأن فى وسعهم أن يعودوا إلى بيوتهم آمنين مطمئنين . وفى اليوم الخامس من ديسمبر دعا مجلس الشيوخ إلى الاجتماع وسأله عما يفعله بالمعتقلين ، فاقترح سلانوس أن يقتلوا ، وأشار قيصر أن يكتفى بسجنهم ، وذكر الشيوخ بأن قانون سمبرونيوس يحرم إعدام المواطن الرومانى ، ونصح شيشرون فى خطبة له رابعة أن يعدوا ، وكان فى هذه المرة رقيقاً فى نصحه ، غير عنيف فى عرضه . وأيد كاتو بفلسفته هذا رأى ، ورجحت كفة القائلين بالإعدام . وحاول بعض الشبان من الأشراف أن يغتالوا قيصر وهو خارج من قاعة المجلس ولكنه نجا من شرهم . وذهب شيشرون ومعه رجال مسلحون إلى السجن الذى كان فيه المعتقلون ، وهناك نفذ الحكم على الفور ، ثم أرسل ماركس أنطونيوس زميل شيشرون فى القنصلية ، ووالد ماركس أنطونيوس الدائع الصيت — أرسل على رأس جيش

رومانى للقضاء على قوة كاتلين . ووعد مجلس الشيوخ أن يعفو عن كل رجل يترك صفوف الثوار ، وأن يمنحه فوق ذلك مائتى ألف سسترس ٥ ولكن « أحداً لم يفر من معسكر كاتلين » على ضد قول سلاست ، ودارت رحى القتال بين الجيشين فى سهول بستويا Pistoia (٦١) . وقاتل الثوار ، وكانوا ثلاثة آلاف رجل ، قتال الأبطال ، ودافعوا عن أعلامهم — نستور ماريوس — العزيزة عليهم إلى آخر رجل منهم رغم ما كانوا عليه من قلة بالنسبة لأعدادهم . ولم يستسلم واحد منهم أو يفر من الميدان ، بل ماتوا جميعاً فى المعركة كما مات بينهم كاتلين نفسه .

ولما كان شيشرون من رجال الفكر لا من رجال العمل ، فقد أدهشه وأثر فيه ما أظهره من المهارة والشجاعة فى القضاء على هذه الفتنة الصماء . ومن أقواله فى مجلس الشيوخ : « إني ليخيل إلى أن تدبير هذا العمل للعظيم يتطلب حكمة فوق حكمة الآدميين » (٤٥) وشبه نفسه بـرمبولوس ، ولكنه قال إن حفظ رومة أعظم من تشيدها (٤٦) .

وتبسم الشيوخ وكبار الموظفين ضاحكين من قوله ، ولكنهم كانوا يعلمون أنه هو الذى أنجاهم ، وهتف له كاتو وكاتلس ولقباه بأبى الوطن Pater Patriae . وبحدثنا هو عن نفسه بقوله إنه لما اعتزل منصبه فى عام ٦٣ ق م قدمت له جميع الطبقات ذوات الأملاك شكرها ، ولقبته بالرجل الخالد ، وسارت من حوله إلى بيته (٤٧) . ولم يشترك صعاليك المدينة فى هذه المظاهرة ، ذلك أنهم لم يغفروا له اعتدائه على قوانين رومة بقتله المواطنين دون أن يتيح لهم فرصة استئناف حكم الإعدام ، وأحسوا بأنه لم يحاول قط إزالة أسباب ثورة كاتلين أو تخفيف أعباء الفقر عن جمهرة الشعب ، ومنعوه أن يخطب فى الجمعية فى آخر يوم من حكمه ، وكانوا يستمعون له وهم غضاب حين أقسم أنه قد حافظ على المدينة ، والحق أن الثورة لم ينقض عهدها فى ذلك الوقت بل اندلعت نيرانها فيما بعد حين أصبح قيصراً قنصلاً .

الباب الثامن

الأدب في عهد الثورة

١٤٥ - ٣٠ ق م

الفصل الأول

لكريشيوس

لم يغفل الناس الأدب وسط هذا الانقلاب العنيف في أحوال البلاد الاقتصادية ونظم حكمها وأخلاقها ، كما أنه لم يكن بمنجاة من حمى ذلك العهد وما فيه من دوافع قوية . من ذلك أن فارو Varro ونيپوس Nepos قد وجدوا السلامة في دراسة الآثار القديمة وفي البحوث التاريخية . وعاد ميلست من حروبه ليدافع عن حزبه ويغشى أخلاقه بستر من المقالات الأدبية الرائعة . ونزل قيصر من عليائه على رأس الإمبراطورية ليكتب في النحو ويواصل حروبه في شروحه Commentaries ، وحاول كاتلس وكلفص Calvus أن يجدا في الحب وفي الغزل ملجأً يعصمهما من أعاصير السياسة ، وفر لكريشيوس وأمثاله من ذوى القلوب الضعيفة والنفوس المرفهة الحس إلى حداثق الفاسفة ، وغادر شيشرون من آن إلى آن حرارة السوق العامة ليهدي أعصابه ويروح عن نفسه بين صفحات الكتب . ولكن أحداً من هؤلاء لم يجد ما ينشده من السلام لأن الحروب والثورات كانت تطفئ عليهم جميعاً . وما من شك في أن لكريشيوس نفسه قد أحس بالقلق الذي يصفه في الفقرة الآتية :

« إن عبثاً يثقل عقولهم وجبال من الشقاء يرمو فوق قلوبهم . . . ذلك أن

كلامهم لا يعرف ما يريد فيعمل دائماً لتبديل مكانه ظناً منه أن في استطاعته أن يلقى حمله عن عاتقه : فهناك رجلاً قد مل الحياة في منزله ، فتراه يخرج من قصره بين الفينة والفينة ، ولكنه لا يجد نفسه في خارج الدار أحسن منه حالاً في داخلها فيعود إليها فجأة . فتراه مسرعاً يسوق جياده إلى بيته الريفي لا يلوى على شيء ولكنه لا يكاد يجتاز عتبة الدار حتى يتشاءب أو يحاول نسيان متاعبه في النوم العميق . وقد يبلغ به الأمر أن يعود من فوره إلى المدينة . وهكذا يفر كل امرئ من نفسه ، ولكن نفسه التي لا يستطيع الفرار منها تزيد التصاقاً به رغم إرادته كما هو المنتظر منها ، وهو يكره نفسه لأنه وهو إنسان مريض لا يعرف سبب شكواه . وكل من يستطيع أن يرى هذا بوضوح يطرح عمله من ورائه ظهرياً ، ويسعى قبل كل شيء لفهم طبيعة الأشياء .

وكل ما نعرفه عن حياة تيتس لكريشيوس *Titus Lucretius Carus* هو قصيدته . ولم يشأ أن يذكر في هذه القصيدة شيئاً عن نفسه ؛ أما فيما عداها فإن الأدب الروماني يغفل إغفالا عجبياً شأن رجل من أعظم رجاله إذا استتبنا إشارات قليلة في مواضع منه مختلفة . ونحدد الرواية المأثورة تاريخ مولده بعام ٩٩ أو ٩٥ ، وتاريخ وفاته بعام ٥٥ أو ٥١ ق م . ، أي أنه عاش نحو خمسين سنة من سنى الثورة الرومانية : سنى الحرب الاجتماعية ، ومذابح ماريوس ، وإرهاب صلا ، ومؤامرة كاتلين ، وفنصلية قيصر . وكانت الأرستقراطية التي يفتنى إليها في الأغلب الأعم آخذة في الانحلال البادى للعيان ؛ وكان العالم الذي يعيش فيه يتصدع وينتردى في الفوضى التي لا يأمن فيها أحد على حياته أو ماله . وقصيدته حينئذ منه إلى الراحة الجسمية والسلامة العقلية .

وبلأ لكريشيوس من متاعب العالم إلى الطبيعة والفاسقة والشعر . ولعله أيضاً قد عرج على الحب ، فلذا كان قد وقع له شيء منه فامن شك في أنه لم يوفق فيه ، لأنه يقسو في كتابته على النساء ، ويشهر بفتنة الجمال ،

وينصح الشباب المتعطش لإشباع شهواته بأن يسد مطالب الجسد بالاختلاط الجنسي الهادئ الطليق^(٢) . وكان يجد في الغابات والحقول ، وفي للنبات والحيوان ، وفي الجبال والأنهار والبحار ، كان يجد في هذه كلها بهجة لا يعادها إلا شغفه بالفلسفة . وكان مرهف الحس سريع التأثر كوردسورث Wordsworth ، قوى الإدراك مثل كيتس Keats ، توحى إليه المدرسة أو ورقة الشجرة ، كما توحى لشيلى Shelley ، علم ما وراء الطبيعة . وكان لجمال الطبيعة ورهبتها وكل ما يتصل بهما أثره فيه ، فكانت تحرك عواطفه صور الأشياء وأصواتها ، ورائحتها ومذاقها ؛ وكان يحس بصمت المربض الخفية ، وسدول الليل الهادئ ، وطلوع النهار المتثاقل . وكان كل شيء طبعى أعجوبة الأعاجيب في نظره - ماء ينساب على مهل ، ونبات يخرج من البذور ، وتغير دائم في الجو ، ونجوم في السماء ثابتة لا تحول ، وكان يرقب الحيوانات في شغف وعطف ، ويحب ما فيها من صور القوة والجمال ، ويحس بالآلامها ، ويعجب من فلسفتها التي لا تعبر عنها الألفاظ . ولم يرقبها شاعر غير عن جلال العالم وما حواه من تباين دقيق وقوة متناسقة ملتزمة ، مثل ما عبر عنه هو . فهنا كسبت الطبيعة في آخر الأمر معاقل الأدب ، وأفاضت على شاعرها قدرة على الوصف لم يفقه فيهما إلا هومروس وشيكسبير .

وما من شك في أن هذه الروح الحساسة التي تستجيب إلى ما حولها من المؤثرات قد تأثرت تأثراً عميقاً بخفايا الدين ومظاهره الخلابة ، ولكن الدين القديم الذي كان فيما مضى دعامة قوية لكيان الأسرة والنظام الاجتماعي قد فقد ما كان له من سيطرة على الطبقات المتعلمة في رومة . فقد كان قيصر مثلاً يتسم في لطف وهو يمثل دور الكاهن الأكبر ، كما كانت مآدب الكهنة متعة الأبيقوريين الرومان . وكان من الأهليين أقلية صغيرة تكفر بالآلهة الرومانية جهرة ، وكان بعض الساسة الرومان يقوم بالليل ويحطم أصنام الآلهة ، كما كان يفعل ألقبيادس Alcibiades في أثينة^(٣) . أما الطبقات الدنيا فإن الطقوس الرسمية لم تعد تلهم

الكثيرين من أفرادها أو تخفف عنهم أحزانهم ، فأخذوا يهرعون إلى الهياكل المملوطة بالدماء والتي كانت تعبد فيها « الأم الكبرى » الفريجية ، أو الإلهة ما الكيدوكية ، أو بعض الآلهة الشرقية التي جاء بها الجنود أو الأسرى من بلاد الشرق إلى إيطاليا . وتطورت الفكرة الرومانية القديمة عن « أوركوس » Orcus ، وهي التي كانت تمثلها في صورة مكان تحت الأرض يأوى إليه الموتي بلا تمييز بينهم ، فصاروا يعتقدون بوجود جحيم حقيقي « تارتاروس Tartarus » أو أكبرون Acheron يعذب فيه الناس جميعاً عذاباً أبدياً إلا طائفة قليلة تولد من جديد وتبدأ حياة جديدة في مجتمع جديد^(٤) . وقد نظر إلى الشمس والقمر على أنهما إلهين ، وكان كل كسوف وخسوف يحدث لهما يبعث الرعب في القرى المنعزلة وفي قلوب الكثيرين من الأهلين ، وأقبل العرافون والمتنبؤون الكلدان على إيطاليا يجوسون خلالها ويستطلعون طلع المعدمين والأثرياء على السواء ، ويكشفون عن الكنوز الخبأة وعما يخبئه المستقبل ، ويفسرون الأحلام والفؤول تفسيراً ماؤه الخدر والغموض ، أو الملقى النافع . وكانوا يبحثون كل ظاهرة طبيعية غير مأوفة ، ويدعون أنها نذير تنذرهم به الآلهة . وكان الدين الذي يعرفه لكريشيوس هو هذا الحسد العظيم من الخرافات والطقوس والتناق .

فلا عجب ، الحالة هذه إذا اشتأزت نفسه منه ، وثارت عليه ، وهاجمه بكل ما في قلب المصلح الديني من جرأة وحاسة .

وفي وسعنا أن نحكم على مقدار ما كان يعمر قلبه أيام شبابه من نقي وإيمان ، وما أصابه بعدئذ من خيبة رجاء ، إذا عرفنا مقدار ألمه الشديد من حال الدين وقتئذ . فقد أخذ يبحث لنفسه عن دين يعوضه عما فقدته من إيمانه بالدين القديم ، فتنقل من تشكك لإنوس Ennius إلى قصيدة أنبادقليس الرائعة التي شرح فيها مبدأ التطور وتنازع الأضداد . ولما عرف آراء أبيقور خيل إليه أنه غير على جواب المسائل التي كانت

تخير عقله ، وبدأ له أن الرجل الحر يجد في ذلك الخليط العجيب من المادية وحرية الإرادة ، ومن الآلة المرحمة والعالم الذي لا يؤمن بالآلهة ، جواباً عما ينتابه من شكوك ومخاوف . ولاح أن نسمة من نسائم التحرر من المخاوف السماوية تنبعث من حدائق أبيقور ، وتكشف عن سلطة القانون العليا واستقلال الطبيعة بشؤونها وسلطانها على مصائرنا ، ومن أن الموت أمر طبيعى لا تلام عليه . ولذلك اعتزم لكريشيوس أن ينتزع هذه الفلسفة من النثر القبيح الذى صاغها فيه لكريشيوس ويصهرها فيخرجها شعراً ، ثم يقدمها لمعاصريه على أنها هى الطريقة المثلى ، وهى الحقيقة ، بل هى الحياة نفسها . وكان يحس أن فى نفسه قوة نادرة مزدوجة — فيها إدراك العالم الموضوعى ، وعاطفة الشاعر الذاتية ، ويرى فى نظام الطبيعة بأكمله سمواً ، وفى عناصرها جمالاً ، بشجعان وبررآن هذا التزاوج بين الفلسفة والشعر . وقد ابرز هذا الهدف العظيم الذى كان يعمل له جميع قواه الكامنة وسما به إلى مستوى رفيع فذ من الرقى الفعلى ، ثم تركه قبل أن يبلغ هذا الهدف منهوكاً خائراً القوى ، أو لعله تركه ناقص العقل مخبولاً . غير أن كدحه الطويل المبهج المطرب قد حباه بسعادة استحوذت عليه فصب فيها كل ما كان كامناً فى روحه الدينية من إخلاص عميق .

ولم يختار لكريشيوس لقصيدته عنواناً شعرياً بل اختار لها عنواناً فلسفياً هو : De Rerum Natura « فى طبيعة الأشياء » ، وهى ترجمة بسيطة لعبارة Peri Physeos (عن الطبيعة) التى اختارها الفلاسفة قبل سقراط اسماً عاماً لرسالاتهم ، وبعد أن كتبها قدمها لأبناء كيوس ميموس Caius Memmius فى عام ٥٨ ق . م لتكون لهم سهيلاً هادياً يخرجهم من الخوف إلى الإدراك . وقد حذا فى طريقة عرضه لما احتوته من الآراء طريقة أنبادقليس فى ملحمة ، كما احتذى فى تعبيره لغة لاثيوس العجيبة الحالية من الزخرف والتجميل ، واختار لها

الوزن السهل الصالح للتعبير عن مختلف الأغراض ، وهو الوزن السداسى الأوتاد ، ثم نسى إلى حين إهمال الآلهة شئون الناس وتباعدوا عنهم فبدأ بدعوة حارة موجهة إلى فينوس إذ خلها رمزاً للرغبة المبدعة ، ولطرائق السلم كما كانت محبوبة أنبادقليس فقال :

يا أم شعب إنياس ، يا بهجة الخلق والآلهة ، أى فينوس المغذية المربية ! . . . إن جميع الأحياء تحمل بها أنهارها وتلدها ، ثم تنظر إلى الشمس عن طريقك أنت . وإذا أقبلت فرت الرياح أمامك ، وتبددت سحب السماء ؛ إليك ترفع الأرض ذات المعجزات أزهارها الجميلة ، وإليك تضحك أمواج البحر وتلأل السماء الصافية بالضياء الشامل . ذلك أنه إذا ما بدت تباشر النهار فى فصل الربيع وهبت ريح الجنوب المخصبة فأكسبت كل الأشياء نضارة وخضرة ، هلت لك طيور الهواء أولاً ورحبت بقدومك ، أيتها الإلهة المقدسة ، لأن قوتك قد نفذت فى قامها . ثم أخذت القطعان البرية تقفز فوق المراعى التى تفرح بقفزها ، وتعبى الجداول السريعة الجريان ، وهكذا يصبح كل واحد منها أسير جمالك ويسير فى ركابك أينما سرت ، ثم قبعين بالحلب الجميل فى صدور كل المخلوقات من خلال البحار والجبال والأنهار الجارية ، وأوكار الطير بين أوراق الشجر والحقول الخضراء ؛ وتوحين إليها بأن تناسل وتولد أنواعها . وإذا كنت أنت وحدك تتحكمين فى طبيعة الأشياء ، وبغيرك لا يرتفع شئ إلى شواطئ الضوء اللامعة ، ولا يوجد شئ بهيج أو جميل ؛ فإن نفسى تتوق إليك لتكونى شريكى فى كتابة هذه الأبيات . . . ألا فامنحى أيتها الإلهة ألفاظى جمالا لا يتركها الفناء ، واجعلى فى خلال ذلك الوقت أعمال الحرب الوحشية تنام وتسكن . . . وإذا ما استند المريخ إلى جسمك المقدس فانحنى حوله من عليك ، وصبى الألفاظ الحلوة من فمك ، واطلبى نعمة السلام إلى الرومان (٥) .

الفصل الثانى

فى طبيعة الأشياء

إذا حاولنا أن نصوغ ما فى جدل لكريشيوس من اضطراب حماسى فى صورة منطقية ، فإن فكرته الأساسية تتمثل فى ذلك البيت المشهور :

Tantum religio potuit suadere malorum

« ما أكثر ما بعثه الدين فى قلوب الناس من شرور ! » (٦) .

فهو يروى قصة إفجينيا فى أوليس ، والضحايا البشرية التى يخططها الحصر ، والذبايح التى تقدم قرباناً للآلهة التى يمثلونها فى صورة البشر النهمين ، ويذكرنا بالأهوال التى تحيط بالسذج والشبان حين يضلون فى أجسام الآلهة المنتقمة الجبارة ، وما يقذفه فى قلوبهم الرعد والبرق والموت والجحيم من رعب ، وبالأهوال السفلى التى يصورها الفن الإترورى والقصص الشرقى الغامضة الخفية ، وهو ينحى باللائمة على بنى الإنسان لأنهم يفضلون مراسم التضحية على التعقل الفلسفى ويقول :

« أيها الخلاق البائسون ما بالكم تعزون إلى الآلهة هذه الأعمال الشائنة . وهذا الغضب المرير ! كم من أحزان يهيتها الناس لأنفسهم (بهذه العقائد) ، وكم من جراح تشحن بها أجسامنا ، ودموع تذرّفها أعين أبائنا ! ذلك أن التقوى لا تكون فى كثرة توجيه الرأس المقنع إلى الأحجار ، ولا فى الاقتراب من جميع مذابح القربان ، ولا فى الركوع والسجود . . . أمام هياكل الآلهة ، ولا فى إسالة دماء الحيوانات على المذابح . . . بل التقوى هى أن يكون فى طاقة الإنسان أن ينظر إلى الأشياء جميعها بعقل هادى مطمئن » (٧) .

ولا ينكر لكريشيوس وجود الآلهة ، ولكنه يقول إنها تقيم بعيدة عنا ، سعيدة كل السعادة في عزلتها وبعدها عن أفكار البشر ومتاعهم ، هنالك « وراء أسوار العالم المشتعلة » (extra flammantia moeina mundi) بمنأى عن ضحاياها وصلواتنا ، وهي تعيش كما يعيش أتباع أبيقور بعيدة عن الشئون الدنيوية ، فائقة بتأمل الجبال وعمل ما تتطلبه الصداقة والسلام^(٨) . وليست الآلهة في رأيه هي التي خلقت العالم ، وليست هي سبب ما يقع فيه من الأحداث ، فنذا الذي يظلمها ذلك الظلم الصارخ فيتمها بأنها سبب ما في الحياة على الأرض من تلف ، واضطراب ، وآلام ، ومظالم ؟ كلا إن هذا الكون اللانهائي الذي يشمل عدة عوالم مستقل عما سواه ، ولا شأن له بغيره ، ولا يسيطر عليه قانون خارج عنه ؛ فالطبيعة تفعل كل شيء من نفسها . منذا الذي أوتى من القوة ما يستطيع به أن يتصرف في الأشياء مجتمعة ، ويقبض بيده على ذلك العنان القوي عنان الأبدية التي لا قرار لها ؟ منذا الذي يستطيع أن يحرك السموات كلها دفعة واحدة . . . ويميز السماء الصافية بالرعد القاصف ، ويقذف بالبرق فيزلزل به في كثير من الأحيان هياكل الآلهة ، ويرسل الصواعق فيقضي بها على البريء وينجو منها المجرم^(٩) . إن إله الكون الذي لا إله سواه هو القانون ، وأصدق العبادات ، والسبيل الوحيدة إلى السلام أن يعرف الناس ذلك القانون ويجوه . إن مخاوف العقل وظلمته لا تبدها أشعة الشمس . . . بل يبدها النظر في قوانين الطبيعة^(١٠) .

وهكذا « يمس » لكريشيوس « برحيق ربات الشعر » مادية دمقريطس الخشنة ، ويصرح بأن مبداه الأساسى المقرر أن لا وجود إلا للذرات والفراغ^(١٢) أى المادة والقضاء ، ثم ينتقل من فوره إلى مبداء جوهرى (وافترض) من مبادئ العلم الحديث ، وهو أن ما فى العالم من مادة وحركة لا يتغير أبداً ، وألأشياء ينشأ من لا شيء ، وأن ليس الإنلاف والتحطيم إلا تغيراً فى الشكل ، وأن الذرات لا تتحطم ، ولا تبدل ، وأنها

صلبة ، مرنة ، عديمة الصوت والرائحة والذوق واللون ، وأنها لا حدود لها ، يتدخل بعضها في بعض ليتكوّن منها مركبات وصفات لا حصر لها ، وتتحرك حركة لا انقطاع لها ، في سكون الأشياء العديمة الحركة البادى للأنظار : « فكثيراً من نرى على سفوح الجبال . . . الأغنام ذات الأصواف ترحف حيث يغريها بالزحف الكلاّ الذى تتلأأ عليه قطرات الندى ، وترى الحملان التى شبت ورويت تلعب وتتناطح فى لعبها بروثومها . ولكن هذه كلها تنظمس للبعيد عنها حتى لا تستطيع العين أن تميزها ، وتبدو لطفة بيضاء على تل أخضر . وتنتشر الجيوش الجرازة فى بعض الأحيان فى مبادي واسعة ؛ وتتحرك حركات تمثل بها الحروب ، تسطع دروعهم البرازية فتضىء ما حولها ، وتنعكس على قبة السماء ، وتزازل الأرض وتجلجل تحت أقدام الجند وسنابك الخيل ، وتصطدم هذه الأصوات بالجبال فتدفع بها مرة أخرى لى نجوم السماء . ومع هذا فإن فى قلب الجبال مكاناً تبدو منه هذه الجيوش كأنها ساكنة لا تتحرك ؛ ولا تبدو أن تكون بقعة صغيرة بيضاء مستقرة فوق السهل » (١٣) .

وتحتوى الذرات (*) على النهايات minima أو « أصغر الأشياء » ، وكل منيعة minimum جسم نهائى صلب ، لا يقبل الانقسام ، ولعل اختلاف ترتيب هذه الأجزاء هو السبب فى اختلاف أحجام الذرات وأشكالها ، وهو الاختلاف الذى ينشأ منه تباين الطبيعة تبايناً يسر النفوس وينعشها . والذرات لا تتحرك فى خطوط مستقيمة أو منتظمة ، بل إن فى حركتها انحرافاً أو زيفاً دقيقاً لا يستطيع قياسه ، وفيها تلقائية عنصرية تسرى فى جميع الأشياء وتصل إلى غايتها فى إرادة الإنسان الحرة (**) .

(*) لم يستعمل لكريشيوس هذا اللفظ قط ، ولكنه يطلق على جزئياته الأولية اسم « الأوليات » أو العناصر أو البذور *primordia, elementa, Semina* .

(**) قارن هذا بمبدأ « الحتمية » التى يمزوها بعض علماء الطبيعة فى هذه الأيام للكهارب (الإلكترونات) . (المترجم)

لقد كانت كل الأشياء من قبل عماء . ، ولكن التوزيع التدريجي للذرات المتحركة حسب أحجامها وأشكالها قد أنتج - عن غير قصد - الهواء والنار والماء والتراب ومن هذه كلها نشأت الشمس والقمر والكواكب والنجوم ؛ وفي الفضاء اللانهائي تفسأ باستمرار عوالم جديدة وتنفذ عوالم أخرى قديمة ، والنجوم نيران مثبتة في حلقة من الأثير (وهو ضباب من ذرات أرق من الذرات السابقة) المحيطة بكل مجموعة كوكبية . وهذا الجدار الكوني الناري هو الذي يكون « أسوار العالم الملتبته » : ثم انفصل جزء من الضباب البدائي عن هذه الكتلة وأخذ يندور وحده ويرد فتكونت منه الأرض . وليست الزلازل ناشئة من صراخ الآلهة بل من تمدد الغازات . والمجاري التي تحت الأرض : كما أن الرعد والبرق ليسا صوت الإله . وأنفاسه بل هما نتيجتان طبيعيتان لتكاثف السحب واصطدامها بعضها ببعض : وليس المطر مرحمة من جوف بل هو رجوع الرطوبة التي بخرتها الشمس إلى الأرض .

والحياة في رأيه لا تختلف في جوهرها عن غيرها من خصائص المادة ، فهي نتيجة حركة الذرات التي لا حياة في كل منها بمفردها . وكما أن الكون قد اتخذ صورته الخاصة به طوعا لقوانين المادة المتأصلة فيها ، فكذلك أخرجت الأرض كل أنواع الكائنات الحية وأعضاءها بطريقة الانتخاب الطبيعي لا بغيرها من الطرق .

لا شيء ينشأ في الجسم ويقصد به أن نستخدمه ، ولكن ما ينشأ فيه ينتج بعد وجوده الغرض الذي يستخدم فيه^(١٤) . . . فلم يكن هدف الذرات هو الذي جعلها ترتب نفسها ترتيبا قائما على الذكاء والفطنة ، بل السبب في ترتيبها هذا أن كثيرا من الذرات منذ الأزل قد تحركت والتقت بطرق مختلفة لا حصر لها ، وجريت كل التراكيب المختلفة . . . ومن ثم نشأت مبادئ الأشياء العظيمة . . . وأجيال الكائنات الحية^(١٥) . وما أكثر ما حاولت الأرض أن توجد من المحولات ، ففما لم تكن له أقدام ، ومنها ما لم تكن له يدان أو فم أو وجه أو أطراف ملصقة بجسمه . . . ولكن هذه المحاولات

كلها ذهبت أدراج الرياح ، فقد ضنت عليها الطبيعة بالنماء ، ولم تستطع هي أن تجد لنفسها الطعام ، أو أن تتصل بعضها ببعض اتصالا مبعثه الحب : وما من شك في أن كثيراً من الحيوانات قد بادت في ذلك الوقت لأنها عجزت عن الاحتفاظ بأنواعها عن طريق الزواج والتناسل ، وسبب ذلك أن الأنواع التي لم تنمى للطبيعة صفات « تحميها من أعدائها » كانت تحت رحمة غيرها ، وسرعان ما هلكن وانقرضت (١٦) .

وليس العقل (Animue) إلا عضواً كالقدمين والعينين ، وهو مثلهما أداة أو وظيفة لتلك الروح (Anima) أو النسمة الحيوية ، وهي مادة جد رقيقة تنتشر في الجسم كله ، وتبعث الحياة في كل جزء من أجزائه . وعلى الذرات الشديدة الحساسية التي يتكون فيها العقل تسقط الصور أو الأشرطة التي لا ينقطع خروجها من سطوح الأشياء . وهذا هو منشأ الإحساس . ويلشأ الذوق والشم والسمع والبصر واللمس من جزيئات تخرج من هذه الأشياء وتقع على اللسان أو الخالق أو الخياشيم أو الأذنين أو العينين أو الجلد . والحواس كلها صور اللمس . وهي الحك النهائي حقائق ، فإذا ما ظن أنها أخطأت فليس ذلك إلا نتيجة أسوء التفسير ، ولا يصحح خطأ إحدى الحواس إلا جاسة أخرى ، ولا يمكن أن يكون العقل يحك الحقائق لأن العقل يعتمد على التجارب أى على الإحساس .

وليس النفس شيئاً روحياً ، ولا هي خالدة ، فهي لا تستطيع تحريك الجسم إلا إذا كانت ذات جسم ، وهي تنمو وتشيخ مع الجسم ، وتتأثر بما يتأثر به من مرض ودواء وخمر ، وتبدد ذراتها تبديداً ظاهرياً حين يموت ، ولو وجدت النفس بغير الجسم لكانت عديمة الإحساس عديمة المعنى ، وما فائدة النفس بغير أعضاء اللمس والذوق والشم والسمع والبصر ؟ والحياة لا توهب لنا لتكون ملكاً خالصاً لنا بل هي عارية نستعيرها ونحتفظ بها ما دمنا قادرين على الانتفاع بها ، فإذا ما استنفدنا قوتنا وجب علينا أن نغادر مائدة الحياة مغتربين شاكرين ، كما يغادر

الضعيف الوليمة ؛ وليس الموت نفسه أمراً مخيفاً رهيباً ، بل الذى يسبب رهبته هو خوفنا مما نلقاه فى الدار الآخرة ، ولكن الدار الآخرة لا وجود لها ، والجحيم هو جحيم هذه الدنيا ، فهو العذاب للناس من الجهل والانفعالات والتخاصم والشبه ، والجنة توجد على ظهر هذه الأرض ، وهى معابد الحكماء الصافية sapientum templa serena (١٧) .

ولست الفضيلة فى خوف الآلهة ، ولا فى تجنب الملذات وخشيتها ، بل هى فى تناسق أعمال الخواص والمواهب بإرشاد العقل ؛ ومن الناس من يفنون أعمارهم من أجل تمثال يقام لهم ، أو شهرة يتحدث بها الناس عنهم ، ولكن « ثروة الإنسان الحققة هى أن يعيش عيشة بسيطة وعقله فى سلام » . (vivere parce Aequo Animo) (١٨) ، وخير من العيش الجاهل المعنت فى الأبهة المذهبة « الرقود فى جماعات على الكلاء الناعم بجوار غدير تحت أشجار باسقة » (١٩) ، أو سماع الألحان الموسيقية العذبة اللطيفة ، أو أن يفقد الإنسان ذاته فى حب أطفاله والعناية بهم ، والزواج خير ولكن الحب المثير للعواطف جنون ، يجرد العقل من صفاته وتديبره : « فإذا أصابت الإنسان سهام فينوس — سواء أطلق هذه السهام غلام له أعضاء فتاة ، أو أطلقها امرأة يشع الحب من جسمها كله — فإنه ينجذب نحو مصدر الضربة ويتوق إلى الاتحاد معه » (٢٠) . ولا يستطيع زواج ولا مجتمع أيا كان نوعه أن يجد قاعدة سليمة يقوم عليها فى هذا الغرام الجنونى :

ولما كان لكريشوس قد وجه عواطفه كلها نحو الفلسفة ولم يجد فى قلبه متسعاً للحب ، فإنه أبى أن يعود إلى العهد الروائى العاطفى القديم الذى يقول به اليونان الذين كانوا يمجدون الحياة البدائية ، وينادون بالعودة إلى الطبيعة ، كما مجدها روسو ونادى بالعودة إليها .

نعم لقد كان الناس فى ذلك الوقت أصلب عوداً ، ولكنهم كانوا يعيشون فى الكهوف ، ولا يعرفون الناس ، ويتناكحون بلا زواج ، ويقتل بعضهم

بعضاً بغير قانون ، ويموت منهم جوعاً بقدر من يموت من المنحصرين بالتخمة (٢١) .

أما الطريقة التي تمت بها الحضارة فيشرحها لكريشيوس في خلاصة موجزة لتاريخ الإنسان الطبيعي يقول فيها إن التنظيم الاجتماعي قد وهب الإنسان القدرة على البقاء بعد أن بادت الحيوانات التي كانت أشد منه قوة وبطشاً . وقد اهتدى إلى النار حين رآها تندلع من احتكاك أوراق الأشجار ، وأغصانها ، وأنشأ من الإشارات والحركات لغة ، وتعلم الغناء من الطير ، وأنس الحيوان لمنفعته ، كما استأنس هو بالزواج والقانون ؛ ثم شق الأرض ، ونسج الملابس ، وصهر المعادن وصنع منها أدواته ؛ ثم رصد كواكب السماء ، وقاس الزمن وتعلم الملاحة ؛ ثم رقى فن القتل ، وتغلب على الضعفاء ، وشاد المدن ، وأقام الدول .

وليس التاريخ إلا موكب الدول والحضارات التي تنشأ وتزدهر ثم تضمحل وتنفى ، ولكن كلا منها تخلف وراءها تراثاً من العادات والأخلاق والفنون تلتقاه عنها الحضارات التي تأتي من بعدها « فهي كالعناوين في سباق يسلم كل منهم مصباح الحياة إلى غيره » (٢٢) *(et quasi cursores vitai lampada tradut)* وكل ما ينمو من الأشياء يضمحل : الأعضاء ، والكائنات الحية ، والأسر ، والدول ، والأجناس ، والكواكب ، والنجوم . والذرات وحدها هي التي لا تموت أبداً ، وتوجد إلى جانب قوى الخلق والبناء قوى أخرى تعادها وتوازنها وهي قوى التدمير ، وهذه لا تنقطع عن العمل ما بين دفع وجذب وتراخ وانقباض ، وحيات وموت . وفي الطبيعة خير وشر ، والآلام يلقاها كل كائن حي وإن لم يستحقها ، والانحلال ينبع خطى كل تطور ، وأرضنا نفسمها في طريقها إلى الموت والقيء ، وما هي ذى الزلازل تخربها وتدمرها . والأرض تفقد قدرتها على الإنتاج والأمطار والأنهار تقرضها وتفتتها ، وتنقل الجبال نفسها آخر الأمر إلى البحار ، وسيأتي على عالمنا النجمي كله يوم يفنى فيه كما تفنى هذه الجبال ؛

فتهاجم جدران السماء من كل جوانبها وتتصدع ثم تهدم وتتخرب (٢٣) ،
ولكن ساعة اللناء نفسها تكشف عما في العالم من حيوية لا تقهر ، ويمزج
بالعويل على الموتى البكاء على الطفل الوليد (٢٤) وتتكون عوالم جديدة
ونجوم وكواكب جديدة ، وتنشأ أرض أخرى وحياة غير الحياة الأولى ،
ويبدأ التطور من جديد .

ولإذا ألفينا نظرة عامة على هذه القصيدة التي تعد « أروع نتاج الأدب
القديم كله » (٢٥) ، فقد نلاحظ لأول وهلة ما فيها من عيوب : كاضطراب
موضوعاتها التي حال موت الشاعر في مستقبل العمر دون مراجعتها ، وتكرار
عباراتها وأبياتها وفقرات منها برمتها ، واعتقاده أن الشمس والقمر والنجوم
ليست في حقيقةها أكبر مما تبدو للناظر إليها (٢٦) ، وعجز النظام الذي تشرحه
القصيدة عن أن يفسر كيف تستحيل الذرات الميتة إلى حياة وإدراك ،
وإغفال الشاعر ما يبعثه الإيمان في المؤمن من نظر ثاقب وطمأنينة
وساوى ، وإلهام وشاعرية قوية محركة ، كما أغفل ما للدين من آثار
اجتماعية . ولكن ما أقل هذه الأغلاط وما أضعف شأنها أمام المحاولات
الجريئة التي بذلها الشاعر لتفسير العالم والتاريخ والدين والمرض تفسيراً
منطقياً معقولاً (*) ، وأمام ما صور به الطبيعة من أنها عالم يسيطر عليه
القانون لا يعترى المادة والحركة فيه زيادة أو نقصان . وأمام عظمة الموضوع
الذي تحدث عنه ونبل الطريقة التي عرض بها ، وأمام قوة الخيال المتصلة
التي تشعر في كل مكان « بجلال الأشياء » وتسمو بروى أنبا دقليس ،
وعلم دمقريطس ، ومبادئ أبيقور الأخلاقية ، إلى شعر يبلغ من الروعة
والجمال أسمى ما بلغه الشعر المعروف في جميع العصور . فها هي ذى لغة
كانت لا تزال بعد غير مصقولة ولا ناضجة تكاد في ذلك الوقت أن تكون

(*) توجد كثير من بدور الأشياء التي تمينا على الحياة ، ولكن لا شك أيضاً في أن
ثمة بدوراً أخرى كثيرة تتطير حولنا وتؤدي إلى المرض (٢٧) .

خلوا من المصطلحات الفلسفية والعلمية ، ولكن لكريشيوس لم يخلق فيها مفردات جديدة فحسب ، بل خلقها ثم وجه الكلام القديم وجهات جديدة من حيث الوقع والجرس ، وصاغ الوزن السداسى صياغة أكسبته حيوية وقوة لم تكن له فى أية لغة أخرى من اللغات المعروفة ، وسما به بين الفينة والفينة إلى درجة من الرقة والجمال والسلاسة لا تقل من نظائرها فى شعر فرجيل . وإن ما فى قصائد لكريشيوس من حيوية لا نفارقه فى وقت من الأوقات ليدل على أنه قد استمتع بحياته كلها ، لم يكد يترك فيها فترة قصيرة أو طويلة من يوم مولده إلى يوم وفاته إلا عاش خلالها على الرغم مما كان يحيط به من آلام متعددة وخيبة مريرة .

وكيف مات لكريشيوس ؟ يقول القديس جيروم Saint Jerome إن « لكريشيوس قد جن على أثر تجرعه دواء يولد الحب ، بعد أن كتب عدة كتب . . . ثم مات منتحراً فى الرابعة والأربعين من عمره » (٢٨) . وليس لهذه القصيدة ما يؤيدها ، ويشك الكثيرون فى صحتها ، ولسنا نعتقد أن قديساً يستطيع أن يروى رواية عن حياة لكريشيوس منزهة عن الهوى . وقد وجد بعضهم ما يؤيد هذه القصة فى قصيدته نفسها ؛ ذلك أن منها شواهد على الذهن المكدود غير الطبيعى ، فضلاً عن أن موضوعاتها مهوشة غير منظمة ، وأنها مقتضبة تنتهى انتهاء فجائياً غير متوقع (٢٩) . ولكن الإنسان ليس فى حاجة إلى أن يكون لكريشيوس — ولكريشيوس دون غيره — لكى يكون حاد المزاج سريع التهيج ، مهوشاً ، ولكى يموت .

لقد كان لكريشيوس كما كان يورپديز رجلاً من الطراز الحديث ، وكان تفكيره وإحساسه يواثمان عصرنا الحاضر أكثر مما يواثمان القرن الأول قبل ميلاد المسيح . وقد تأثر به هوارس وفرجيل فى أيام شبابهما ، وهما يذكرانه من غير أن يبوحا باسمه فى كثير من عباراتهما الجزلة ، ولكن الجهود التى كان يبذلها أغسطس لإعادة الدين القديم قد جعلت هذين الشاعرين وهما صنيعتا أغسطس يريان أن

ليس من الحكمة أن يعبراً في صراحة عن إعجابهما بلكريشيوس ويعترفا بما في عنقهما له من دين يضاف إلى هذا أن الفلسفة الأبيقورية لم تكن توائم العقل الرومانى ، كما كانت أعمال الأبيقورين توائم الذوق الرومانى في عصر لكريشيوس (*) ، فقد كانت رومة في حاجة إلى رجل ذى فلسفة ميتافيزيقية يمجّد القوى الصوفية الباطنية لا القوانين الطبيعية ، وإلى عالم أخلاق يلشئ شعباً حربياً كاملاً الرجولة لا شعباً من أصحاب النزعة الإنسانية المحبين للسلم والهدوء ؛ وكانت في حاجة إلى فلسفة سياسية شبيهة بفلسفتى فرجيل وهوراس ، تبرر سيطرة رومة الإمبراطورية ، ولما بعث الدين من جديد بعد سنكا كاد الناس ينسون لكريشيوس ، ولم يبدأ يظهر أثره في الفكر الأوربى إلا بعد أن كشفه بيجو Poggio من جديد في عام ١٤١٨ ب . م . وقد أخذ طبيب من مدينة فيرونا Varona يدعى جيرولامو فراكستورو Girolamo Fracastoro (١٤٨٣ - ١٥٥٣) عن الشاعر نظريته التى يقول فيها إن المريض ينشأ من « بذور » Semina خبيثة تسبح في الهواء ، وفي عام ١٦٤٧ أحيا جاسندى Gassendi الفلسفة الذرية . وكان فلتير يقرأ في طبيعة الأشياء في خشوع ويقول كما قال أوفيد Ovid إن ما فيها من آليات ثورية سيقى ما بقيت الأرض (٣٠) :

وقد خاض لكريشيوس بمفره أقسى الوقائع في زمانه ونعنى بها إحدى وقائع الحرب الأبديّة بين الشرق والغرب ، بين « القلب الحنون » والإيمان الباعث للسلوى الخفف للأحزان من جهة ، والعقل العنيد الجاسى والعلم المادى من جهة أخرى . ولسنا في حاجة إلى القول بأنه أعظم الشعراء الفلاسفة ، وأنه هو الذى سما بالأدب اللاتينى كما سما به كاتلس وشيشرون إلى ذروة مجده ؛ وبه انتقلت زعامة الأدب نهائياً من بلاد اليونان إلى رومة .

(*) سستخدم لفظى أبيقورى ورواقى في هذه الملمات بمعنى المؤمن بفلسفة أبيقور وزيون فيما وراء الطبيعة وفى الأخلاق . وقد نستعملها في بعض الأحيان لوصف الشخص الذى يميل إلى الدعة والنهم في الحالة الأولى أو إلى تجنبها الحالة الثانية .

الفصل الثالث

حبیب لزبیا

فی عام ٥٧ ق . م غادر رومة کیوس ممیوس **Caius Memmius** الذی
أهدى إلیه لکریشیوس قصیدته لیکون بریتورا اولاً فی بثنیا **Bithynia** ،
وكان حکام الولايات الرومان قد أخذوا فی ذلك الوقت یعتادون عادة جدیدة
هی أن یصطحب کل منهم عند سفره إلی ولايته أحد المؤلفین . ولم يأخذ هذا
الحاکم معه لکریشیوس بل أخذ شاعراً یختلف عنه فی کل شیء عدا قوة عاطفته
ویدعی کونتس (أوکیوس) فلیریوس کاتلس **Quintus Valerius Catullus** .
وكان کونتس هذا قد قدم إلی رومة من مدینة فیرونا موطنه الأصلی ،
وكان لأبيه فیها من المنزلة ما یجیز له أن یکون ضیفاً کثیر التردد علی قیصر ،
وما من شک فی کونتس نفسه کان علی جانب کبیر من الثراء ، فقد
كانت له بیوت ذات حدائق بالقرب من تیبور **Tibur** وعلى شواطئ بحیرة
جاردا **Garda** ، وكان له بیت جمیل فی رومة . وهو یقول عن هذه الأملاك
إنها كانت مستغرقة فی الدین ، ولا ینفک یعلن أنه فقیر ، ولكن الصورة
التي نستطیع أن نرسمها له من قصائده هی صورة الرجل المہذب الذی لا یتهم
بکسب العیش ، ولكنه یمتص نفسه بطبیبات الدنیا من غیر حساب فی صحبة
أمثاله المترفین فی عاصمة الدولة . وكانت هذه الفئة تضم طائفة من العقول وأبرع
الخطباء السیاسیین من الشبان أمثال مارکس کئیلیوس **Marcus Caelius** وهو
شریف أصبح فیما بعد شیوعياً ، ولیسینیوس کلفس **Licinius Calvus** الشاعر
النابه والقانونی الضلیع ، وهلةیوس سنا **Helvius Cinna** الشاعر الذی کاد
الغوغاء من أنصار أنطونیوس یحسبونه أحد قتلة قیصر وینالون علیه ضرباً
حتى یقضى نحبہ . وكان هؤلاء یعارضون قیصر ویوجهون له کل ما تسعفههم

به عقولهم من نكات لاذعة ، وهم لا يعرفون أن ثورتهم الشعرية إنما
تعبّر عن الثورة التي يعيشون في جوها ، وكان هؤلاء جميعاً قد ملوا الأدب
القديم ، ولم يطبقوا فجاجة نيشيوس *Naevius* ولانيوس *Ennius* وألفاظهما
الطنانة المزوقة : وتأقت نفوسهم لأن يغنوا عواطف الشبان في أوزان
جديدة غنائية في لفظ عذب رقيق عرف يوماً من الأيام في الإسكندرية
أيام كالمكس *Calimachus* ولكن رومة لم تشهد مثله قبل أيامهم هذه .
ولم يكونوا راضين عن المبادئ الأخلاقية القديمة وعن تقاليد السلف
التي كانت تلقى على أسماعهم في كل حين من أفواه الكبراء المنهوكين .
وكانوا ينادون بقدسية الغرائز ، وببراءة الشهوات وعظمة التهلك والانغماس
في الملاذ ، ولم يكونوا هم وكاتلس أسوأ من غيرهم من أدباء الشبان الذين
كانوا يعيشون في ذلك الجليل وفي الجليل الذي يليه : من هوراس *Horace*
وأوفيد *Ovid* وتيبلس *Tibullus* وبروبريتوس *Propertius* ، بل ومن فرجيل
الحجول في أيام شبابه ، أولئك الذين جعلوا الشعر يدور حول كل امرأة
متزوجة أو غير متزوجة ، تقدم لربات شعرهم حباً سهلاً عابراً .

وكانت كلوديا *Clodia* أرشق فتاة في هذه الفئة ، وهي من سلالة
أسرة كلوديوس التي لم تذهب عنها حتى تلك الأيام عظمة الأباطرة (*) .
ويؤكد لنا أبوليوس *Apeulius* (٣١) أنها هي التي سماها كاتلس باسم لزيبيا
Lesbia إحياء لذكرى سايفو *Sappho* التي كان يترجم قصائدها أحياناً ،
ويحكيها كثيراً ، ويحبها دائماً . ولما جاء كاتلس إلى رومة في الثانية
والعشرين من عمره اتخذها صديقة له ، بينما كان زوجها حاكماً في بلاد
غاللة الإيطالية . وقد سحرت لبه من ساعة أن وضعت « قدمها البراقة على
عتبة داره التي أبلتها أعتاب الناس من قبل ، وكان يدعوها إلهته المتألقة
ذات الخطوة الرشيقة » . ولا غرابة في أن تفتنه خطاها ، فإن مشية المرأة
قد تكني وحدها لتفتن الرجل كما يفتنه صوتها . وقد عطف عليه فرضيت

(*) انظر ما قلناه عنها قبل في هذا الكتاب .

أن يكون من بن عبادها ، ولم يكن في وسع الشاهر الهاشم بها أن يضارع
في غير ميدان الشعر مواهب منافسيه فوضع تحت قدمها أجمل ما في اللغة
اللاتينية من القصائد الغنائية ، وترجم لها أحسن ترجمة وصفت بها سابقو
الجنون المحزن وهو الجنون الذي كان يمتلكه وقتله (٣٢) ، وكتب في الطائر
الذي كانت تضمه إلى صدرها ألياناً نعد من خير ما كتب في وصف الغيرة :

أيها الطائر يا بهجة حبيتي

التي تلعب معك وتضمك إلى صدرها

والتي تعد لك سبابتها إذا طلبتها ،

وتنذرك بأن تعضها عضمة قوية .

لست أدري أية دعاة لطيفة يلد لحبيتي الوضاعة

أن تداعب بها أمنيتي . . . (*) .

وقد أحس وقتاً ما بأن السعادة قد غمرته ، وظل يتردد عليها كل

يوم ينشدها قصائده ، ونسى كل شيء إلا حبه إياها وافتتانها بها .

أي لزيماي حبيتي هيا بنا نعيش ،

ولا تلق يالاً إلى شيء مما ينطق به العجائز القساة

ونراه حقيراً غير جدير بالاعتبار :

قد تغرب الشمس ثم تعود ؛

أما نحن فلماذا غربت شمسنا القصيرة الأجل

غلب علينا السبات الطويل في ليانا الأبدى ؟

ألا فاعطني ألف قبلة ثم مائة

ثم ألفاً أخرى ، ثم مائة ثانية

(*) لم يترجم أحد حتى الآن قصيدة كانليس شعراً إنجليزياً والعبارة العربية التي في

هذه الصفحة تكاد تكون ترجمة حرفية لما يقابلها في اللاتينية .

ثم ألفاً بعدها ، ثم مائة
حتى إذا بلغت القيلات آلافا مؤلفة
تعمدنا الخطأ في العد والحساب لكيلا نعرف نحن عديدها
أو نحسدنا عليه نفس حقيرة
إن عرفت عدد قبلاتنا الكثيرة :

ولسنا نعرف كم من الوقت دامت هذه النشوة ، وأكبر الظن أنها قد
ملت آلافة المؤلفة ، فرأت أن تروح عن نفسها بعد أن خانت زوجها من
أجله بأن تستبدل به عاشقا غيره . واتسعت وقتئذ دائرة عشاقها حتى خالها
كاتلس في نوبة من نوبات الجسود « تعانق ثلاثة آلاف زان مرة
واحدة » (٣٥) . وأبغضها في الوقت الذي كانت فيه نار الحرب تلتهم فؤاده
(adi et Amo) (٣٦) ، وأبى أن يستمع إلى ما كانت تحدثه به من وفاء
وإخلاص ، وصور لنا هذا الإباء بالصورة الماثورة عن كيتس Keats :

إن الألفاظ التي تفوه بها المرأة للمحب الواله الجائع ،
يجب أن تنقش على صفحة الرياح السافية ،
وتحفر على مجارى الماء الدافقة (٣٧) .

ولما أصبح الشك اللاذع يقيماً لا مرية فيه ، استحال هيامه بها حقداً
عليها ورغبة قوية في الانتقام منها ، فاتهمها بأنها تسلم نفسها لرواد الخانات ،
وأخذ يندد بمحبها الجدد ولا يتورع عن سبهم بأفحش الأقوال وفكر في
الانتحار ، على حد قوله في شعره .

وقد أظهر في الوقت نفسه عواطف أشرف من هذه وأدل منها على نبلة :
فقد وجه إلى صديقه مانليوس في يوم عرسه أغنية يقول فيها إنه يحسده على
ما يتيح له زواجه من صحة طيبة صالحة ، وبيت آمن مستقر ، ومن متاعب سعيدة
هي متاعب الأبوة . ثم انتزع نفسه من مكان مأساته بأن صحب ميموس Memmius

إلى بيثينيا *Bithynia* ، ولكنه لم يحقق ما كان يرجوه فيها من استعادة نشاطه . ثم خرج عن طريقه يوماً من الأيام ليبحث عن قبر أخ له مات بجوار طروادة ، وأدى لهذا الأخ الميت في خشوع مراسم الدفن التي يؤديها الأبناء لأبائهم ، ثم أنشد بعدئذ بقليل أبياتاً رقيقة من الشعر أضحت بعض ألفاظها من الأقوال الخالدة :

أيها الأخ العزيز لقد تنقلت في كثير من الدول وجبت البحار .
وجئت لأقدم لك هذا القربان المحزن .
وأهدى إليك آخر ما يهدى إلى الأموات ،
فتقبل هذه الهدايا التي تبليها دموع الأخوة ؛
ووداعاً يا أخي إلى أبد الدهر .

وبدل مقامه في آسية حاله ، وهدأ من طبعه ، وأثرت أديان الشرق القديمة واحتفالاته في هذا المتشكك الذي وصف الموت من قبل بأنه « سبات الليل الأبدى » ، فوصف في « أتيس » *Atys* وهي أعظم قصائده كلها وأعذبها لفظاً وأوضحها تصويراً عبادة سييل *Cybele* وصفاً رائعاً قوياً ، وامتثلت نفسه حمية وحماسة وهو يقرأ عويل عبادها الذين يضحون من أجلها برجولتهم ، وحزنهم على متع الصبا وأصدقاء الشباب . وقد قص في قصيدته « بليوس وثيتس » *Peelus and Thetis* قصة بليوس وأردياني *Ariadne* في شعر سداسي الأوتاد حلوا النغم لا يكاد يجاريه شعر فرجيل نفسه . وابتاع بعدئذ في بلده أمستريس *Amastris* ينجتاً صغيراً طاف به البحر الأسود وبحر الأرخبيل والبحر الأدرياتي وسار به صعداً في نهر الهو *Po* حتى وصل إلى بحيرة جاردا *Garda* وإلى بيته في سرميو *Sirmio* . وهنا أخذ يسأل نفسه قائلاً : « وهل ثمة سبيل للفرار من متاعب العالم أحسن من أن نعود إلى مواطننا الأولى ومعابدنا ، وأن نستريح فوق فرشنا المحبوبة ؟ » (٢٩) إن الناس يبدأون حياتهم بالبحث عن السعادة ثم يقنعون آخر الأمر بالسلام .

إن علمنا بكاتلس لأوفى من علمنا بمعظم شعراء الرومان لأنه يكاد في جميع الأحوال يتخذ من نفسه موضوعاً لشعره ؛ وإن هذه الصرخات الغنائية ، صرخات الحب والكراهة ، لتكشف عن نفس رحيمة حساسة قادرة على أن تكون ذات عواطف كريئة حتى للأهل والأقارب ؛ ولكن الذى لا يسرنا منه أنه يجعل نفسه على الدوام موضوع شعره ، ويعتمد الفحش في القول ، ويقسو على أعدائه فينشر على الناس أخص خصائصهم ، ويشنع على ميلهم للواط ، وعلى رائحة أجسامهم النتنة ، ويقول عن واحد منهم إنه يغسل أسنانه بالبول متبعاً في ذلك عادة أسبانية قديمة (٤٠) ، ويقول عن آخر إنه أبخر إذا فتح فاه مات كل من حوله (٤١) . فهو والحالة هذه يتذلل في غير عناء بين الحب والقذارة ، يقبل ويلوط ، وينافس مارتياك Martial في قيادة الناس إلى أفذار رومة ومبازلتها في أركان شوارعها ، ويمثل ما يتصف به معاصروه وأبناء طبقته من مزيج بين خشونة البدانة ورقة الحضارة ، كأن الرومان المتعلمين مهما برعوا في آداب اليونان لم يستطيعوا قط أن ينسوا الاصطبلات والمعسكرات . ويدافع كاتلس عن نفسه بمثل ما يدافع به مارتياك فيقول إنه لا بد له أن يمزج أبياته الشعرية بالأفذار لكي يسترعى بها انتباه مستمعيه .

على أنه قد كفر عن هذه السيئات بما كان يبذل من العناية الفائقة في الوصول بشعره إلى درجة الكمال . ففي أبياته الإحدى عشرية الأوتاد من الجمال الطبيعي غير المتكلف ما تعجز عنه صنعة هوراس وتكلفه ، وما يسمو في بعض الأحيان فوق أناقة فرجيل نفسه ، وقد كلفه إخفاء فنه كثيراً من التفتن . وكثيراً ما يشير كاتلس إلى ما كان يعانيه من الجهد المؤلم والعناية الشديدة اللذين جعلتا شعره سريع الفهم بين السهولة . وقد يسر له بلوغ هذه الغاية ما كان يغرفه من مفردات اللغة فقد كان يصوغ الألفاظ التي يتداولها الناس شعراً رقيقاً . وقد أغنى الآداب اللاتينية بالفاظ التصغير الرقيقة ، كما أغناها بلغة الحانات الدارجة .

وكان يتجنب قلب الألفاظ وتبديل مواضعها ، كما كان يتجنب الإبهام والغموض ؛ وكانت أبياته سلسلة سهلة ، خفيفة على السمع ، ترحب بها الأذان . وقد عكف على دراسة شعراء الإسكندرية الهلنستيين(*) ، وشعراء أيونيا الأقدمين ، وأتقن ما يمتاز به شعر كلمكس Callimachus من عبارات سهلة وأوزان متعددة ، وما في شعر أركلوكس Archelochus من قوة واتجاه مباشر نحو الغرض ، وما في شعر أنكريون Anacreon من نحرية قوية ، وما في شعر سابقو من حب ونشوة : والحق أننا إذا أردنا أن نحذر كيف كان أولئك الشعراء يكتبون معظم أشعارهم ، فإن علينا أن ندرس كاتلس ، فقد درس هذا الشاعر أشعارهم ، وأجاد فهم دروسهم إجادة رفعتهم من مرتبة تلاميذهم حتى أصبح في مرتبتهم ؛ وقد فعل في الشعر اللاتيني ما فعله شيشرون في النثر اللاتيني ، تسلمه قوة فجأة فعما به حتى أصبح فنا لا يفوقه فيه أحد غير فرجيل .

(*) الذين لم يكونوا يونانيين الاصل ولكنهم اصطفوا بالصيغة الهلنستية (اليونانية) .
(المترجم)

الفصل الرابع

العلماء

كيف كانت الكتب اللاتينية تكتب وتوضح بالرسوم ، وتجلّد وتشرع وتباع ؟ لقد كان الرومان من أقدم الأزمان يكتبون التمارين المدرسية ، والرسائل القصيرة ، والسجلات التجارية التي لا يقصد بها أن تبقى طويلا ؛ كانوا يكتبون هذه كلها بقلم معدني ذي طرف رفيع على ألواح مطلية لطيفة من الشمع ، ويمحون ما يكتبونه عليها بأيها مهم . وأقدم ما وصل إلينا من الأدب اللاتيني مكتوب بريش الطير والخبر على ورق مصنوع في مصر من أوراق نبات البردي التي يضم بعضها إلى بعض ويضغط ويلصق بالغراء . ثم بدأ الرق المتخذ من جلود الحيوان الخفيفة ينافس نبات البردي في القرن الأول الميلادي لكتابة الآداب والوثائق الهامة . وكانت الديباجات (المزدوجة) تتكون من ورقة مطوية من الرق . وكان الكتاب الأدبي يصدر عادة في صورة ملف (Volumen أي الملفوف) وتفلك طياته في أثناء قراءته . وكان النص يكتب عادة في عمودين أو ثلاثة أعمدة في كل صفحة ، خالياً في كثير من الأحيان من علامات الترقيم والفواصل بين الجمل أو بين الكلمات نفسها . وكانت بعض المخطوطات توضحها رسوم بالخبر ، فقد كان كتاب Imagines لفارو Varro مثلاً يتألف من سبعمائة صورة لعظماء الرجال ، ومع كل صورة ترجمة لصاحبها . وكان في وسع أي إنسان أن ينشر أي مخطوط يشاء باستئجار الأرقاء لنسخ صور منه ، وأن يبيع النسخ بعد كتابتها . وكان للأغنياء كتبة ينسخون هم ما يشاءون من الكتب ، ويطعمونهم ، ولكنهم يؤجرونهم على عملهم ، ولذلك كانت الكتب رخيصة . وقد جرت العادة في أول الأمر أن تكتب

ألف نسخة من كل مخطوط . وكان بائعو الكتب يشترون النسخ بجملة من الناشرين أمثال أتكس Atticus ثم يبيعونها فرادى في محال بيعها . ولم يكن الناشر أو البائع يعطى المؤلف شيئاً ، اللهم إلا كلمة طيبة أو هدية في بعض الأحيان ، ذلك أن الرسوم التي تؤدي الآن إلى مالك الكتاب لم تكن معروفة في ذلك الوقت . وكانت المكتبات العامة كثيرة العدد ، وقد جعل أسينيوس پليو Asinius Pollio في عام ٤٠ ق . م مجموعته الخاصة أولى المكتبات العامة في رومة . وفكر قيصر إنشاء مكتبة أخرى أكبر منها وجعل فارو مديراً لها ، ولكن هذه الفكرة لم تنفذ إلا في عهد أغسطس ، شأنها شأن كثير من أفكار قيصر ومشروعاته .

وكان من أثر هذه الوسائل المشجعة التي خففت كثيراً من المتاعب عن طلاب العلم ، أن أخذ الأدباء والعلماء الرومان ينشطون نشاط علماء الإسكندرية وأدائها ، فغمر البلاد سيل جارف من القصائد والنثرات ، وكتب التاريخ ، والكتب المدرسية ، لا يقل في قوته عن فيضان نهر التبر نفسه . فكان كل شريف يزين مغامراته بالشعر ، وكانت كل سيدة تكتب وتلحن ، وكل قائد يدون مذكرات ، وكان العصر عصر « الملخصات » ، تخرج في كل موضوع من الموضوعات لتفي بحاجات ذلك العصر التجاري السريع . وقد اتسع وقت ماركس ترنتيوس فارو Marcus Terentius Varro ، رغم حملاته الحربية الكبيرة ، خلال حياته التي دامت تسعة وثمانين عاماً (١١٦ - ٢٦ ق . م) ، لتلخيص كل فرع من فروع العلم يعرفه أهل زمانه . وكانت ملفاته البالغ عددها ٦٢٠ ملفاً (نحو ٧٤ كتاباً) دائرة معارف عصره كتبها رجل بمفرده . وقد اهتم بالبحث في أصول الكلمات فكتب مقالا « في اللغة اللاتينية » لا يزال حتى الآن أكبر ما يهديننا إلى معرفة لغة الرومان الأولى . ولعله أراد أن يعاون أغسطس على تحقيق بعض أغراضه فحاول في رسالته « عن الحياة الريفية » De Re Rustica

٣٦ ق م) أن يشجع الناس على العودة إلى الأرض لتكون خير ملجأ
 بعضهم من فوضى النزاع المدني ؛ وقد جاء في مقدمة هذه الرسالة : « إن
 السنة الثمانين بتذرنى لإبان على أن أحزم متاعى وأستعد للخروج من هذه
 الحياة » (٢) ، وهو يرى أن تكون آخر وصيته له مرشداً يهديه إلى الحياة
 الريفية الهادئة السعيدة ، ويعجب بالنساء القويات اللاتي يلدن في الحقول ثم
 يواصلن عملهن من فورهن (٣) . ثم يبدى حزنه وأسفه على نقص نسبة المواليد
 بين الوطنيين ، وهو النقص الذى أخذ يبدل سكان رومة ويقول : « لقد
 كانت نعمة الأطفال سبب فخر المرأة وإعجابها بنفسها ، أما الآن فإنها
 تفخر بما يفخر به إنيوس Ennius فتفضل أن تواجه الحرب ثلاث مرات على
 أن تلد طفلاً واحداً » . ويقول في « هاديات القمر » Divine Antiquities
 إن كثرة النسل والنظام والشجاعة في أمة ما تتطلب مبادئ أخلاقية تؤيدها
 عقيدة دينية . ويأخذ بقول المشرع العظيم كونتس موسيونس أسكيثولا
 Q. Muciu Scaevola إن الدين نوعان — أحدهما للفلاسفة والثاني لعامة
 الشعب ، وينادى بأن ثانيهما يجب أن يقوى وتثبت دعائمه ، على الرغم
 مما فيه من عيوب ونقائص لا يرتضيها العقل ، ويشير إلى بذل الجهود
 لإرجاع عبادة آلهة رومة القديمة إلى عهد الأول ، وإن كان هو نفسه
 يؤمن بنوع غامض من وحدة الوجود (٤) . ولقد تأثر بكاتو وبوليبيوس
 فألقى بنفسه في تيار سياسة أغسطس الديلية وإن لم يكن من المؤمنين بمبادئها ،
 كما نهج منهج ثوجيل في تقواه الريفية .

وكأنما أراد فارو أن يتم أعمال كاتو الأكبر في جميع الميادين فأكمل كتاب
 الرقيب المعروف باسم « الأصول Oirgines » في كتابه هو المسمى « حياة الشعب
 الرومانى » — وهو كتاب في تاريخ الحضارة الرومانية . وما يؤسف له أن الدهر

(*) « روح العالم هو الله وأجزاؤه التى يكون منها أرباب حقه » (٥) .

لم يبق على هذا الكتاب بل أباده كما أباد كل مؤلفات فارو تقريباً ، على حين أنه أبقى التراجم التي كتبها كرنليوس نيبوس **Cornelius Nepos** ، والتي لا تزيد قيمها على ما يكتبه صبية المدارس . لقد كان التاريخ في رومة فنياً ، لم يضم إلى صفات الفن خصائص العلم ، ولم يرق حتى في كتابات قاستس **Tacitus** إلى درجة البعث الانتقادي وإلى تلخيص المصادر . ولكن التاريخ بوصفه ميداناً من ميادين البلاغة قد وجد في ذلك العصر من يمارسه على خير وجه ونعني به كيوس سلستيوس كرسپس **Caius Sallustius Crispus** (٨٦ — ٣٥ ق . م) ، وقد قام كيوس بعمل هام في السياسة والحرب إلى جانب قبصر ، وحكم نوميديا وبرع في السرقة ، وأنفق كثيراً من المال على النساء ، ثم ركن إلى حياة الترف والآداب في بيت له في رومة اشتهر فيما بعد بحداثته الغناء وأصبح مسكناً للأباطرة . وكانت كتبه كما كانت سياسته مواصلة للحرب بوسائل غير وسائلها . فقد كانت « التواريخ وحرب جومرثين ، وكتلين » كلها دفاعاً مجيداً عن العامة وهجوماً غنياً على « الحرس القديم » . وقد أظهر فيها كلها ما كان في رومة من انحلال خلقي (*) ، واتهم مجلس الشيوخ والحاكم بأنها ترفع حقوق الملكية فوق الحقوق الإنسانية ، ويُسْطَق ماريوس **Marius** بخطبة يؤكد فيها ما لطبقات الناس جميعاً من حقوق متساوية ، ويطالب بأن تفتح السبيل لذوى المواهب أيا كان مولدهم (١٦) . ويزيد في تأثير قصصه بما يورده فيها من تعليقات فلسفية وتحاليل أخلاقية نفسية . وأوجد أسلوباً من الهجاء وجزءاً واضحاً سريراً أصبح هو المثل الذي احتذاه تاستس **Tacitus** .

(*) يدعى فارو أن أنيوس ميلو **Annius Milo** قد ضبط سلسلت متلبساً بجرمة الزنى فانهاال عليه ضرباً بالسياط ، ولم يطلعه إلا بعد أن أدى مبلغاً من المال (١٦) . ولكن هذا أيضاً قد يكون سياسة لا تأريخاً .

وقد استمد هذا الأسلوب لونه ونغمته من الخطب التي كانت تلقى
السوق العامة وفي الحكم ، شأنه في هذا الشأن جميع النثر الروماني في
القرن الذي كان يعيش فيه سلسلت وفي القرن الذي يليه . ذلك أن تقدم
مهنة القضاء ونشأة الديمقراطية الكلامية قد زادا حاجة الناس إلى الخطابة
العامة ، فأخذت مدارس الخطابة يتضاعف عديدها على الرغم من عدا
الحكومة لها . وفي هذا يقول شيشرون إنك تجد « الخطابة في كل مكان » ،
وكان أول ظهور أساتذة هذا الفن في النصف الأول من القرن الأول قبل
الميلاد ، ومن أشهرهم ماركس أنطونيوس (ابن أنطونيوس الشهير) ،
ولوسيوس كراسس Lucius Crassus ، وسليسيوس روفوس Sulpicius
Rufus ، وكونتس هورتنسيوس Quintus Hortensius ، وفي وسعنا أن
نتصور ما كان لهؤلاء الخطباء من وراث قوية إذا علمنا أن الذين يستمعون
لهم كانت لا تتسع لهم السوق الهامة ، بل كانت تغص بهم الهياكل
والشرفات المجاورة لها . وكانت بلاغة هورتنسيوس واستعداده لأن يبيع
مواهبه وضميره بالمال مما جعله محبوب الأشراف كما جعله من أغنى
أغنياء رومة . وقد ترك لورثته بعد وفاته عشرة آلاف دن من الخمر (٦) ،
وكان لإقاؤه قويا حيا حتى كان روسيوس وإيسيوس وغيرهما من كبار
الممثلين الدائمي الصيت يحضرون المحاكمات التي يترافع فيها ليتعلموا ما ينقصهم
من فن التمثيل بدراسة حركاته وطريقة إلقاءه ، وقد حذا حذو كاتو
الأكبر فراجع خطبه ونشرها ، وهو الفن الذي وصل به منافسه شيشرون
إلى ذروة الكمال ، والذي جعل للخطابة أبلغ الأثر في النثر الروماني كله .
ولقد بلغت اللغة اللاتينية عن طريق الخطابة الدرجة القصوى في البلاغة
والرواق والقوة والجمال الذي يبلغ جمال اللغات الشرقية ، والحق أن
الخطباء الشبان الذين جاءوا من بعد هورتنسيوس وشيشرون كانوا
يعيبون على ما يسمونه الأسلوب « الأسوي » إسرافه في المحسنات اللفظية ،
وفي إثارة مواطن السامعين ، حتى لقد أخذ قيصر وكلفس Calvus

وبرونس Brutus وبلبو Polio على أنفسهم أن يلتزموا أسلوب الخطابة « الأنكى » الذى يمتاز بالهدوء والعفة والاعتدال . وهنا قام الخلاف من زمن بعيد بين النزعتين « الإبداعية » و « الاتباعية » أى بين للنظرة العاطفية والنظرة العقلية إلى الحياة ، وما تستلزمه هذه النظرة الأخيرة من سيطرة على الأسلوب ، وكان الشباب أصحاب المذهب الاتباعى يجأرون بالشكوى من أن الشرق قد أخذ يغلب رومة على أمرها فى كل شىء حتى فى الخطابة نفسها ،

الفصل الخامس

قلم شيشرون

كان شيشرون يفخر بخطبه ويدرك أن هذه الخطب تهيئ السبيل إلى الأدب الرومانى ، ولذلك أحس بوقع انتقادات المدرسة الأتيكية ، فلم يسعه إلا أن يدافع عن نفسه ، فكتب عدة رسائل طويلة فى فن الخطابة ، وقد لخص فى بعضها تاريخ البلاغة الرومانية فى حوار واضح بارع وضع فيه للقواعد التى يجب اتباعها فى تأليف الخطب وفى الإيقاع والإلقاء . ولم يسلم فى هذه الرسائل بأن أسلوبه « أسبوى » ، وقال إنه قد حدا فيه حلو دمستين Demosthenes واتهم « الأتيكيين » بأن خطبهم الفاترة الحالية من العواطف تقيم السامعين أو تجعلهم يفرون منهم .

وتوضح السبع والخمسون التى وصلت إلينا من خطب شيشرون جميع الخيل التى يلجأ إليها الخطباء الناجحون ، فهى توفى على الغاية فى عرض ناحية واحدة من نواحى الموضوع الذى يتحدث عنه الخطيب عرضاً يفيض حرارة وحماة ، وفى إدخال السرور على المستمعين بالفكاهات والنوادر ، وفى إثارة كبرياتهم وأهوائهم ، وعواطفهم ، ووطنيتهم ، وتقواهم ، وفى عرض أخطاء المعارض له أو أخطاء مولاة سواء كانت صحيحة أو مما يرونها الناس عنه ، وسواء كانت تمس الشئون العامة أو تمسه هو نفسه ، وبمخذه فى تحويل انتباه السامعين من النقط التى فى غير صالحه ، وغمرهم بفيض من الأسئلة الخطابية يضعها بحيث تكون الإجابة عنها صعبة أو مؤذية ، ثم يكبل التهم فى جمل موزونة عباراتها قوية قوة السياط ، وتيارها الجارف يغمر المستمعين ، ولا تدعى هذه الخطب أنها عادلة منصفة بل إن فيها من التجريح أكثر مما فيها من التصريح ، وهى خلاصات يستغل من

يلقيها حرية القذف التي كانت محرمة في المسارح ، ولكنها مباحة في السوق العامة وفي ساحات القضاء . ولا يتردد شيشرون في أن يصف ضحاياه بألفاظ مثل « الخنزير » و « الوباء » و « الجزار » و « القذارة » ؛ ويقول لبيزو *Piso* إن العذارى يقتلن أنفسهن ليتقين شر عهده ، ويصب اللعنات على أنطونيوس لأنه يظهر حبه لزوجته على ملأ الناس ؛ وكانت هذه المثالب تسر المستمعين والمحلفين ولم يكن أحد من الناس يأخذها مأخذ الجدة ولم يأنف شيشرون نفسه من أن يكتب إلى بيزو رسائل تفيض ودا وصداقة بعد بضع سنين من هجومه الوحشي عليه في *In Pisonem* . وجدير بنا فوق هذا أن نقر بأن في خطب شيشرون من الأنانية والبلاغة الخطابية أكثر مما فيها من الإخلاص الخلقى أو الحكمة الفلسفية ، بل إن فيها من الأنانية والبلاغة أكثر مما فيها من الغبطة أو التمتع القالوني ، ولكنها بلاغة ليس كمثليها بلاغة قط . إن خطب ديموستين نفسه لم يكن فيها هذا التصوير الواضح ، الخبوى ، وهذه الفكاهة الغزيرة ، وهذا القذف اللاذع لبني الإنسان ؛ ومما لا جدال فيه أنا لا نجد أحداً قبل شيشرون أو بعده قد أكسب اللغة اللاتينية ما أكسبها هو من سحر وسلاسة فائقة ، وقوة عاطفية وجمال ؛ لقد كانت خطبه أسمى ما وصل إليه النثر اللاتيني ؛ وقد كتب إليه قيسر الكريم وهو يهدى إليه كتابه « في التشبيه » يقول : « لقد كشفت كل كنوز الخطابة ، وكنت أنت أول من استخدمها ، وبذلك كانت لك اليد الطولى على جميع الرومان ، وكنت مفخرة وطنك ؛ لقد نلت نصراً دون نصر أعظم القواد ، لأن الدهن البشري أنبل من توسيع رقعة الإمبراطورية الرومانية » (١٧) .

وتكشف خطب شيشرون عن أخلاقه السياسية ، أما رسائله فتكشف عن إنسانيته ، وتجعل المرء يعفو عن جميع عيوبه السياسية . لقد أملى هذه الخطب كلها إلا قلة منها على أمين سره ، ولم يراجعها بنفسه ، ولم يكن يفكر وهو يكتب معظمها أنها ستنتشر على الملأ ، ومن أجل هذا فإن الناس لم تعرض عليهم نفسية إنسان

وسريرته كاملتين ، كما عرضت عليهم نفسية شيشرون وسريرته ؛ وفي ذلك يقول نيبوس Nepos « لا حاجة لمن يقرأ هذه الرسائل بقراءة تاريخ تلك الأيام » ، ذلك أن في ومع قارئها أن يطالع على أهم الفصول الحيوية من المسرحية الثورية من داخلها ، والستائر كلها مرفوعة عنها ؛ وأسلوبها في الغالب صريح قديم ، خال من الفن والتكلف ، مليء بالملمع والفكاهات^(٤٩) ، ولغتها مزيج جلاب من الرقة الأدبية ، وسلاسة اللغة الدارجة . وهي أكثر ما بقي من آثار شيشرون . بل من النثر اللاتيني كله طرافة ومتعة ؛ ومن الطبيعي أن نجد في هذه المجموعة الكبيرة من الرسائل (وهي تشمل ٨٦٤ رسالة تسعون منها كتبت لشيشرون) بعض المتناقضات وغير قليل من الشواهد الدالة على عدم الإخلاص . وليس فيها كلها أثر واحد للثقة والإيمان اللذين بطالعنا كثيرا في مقالات شيشرون أو في تلك الخطب التي يجعل الآلهة فيها مآجاء الأخير ، ويتبين لنا من هذه الرسائل أن رأيه الخاص في كثير من الناس ، وخاصة في قيصر ، لا يتفق على الدوام مع ما يصفهم به جبهة^(٥٠) ، وفيها يظهر غروره الشديد الذي لا يكاد يصدق العقل ألطف وأحب إلى النفس مما يظهر في خطبه ، حيث يبدو لنا وكأنه يحمل معه تمثاله أينما ذهب . وهو يقر مباسها بأن « تقديري لنفسى وثنائى عليها أعظم الأشياء قدراً عندى »^(٥١) . ويؤكد لنا في سداجة ساحرة أنه « إذا كان في الناس من لا يتصف بالغرور فهو أنا »^(٥٢) . ومما يلهو به القارئ ما يجده فيها من رسائل كثيرة عن المال ، ومن أقوال كثيرة عن بيوته المتعددة . فقد كان له فضلا عن بيوته ذات الحقائق في أربينوم Arpinum وأستورى Asturae وپتيولى وپمپي Pompeii كان له فضلا عن هذه البيوت ضيعة في فورميا Formiae تبلغ قيمتها ٢٥٠.٠٠٠ سسترس ، وأخرى في تسكولوم Tusculum تساوى ٥٠٠.٠٠٠ ، وقصر على تل پلاتين .

Palatine كلفه ٥٠٠٠٠٠ ر (٥٠) ألا إن هذه المتع وأسباب الترف لتبدو شذوية مشينة إذا ما اتصف بها الفيلسوف .

ولكن هل فى للناس من بلغت فضائله درجة تبقى معها سمعته إذا ما نشرت رسائله الخاصة ؟ والحق أن الإنسان إذا أمن فى قراءة هذه الرسائل يكاد يحب هذا الرجل . إنه فى واقع الأمر لم يكن له من الأغلاط ، ولعله لم يكن له من الغرور ، أكثر مما لنا ، ولكنه أخطأ إذ خلد هذه الأغلاط وهذا الغرور فى نشر أوفى على الكمال . وخير ما نستطيع أن نصفه به أنه كان عاملاً مجداً ، وأباً رحيماً ، وصديقاً وفياً ، وفى وسعنا أن نراه بيته مولعاً بكتبه وبأبنائه ، يحاول أن يحب زوجه ترنتيا Terentia الغضوب المصابة بالثرية والتي لم تكن تقل عنه ثروة أو فصاحة . ولقد أوفى هو وزوجه من الثروة ما يبعد عنهما السعادة ، وكانت متاعهما ومنازلتهما تنشأ على الدوام من حساباتهما الضخمة ، وظلت هذه المنازعات تزداد حتى طلقها بسبب تشاحن على المال نشأ بينهما ، ولم يلبث بعد أن طلقها أن تزوج ببليا Publia ؛ وقد استلفت نظره إليها أنها ذات ثروة طائلة وليست كبيرة السن ، فلما أن أظهرت بغضها لابنته تليا Tullia طلقها هى الأخرى ، وكان يحب تليا أشد الحب ، فلما ماتت حزن عليها حزناً كاد يذهب بعقله ، وأراد أن يشيد لها معبداً كعابد الآلهة . ومن ألطف رسائل شيشرون رسائله التى كتبها إلى تيرو Tiro كبير أمناء سره والتى كتبها عنه . وكان تيرو يكتب ما يمليه عليه مختزلاً ، ويشرف له على أمواله بقدرة وأمانة كافأه عليهما شيشرون بتحريره من الرق . وأكثر الخطابات عدداً هى التى كتبها إلى أنكس Atticus الذى كان

(٥٠) وهذا المبلغ الأخير اقترضه شيشرون من أحد عملائه . ولسنا نعرف هل رده له أو لم يرده . وقد كان المحامون يقرضون المال من عملائهم لأن القانون يعزم عليهم أن يتقاضوا منهم أجوراً . وكان من الوسائل الأخرى التى يستحوذون بها على المال من عملائهم ألا يكسبهم هؤلاء فى مصايهم . وقد ورث شيشرون هذه الوسائل وغيرها عشرين مليون سسترس فى ثلاثين عاماً (٥١) . إن أخلاق الناس وطبائعهم لتبدل دساتير الدول .

يستثمر لشيشرون أمواله المدخرة والذي أنجاه من عدة ورطات مالية ، ونشر له مؤلفاته ، وأسدى إليه من النصيح السديد ما لم يعمل به . وقد كتب شيشرون إلى أتكس ، وأكان غائبا في بلاد اليونان عن حكمة وفطنة حين بلغت الثورة عنفوانها ، خطابا يعد مضرب المثل في الوفاء وعذوبة اللفظ قال فيه :

لست أشعر بحاجة أشد من حاجتي إلى من أستطيع أن أفضى إليه بكل ما يتصل بي ، ومن يحبني ، ومن أثق بحزمه وحصافة رأيه ، ومن أستطيع أن أتحدث إليه بلا ملق ولا رياء ولا تحفظ . إن أخى الذى يفيض صراحة وحنانا غائب عني . . . وأنت يا من أنجبتني من متاعبي وأسباب قلقي برأيك السديد ، ويا من كنت رفيقى في الشؤون العامة وموضع ثقتي في جميع شئوني الخاصة . وشريكى في جميع أقوالى وأفكارى — أين أنت؟ (٥٤)

وبينا كانت بلاد الرومان تمر بتلك الأيام العصيبة حين عبر قيصر الروبكون وهزم بمبي ، ونصب نفسه حاكما بأمره ، اعتزل شيشرون الحياة العامة إلى حين وأخذ يشد الراحة من عنائها في قراءة الفلسفة والكتابة فيها . وقد كتب إلى أتكس في ذلك الوقت يقول له : « تذكر ما وعدتني به فلا تعط كتبك لإنسان ما بل احتفظ بها لى . لاني أحبا أعظم الحب ، وتשמئ نفسي أشد الاشمئزاز من كل ما عداها » (٥٥) . وقد عمل وقتئذ بما كان ينصح به غيره ، وأصدر في فترة لا تزيد إلا قليلا على سنتين ما يكاد يكون مكتبة في الفلسفة (٥٦) . ذلك أن ضعف العقيدة الدينية لدى الطبقات العليا قد خلف وراءه فراغا أخلاقيا لاح

(*) De Republica, ٥٤ : De Legibus ٥٧ Academia De Consolatione and De Finibus ٤٥ De Nature Deorum, De Divinatione, De Fato, De Virtutibus, De Officiis De Amicitia, De Senectute, De Gloria, Disputationes Tusculanae

وكل هذه في سنة ٤٤ ق . م وفي مايو ٤٥ - ٤٤ ألف شيشرون خمسة كتب في فن الخطابة .

أن رومة تتردى في مهاوى الانحلال الخلقى والاجتماعى . وكان شيشرون يأمل أن تحل الفلسفة محل الدين فتهدى هذه الطبقات إلى الحياة الطبية ، وتحفزها لأن تحيا هذه الحياة ، ولم يكن يعززم أن يضيف إلى النظم الفلاسفية السابقة نظاما جديداً ، بل كان كل ما يهدف له هو تلخيص تعاليم حكماء اليونان وتقديمها للرومان لتكون آخر ما يهديه لهم في حياته (٥٧) . وقد بلغ من أمانته العلمية أن أقر في غير خفاء أنه يستمد فلسفته من رسائل بانتيوس Panaetius وبوسيدونيوس Poseidonius وغيرهما من فلاسفة اليونان المحدثين (٥٨) ، وأن عمله لا يزيد على تكييف رسائلهما تكييفاً جديداً ؛ بل إنه في بعض الأحيان لا يفعل أكثر من ترجمة هذه الرسائل . ولكنه قد حول نثر هؤلاء الفلاسفة الخاف الممل إلى لغة لاتينية سهلة ، واضحة ، جذابة ، وجعل بحوثه بالحوار . وكان ينتقل فيها تنقلاً سريعاً من بدياء المنطق وما وراء الطبيعة الجذباء ، إلى المشاكل الحية ، مشاكل السلوك وحكم البلاد . وقد اضطر كما اضطر لكريشيوس إلى ابتكار مصطلحات فلسفية جديدة ، ونجح في هذا نجاحاً جعله صاحب الفضل على اللغة والفلسفة كليهما . والحق أن الحكمة لم يزنها من أيام أفلاطون مثل الذى ازدانت به في عهد شيشرون . وكان أفلاطون هو الذى استمد منه شيشرون معظم أفكاره ؛ ذلك بأنه لم يكن يحب تحكم الأبيقوريين الذين « يتحدثون عن الأمور الإلهية حديث الواقفين ، حتى ليخيل إليك أنهم قد جاءوا أساءتهم من مجتمع الآلهة » . وكذلك لم يكن يعجبه تحكم الرواقين الذين يلون الحجج عن قصد وتعمد حتى ليخيل إليك أن الآلهة أنفسهم إنما وجدت لمنفعة الآدميين (٥٩) . وتلك نظرية لم ير شيشرون نفسه في بعض أطواره أنها بعيدة عن حكم العقل . وكانت النقطة التى بدأ منها فلسفته هى بعينها بداية فلسفة الأقدمية الجديدة The New Academy — أى التشكك المين الذى لا يعترف بأن شيئاً ما مؤكداً كل التأكيد ، والذى يرى في الاحتمالات الراجعة ما يكفى مطالب الحياة البشرية ؛

وفي ذلك يقول في بعض كتاباته : « إن فلسفتي في معظم الحالات هي فلسفة الشك » (٦٠) ولعلكم تأذنون لي ألا أعرف ما لا أعرفه « (٦١) . ويقول ، في موضع آخر : « إن الذين يريدون أن يعرفوا رأيي الشخصي يظهرون قدراً من التشوف لا يقره العقل » (٦٢) . ولكن ما أوتي من قدرة فائضة على التعبير سرعان ما كان يتغلب على حياته ، فنهزأ بالتضمحيات الدينية ، والهااتين . والعرافين . ويخصص رسالة بأكملها لإنكار القدرة على التنبؤ بالغيب ، ويتساءل في معرض استنكار الاعتقاد بالتنجيم ، وهو الاعتقاد الذي كان واسع الانتشار في تلك الأيام ، هل كل من قتلوا في واقعة كانى قد ولدوا في مطلع نجم واحد (٦٣) . بل إنه ليشتك في أن العلم بالمستقبل خير لمن يعلمه ، وذلك لأن المستقبل نفسه قد يكون كريها كغيره من الحقائق الكبيرة التي يدفعنا حمفتنا إلى الجرى وراءها . ويظن شيشرون أن في مقدوره أن يقضى على العقائد القديمة كلها قضاء مبرما بالسخرية منها والاستهزاء بها . فيقول مثلاً : « إذا سميت الحب سيريز Ceres (*) وسميت الخمر باخوس Bachus كانت هذه التسمية استعارة من الاستعارات المألوفة ، ولكن هل تظن أن أحداً من الناس قد بلغ به الجنون إلى الحد الذي يعتقد معه أن ما يأكله إله بحق » (٦٤) . على أن شكه في الإلحاد لم يكن يقل عن شكه في أية عقيدة تحكيمية أخرى . فهو يرفض العقيدة الذرية (**) التي كان يقول بها دمقريطس ولكريشيوس ، ويقول إن من أبعد الأشياء أن تنظم الذرات نفسها بلا هاد يهديها ولو ظلت تفعل كذلك أبداً الدهر ، ثم ينشأ من هذا التنظيم عالمنسا الذي نعيش فيه . وشأنها في ذلك شأن الحروف الهجائية فإن من أبعد الأشياء كذلك أن تتجمع هذه الحروف من تلقاء نفسها فينشأ من تجمعها « هولبات إيوس » (٦٥) . ويقول إن

(*) سيريز هو الإله الروماني لدمتر Demeter إلهة الحرت والحب عند اليونان .

(**) هي العقيدة القائلة بأن الذرات قد تجتمعت ونظمت نفسها فنشأ الكون من ذلك

التجمع والتنظيم . (المترجم)

جهلنا بالآلهة ليس بالدليل القاطع على عدم وجودها ، بل إنه لينذهب إلى أبعد من هذا فيقول إن إجماع الناس على وجودها يكفي في حد ذاته لترجيح وجود قوة مدبرة : ويستخلص من هذا أن الدين نظام لا بد منه للأخلاق الشخصية والنظام العام ، وأنه نظام لا يمكن أن يهاجمه إنسان عاقل (٦٥) ؛ ولذلك فإنه ظل يقوم بواجبات العراف الرسمي في الوقت الذي كان يكتب فيه ضد التنبؤ والعرافة . ولم يكن يعد هذا نفاقاً بمعناه الصحيح ، ولعله كان يسميه سياسة وحسن تصرف . ذلك أن الأخلاق الرومانية ، والمجتمع الروماني ، ونظام الحكم فيه ، كانت كلها وثيقة الارتباط بالدين القديم ، وأنه إذا أريد لها البقاء وجب ألا يترك هذا الدين كى يموت . (وكان الأباطرة يبررون اضطهاد المسيحيين بمثل هذه الحجج) . ولما توفيت تليما التي كان يحبها أعظم الحب ، اشتدت به نزعة الأمل في الخلود . وكان قبل ذلك بعدة سنين كثيرة قد استعاز من فيثاغورس وأفلاطون وإيكسودس في « حلم سيبو » الذي اختتم به « ميموريه » أسطورة معقدة بليغة عن حياة بعد الموت ، ينعم فيها الموتى من العظماء الصالحين بالنعيم الأبدى . أما في رسائله الخاصة - وحتى في رسائله التي يواسي فيها الثاكليين من أصدقائه - فإنه لا يذكر قط شيئاً عن الحياة الآخرة .

وإذ كان على علم بما يسرى في أيامه من نزعة التشكك فإن الأسس التي أقام عليها بحوثه في الأخلاق والسياسة كانت أمساً دنيوية محضة ، لا تعتمد قط على تأييد غير تأييد القوى الطبيعية : فهو يبدأ (في De Finibus) بالتساؤل عن الطريق الموصل إلى السعادة : ثم يوافق الرواقين في شيء من التردد على أن الفضيلة وحدها لا تكفى للوصول إليها ، ومن أجل هذا تراه (في De Effectis) يبحث عن طريق الفضيلة . ويقترح بفضل جمال أسلوبه في أن يجعل الواجب محبباً ممتعاً إلى حين ، وفي ذلك يقول : « الناس جميعاً إخوة ، وخلق بنا أن نعد العالم كله مدينة مشتركة للآلهة والبشر على السواء » (٦٦) . ثم يواصل حديثه قائلاً إن

اسمى المبادئ الخلقية هي الولاء لهذا الكل ، ولاء يكون الحافز له هو الضمير الحى . وأول ما يجب على الإنسان لنفسه وللجمتمع ، أن يقيم حياته على أساس اقتصادى سليم ، وعليه بعدئذ أن يودى واجباته بوصفه مواطناً في بلده . والسياسة الحكيمية أعظم شرفاً من أعمق البحوث الفلسفية (٦٧) .

وهو يرى أن الملكية المطلقة خير أنواع الحكومات إذا كان الملك صالحاً ، وأكثرها شراً وفساداً إذا كان الملك فاسداً - وتلك حقيقة سرعان ما تأيدت في رومة نفسها ، وعنده أن الحكومات الأرستقراطية تصلح إذا كان الحاكمون فيها هم أحسن الناس حقاً ، ولكن ششرون ، وهو من أفراد الطبقة الوسطى ، لا يسلم تسليماً مطلقاً بأن الأسر القديمة المحافظة على أرستقراطيتها خير الأسر . والحكم الديمقراطى في رأيه يصلح إذا كان الشعب فاضلاً ، وهذا في ظنه لا يكون أبداً . هذا إلى أن هذا الحكم يفسده الافتراض الكاذب بأن الناس متساوون . ولذلك كان خير الحكومات هي التي تقوم على دستور يجمع بين هذه الأنواع كلها كحكومة رومة قبل عهد ابني جراكس ، فقد جمعت بين سلطة الجمعيات الديمقراطية ، وبساطة مجلس الشيوخ الأرستقراطية ، وسلطة القنصايين التي لا تكاد تقل عن سلطة الملوك في السنة التي يتوليان فيها منصبهما . والملكية إذا لم تكن لها ضوابط وموازين تصبح حكومة استبدادية ، كما أن هذه الظروف نفسها تجعل الأرستقراطية ألجبركية ، وتجعل الديمقراطية حكم الغوغاء وتستحيل إلى فوضى وطغيان . وقد كتب بعد خمس سنين من تولى قيصر منصب القنصلية ، وكأنه فيما كتب كان يصوب السهم إلى صدر قيصر :

يقول أفلاطون إن الحكام المستبدين ينتون من مغالاة الناس في التحلل من القيود تحللا يسميه الناس حرية ، كما ينبت النبات من الجذور . . . وإن هذه الحرية تهوى بالآفة آخر الأمر إلى درك الاستعباد . . . إن كل شيء يزيد على

حده ينقلب إلى ضده . . . وذلك لأن العامة التي ليس لها حاكم يسيطر عليها تختار من بينها في العادة زعيما يقودها . . . وهو لإنسان جرىء لا ضمير له . . . يسمى لنيل رضا الناس بما يعطيهم من أموال غيرهم . ولما كان هذا الرجل يخشى أشد الخشية أن يظل فرداً كغيره من الأفراد فلأنهم يجالعون عليه حماية المنصب العام ، ويجددون له هذه الحماية على الدوام ، فيحيط نفسه بحرس مسلح ، وينتهى به الأمر إلى أن يصبح طاغية يستبد بالشعب الذي حباه القوة والسلطان (٢٨) .

ولكن قيصراً رغم هذا نال بغيته ، ورأى شيشرون أن خير ما يفعله هو أن يكظم غيظه ويرفه عن نفسه بالقول المعاد في القانون ، والصدقة ، والمجد ، والشيخوخة ، وبأن « القوانين قلتزم الصمت في أيام الحرب » *Silent lege enter arma* على حد قوله هو نفسه . على أنه كان في وسعه على الأقل أن يستسلم للتفكير في فلسفة القانون ، وقد عرفه كما عرفه الرواقيون بأنه « التفكير الصحيح المتفق مع الطبيعة » (٢٩) أي أن القانون يعمل لجعل الصلات التي تنشأ من دوافع الناس الاجتماعية صلات منظمة مستقرة . وفي ذلك يقول إن « الطبيعة قد غرست في نفوسنا الميل إلى حب الناس » (المجتمع) ، « وهذا هو أصل القانون » (٣٠) ويرى شيشرون أن الصداقة يجب ألا تقوم على المنافع المتبادلة بل على المصالح المشتركة التي تدعمها ، وتحدوها الفضيلة والعدالة ، وأن قانون الصداقة هو « ألا يطلب الإنسان إلى صديقه أن يعمل أشياء غير شريفة ، وألا يعملها هو إذا طلب إليه عملها » (٣١) ، وعنده أن الحياة الشريفة هي خير ضمان للشيخوخة السارة ، وأن الاستمرار والإسراف في أيام الصبا يتركان للشيخوخة جسماً محطاً منهوكاً قبل الأوان . أما الحياة التي تقضى على خير وجه فقد يبقى الجسم والعقل فيها سليمين حتى يبلغ المرء مائة من السنين ، ولنضرب لذلك ماسينسا *Masinassa* والانكباب على الدرس قد يجعل الإنسان « يغفل عن اقتراب الشيخوخة منه خفية » (٣٢) . والشيخوخة أمجادها كما للشباب أمجادها — ففيها الحكمة المتسامة ،

وفيه حب الأطفال آباءهم وإجلالهم إياهم ، وفيه تهدأ حتى الرغبات والمطامح . وقد تخشى الشيخوخة الموت ولكن ذلك لا يحدث إذا كان العقل قد كوّنته الفلسفة ، فأدرك أن وراء القبر ، في أحسن الأحوال ، حياة جديدة أسعد من الحياة الدنيا وفي أسوأها راحة من عنائها (٧٣) .

وفي وسعنا أن نحكم على مقالات شيشرون في الفلسفة بأنها كلها ضئيلة الأثر ، وأنها كآرائه في الحكم والسياسة تستمسك فوق ما يجب بالسنن القديمة والتقاليد المرعية . وسبب ذلك أنه وإن أوتي تشوف العالم فقد أوتي معه حذر أبناء الطبقة الوسطى وضعف عزيمتهم . ولذلك ظل في فلسفته نفسها سياسياً يكره أن يسعى إلى شخص واحد من الناس ، خشية أن يفقد بذلك صوته يوم الانتخاب . وكان ديدنه أن يجمع آراء غيره ويجيد الموازنة بين ما لها وما عليها ، فلذا انتهى من هذه الموازنة خرج السامع بعدها من نفس الباب الذي دخل منه ، لا يدري أى الكفتين ترجح على الأخرى . ولولا ما امتازت به هذه الكتب الصغيرة من أسلوب سهل جميل لغنى عنها الزمان ، ولما بقي لها ذكر الآن . فلما أجمل لاتيذية شيشرون وما أسهل قراءتها ، وما أسلس لغتها وأوضحها ! لقد كان إذا قص حادثة أسبغ عليها من الحيوية التي تسرى في خطبه فتسترعى الأسماع وتسحر الأبواب ، وإذا وصف شخصاً أظهر في هذا الوصف من البراعة ما يجعل القارئ يأسف معه لأنه لم يجد متسعاً من الوقت يمكنه من أن يكون أعظم مؤرخي رومة (٧٤) ، وإذا انطلق في الخطابة أفاض على السامع جملاً متزنة ، جميلة اللفظ ، قوية العبارة ، مما أخذه عن إيزوقراطيس Isocrates ، وجعل السوق العامة تدوى بالتصفيق والاستحسان .

إن آراء شيشرون هي آراء الطبقات العليا ، أما أسلوبه فقد أراد به أن يصل إلى قلوب الشعب ، ومن أجل هذا تراه يبذل جهده لكي يكون

هذا الأسلوب واضحاً لا نغوص فيه ، وأن تكون الحقائق التي يوردها
بما يهزّ مشاعر السامعين هزّاً ، وهو يمزج المعنويات بالمواد والفكاهات ،
وملاك القول أن شيشرون قد خلق اللغة اللاتينية خلقاً جديداً ،
فوسّع نطاق مفرداتها ، وصاغ منها أداة مرنة للتعبير عن الفلسفة ،
وجعلها صالحة لاستيعاب الآداب والعلوم في أوروبا الغربية سبعة عشر قرناً
من الزمان . وإن الأجيال التي جاءت بعده لتذكره على أنه مؤلف أكثر
منه رجل سياسة ، ولما أن نسي الناس ما قام به وهو قنصل من أعمال
مجيده ، أو كادوا ينسونها ، على الرغم مما فيها من ذكريات طيبة ،
ظلّوا يمجّدون فتوحه في عالم الأدب والفصاحة ، وإذا كان من عادة الناس
أن يمجّدوا الصورة كما يمجّدون المادة ، وأن يعظموا الفن كما يعظمون
العلم والسلطان ، فقد نال شيشرون ، دون سائر الرومان ، من الشهرة
ما لم ينل أكثر منه إلا قيصر وحده ، ولم يغفر هو لرومة هذا الاستثناء
الوحيد .

الباب التاسع

قيصر

١٠٠ - ٤٤ ق م

الفصل الأول

الرقيع

يقول يوليوس قيصر إنه ينتمى إلى يولوس أسكانيوس *Julus Ascanius* ابن إينياس *Aeneas* ابن فينوس *Venus* (الزهرة) ابنة جوبيتر : أى أنه بدأ حياته إلها واختتمها إلها : وكان آل يوليوس من أقدم الأسر فى إيطاليا وأعلاها شرفاً ، وإن كان الدهر قد عدا عليها فذهب بمالها وأفقرها ، فقد كان أحد أفراد هذه الأسرة يوليوس قنصلا فى عام ٤٨٩ ، وكان منها قنصل آخر فى عام ٤٨٢ ، وكان فوبسكس يوليوس *Vopiscus Julius* قنصلا فى عام ٤٧٣ ، وسكستس يوليوس *Sextus Julius* فى عام ١٥٧ ، وآخر فى عام ١١٩ (١) : وقد ورث عن عم لزوجته يدعى ماريوس - كما يرث الناس فى بعض الأحيان عن أعمامهم - ميلا إلى المبادئ السياسية المتطرفة ، وكانت أمه أورليا سيدة وقورة حكيمة مقتصدة فى تدبير شئون بيتها الصغير ، وكان هذا البيت فى حى سابورة - وهو حى من الطراز القديم ، ومن الأحياء التى تكثر فيها الخوانيت والحانات والمواخير : فى هذا البيت

ولد قيصر في عام ١٠٠ ق . م ، وكان مولده نتيجة لجراحة هي التي كانت سبباً في تسميته باسمه الأول (*) .

ويقول سيوتونيوس Suetonius فيما نقله عنه هاند Holland إن قيصر هذا كان شخصاً مطيعاً سلس القياد إلى حد يدعو للعجب ، كما كان شديد الميل إلى التعلم « ، وكان المعلم الذي يتولى تعليمه اللغتين اللاتينية واليونانية وعلوم البلاغة رجلاً من الغالين . وشرع قيصر مع هذا المعلم يعد نفسه على غير علم منه للفوز بأعظم فتوحه كلها . ذلك أن الشاب أظهر استعداداً عظيماً للخطابة ، وبدأ في شبابه يكتب ويؤلف . ثم أنقذه من هذه النزعة تربيته ياوراً حربياً للماركس ثرمس Marcus Thermus في آسية . وأحبه ثرموميدس Nicomedes وإلى بيشنيا Bithynia حباً دفع شيشرون وغيره من الثرائين المغتابين إلى أن يعبروه بأنه « أسلم عذرتي للملك » (٢) . ولما عاد إلى رومة في عام ٨٤ تزوج كوساتيا Cossutia استجابة لرغبة أبيه . فلما أن توفي والده بعد زواجه منها بزمان قليل طلقها وتزوج كورنيليا Cornelia ابنة سنا Cinna الذي تولى قيادة الثورة بعد ماريوس . ولما تولى صلا زمام السلطة أمر قيصر أن يطلق كورنيليا ، فلما أبى أن يطيع هذا الأمر صادر صلا أملاكه التي ورثها عن أبيه كما صادر بائنة كورنيليا وسجل اسمه في المحكوم عليهم بالإعدام .

ولما علم قيصر بذلك هرب من إيطاليا وانضم إلى الجيش المحارب في قليقية ، حتى إذا مات صلا عاد إلى رومة (٧٥) . ولما رأى أن أعداءه هم أصحاب الأمر والنهي فيها غادرها مرة أخرى إلى آسية . وأسر القراصنة في الطريق واقتادوه إلى كمين لهم في قليقية ، وعرضوا عليه أن يطلقوا سراحه نظير فدية قدرها عشرون

(*) . وكانت الجراحات حتى في ذلك الوقت البعيد وسيلة قديمة من وسائل الولادة . وقد ورد ذكرها في القوانين المنزوعة إلى نوما Numa . على أن اسم قيصر لم يكن مشتقاً من هذه الجراحة (Caesus ad utero matris) فقد سمي به من قبله كثيرون من أسرة اليوليوسيين

تألفتنا (٧٢٠٠٠ ريال أمريكي) ، فلما سمع ذلك لاسهم على أنهم لم يقدموه حق قدره ، وعرض عليهم هو نفسه أن يعطيهم خمسين تألفتنا . وأرسل خدمه ليأتوه بالمال ، وأخذ في هذه الأثناء يسلي نفسه بكتابة القصائد وقراءتها على أسريه ، فلما لم تعجبهم قصائده سمّاهم برابرة همجا ، وأوعدهم بأنه سيشتقهم في أول فرصة تتاح له . ولما جاءه الفداء أسرع بالذهاب إلى ميليطس Miletus وأعد السفن والملاحين ، وطارد القراصنة وقبض عليهم ، واستعاد منهم الفداء ، وصلبهم ؛ ولكنه وهو الرجل الشفيق الرحيم قطع رقابهم أولاً (٣) ، وذهب بعدئذ إلى جزيرة رودس ليدرس فيها البلاغة والفلسفة .

ولما عاد إلى رومة وزع جهوده بين السياسة والحرب : وكان وسيم الوجه وإن كان تسقوط شعر رأسه في هذه السن المبكرة أخذ يشغل باله : ولما توفيت كرنيليا في عام ٦٨ تزوج بمميا ابنة حفيدة صلا : . وإذا كان هذا الزواج زواجاً سياسياً محضاً فإنه لم يتورع عن العلاقات الجنسية غير المشروعة حسب عادة ذلك الوقت ؛ ولكن هذه العلاقات بلغت من الكثرة ومن القنوع الشاذ حداً جعل كورنيا Curia (والد قائده الأخير) يصفه بقوله إنه « زوج كل امرأة وزوجة كل رجل ommium mulierum vir et ommium virorum mulier » (٤) . وظل يقبع هذه العادات نفسها في حروبه فبعث مع كليوباترة في مصر ، ومع الملكة إيونو Eunoe في نوميديا ، ومع كثيرات من النساء في غالة ، حتى كان جنوده يلقبونه في مزاحهم بلقب « الزاني الأصلع » . ولما تم له النصر في بلاد الغاليين أخذ جنوده يشدون بيتين من الشعر الملقى يحذرون فيهما جميع الأزواج بقولهم إن عليهم أن يغلقوا الأبواب على زوجاتهم مادام قيصر في المدينة . وكان الأشراف يتخذون عليه لسهين أولهما أنه قضى على امتيازاتهم ، وثانيهما أنه أفسد زوجاتهم ؛ وطلق بمي زوجته لاتصالها بقيصر ، ولم تكن كراهية كاتو الشديدة له منيعة عن أسباب فلسفية خالصة بل كان من أسبابها أن أختاله غير شقيقة تدعى

سرفليا Servilia كانت أحب عشيقات قيصر له ، ولما ارتاب كاتو في صلات قيصر بكتاتلين وظنه شريكاً له في مؤامراته طلب إليه في مجلس الشيوخ أن يقرأ جهره رسالة جىء بها إليه في تلك اللحظة ، فما كان من قيصر إلا أن أوصلها إليه دون تعليق عليها ، فإذا هي رسالة حب بعثت بها إليه سرفليا^(٥) . وظلت تهيم بحبه طوال حياته ، وكانت أسنة السوء القاسية تتهمها في أخريات أيامها بأنها أسلمت ابنتها ترشيا Tertia إلى قيصر لتشبع شهواته . وحدث في مزاد علني أثناء الحرب الأهلية أن باع قيصر إلى سرفليا ضياعاً صادرها من جماعة من الأشراف المعاندين بضمن اسمي زهيد . ولما أظهر بعضهم دهشته من ضالة الثمن قال شيشرون في سخرية لاذعة كانت خائفة بأن تطيح برأسه إنه *tertia deducta* ، وهي عبارة تحتل معنيين فقد يكون معناها أن الثمن « ينقص ثلثه » وقد تكون إشارة منه إلى الإشاعة الرائجة وقتئذ وهي أن سرفليا قد جاءت بابنتها ترشيا إلى قيصر . وأصبحت ترشيا فيما بعد زوجاً ليكيوس القاتل الأول لقيصر ، وهكذا يختلط عشق الخلائق بالفتن التي تندلع نيرانها في الدول .

ولعل هذه الظروف قد ساعدت على رفع قيصر إلى أعلى الدرجات ، وإملها أيضاً قد أعانت على سقوطه . فقد كانت كل امرأة فاز بحبها صديقة له عظيمة النفع ، وبخاصة في معسكرات الأعداء ؛ وقد حافظت معظمهن على وفائهن له حتى بعد أن هدأت عاطفة حبه لهن وأضحت لا تريد على المجاملات المألوفة من الرجال إلى النساء . من ذلك أن كراسس أقرض قيصر أموالاً طائلة ليستخدمها في الدعاية لنفسه وهو يطالب بالانصياع فيرشو بها الشعب ، ويقيم له الألعاب ، وفلك على الرغم مما كان يشاع وقتئذ من أن زوجته ترتل كانت تعشق قيصر .

وحسبك دليلاً على مقدار هذه الأموال أن قيصر كان في يوم ما مديناً له بمائة تالنت (٢٨٠٠٠ ر ٠٠٠ ريال أمريكي) . ولم يكن الباعث على هذه القروض هو الكرم والصدقة ، بل كانت بمثابة اشتراك من أصحابها في الحملات

تود إليهم في صورة مساعدات سياسية أو غنائم حربية ؛ فقد كان كراسس — كما كان أنكس — في حاجة إلى من يحمى ملايينه وتتيح له فرص استثمارها . وكان معظم السياسة الرومان في ذلك الوقت ينوعون بمثل هذه « الديون » . فقد كان ماركس أنطونيوس مثلاً مديناً بنحو ٤٠٠٠٠٠٠٠٠ سسترس ، وشيشرون بستين مليوناً ، وميلو Milo بسبعين مليوناً على أن من الجائز أن تكون هذه الأرقام افتراء على هؤلاء السياسة .

وجملة القول أنه علينا أن نتمثل قيصر في أول حياته في صورة السياسي الذي لا ضمير له ، والرقيع المستهتر ، الذي بدلته السنون والتبعات شيئاً فشيئاً فجعلته من أقدر رجال الحكم وأرعاهم للحرمان في تاريخ العالم . وينبغي لنا — ونحن نظرب من عيوبه ونقائصه — ألا ننسى أنه كان رجلاً عظيماً على الرغم من هذه العيوب والنقائص . وليس في وسعنا أن نسوى بين أنفسنا وبين قيصر بقولنا إنه كان يضلل بالنساء ، ويزشر الزعماء ، ويؤلف الكتب .

لإحيائها وأهم من هذا كله أن الفساد السياسي الذي قاومه في شبابه أخذ ينتشر ويعظم كلما زادت مخاطر المناصب الحكومية باتساع رقعة الإمبراطورية . وكان كل فتح حربي جديد يزيد في ثراء رومة كما يزيد في فسادها ووحشيتها ، وكانت قد كسبت كل حرب خاضت غمارها عدداً حرب الطبقات ، وأزال تدمير قرطاجنة آخر عائق قائم في سبيل الانقسام والفتن في المدينة ، وجوزيت رومة على تملكها العالم بثورات طاحنة وفقن صباه دامت قرناً من الزمان .

الفصل الثانى

القنصل

بدأ قيصر حياته السياسية بأن تحالف مع كاتلين سرّاً واختتمها بأن أعاد الحياة إلى رومة . ذلك أنه لم يكذب يمضى عام واحد على موت صلا حتى قدم للمحاكمة نيوس دلابلا Onaeus Dolabella أحد العاملين فى حركة صلا الرجعية ، وكان قرار المحلفين على غير ما يشتهيه قيصر ، ولكن العامة هلت له حين هاجم ذلك القرار فى خطبة بليغة ردد فيها المبادئ الديمقراطية ، نعم لأنه لم يكن يضارع شيشرون فى تهمسه وفكاهته ، أو فى جملة الموزونة القوية ، أو فى حدة لسانه . والحق أن قيصر كان يبغض أسلوب شيشرون « الأسبوى » لأنه اعتاد من أول الأمر ذلك الأسلوب الموجز القوى ذا البساطة الصارمة التى امتازت بها فيما بعد « تعليقاته » على الحريين الغالية والأهلية . على أنه رغم هذا كله لم يلبث أن صار أفصح الفصحاء فى رومة إذا استثنينا شيشرون نفسه (٦) .

واختير قيصر كوسترا فى عام ٦٨ ، وأرسل للعمل فى أسبانيا حيث تولى قيادة الحملات العسكرية التى سهرت لتأديب القبائل الوطنية ، فعرب مدنها ، ونهب من الأموال ما استطاع أن يوفى به بعض ما عليه من الديون . على أن هذه المدن قد حدث له فى الوقت نفسه أن خفض قوائده قروضها من المالبين الرومان ، ولما قدم إلى مدينة جاذز وشاهد فيها تمثالا للإسكندر الأكبر أخذ يابوم نفسه على أنه لم يعمل إلا القليل فى مثل السن التى قتح الفتى المقدونى حين بلغها نصف عالم البحر الأبيض المتوسط .

ثم عاد بعدئذ إلى رومة واندفع فى الصراع القائم وقتئذ فى سبيل المنصب والسلطان . فاختير إيدىلا أو مشرفاً على المبانى العامة فى عام ٦٥ ، وأنفق أمواله

- أى أموال كراسس - فى تزوين السوق العامة بما أقامه فيها من المباني والأعمدة الحديدية ؛ وأخذ يتودد إلى العامة بما كان ينفقه عن سعة على الألعاب ؛ وكان صلا قد أزال من الكبتول ما جمعه فيه ماريوس من شارات النصر كالأعلام والصور والمغانم التى تمثل صفات الرجل المتطرف القديم وانتصاراته ، فأعادها كلها قبصر إلى مواضعها واغتنبط بعودتها جنود ماريوس القدامى أشد الاغتياب ، وأظهر بهذا العمل وحدة سياسته المناقضة لسياسة ماريوس ؛ واحتج المحافظون على هذه السياسة ، وعرفوا من ذلك الوقت أنه رجل يجب عليهم أن يعملوا للقضاء عليه .

وكان فى عام ٦٤ ق . م رئيساً لإحدى اللجان التى عينت للنظر فى بعض قضايا القتل ، فاستدعى للمثول أمام اللجنة من كان حياً من عمال صلا الذين عاونوه على وضع قوائم من حكم عليهم هذا القنصل ، وقضى على الكثيرين من هؤلاء العمال بالنفى أو الإعدام . وفى عام ٦٣ ق . م اقترح فى مجلس الشيوخ ضد إعدام من اشتركوا مع كاتلين ، وقال فى عرض خطابه إن الشخصية البشرية لا بقاء لها بعد الممات (٧) ؛ ويلوح أن قوله هذا كان الجزء الوحيد من خطابه الذى لم يسيء فيه إلى أحد . واختير فى تلك السنة نفسها رئيساً أعلى الدين الرومانى pontifex maximus ثم اختير فى عام ٦٢ بريتورا praetor وأمر فى ذلك العام بمحاكمة أحد زعماء المحافظين لاختلاس بعض الأموال العامة . وفى عام ٦١ عين والياً على أسبانيا ولكن دائيته حالوا بينه وبين السفر إليها ، وأقر فى ذلك الوقت أنه فى حاجة إلى ٢٥٠.٠٠٠ رطل سسترس إذا أراد ألا يملك شيئاً قط ، فتقدم كراسس لمعونته وضممته فى جميع ديونه . وبذلك استطاع أن يسافر إلى أسبانيا ، ويشن حملات حربية مروعة على القبائل الثائرة ذات النزعة الاستقلالية . وعاد بعدها إلى رومة ومعه من الغنائم ما يكفى لأداء ديونه وملء خزائن الدولة بالمال ، فما كان من مجلس الشيوخ إلا أن اقترح أن يقام له احتفال بنصره العظيم . ولعل

الأشراف قد أظهروا بعمالهم هذا كثيراً من الدهاء وحصافة الرأى ، فقد كانوا يعرفون أن قيصر سيرشح نفسه لمنصب القنصلية ، وأن القانون ينص على ألا يرشح لها من كان غائباً عن البلاد ، وأن من يقام له احتفال بالنصر يجب أن يظل بحكم القانون بعيداً عنها إلى يوم الاحتفال - وحرص مجلس الشيوخ على أن يحدده بعد موعد الانتخاب . ولكن قيصر استبق يوم الاحتفال بنصره ، ودخل المدينة وأدار المعركة الانتخابية بحد ومهارة عجز معارضوه عن مقاومتها .

وكان سبب نجاحه مهارته في ضم ممبي إلى قضية الحرية . وكان ممبي قد عاد توأ من بلاد الشرق بعد أن قام فيها بسلسلة من الأعمال الحرية والسياسية المجيدة ، فقد طهر البحر من القراصنة ، وأمن بذلك سبل التجارة في البحر الأبيض المتوسط ، وأعاد الرخاء إلى المدن التي كان رخاؤها يعتمد على هذه التجارة . وكان قد أرضى أصحاب المال في رومة بفتح بيشنيا وبنفس وسوريا ، وكان قد خلع ماوكا وأجلس على العرش آخرين ، وأقرضهم الأموال من غنائمه الحربية بفوائد باهظة ، وقبل رشوة كبيرة من ملك مصر الذي دعاه إلى القدوم إليها لإخماد فتنة اندلع لهيها في تلك البلاد . ثم عاد فامتنع عن تنفيذ ما اتفق عليه بحجة أنه عمل غير مشروع^(٩) ، ونشر لواء السلام في ربوع فلسطين وجعلها ولاية خاضعة لنفوذ رومة ، وأشأ تسعا وثلاثين مدينة جديدة ، وأقرضهم القانون والنظام والسلام . وقصارى القول أنه كان قد سلك قبل ذلك الوقت مسلك السيامى الحكيم والحاكم القدير وأن مسلكه عاد على البلاد بالمال الوفير . فلما رجع إلى رومة حمل إليها ثروة عظيمة من الضرائب ، والخراج ، والبضائع التي غنمها في حروبه ، ومن الأموال التي افندى بها الأرقاء أو بيعوا بها ، فاستطاع بذلك أن يعمر خزانة الدولة بمائتي مليون سسترس ، وأن يضمّن لها إيراداً سنوياً قدره ثلثمائة وخمسون مليوناً ، وأن يوزع على جنوده ثلثمائة وأربعة وثمانين مليوناً ، وأن يستبقى لنفسه رغم هذا كله من المال ما ينافس به كراسس فيكون أحد رجلين هما أغنى أغنياء رومة .

وكان خوف مجلس الشيوخ من هذه الأعمال أكثر من سروره منها ، فلما علم أن يمّي قد نزل في برنذريوم^(٦٢) ومعه جيش يدين له بالولاء والإخلاص ، ويستطيع بكلمة من قائده أن يجعله حاكماً بأمره على البلاد ، لما علم مجلس الشيوخ ذلك تملكه الرعب . ولكن يمّي كان رجلاً كريماً عظيماً ، فسرّح جنوده ودخل رومة وليس معه إلا أتباعه الأخصاء . ودام الاحتفال بنصره يومين كاملين ، ولكن هذه الفترة على طولها لم تكف لعرض الحفلات التي تصور انتصاراته وتظهر مغامره .

وكان مجلس الشيوخ حقوداً ضئيلاً ، فرفض طلبه القاضي بتوزيع الأرض على جنوده ، ولم يقر الاتفاقات التي عقدها مع الملوك المغلوبين ، وأعاد التظلم التي أقامها من قبله لوكلس في بلاد الشرق والتي أغفلها يمّي . وكانت نتيجة هذه الأعمال أن تمزق اتفاق شيشرون المعروف بحلف الطبقات *Concordi ordinum* ، وأن ألقى يمّي والرأسماليين في أحضان الطبقات الدنيا واغتنم قيصر هذه الفرصة السانحة فألف منه ومن يمّي وكراسس الحكومة الثلاثية الأولى^(٦٣) وتمهدوا جميعاً أن يقاوموا كل تشريع لا يرضى عنه أي واحد منهم . واتفق يمّي أن يساعد قيصر في أن ينتخب قنصلاً ، كما تعهد قيصر ، إذا ما اختير لهذا المنصب ، أن ينفذ الاقتراحات التي عرضها يمّي ورفضها مجلس الشيوخ .

وكانت الحملة الانتخابية شديدة مريرة استخدمت فيها الرشوة من كلا الجانبين . ولما سمع كاتو زعيم المحافظين أن حزبه يبتاع أصوات الناخبين تحلل من مبادئه الأولى ووافق على هذا العمل بحجة أنه وسيلة إلى غرض نبيل ، واختار العامة قيصر كما اختار الأشرف *Pibulus* . وما كاد قيصر يتسلم مقاليد منصبه (٥٩) حتى عرض على مجلس الشيوخ

المطالب التي تقدم بها پمپي : وهي توزيع الأرض على عشرين ألفاً من المواطنين الفقراء ومنهم جنود پمپي ، والتصديق على الاتفاقات التي عقدها پمپي في بلاد الشرق ، وتخفيض المبالغ التي تعهدها زمرود بيمها من ولايات آسية بمقدار ثلثها .

ولما عارض المجلس كل مطلب من هذه المطالب بجميع ما لديه من وسائل فعل قيصر ما فعله ابن جراكس ، فعرضها على الجمعية مباشرة ، واستطاع المحافظون أن يقتنعوا بپيلوس ، كما أقنعوا العرافين بأن يعلنوا أن الحظ غير موات لإجابتها ، ولم بأبى قيصر لأقوال العرافين ، وحمل الجمعية على أن تتهمة بپيلوس بالخيانة ، وقام رجل متحمس من العامة فأفرغ وعاء من البراز على رأس بپيلوس .

ثم وافقت الجمعية على مشروعات قيصر ، وكانت تجمع ، كما تجمع مشروعات ابن جراكس ، بين السياسة الزراعية وخطة مالية ترضى رجال الأعمال . وأعجب پمپي بوفاء قيصر بعهده ، وأخذ يوليا ابنته زوجة رابعة له ، وأصبح الاتفاق بين العامة والطبقة الوسطى رابطة حب وصدقة ، وتعهد أعضاء الحكومة الثلاثية للنجاح المتطرف من أتباعهم أن يؤيدوا بپليوس كلودبوس *Publius Clodius* في أن ينتخب تريبوناً في خريف عام ٥٩ ، وأخذوا يعملون من ذلك الحين للمحافظة على رضا الناخبين بما يقدمونه لهم من ضروب اللهو والألعاب الكثيرة .

وتقدم قيصر بمشروعه الثاني الخاص بتوزيع الأراضي في شهر إبريل من ذلك العام نفسه . وكان هذا المشروع يقضى بتوزيع الأراضي التي تملكها الدولة في كمهانيا على من كان له ثلاثة أبناء من المواطنين الفقراء ، وتجاهل قيصر مجلس الشيوخ مرة أخرى ، وأجازت الجمعية المشروع ، وبذلك تمت الموافقة على سياسة ابن جراكس بعد جهود دامت مائة عام كاملة ، ولزم بپيلوس *Bibulus* في ذلك الوقت بيته واكتفى بأن يأخذ يصدر من حين إلى حين تصريحات يقول فيها إن الطوالع غير موثوقة للتشريعات الجديدة . أما قيصر فكان يصرف الشئون العامة

من غير ان يسدشيره فيها ، وبلغ من إهماله إياه أن كان الفكهون من أهل المدينة يصفون هذا العام بأنه « قنصلية يوليوس قيصر » . وأراد أن يفرض رقابة الشعب على مجلس الشيوخ ، فأنشأ أول صحيفة إخبارية ، بأن جعل الكتبة يسجلون أعمال الشيوخ وغيرهم ، مضافة إلى الأخبار اليومية ، ثم تعلق هذه « الأعمال اليومية » *Acta Diurna* على جدران السوق العامة ، وتكتب التقارير من هذه « الأعمال اليومية » ، وتحملها إلى جميع أجزاء الإمبراطورية وُسل يخصصون لهذا العمل .

وقبل أن تنتهى فترة هذه القنصلية التاريخية أفلاح قيصر فى أن يعين والياً على بلاد الغالة الجنوبية . وغالة ناربونة فى الخمس تسعين التى تلى سنة القنصلية . وإذا كان القانون يحرم إقامة الجنود فى إيطاليا نفسها فإن قيادة الفيالق المقيمة فى شمال إيطاليا قد جعلت لصاحبها السيطرة العسكرية على شبه الجزيرة بأكملها : وأراد قيصر أن يستوثق من بقاء تشريعاته السابقة ، فعمل على أن ينتخب صديقه جابينيوس *Gabinus* وبيزو *Piso* قنصلين فى عام ٥٨ ، وتزوج كابرنيا *Calpurnia* ابنة بيزو ؛ ولكى يضمن استمرار العامة على تأييده بذل جهوده الموفقة لانتخاب كلوديوس تريبوننا فى عام ٥٨ . ولم يحز لنفسه أن تتأثر مشروعاته بطلاقه الحديث لزوجته الثالثة ممها بسبب ارتيابه فى صلاتها غير المشروعة بكلوديوس .

الفصل الثالث

الأخلاق والسياسة

كان بيليوس كلوديوس بلشر Publiws Claudius Pulcher أى بيليوس كلاديوس الجميل فرعاً من دوحه آل كلوديوس . وكان شاباً أرسقراطياً باسلاً لا يهاب الردى ولا يتورع من للناحية الخلقية عن اقتراف أية موبقة . وقد نزل من مرتبه السامية ، كما نزل منها كاتلين وقيصر ، ليقود العامة فى كفاحهم ضد الأغنياء ، وأراد أن يكون من حقه أن يختار تريبونا فأقنع إحدى الأسر الفقيرة فى أن تتبناه، وأراد أن يعيد توزيع الثروة التى تجمعت فى أيدي بعض الطبقات فى رومة ، وأن يقضى على شيشرون — وكان قد استطال فى عرض أخته كلوديا وأخذ يدافع عن حرمة المائكية — فعمل جندياً عادياً تحت إمرة قيصر حتى يستطيع أن يستولى على زمام السلطة . وكان يعجب بخطط قيصر ويعشق زوجته ، واحتال للوصول إليها بأن تزى بزى امرأة ودخل بيت قيصر ، ثم تزى بزى كاهن واشترك فى المراسم الدينية التى يقيمها النساء وحدهن إلى الآلهة الطيبة Bona Dea . ثم افترض سره ووجهت إليه تهمة الاعتداء على حرمة الإلهة وأسرارها ، وحوكم على هذه التهمة . ولما نودى على قيصر ليشهد عليه قال إنه لا يوجه تهمة ما إلى كلوديوس . فلما سأله المدعى العمومى عن سبب طلاقه بمهيا قال إن سبب هذا الطلاق هو « أن زوجتى يجب أن تكون بعيدة عن الشبهات » .

وكانت هذه لإجابة لبقة تسمى إلى ذلك العون السياسى القيم ، ولا تنسى إليه هو ؛ وشهد كثيرون من الشهود بأن كلوديوس كان على اتصال بكلوديا ، وأنه ضاجع أخته ترشبا بعد زواجها من لوكلس . واحتج كلوديوس بأنه كان غائبا عن رومة فى ذلك اليوم الذى يعزى إليه فيه ذلك الاتهام المزعوم الدنى ، ولكن

شيشرون شهد بأن كلوديهوس كان معه في رومة في ذلك اليوم نفسه . وظن الشعب أن المسألة كلها مؤامرة من مجلس الشيوخ للقضاء على زعيم من زعمائه ، وأخذ يطالب ببراءته من التهمة الموجهة إليه ؛ ورشا كراسس عدداً من القضاة - بتحريض قيصر كما يقول بعضهم - ليحكموا في صالح كلوديهوس ، واستطاع المتطرفون للمرة الأولى أن يقدموا من المال أكثر مما يقدمه المحافظون ، وبرئ كلوديهوس ؛ ولم يدع قيصر هذه الفرصة السانحة تفلت من يده فاستبدل بزوجة من أبناء المحافظين ابنة أحد الشيوخ المناصرين لقضية الشعب .

ولم يكد قيصر يعتزل منصبه حتى اقترح بعض المحافظين إلغاء كل التشريعات التي أصدرها إلغاء تاماً ؛ ولم يكتفم كاتو رأيه في هذه القوانين اليوليوسية ، وطالب بمحوها من سجلات القوانين الرومانية . وتردد مجلس الشيوخ في الاستجابة إلى هذا التحدى الصريح لقيصر ومن ورائه المحافظين الرومانية ، ولكلوديهوس المسيطر على التريونية ؛ وكان كاتو في عام ٦٣ قد خطب ود الشعب وحاول ضمه إلى جانب المحافظين لإعادة النظام للقاضي بتوزيع الغلال على الأهلين بثمان بجنس . وأراد كلوديهوس أن يكون أكثر منه استرضاء للعامة فأخذ يوزع الغلال من غير ثمن على كل من يطلبها ، وأقرت الجمعية بناء على طلبه مشروعات قوانين تحرم رفض الإجراءات التشريعية بالاستناد إلى الحجج الدينية وتجعل تأليف الهيئات النقابية من الحقوق المشروعة ، وكان مجلس الشيوخ قد حاول من قبل حلها . وقد أعاد هو تنظيم هذه الهيئات وجعل لها حق الاقتراع بجمعية ، وكسب بذلك ولاءها وإخلاصها له ، فعيّنت له من أعضائها حرساً مسلحاً . وإذا كان يخشى أن يحاول كاتو وشيشرون ، بعد أن تنتهى فترة توليه منصبه ، إلغاء ما قام به قيصر من الأعمال فقد أقنع الجمعية بتعيين كاتو مندوباً رومانيا في قبرص وإصدار قرار يقضى بتنى كل من يتسبب في قتل أى مواطن روماني دون أن يحصل على موافقة الجمعية ، كما تتطلب ذلك قوانين الدولة . ورأى شيشرون أنه هو المقصود بهذا القانون ، فقرأ

بلاد اليونان حيث خذت المدن والشخصيات الكبيرة تتنافس في تكريمه والاحتفاء بمقدمه . وكان رد الجمعية على هذا القرار أن قررت مصادرة أملاك شيشرون ، وهدم بيته القائم على تل الپلاتين Palatine .

وكان من حسن حظ شيشرون أن كلوديوس قد غره ما ناله من نصر ، فأخذ يهاجم بمي وقيصر ، ويحاول الانفراد بزعامة الشعب ، وكان جواب بمي على خطط كلوديوس أن أيد الطلب الذى تقدم به كونتس Quintus أخو شيشرون بالسماح لخطيب رومة أن يعود إليها . ودعا مجلس الشيوخ جميع المواطنين الرومان إلى الاجتماع فى عاصمة الدولة ليليدوا رأيهم فى هذا الاقتراح ، وجاء كلوديوس بعصابة مسلحة إلى ميدان المريخ لتشرف على عملية الاقتراح ، واستخدم بمي رجلاً فقيراً من الأشراف يدعى أنيوس ميلو Annius Milo لتنظيم عصابة أخرى لمناوأتها ، وكانت نتيجة ذلك حدوث شعب واضطراب سفكت فيه الدماء ، فقتل عدد كبير من الناس ولم ينج كونتس نفسه من القتل إلا بمعجزة من المعجزات . على أنه أفلح فيما كان يرمى إليه ، وعاد شيشرون ظافراً إلى رومة بعد نفي دام عدة شهور (٥٧) ، وحيثه فى طريقه من برنديزيوم إلى رومة جماهير غفيرة بلغت من الكثرة حداً تظاهر معه شيشرون بالخوف من أن يتهم بأنه قد دبر أمر نفيه ليحظى بهذا التكريم العظيم عند عودته (١١) .

ويلوح أنه قد تعهد بمناصرة بمي ، ولعله أيضاً قد تعهد بمناصرة قيصر ، نظير سماحهما بعودته . وشاهد ذلك أن قيصر أقرضه أموالاً كثيرة لينظم بها شئونه المالية من جديد ، وأبى أن يتقاضى عليها فائدة (١٢) . وظل شيشرون بعد عودته عدة سنين المدافع عن أقطاب الحكومة الثلاثية والناطق بلسانهم مجلس الشيوخ .

ولما لاح فى أفق رومة خطر نقص الحبوب مرة أخرى (٥٧) استطاع أن

يحصل ليمبي على تفويض عجيب ، هو أن تكون له السلطة الكاملة مدى ست سنين على كل موارد الطعام في رومة ، وعلى جميع الدولة وتجارها الخارجية ، واستطاع ليمبي مرة أخرى أن يفيد من هذه السلطة أعظم إفادة ، ولكن دستور الجمهورية أصيب مرة أخرى بطعنة نجلاء ، وظل حكم الأفراد محل محل حكم القانون : وكذلك استطاع شيشرون أن يمنع مجلس الشيوخ بالموافقة على اقتراح عرض عليه بتقديم مبالغ كبير من المال لأداء مرتبات جنود قيصر في غالة : وفي عام ٤٤ أفلح في دفعه عن حكم أولس جابنيوس *Aulus Gabinius* ، حاكم إحدى الولايات وصديق رجال الحكومة الثلاثية ، حتى برئ من تهمة ابتزاز أموال الولايات واستخدام العنف في الحصول عليها : وفي عام ٥٥ خسر كل ما كسبه من عطف قيصر ومعونته بهجومه العنيف على وال روماني آخر يدعى كاپرنيوس *Calpurnius Piso* : ذلك أنه لم ينس قط أن يزوج هذا كان من الذين اقترحوا على نفيه ، ونسى أن ابنة *پيزو* كانت زوجة قيصر .

ولما عاد كاتو من قبرص عام ٥٧ ق : م بعد أن أعاد تنظيم شئونها على خير وجه شرع المحافظون يلمون شعهم ويعيدون تنظيم صفوفهم ، وكان كلوديوس قد أضحى وقتئذ عدو ليمبي الألد فقبل ما عرضه عليه الأشراف من أن يعبرهم بحجة الشعب وعصاباته السفاحة : وانجى الأدب من ذلك الوقت وجهة معادية لقيصر وأخذت قصائد كلفص *Calvus* وكاتلس *Catullus* الهجائية تصوب كالسهام المسمومة إلى معسكر الحكومة الثلاثية . وكلما توغل قيصر في بلاد الغالين ، وتواترت أنباء ما كان يلاقه فيها من الأخطار الكثيرة ، أخذ الأمل يدب من جديد في صدور الشخصيات النبيلة ، وقال شيشرون وقتئذ إن « من لم يمت بالنيف مات بغيره » :

ولذا يجاز لنا أن نصدق ما قاله قيصر ، فإن عدداً من المحافظين
قد أخذوا يأترون مع أريوڤستس Ariovistus القائد الجرمانى على اغتيال
قيصر (١٣) . وسارع دمتيوس Domitius يرشح نفسه للقنصلية ، وعلان
أله إذا ما فاز بها فسيقترح من فوره على المجلس استدعاء قيصر —
أى أن قيصر سيتهم ويحاكم . وتلون شيشرون بلون الزمان ، فاقترح
أن ينظر مجلس الشيوخ فى يومى ٢٥ ، ٢٦ من شهر مايو فى إلغاء قوانين
قيصر الخاصة بالأراضى الزراعية .

الفصل الرابع

فتح بلاد غالة

تسلم قيصر في عام ٥٨ ق . م مهام منصبه ، منصب حاكم بلاد غالة الجنوبية والربونية ، أى شمالي إيطاليا وجنوبي فرنسا . وكان أريوفستس قد سار في عام ٧١ ق . م على رأس خمسة عشر ألفاً من الجرمان إلى بلاد الغالة حين استعانته إحدى قبائلها على قبيلة أخرى . وقدم لها القائد الألماني المعونة التي طلبتها ولكنه لم يغادر البلاد ، بل بقى فيها ليبسط حكمه على جميع القبائل الضاربة في شمالي غالة الشر . واستنجدت قبيلة الإيدوي Aedui إحدى هذه القبائل برومة لتعينها على الألمان (٦١) . وخوّل مجلس الشيوخ الحاكم الروماني على بلاد غالة الربونية حتى إجابة هذا الطلب ، ولكنه في الوقت نفسه تقريباً ضم أريوفستس إلى طائفة الحكام الموالين لرومة . وكان مائة وعشرون ألفاً من الألمان قد عبروا في هذه الأثناء نهر الرين ، واستقروا في فلاندرز فشدوا بذلك أزر أريوفستس ، وأخذ يعامل أهل البلاد معاملة الشعوب المغلوبة ، وشرع يني نفسه بالاستيلاء على بلاد غالة بأجمعها (٦٢) .

وبدأت في الوقت عينه قبائل الهلثي Helvetii الضاربة حول جنيف تهاجر نحو الغرب ، وكانت عدتها نحو ٣٦٨٠٠٠ ، وأندز قيصر بأن هذه القبائل تعزم اختراق بلاد غالة الربونية في طريقها إلى جنوبي فرنسا الغربي . ويصف ممسن Mommsen حركات هذه القبائل بقوله : « لقد كانت القبائل الألمانية الضاربة تتحرك في جميع الأصقاع الممتدة من نهر الرين إلى المحيط الأطلنطي ، وكانت هذه اللحظة شبيهة باللمحة التي انقضت فيها قبائل الألمانى والفرنجة على إمبراطورية القياصرة المتداعية . . . بعد خمسمائة عام من ذلك الوقت » (٦٣) وأخذ قيصر يحتمل لإنقاذ رومة بينما كانت رومة نفسها تدبر المؤامرات للقضاء عليه .

وجند قيصر من ماله الخاص . ومن غير أن يرجع في ذلك إلى مجلس الشيوخ — وكان الدستور يحتم عليه الرجوع إليه — نقول جند ثلاث فرق جديدة كاملة العدة زيادة على الأربع الفرق التي كانت تحت إمرته . ثم أرسل يدعو أريوفستس أن يحضر إليه من فوره لبيحث الموقف معه . ورفض أريوفستس الدعوة كما كان قيصر يتوقع . وأقبلت وقتئذ على قيصر وفود كثيرة من القبائل الغالية تتطلب إليه حمايتها ، فأعلن الحرب على أريوفستس وقبائل الهلثي ، واتجه بجيوشه نحو الشمال وذارت بينه وبين جحافل الهلثي معركة حامية عند بركتي Bibracte عاصمة الإيدوني ، ومكانها الآن بالقرب من بلدة أوتون Autun الحالية . وانتصرت جيوش قيصر في هذه المعركة انتصاراً غير حاسم ، أقرب ما يكون إلى الهزيمة ، كما يقول قيصر نفسه ، ونحن مضطرون أن نأخذ عنه هو معظم هذه الأنباء . وعرض الهلثي أن يعودوا إلى موطنهم في سويسرا ، ووافق قيصر على أن يؤمنهم في عودتهم إليه ، ولكنه اشترط عليهم أن تخضع البلاد التي كانوا يحتلونها إلى حكم رومة . وبعثت بلاد الغالة جميعها وقتئذ تشكر له تخليصها من أعدائها ، وترجوه أن يساعدوا على طرد أريوفستس . والتقى قيصر بالألمان عند أستيم Astheim (*) ، ودارت بينه وبينهم معركة انتهت بقتلهم أو أسرهم عن آخرهم تقريباً ، كما يقول هو نفسه (٥٨) . وفر أريوفستس من الميدان ولكنه مات بعد ذلك بقليل .

واعتقد قيصر أن تحرير غالة من أعدائها لا يفتقر في شيء عن فتحها ، فشرع من فوره يعيد تنظيمها على أساس خضوعها لسلطان رومة ، وحجته في ذلك أن هذا التنظيم هو الوسيلة الوحيدة لحمايتها من الألمان . ولم تقنع هذه الحجة بعض الغالين فناروا ، واستعانوا عليه البلجي Belgae وهم قبيلة ألمانية كلتية

(•) على بعد عشرة أميال من شاطئ نهر الرين الغربي وعلى بعد ١٦٠ ميلاً جنوبي

قوية تسكن شمال غالة بين نهري السين والرين ، والتقى بهم قيصر على شواطئ نهر الآين Aisne وهزمهم ، ثم سار بسرعة خاطئة لم تمكن أعداءه من لم شعهم ، والتقى بالسويسيون Suissiones ، والأمبياني Ambiani ، والنرفياني Nervii ، والأدوتشي Aduaticci ، وهزم كلا منهم على انفراد ، ونهب بلادهم ، وباع أسراهم لتجار الرقيق الإيطاليين . وأعلن في ذلك الوقت فتح بلاد الغالة ، وكان في إعلانه هذا متعجلا بعض الشيء ، وجاراه مجلس الشيوخ فأعلن أن غالة ولاية رومانية ، ورفع العامة في رومة — ولم يكونوا يقلون في نزعتهم الاستعمارية عن أى قائد من القواد — عقيرتهم يمجدون بطلهم البعيد . وعاد قيصر فعبّر الألب إلى بلاد غالة الجنوبية ، وأخذ يعمل على تنظيم شئونها الإدارية ، وسد ما حدث من النقص في فيالقه ، ودعا پمبي وكراسس أن يقابلاه في لوكا ليضع معهما خطة مشتركة للدفاع عن أنفسهم ضد الحركة الرجعية التي يقوم بها المحافظون . وأرادوا أن يقطعوا الطريق على دمتيوس Domitius فانفقوا على أن يتقدم پمبي وكراسس للقنصلية في عام ٥٥ ق م منافسين له ، وعلى أن يعين پمبي والياً على أسبانيا وكراسس على سوريا لمدة خمس سنين (٥٤ - ٥٠) ، وأن يظل قيصر والياً على غالة خمس سنين أخرى (٥٣ - ٤٩) ، وعلى أن يسمح له بعد انتهاء هذه الفترة أن يتقدم مرة أخرى للقنصلية . وأمد قيصر زميليه وصديقيه بما يلزمهما من الأموال التي غنمها من الغالين لحوض المعركة الانتخابية ، وبعث أيضاً بمبالغ طائلة إلى رومة ليوجد ببعضها أعمالاً للمتعبين ، ويدفع منها مكافآت لمؤيديه ، ويرفع بعضها مكانته في أعين الشعب بالإقدام على تنفيذ منهاج واسع من المنشآت العامة : وحيا الشيوخ الذين جاءوا ليفحصوا عن غنائمه بالرشا السخية ، فأدى ذلك إلى إخفاق الحركة التي كانت ترمي إلى إلغاء ما أصدره من القوانين . واختير پمبي وكراسس قنصلين بعد أن قدما الرشا السخية المعتادة ، وعاد قيصر يعمل على إقناع الغالين أن السلام أحلى من الحرب .

وأخذت الأحوال على نهر الرين شمالي كولونى تنذر بالشمر المستطير .
عبرت النهر قبيلتان ألمانيتان إلى غالة البلجيكية ، وزحفتا فيها إلى أن وصلتا :
لييج Liege ، واستعانهما الحزب الوطنى فى غالة على الرومان ، والتقى
قيصر بالغزاة عند أكسانتن Xanten (٥٥) ، وصدهم إلى نهر الرين ،
وقتل منهم كل من لم يمت فى النهر غرقاً رجالا كانوا أو نساءً أو أطفالاً .
ثم أقام مهندسوه فى عشرة أيام جسراً على النهر العظيم ، وكان عرضه وقتئذ
١٤٠٠ قدم ، وعبرت عليه فيالق قيصر ، وحاربت أعداءها فى الأراض
الألمانية زمناً يكتفى لجعل نهر الرين حداً آمناً للدولة الرومانية ، ثم عاد
بعد أسبوعين إلى بلاد غالة .

ولسنا نعرف السبب الذى حدا به إلى غزو بريطانيا فى ذلك الوقت ،
ولعله قد أغراه بهذا الغزو ما وصل إلى علمه من الشائعات عن كثرة الذهب
والؤلؤ فيها ، أو لعله كان يرغب فى الاستيلاء على ما فى بريطانيا من
قصدير وحديد لتصديره رومة إلى البلاد الخارجية ، أو لعله قد أغضبه
ما قدمته بريطانيا من عون إلى الغالين ، وأنه رأى أن يجعل السلطة الرومانية
فى غالة آمنة من جميع جهاتها . ومهما يكن السبب فقد صار على رأس قوة
صغيرة عبر بها بجر المنش فى أضيق أجزائه ، وهزم البريطانيين الذين
لم يكرنوا مستعدين لحربه ، وأخذ عن البلاد بعض المعلومات القليلة ،
ثم قفل راجعاً (٥٥) . لكنه عبر البحر إليها مرة أخرى فى العام الثانى وهزم
البريطانيين بقيادة كسفلونس Cassivelaunus ، ووصل إلى نهر التاميز ،
وانتزع من أهل البلاد وعداً بأن يعطوا الجزية ، ثم رجع إلى غالة .

ولعل سبب رجوعه أنه سمع أن الثورة يكاد يندلع لديها مرة أخرى بين
القبائل الغالية ، فلما عاد أخضع أولا الإيبرون Eburones . ثم زحف على ألمانيا
(٥٣) . ولما عاد منها ترك الجزء الأكبر من جيشه فى غالة الشمالية ، ثم ذهب
مع من بقى من هذا الجيش ليقضى الشتاء فى شمالي إيطاليا ، وكان يرجو أن يخصص
بضعة شهور لإصلاح أسواره فى رومة ، ولكنه سمع فى أوائل عام ٥٢ أن

فرسنجتركس Vercingetorix أقدر الزعماء الغاليين قد حشد كل القبائل الغالية تقريباً في حرب تبغى بها أن تستعيد استقلالها ؛ وبذلك أصبح مركز قيصر شديد الحرج لأن الجزء الأكبر من جيشه كان في شمال إيطاليا ، والأقاليم الواقعة بينه وبين هذا الجيش في أيدي الثوار . ولكنه سار على رأس قوة صغيرة فوق تلوج جبال السفن Cevennes وهاجم مدينة أوفرني Auvergne . ولما جاء فرسنجتركس بقوته ليدافع عنها ولي قيصر ديمس بروتس Decimus Brutus قيادة جنوده الذين كانوا يهاجمونها ، وسار هو متخفياً ومعه عدد كبير من الفرسان مخترباً بلاد غالة من الجنوب إلى الشمال ، وانضم إلى جيشه الرئيسي ، وقاده من فوره إلى القتال ، وحاصر أفريكوم Avaricum (بورج Bourgas) وسنابرم Cenabum (أورليان Orleans) ، واستولى عليهما ، وأعمل فيهما السلب والنهب ، وقتل أهلهما ، وملاً بكنوزهما خزائنه الخاوية . ثم زحف بجيشه على جرچفيا Gergovia حيث قاومه الغاليون مقاومة عنيفة اضطرتهم إلى الانسحاب وفي ذلك الوقت تهلّى عنه الأدويون الذين أنجاهم قبل من الألمان ، والذين بقوا حتى ذلك الوقت أنصاراً له وحلفاء ، ثم استولوا على قواعده ومخازن مبرته في سواسون Soissons ، وشرعوا يستعدون لرده إلى بلاد غالة الزبونية .

وكان هذا هو الوقت الذي ساءت فيه أحوال قيصر كما لم تسوء من قبل ولا من بعد ، ومرت به بعض الأيام فقد فيها كل أمل في النجاة . وفي هذا الوقت العصيب ضرب الحصار على أليزيا Alesia (أليز سنت رين Aise Ste-Reine) ، وجازف بكل شيء في هذا الحصار لأن فرسنجتركس جمع فيها ثلاثين ألفاً من جنوده . وما كاد قيصر يوزع مثل هذا العدد من الجند حول المدينة حتى وصلته الأنباء بأن ٢٥٠.٠٠٠ من الغاليين بدءوا يزحفون نحو المدينة من الشمال . فما كان منه إلا أن أمر جنوده بأن يقيموا حول المدينة سورين دائريين من التراب ، أحدهما من أمامهم والآخر من خلفهم ، وانقضت جيوش فرسنجتركس وحلفائه

على هذين السورين وعلى الجيوش الرومانية الباسلة وهاجتها المرة بعد المرة ، ولكنها باءت في كل هجاتها بالخسران . وواصل الجيش المتقد هجاته على هذا النحو أسبوعاً كاملاً ، ثم تبدد شمله لاختلال نظامه ونقص طعامه وعتاده ، واستحال هذا الجيش فلولاً لا حول لها ولا طول في الساعة التي نفذت فيها موارد الرومان ، ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى بعثت المدينة الجائعة فرسنجتركس نفسه بناء على طلبه إلى قيصر أسير حرب ، ثم استسلمت للرومان ووضعت نفسها تحت رحمتهم (٥٢) . وعفا قيصر عن المدينة فلم يمسسها بسوء ، ولكنه أسلم جنودها لرجال جيشه ليكونوا رقيقاً لهم . وسبق فرسنجتركس مكبلاً بالأغلال إلى رومة حيث سار فيها بعد يزين موكب نصر قيصر ، وجوزى بالقتل على حبه للحرية .

وقرر حصار إلبزيا بمصر بلاد غالة ، كما قرر خصائص الحضارة الفرنسية . ذلك أنه أضاف إلى الإمبراطورية الرومانية بلاداً تبلغ مساحتها ضعف مساحة إيطاليا وفتح خزائن خمسة ملايين من الناس وأسواقهم إلى التجارة الرومانية . يضاف إلى هذا أن ذلك الحصار أنجى إيطاليا وعالم البحر الأبيض المتوسط مدة أربعة قرون من غارات البرابرة ، وانتشل قيصر مرة أخرى من حافة هاوية الخراب إلى ذروة الجسد والثروة والسلطان . وظلت بلاد غالة عاملاً آخر لتثور ثورات متفرقة عقيمة ، أخذها قيصر بقسوة لم تألفها منه ، ثم خضعت لرومة وأسلمت لها أمورها . وما كاد يتم له النصر حتى عاد قيصر كما كان الفاتح الشهم الكريم ، فعامل القبائل المغلوبة معاملة لينة كان من آثارها أن هذه القبائل لم تتحرك قط لتخلع عن كاهلها نير رومة حين شبت فيها نار الحرب الأهلية ، ولم يكن في مقدورها ولا في مقدور قيصر أن يؤدبها هذه القبائل . وظلت بلاد غالة بعدئذ ثلثائة عام ولاية رومانية يعمها الرخاء في ظلال السلم الرومانية ، وتعلمت في خلالها اللغة اللاتينية ، وأدخلت عليها كثيراً من التغيير حتى أصبحت الأداة التي نقلت بها ثقافة العهود الغابرة إلى

شمالى أوربا . ولا جدال فى أن قيصر ومعاصره لم يكونوا يدركون ما سوف تتمخض عنه انتصاراته الدموية من نتائج بعيدة المدى ، فقد كان أقصى ما يظنه أنه أنقلد لإيطاليا ، وضم لها ولاية جديدة ، وأنشأ لها جيشاً قوياً ، لكنه لم يدر بخلده أنه منشئ الحصار الفرنسية .

ودهشت رومة إذ وجدت أن قيصر إدارى قادر لا يعتره ملل ، وقائد محنك واسع الحيلة ، بعد أن لم تكن تعرف عنه أكثر من أنه رجل متلاف رقيق ، وسياسى ، ومصالح . ثم أدركت فى الوقت عينه أنه مؤرخ عظيم . ذلك أنه وهو فى ميادين القتال تقض مضجعه الهجمات المتوالية عليه من رومة ، كان يسجل فتوحه فى غالة ، ويدافع عن هذه الفتوح فى شروحه Commentaries ، وقد سما بها إيجازها العسكرى - إذا جاز أن نصفها بهذا الوصف - وبساطتها الفنية من منزلة النشرات الحزبية إلى أسمى مكان فى الأدب اللاتينى . وحتى شيشرون نفسه ، بعد أن قلب مرة أخرى فى مبادئه السياسية ، أخذ يتغنى بمدح قيصر ويستعجل فى ذلك الوقت ما حكم به عليه التاريخ فيما بعد إذ قال :

ليست معاقل الألب المنيعة ، ولا مياه الرين الفيضة الصاخبة ، هى الدرع الحقيقى الذى صد عنا غارات الغالين والقبائل الألمانية الهمجية ، بل الذى صدّها فى اعتقادى هو قيادة قيصر وقوة ساعديه . ولو أن الجبال دكت وسويت بالسهول ، والأنهار جفت ، لاستطعنا أن نحفظ ببلادنا حضينة منيعة بفضل ما نال قيصر من نصر مؤزر وما قام به من أعمال مجيدة . ألا ما أعظم فضله علينا (١) .

ويجب أن نضيف إلى هذا ما أثبت به عليه ألمائى عظيم إذ قال :
إذا كان ثمة جسر يربط ماضى هلاس وزومة المجيد بتاريخ أوربا

الحديث ، الذي هو أعظم منه مجداً وأسمى قدراً ، وإذا كان غرب أوروبا رومانياً ، وإذا كانت أوروبا الألمانية قد صبغت بالصبغة اليونانية والرومانية القديمة . . . فما ذلك كله إلا من عمل قبصر : وإذا كان ما أوجده سلفه العظيم (*) في بلاد انشروق قد كادت تمحو معالمه كلها زعازع العصور الوسطى ، فإن الصرح الذي شاده قبصر ظل قائماً آلاف السنين التي تبدلت فيها الأديان وتغيرت الدولة (١٧)

(*) يريد الإسكندر الأكبر . (المترجم)

الفصل الخامس

فساد الديمقراطية

انحطت السياسة الرومانية في خلال الخمسين السنين الثانية من ولاية قيصر على غالة إلى الدرك الأسفل من الفساد والعنف ، فقد كان القنصلان يمي وكراسس يسيران في حكمهما على خطة شراء أصوات الناخبين ، وإرهاب المخلفين ، والالتجاء إلى القتل في بعض الأحيان (١٨) ، ولما انقضت مدة ولايتهما جند كراسس جيشاً كبيراً وأبحر به إلى سوريا ، ثم عبر نهر الفرات ، والتقى بالپارثيين عند كرهية Carrhae ، ودارت الدائرة عليه لتفوق فرسان الپارثيين ، وقُتل ولده في المعركة .

وبينا كان كراسس آيرتد بقواته بفضام ، دعاه قائد الپارثيين إلى الاجتماع به ، فأجاب الدعوة ، ولكن القائد الپارثي غدر به وقتله ، وأرسل رأسه ليُمثل به دور بنثيوس Benthous في احتفال في بلاط ملك الپارثيين ، مثلث فيه مسرحية باخية Bacchae ليورپدیز Euripidis . وأصبح جيشه بغير قيادة ، وكان قد مل القتال ، فأنحلت عراه وقبده شهله (٥٣) .

وكان يمي في هذه الأثناء قد جمع له جيشاً ، ولعله كان يبغي به إتمام فتح أمبانيا ، ولأن قيصر نجح في خططه لفتح يمي أسبانيا القاصية ، ولأنه خضع كراسس أرمينية وپارثيا ، ولبسطت رومة سلطانها على هذه البلاد جميعها في الوقت الذي كان فيه قيصر يمدد جلود الإمبراطورية الرومانية إلى نهري التاميز والرين ، ولكن يمي أبى فيأله في إيطاليا بدل أن يقودها إلى أسبانيا ، إلا فيلقاً واحداً أعاره قيصر إبان الأزمة التي نجمت عن ثورة الغالين . وحدث في عام ٥٤ أن انفصمت العروة الوثقى التي كانت تربطه بقيصر على أثر وفاة زوجته يوليا في أثناء

الوضع ، وعرض عليه قيصر أن يزوجه أكتافيا حفيدة أخيه وأقرب قريباته في ذلك الوقت ، وطلب أن يتزوج هو بابنة پمبي ، ولكنه رفض كلا العرضين ، وأخذت النكبة التي حلت بكراسس وجيشه في العام التالي من الميدان قوة أخرى كانت تعمل على إيجاد التوازن فيه : ذلك أن نجاح كراسس كان من شأنه أن يحول دون طغيان قيصر أو پمبي . وعقد پمبي من ذلك الوقت حلفاً صريحاً مع المحافظين ، ولم يبق أمامه لنجاح خطته التي كان ينبغي بها الحصول على السلطة العليا بالطرق المشروعة في الظاهر إلا عقبة واحدة ، هي مطامع قيصر وجيشه . وكان يعرف أن قيادة قيصر للجيش تنتهي في عام ٤٩ ، فاستصدر مراسيم تقضى بمد أجل قيادته هو إلى آخر عام ٤٦ ، وطلب إلى جميع الإيطاليين القادرين على حمل السلاح أن يحلفوا بيمين الولاء العسكري له هو شخصياً ، وكان يعتقد بعد هذا أن الزمن كفيل بأن يجعله سيد رومة (١٩) .

وبينا كان القائدان اللذان ينبغي كلاهما أن يكون الحاكم بأمره في رومة يضعان خططهما على هذا النحو كانت الديمقراطية تحتضر في عاصمة البلاد ، فكانت الأحكام القضائية ، ومناصب الدولة ، وعروش الملوك الخاضعين لسلطانها ، تباع إلى من يعرض فيها أغلى الأثمان : من ذلك أن القسم الأول من المقترعين في الجمعية قد امتدوا في عام ٥٣ على عشرة ملايين سيسترس ثمناً لأصوات أفرادهم (٢٠) ، ولما لم ينفع المال لم يتورع ذوو الشأن عن اللجوء إلى الاغتيال (٢١) أو كشف الستار عن ماضي الناس ، والتهديد بالكشف عن فضائحهم ، فلم يروا أمامهم سبيلاً غير الإذعان . وفشا الإجرام في المدينة كما انتشرت السرقات في الأقاليم ، ولم يكن في هذه ولا في تلك قوة من الشرطة تطمئن الناس على أنفسهم أو أموالهم ، فكان الأغنياء يستأجرون عصابات من المجالدين يدفعون عنهم الأذى أو يؤيدونهم في الجمعية : واستهوت رائحة المال أو هبات الجيوب أحط الطبقات في إيطاليا فهرعت إلى رومة ، وجعلت اجتماعات الجمعية مهزلة من المهازل ، وكان كل من يقبل

الاقتراع كما يطلب إليه يؤذن له بدخولها سواء كان من مواطني رومة أو من غير مواطنيها ، وكان يحدث في بعض الأحيان ألا يكون من بين من أعطوا أصواتهم إلا أقلية صغيرة هي التي لها حق الاقتراع . وكثيراً ما كان الخطباء يحصلون على حق الخطابة في الجمعية بالهجوم على المنصة والاستيلاء عليها قوة واقتداراً . وأضحت العصابة التي ترفعها قوتها على سائر العصابات المنافسة لها هي التي تشرع للدولة ، كما كان الذين يقرعون على غير هواها يضربون حتى يكاد يقضى عليهم ، ثم تشعل النار بعد الضرب في بيوتهم . وقد كتب شيشرون بعد جلسته من هذه الجلسات يقول : « لقد امتلأ التبر يبحث المواطن كما سددت بها البالوعات العامة ، واضطر الأرقاء إلى امتصاص الدم بالإسفنج من السوق العامة » (٢٢) .

وكان كلوديوس وميلو أعظم الخبراء الممتازين في هذه المهزلة البرلمانية ، فقد كانا ينظمان عصابات من أحط الطبقات ليصلوا بها إلى أغراضهم السياسية ، وقلما كان يوم واحد يمر دون أن توضع قوة هذه العصابات موضع الاختبار ، من ذلك أن كلوديوس هاجم شيشرون في أحد شوارع المدينة في يوم من الأيام ، وحرق أجراؤه بيت ميساو في يوم ثان ، ثم قبضت عصابات ميلو على كلوديوس نفسه في يوم آخر وقتلته (٥٢) ، غير أن صعايلك المدينة الذين لم يكونوا يجهلون ما يدبره من المؤامرات رفعوه إلى مقام الشهداء ، واحتفلوا بجنائزته احتفالا عظيماً ، وجاءوا بجثته إلى مجلس الشيوخ ، وحرقوا البناء فوقها كأنه كومة الخطب التي تحرق عليها جثث الموتى .

وجاء يمي بجنوده ففرقوا الغوغاء ، ثم طلب إلى المجلس جزاء له على عمله هذا أن يعينه « قنصلاً بغير زميل » ، وهي عبارة نصيح بها كاتو وقال إنها أخف على السمع من لفظ دكتاتور . ثم عرض يمي على الجمعية ، بعد أن أرهبها بجنده ، عدة اقترحات يبغي بها القضاء على الرذيلة والفساد السياسيين المنتشرين في البلاد ، كما عرض عليها

اقتراحاً بإلغاء حق المرشح لمنصب التمثيل أن يفعل هذا وهو غائب عن رومة ، (وكانت الجمعية قد منحت قيصر هذا الحق بناء على مشروع قانون عرضه عليها بمجي نفسه في عام ٥٥) : وأخذ يشرف بنفسه على قوة الدولة العسكرية ، وعلى أعمال المحاكم ، ولم يؤخذ عليه في هذا الإشراف شيء من الهوى أو المحاباة . وحوكم ميلو على جريمة قتل كلوديبوس وأدين على الرغم من دفاع شيشرون عنه (*) ثم هرب إلى مرسيليا ، وغادر شيشرون رومة ليحكم قليقية (٥١) ، وحكمها بكفاية ونزاهة أدهشتا أصدقاءه وأغضبهم عليه . ثم استسلمت عناصر الثروة والنظام كلها في عاصمة البلاد إلى دكتاتورية بمجي ، أما الطبقات الفقيرة فظلت صابرة تتلطف على عودة قيصر .

(*) وقد أدخل كثير من التعديل على نص الخطبة الذي وصل إلينا ، حتى بلغ الاختلاف بينه وبين النص الأصل - وكانت عباراته قد اضطربت بسبب ما ساد من المرحج بفعل أعدائه حين إلغائها - مبلأاً حل ميلو حين قرأها حل أن يصيح قائلاً : « أي شيشرون ! لو أنك نطقت بما كتبت لما كنت الآن أعظم السعك الجيد في مرسينية » (٢٣) .

الفصل السادس

الحرب الأهلية

دامت الفتن والثورات في الدولة الرومانية مائة عام ، حطمت في خلالها كيان الطبقة الأرستقراطية الأنانية القليلة العدد التي كانت تتولى شئون الحكم في البلاد ، ولكنها لم تحل حكومة أخرى محلها . فأما الجمعية فقد أفسدها البعطل والرشوة والخبز ومبالدة الوحوش ، فأحالتها إلى جماعة من الغوغاء الجهلة تسيطر عليهم أهواؤهم وشهواتهم ، فكانت بذلك عاجزة أشد العجز عن حكم نفسها بله حكم إمبراطورية واسعة الرقعة . وانحطت الديمقراطية حتى أضحت وكأنها هي المعنية بقول أفلاطون : « صارت الحرية إباحية ، وأخذت الفوضى تنوسل أن يوضع حد للحرية » (٢٤) . ولم يختلف قيصر مع عبي في أن الجمهورية قد ماتت ، وأنها أصبحت على حد قوله : اسماً على غير مسمى لا جسم لها ولا صورة » . (٢٥) ولم يكن ثمة مفر من الدكتاتورية ، ولكنه كان يريد أن يضع أزمة الأمور في أيدي قيادة تعمل لتقدمها وريقها ، قيادة غير جامدة لا تبقى البلاد على حالها التي قردت فيها ، بل تبذل جهودها لتخفيف ما يتغلغل فيها من مفاسد ومظالم وفاقاة أفسدت الديمقراطية وهوت بها إلى الخضيض . وكان قيصر وقتئذ في الرابعة والخمسين من عمره ، وما من شك في أنه قد أوهنته حروب الطويلة في غالة ، وأنه لم يكن يجب أن يتورط في محاربة مواطنيه وأصدقائه السابقين ، ولكنه كان على علم بالمؤامرات التي تحاك له ، والفخاخ التي تنصب لاقتناصه ، وكان يؤله أشد الألم أن تكون هذه المؤامرات والفخاخ هي الجزء الذي يجزى به من أجي إيطاليا من الدمار والحراب . وكانت مدة حكمه في غالة تلتهى في اليوم الأول من شهر مارس سنة ٤٩ ق : م ، ولم يكن في وسعه أن يتقدم للقنصلية إلا في

خريف ذلك للعام ، وفي الفترة الواقعة بين الزمنين يفقد الحصانة التي يسبغها عليه منصبه ، ولا يستطيع دخول رومة دون أن يعرض نفسه للاتهام بأنه خارج على القانون ، وهو السلاح المألوف الذي كانت تلجأ إليه الأحزاب المختلفة في رومة في نزاعها على السلطة ، وكان ماركس . مارسلس **Marcus Marcellus** قد عرض قبل ذلك الوقت على مجلس الشيوخ أن يعزل قيصر من الولاية قبل انتهاء مدتها ، ومعنى هذا العزل هو البقاء خارج البلاد أو المحاكمة ، وكان التريبونان قد أنجياه من هذه المكيدة باستخدام ما لهما من حق الاعتراض ، ولكن مجلس الشيوخ كان بلا ريب راضيا عن هذا الاقتراح ، وقال كاتو بصريح العبارة إنه يرجو أن توجه التهمة إلى قيصر ، وأن يحاكم وينتق من إيطاليا .

أما قيصر نفسه فلم يدخر جهداً في العمل على إزالة أسباب النزاع بينه وبين خصومه . فلما أن طلب مجلس الشيوخ بإيعاز بمبي أن يتخلى له كلا القائدين عن فيلق يرسله لقتال پارثيا ، أجاباه قيصر من فوره إلى طلبه ، وإن لم تكن القوة التي لديه كبيرة ، ولما طلب بمبي إلى قيصر أن يعيد إليه الفيلق الذي أرسله له قبل عام من ذلك الوقت ، بادر أيضاً بإرساله إليه ، وإن كان أصدقاؤه قد أبلغوه أن الفيلقين لم يرسلوا إلى پارثيا بل بقيا في كابوا . وطلب قيصر على لسان مؤيديه في مجلس الشيوخ أن يعاد العمل بقرار الجمعية السابق الذي كان يجيز له أن يرشح نفسه لمنصب القنصلية وهو غائب عن رومة ، ولكن المجلس رفض الاقتراح وطلب إلى قيصر أن يسرح جنوده . وأحسن هو أن ليس له سند يحميه إلا فيالقه ، ولعله لم يكن يعمل لكسب ولائهم له إلا ليقفوا إلى جانبه في مثل هذه الأزمة ، غير أنه في ذلك الوقت عرض على مجلس الشيوخ أن يعتزل هو وبمبي منصبهما — وبدا هذا العرض معقولا لا غبار عليه في نظر الشعب ، حتى أنه كلل جبين رسوله بالأزهار ووافق المجلس على هذه الخطة بأغلبية ٣٧٠ ضد ٢٢ ، ولكن بمبي أبى أن يخضع لهذا القرار ، حتى إذا أشرف عام ٥٠ على الانتهاء ولم يبق منه إلا بضعة

أبام ، أعلن أن قيصر عدو الشعب إذ لم يتخل عن القيادة قبل اليوم الأول من شهر يولية : وفي أول عام ٤٩ قرأ كوريو Curio على المجلس رسالة من قيصر يعلن فيها استعدادده لتسريح جيشه كله عدا فيلقين اثنين إذا سمح له بأن يظل والياً على غالة حتى عام ٤٨ ، ولكنه أفسد هذا العرض بأن أضاف إليه أنه يرى في رفضه إعلاناً للحرب عليه ، وذافع شبشرون عن هذا الاقتراح ، ووافق عليه بيمبي ، ولكن القنصل لنتولس Lentulus تدخل في الأمر وأخرج كوريو Curio وأنطونيوس نصبري قيصر من المجلس (٢٦) ، وبعد نقاش طويل أصدر المجلس على كره منه وإلحاح لنتولس وكاتو ومارسلن إلى بيمبي أمراً وسلطة « يعمل بهما على ألا تصاب للدولة بسوء » : وتلك عبارة رومانية معناها الدكتاتورية والحكم العسكري .

وتباطأ قيصر وتردد أكثر مما كانت عاداته : فقد كان مجلس الشيوخ من الوجهة القانونية على حق فيما فعل ، ولم يكن من حقه هو أن يعرض الشروط التي يعتزل بمقتضاها منصبه وقيادته : وكان يعرف أن الحرب الأهلية قد تثير الفتنة في غالة وتخرب إيطاليا بأجمعها ، ولكنه كان يعلم أيضاً أن استسلامه معناه إسلام الإمبراطورية للعجز والرجعية ، وتراعى إليه في أثناء تفكيره أن صديقاً من أقرب الأصدقاء إليه ومن أقدر مؤيديه وهو تيتس ليبيلس Titus Labienus قد انشق عليه وانضم إلى بيمبي ، فما كان منه إلا أن استدعى الفيالق الثالث عشر ، أكثر فيالقه ولاء له وأحبها إلى قلبه ، وعرض الأمر كله على رجاله . وكانت أول كلمة نطق بها أمامهم وهي « زملائي الجنود : Commilitones » كافية لكسب قلوبهم ، ولم يكونوا ينكرون عليه حقه في استعمال هذا اللفظ لأنهم رأوه من قبل يشترك معهم الصعاب ويتعرض معهم للأخطار ، وكثيراً ما شكوا هم أنفسهم من أنه يجازف بحياته ويعرضها للخطر فوق ما يجب . وكان هو على الدوام يخاطبهم بهذا اللفظ بدل اللفظ المقتضب الجاف الذي كان ينطق به من هم أقل منه مجاملة

من القواد . وكان معظم رجاله من بلاد الغالة الجنوبية ، وهى البلاد التى جعل لأهلها حق المواطنين الرومان ، وكانوا يعرفون أن مجلس الشيوخ قد أبى أن يعترف لهم بهذه المنحة ، وأن أحد أعضائه قد جلد رجلاً من أهلها ليدل بذلك على احتقاره لعمل قيصر ، على الرغم من أن جلد المواطن الرومان كان عملاً لا يجزه القانون . وكان قيصر قد علمهم فى أثناء حروبهم الطويلة أن يحترموه - بل أن يحبوه على طريقة الخشنة الصامتة فى الحب . وكان قاسياً على الجبناء ومن لا يرعون النظام ، ولكنه كان سمحاً ليناً لا يقسو عليهم جزاء لهم على أغلاطهم التى تدفعهم إليها طبيعتهم البشرية ، وكان يتغاضى عن أخطائهم الجنسية ويجنبهم ما لا ضرورة له من الأخطار ، وكثيراً ما أنجاهم من الهلاك بمحنكته وحسن قيادته . هذا إلى أنه ضاعف أجورهم ، ووزع عليهم كثيراً من غنائمه الحربية ، ولما جاءوا إليه شرح لهم ما عرضه على مجلس الشيوخ ، وكيف قابل المجلس هذه العروض ، وذكر لهم أن الأرستقراطية المتعطلّة الفاسدة لا تستطيع أن توفر لرومة النظام والعدالة والرخاء ، وسألهم هل يتبعوه ؟ فلم يعارض واحد منهم ، ولما قال لهم إنه ليس لديه مال يؤدى منه أجورهم جاءوا إلى خزائنه بكل ما كان مدخراً لديهم . وفى اليوم العاشر من شهر يناير من عام ٤٩ ق . عبر بأحد فيالقه الروبيكون وهو مجرى صغير بالقرب من أريمينوم Ariminum كان هو الحد الجنوبي لغالة الجنوبية ، ويقال إنه قد نطق فى ذلك الوقت بقوله المأثور : « لقد قضى الأمر » *lacta est alea* (٢٧) ، ونخيل إلى الناس أن هذا العمل هو الخمق بعينه لأن الفيالق الخمسة الباقية من جيشه كانت لا تزال بعيدة عنه فى بلاد غالة لا تستطيع اللحاق به إلا بعد عدة أسابيع ، على حين أن يمي كان لديه عشرة فيالق ، أى ستون ألف جندي ، وكان من حقه أن يجند ما يشاء من الفيالق الأخرى ، ولديه من المال ما يكفى لتسليحهم وإطعامهم . وانضم بعدئذ إلى قيصر الفيالق الثانى عشر من فيالقه عند پسينوم Picenum ، والفيالق الثامن عند كورفينوم Corfinium ، ثم

أنشأ ثلاثة فيالق جديدة من أسرى الحرب ومن المتطوعين ومن أهل البلاد ؛ ولم يكن يلقى صعوبة في جمع الجنود لأن إيطاليا لم تكن قد نسيت بعد ما قاسته في الحرب الاجتماعية (٨٨) ، كانت ترى في قيصر البطل المدافع عن حقوق الإيطاليين ؛ فكانت مدائنهم تفتح أبوابها لاستقباله واحدة بعد أخرى ، وكثيراً ما خرج سكان بعض هذه المدائن على بكرة أبيهم ليجيئوه ويرحبوا به (٢٨) ، وقد كتب شيشرون في ذلك يقول : « إن المدن تحييه كأنه إله محبوب » (٢٩) ، وقاومت كورفنيوم مقاومة قصيرة الأجل ، ثم استسلمت له ولم يسمح لجنوده أن ينهبوها ، وأطلق سراح من قبض عليهم من الضباط ، وبعث إلى معسكر بومبي بكل ما تركه لبيينس Labienus من المال والعتاد . ولم يشأ أن يصادر ضياع من وقع في يده من الأعداء وإن كان في ذلك الوقت معدماً فقيراً لا يكاد يملك شيئاً من المال — وكانت هذه خطة حميدة يمتاز بها قيصر ، كان من أثرها أن وقفت كثرة الطبقة الوسطى من الأهلين على الحياد ؛ وأعلن في ذلك الوقت أنه سيعتزل كل المحايدين أصدقاء له وأنصاراً . وكان في كل خطوة يخطوها إلى الأمام يعرض عروضاً للأصلح على أعدائه ؛ من ذلك أنه أرسل إلى لنتولس Lentulus رسالة يرجوه فيها أن يستخدم ما يخلعه عليه منصب القنصل من نفوذ ليعيد السلم إلى البلاد ، وعرض في رسالة كتبها إلى شيشرون استعدادده لاعتزال الحياة العامة وترك المجال إلى بومبي على شرط أن يسمح له بأن يعيش آمناً على حياته (٣٠) ، وبذل شيشرون جهده في التوفيق بين القائدين ، ولكن منطقته لم يجده نفعاً أمام تعسف الثورة ودعاؤها المتعارضة (٣١) .

ولما تقدم قيصر نحو العاصمة انسحب بومبي هو وجنوده منها وإن كانت جيوشه وقتئذ لا تزال أكثر من جيوش قيصر عدداً . وانسحب من ورائه في غير نظام عدد كبير من الأشراف تاركين وراءهم زوجاتهم وأبنائهم تحت رحمة قيصر . ورفض بومبي عروض الأصلح جميعها ، وأعلن أنه سيعتزل كل من

لم يغادر رومة وينضم إلى معسكره عدوًّا له : ولكن الكثرة العظمى من أعضاء مجلس الشيوخ بقيت في رومة ، وتذبذب شيشرون بين الفريقين ، وكان يحتقر تردد پمبي وخور عزيمته ، فقسم وقته بين ضياعه في الريف وسار پمبي إلى برنديزيوم وعبر بجنوده البحر الأدرياي . وكان يعرف أن جيشه يعوزه النظام ، وأنه في حاجة إلى كثير من التدريب قبل أن يستطيع الصمود في وجه فيالق قيصر ، وكان يرجو أن يستطيع الأسطول الروماني الذي يسيطر هو عليه أن يجوع إيطاليا في هذه الأثناء ويدفعها إلى إبادة عدوه .

ودخل قيصر رومة في اليوم السادس عشر من مارس دون أن يلتقي في دخولها أية مقاومة ، دخلها وهو مجرد من السلاح لأنه ترك جنوده في البلدان المجاورة لها ، وأعلن حين دخولها العفو العام عن جميع أهلها ، وأعاد إليها الإدارة البلدية والنظام الاجتماعي . ودعا التربيونان مجلس الشيوخ إلى الانعتاد وطلب إليه قيصر أن يعينه حاكماً بأمره (دكتاتوراً) ، ولكن المجلس لم يجبه إلى طلبه ، ثم عرض على المجلس أن يبعث رسلاً إلى پمبي ليفاوضوه في عقد الصلح فرفض ذلك أيضاً : فطلب المال من الخزانة العامة فوقف في سبيله التربيون لوسيوس متلس *Lucius Metellus*

فلما قال قيصر إن النطق بعبارات التهديد أصعب عليه من تنفيذها خضع متلس : واستطاع من ذلك الوقت أن يكون حر التصرف في أموال الدولة ، ولكنه كان نزيهاً كل النزاهة ، فأودع في الخزانة العامة كل ما غنمه من الأموال في حروبه الأخيرة . ولما تم له ذلك عاد إلى جنوده واستعد للقاء الجيوش الثلاثة التي كان پمبي وأنصاره يعدونها في بلاد اليونان وأفريقية وأسبانيا ، وأراد أن يضمن لإيطاليا كفايتها من الحبوب التي تعتمد عليها في حياتها ، فأرسل كوريو *Curio* المتهور العنيف ومعه فيلقان من جيشه ليستولى على صقلية ، فلما نزل في الجزيرة سلمها إليه كاتو وانسحب منها إلى أفريقية ، فاندفع وراءه كوريو اندفاع رجيلولوس *Regulus* ، واشتبك معه في معركة

لم يكن قد كمل استعداداه هو لها ، فهزم وقتل في ميدان القتال ، ولم يندم عند وفاته على ما أصابه بل ندم أشد الندم على ما ألحقه من الأذى بقيصر . وكان قيصر في هذه الأثناء قد سار على رأس جيش إلى أسبانيا ، وكان غرضه من هذا الزحف أن يضمن عودتها إلى تصدير الحبوب إلى إيطاليا ، وأن يحول بينها وبين الهجوم على مؤخرته حين يزحف للملاقاة بمي ، وارتكب في إيطاليا كما ارتكب في غالة عدة أغلاط عسكرية فنية (٣٢) ، كانت عاقبتها أن تعرض جيشه — الذي كان أقل من جيش أعدائه عدداً — للهزيمة . وللهلاك جوعاً ، ولكنه أنجاه وأنجى نفسه ، كألوف عاداته ، بسرعة خاطره وشجاعته (٣٣) ، فقد حوّل مجرى أحد الأنهار واستحال الحصار الذي كان مضروباً عليه حصاراً على أعدائه ، وظل صابراً زمناً طويلاً حتى يستسلم له الجيش المحاصر وإن كان جنوده قد ملوا الانتظار وأخذوا يطالبون بالهجوم على العدو . ثم استسلم أنصار بمبي آخر الأمر وخضعت أسبانيا كلها إلى قيصر (أغسطس سنة ٤٩) . وغاد بعدئذ إلى إيطاليا براً ، ولكنه وجد الطريق مغلقاً في وجهه عند مرسيليا ، وقد وقف أمامه جيش يقوده لوسيوس دمتيوس Lucius Domitius وهو القائد الذي أسره في كورفنيوم ثم أطلق سراحه . واستولى قيصر على المدينة بعد أن حاصرها حصاراً شديداً ، ثم أعاد تنظيم الإدارة في غالة ، ولم يحل شهر ديسمبر حتى عاد ظافراً إلى رومة :

وقوت هذه الحملات مركزه السياسي ، كما طمأنت البطون المتخوفة في العاصمة على كفايتها من الطعام ، فلم يمانع مجلس الشيوخ وقتئذ في أن يعينه دكتاتوراً . ولكن قيصر تخلى عن هذا اللقب بعد أن اختير أحد القنصلين في عام ٤٨ ق . م : ولما وجد أزمة النقد مستحكمة في إيطاليا ، لأن اختزان النقود قد سبب انخفاض الأثمان ، وأبى المديون أن يؤدوا بالنقود الغالية ما استدانوه بالنقود الرخيصة — لما وجد هذا أصدر قراراً

يلجأ أداء الديون سلعاً يقدر أمانها محكون من قبل الحكومة كما كانت تقدر قبل الحرب . وكان يرى أن هذه « خير وسيلة للاحتفاظ بشرف المدينة ولتبديد أو تقليل الخوف الذي كان يساور البعض من أن تُلغى هذه الديون إلغاء تاماً ، وهو الإلغاء الذي يحتمل حدوثه في أعقاب الحروب » (٣٤) . ومن الشواهد الدالة على بطلان سبب الإصلاح في رومة قبل ذلك للعهد أنه اضطر مرة أخرى أن يحرم استعباد المدين إذا لم يؤد دينه ، وأنه أباح خصم الفوائد التي دفعت قبل ذلك الوقت من أصل الدين ، وحدد سعر الفائدة بواحد في المائة كل شهر . وأرضت هذه الإجراءات معظم الدائنين لأنهم كانوا يخشون أن تصادر أموالهم ، ولكنها أغضبت المتطرفين الذين كانوا يرجون أن يسير قبضر على خطة كاتلين فيلغى الديون كلها ويعيد توزيع الأراضي على السكان ، ووزع قبضر الحبوب على المعوزين وألغى جميع أحكام النفي ما عدا الحكم الصادر على ميلو ، وعفا عن كل من يعود إلى البلاد من الأشراف . ولكن أحداً لم يحمدا له اعتداله ، ذلك أن المحافظين الذين عفا عنهم عادوا يأتمرون به ليقتلوه ، وبينما كان يواجه بمجي في تساليا Thessaly تخلى عنه المتطرفون وانضموا إلى كتيلايوس Caelius بعد أن وعدهم بإلغاء الديون إلغاء تاماً ، وبمصادرة الأملاك الواسعة ، وتوزيع الأراضي على الأهليين توزيعاً جديداً .

وفي أواخر عام ٤٩ انضم قبضر إلى الجنود وإلى الأسطول اللذين جمعهما لصاره في برنيزيوم . وكان عبور جيش من الحيوش البحر الأدرياي شتاء في تلك الأيام عملاً لم يسمع به أحد قط . ولم يكن في استطاعة الاثنى عشرة سفينة التي تحت تصرفه أن تقل من جنوده إلاستين ألفاً في كل مرة ، وكانت أساطيل بمجي التي تفوقها عدة وعدداً تغدو وتروح بين ثغور الشاطئ المقابل له والجزائر المجاورة لهذا الشاطئ . ولكن قبضر رغم هذا أفلح بجنوده ، ونزل في إبيروس ومعه عشرون ألفاً منهم . غير أن سفته تحطمت وهي عائدة إلى إيطاليا . ولم يعرف

قيصر السبب الذى أخر بقية جيشه ، فحاول أن يعبر البحر مرة أخرى فى زورق صغير ، وأخذ الملاحون يبلذفون والموج يعاكسهم حتى كادوا يغرقون ، ولكن قيصر لم تن عزيمته رغم ما كان يحيط به من أهوال جسم ، وأخذ يقوى قلوبهم بهذه العبارة التى لا يبعد أن تكون من نسج خيال المؤلفين :

« لا تخافوا إنكم تحملون قيصر وحظه » (٣٥) ،

ولكن الريح والموج قذفاً بالقارب إلى الشاطئ الذى بدأ منه ، واضطر هو أن يعود من حيث أتى :

وكان يمي فى هذه الأثناء قد استولى بأربعين ألفاً من رجاله على درشبوم Dyrrhachium ومخازنها الغنية ، ولكنه عجز عن مهاجمة جيش قيصر الذى تناقص عدده وقلّت مؤونته ، وكان يمي فى تلك الأيام قد سمن وابتلى بالتردد وخور العزيمة . وبينما كان هو فى تددده جمع ماركس أنطونيوس أسطولا جديداً حل عليه ما كان باقياً من جيش قيصر فى إيطاليا ،

وبذلك أصبح قيصر متأهباً للقتال ، ولكنه ما زال يكره أن يقاتل الرومانى رومانيا ، فأرسل رسولا إلى يمي يعرض عليه أن يتخلى القائدان كلاهما عن قيادتهما ، ولكن يمي لم يرد عليه (*) ، فهاجمه وأخفق فى هجومه ، غير أن يمي عجز أن يتبع النصر بمطاردة عدوه . ثم قتل ضباط يمي جميع من وقع فى أسرهم من أعدائهم الضباط على الرغم من نصيحة قائدهم الأعلى ، أما قيصر فلم يقتل أحداً من أسراه (٣٧) ، وهو عمل رفيع من قوة جنوده المعنوية بقدر ما أضعف من قوة جنود يمي . وطلب رجال قيصر إلى قائدهم أن يعاقبهم على ما أظفروه من الجبن فى حربهم الأولى ضد الفيالق الرومانية ، فلم يجهم إلى ما طلبوه توساوا إليه

(*) وقيصر هو المرجح الوحيد الذى نعتد عليه فى أخبار هذه البعثة .

أن يعود بهم إلى ساحة القتال ، ولكنه رأى من الحكمة أن يرتد إلى تساليا ليستريحوا فيها بعض الوقت .

واستقر رأى بيمى وقتد على القرار الذى قضى على حياته . فقد أشار عليه أفرانيوس Afranius أن يعود إلى إيطاليا الحالية من وسائل الدفاع ويستولى عليها ؛ ولكن معظم مستشاريه ألحوا عليه أن يطارد قيصر ويقضى عليه . وبالنسبة للأشراف الذين كانوا فى معسكر بيمى فيما أحرزه من النصر فى درهشيوم وظنوا أن القضية الكبرى قد فصل فيها فى ذلك المكان . وهال شيشرون — وكان قد انضم إليهم آخر الأمر — أن يسمعهم يتنازعون فيما سيعود على كل منهم بعد أن يعودوا إلى ما كانوا فيه ، وأن يرى ما يتقبلون فيه من الترف وهم فى ميدان القتال ، فقد كان الطعام يقدم لهم فى صحاف من الفضة ، وكانت خيامهم مفروشة بالطنافس الوفيرة تزيئها الصور الرائعة وطاقت الزهر الجميلة .

وكتب شيشرون فى ذلك يقول :

« وكان المهيون ، ما عدا بيمى نفسه ، يحاربون بوحشية شديدة ، وينطقون فى أحاديثهم بمبادئ القسوة ، حتى كان الرعب يستولى على إذا ما فكرت فى نصرهم . . . لأنهم قوم ليس فيهم ما هو خير إلا قضيتهم . . . لقد كانوا يفترضون أن يعدم أعداؤهم جملة لا أفراداً متفرقين . . . وقد رلتلس نفسه أن يستولى على بيت هورتنسيوس وعلى حدائق قيصر وپايانى » (٢٨) .

وكان بيمى نفسه أميل إلى التريث وعدم الاشتباك فى معركة فاصلة ، ولكنه اضطر إلى العمل برأى مستشاريه لما أن عبروه بالجبن والخور ، فأصدر أمره بالزحف .

ودارت رحى المعركة الفاصلة فى فارسالس فى اليوم التاسع من شهر أغسطس عام ٤٨ ق.م ، وكانت معركة طاحنة دام فيها القتال حتى نهايتها المريرة ، وكان

جيش پمبي يتألف من ثمانية وأربعين ألفاً من المشاة ، وسبعة آلاف من الفرسان ؛ أما جيش قيصر فلم يكن يزيد على اثنين وعشرين ألفاً من المشاة ، وألف من الفرسان . ويقول أفلوطرخس تعليقاً على هذا الموقف .

« وكان عدد قليل من أنبل رجال رومة يشاهدون المعركة عن كثب ... ويفكرون فيما صارت إليه الإمبراطورية بسبب المطامع الشخصية ... لقد التقت في هذا المكان زهرة شباب المدينة الواحدة وعماد قوتها في صراع عنيف ، وحسبنا هذا برهاناً قاطعاً على ما في الطبيعة البشرية من عمى وجنون إذا ما أثرت شهواتها » (٤٠) .

لقد كان أقرب الأفراب ، بل كان الإخوة أنفسهم ، يقاثل بعضهم بعضاً في الجيشين المتعادين . وقد أمر قيصر رجاله أن يبقوا على حياة كل من يستسلم من الرومان ، أما الشباب الأرستقراطي ماركس بروتس فقد أمرهم قيصر أن يقبضوا عليه دون أن يصيبوه بأذى ، فإذا لم يجدوا سبيلاً إلى هذا فليسمحوا له بالفرار (٤١) . وروع المحبون لتفوق أعدائهم القيادة ، والتدريب ، والقوة المعنوية . وقتل منهم وجرح خمسة عشر ألفاً ، واستسلم عشرون ألفاً ، وولى الباقون الأدبار . ونزع پمبي شارة القيادة عن ملابسه ، وفر مع من فروا من رجاله . ونحبرنا قيصر أنه لم يفقد من رجاله إلا مائتين (٤٢) — وهو قول يحملنا على الشك في كتبه كلها . وأخذ رجاله يتنذرون بما في خيام أعدائهم من وسائل الزينة ، وبما وجدوه فيها من الموائد المثقلة بالطعام الشهى الذى أعد لساعة الاحتفال بالنصر . وأكل قيصر عشاء پمبي في خيمة پمبي نفسه .

وسار پمبي على ظهر جواده الليل كله حتى وصل إلى لارسا Larissa ، وركب منها سفينة أقلته إلى الإسكندرية ، وعرج في طريقه على متليني Mytilene حيث انضمت إليه زوجته ، وطلب إليه سكانها أن يقيم معهم ، ولكنه رفض طلبهم في أدب ومجاملة ، ونصحهم أن يستسلموا للقائح في غير

خوف لأن « قيصر » على حد قوله « رجل عامر القلب بالصلاح والرحمة » (١٣) ، وفر بروتس أيضاً إلى لارسا ، ولكنه أطل المكث فيها ووجه منها رسالة إلى قيصر . وأبدى القائد المنتصر أشد الاغتياب حين سمع أن بروتس ، حتى يرزق ، وعفا عنه من فوره ، كما عفا عن كاسيوس استجابة لرغبة بروتس . وكان كذلك ليناً في معاملة أمم الشرق التي أيدت بمجي مدفوعة إلى ذلك بمشيئة الطبقات العليا المسيطرة عليها . ووزع ما جمعه بمجي من الحبوب على سكان بلاد اليونان الجياع ، ولما جاءه الأثينيون يطلبون إليه أن يعفو عنهم ، أجابهم وعلى شفثيه ابتسامة اللوم بقوله : « إلى متى ينبغيكم مجد آبائكم الأولين من موارد الهلاك التي توردونها أنفسكم ؟ » (١٤) .

وأكبر الظن أن بعضهم قد حذر قيصر من أن بمجي يفكر في معاودة القتال معتمداً على جيش مصر ومواردها ، وعلى القوة التي كان كاتو ولبيينس Labienus ومتلس صيبو يعدونها في ينكا Utica . ولكن حدث بعد أن وصل بمجي إلى الإسكندرية أن أمر پوثينس Pothinus خصي الشاب بطليموس الثاني عشر ووزير خدمه أن يقتلوه ، ولعله فعل ما فعل رجاء أن يكافئه عليه قيصر . فقد طعن القائد طعنة نجلاء حين وطئت قدماه شاطئ مصر ، بينما كانت زوجته تنظر إليه في هلع وهي على ظهر السفينة التي أقلتهما إلى تلك البلاد . فلما جاء قيصر أهدى إليه رجال پوثينس رأس القائد الذي فصل عن جسده ، فولى وجهه عنهم في هلع ، وأخذ يبكي من فرط تأثره بهذا الشاهد الجديد على أن الناس كلهم يلقون مصيراً واحداً ، وإن اختلفت الوسائل المؤدية إلى هذا المصير . ونزل قيصر في قصر البطالة الملكي وشرع ينظم شئون تلك المملكة القديمة .

الفصل السابع

قيصر وكليوباترة

وأخذت مصر بعد وفاة بطليموس السادس (١٤٥) تسير مسرعة في طريق الاضمحلال وعجز ماوكها عن الاحتفاظ بنظامها الاجتماعى أو حريتها القومية ؛ وأخذ مجلس الشيوخ الرومانى يقوى فيها سلطانه ويملى عليها إرادته ، بل إنه أقام حامية رومانية فى الإسكندرية . وكانت مقاليد الحكم قد آلت بعد وفاة بطليموس الحادى عشر الذى أجلسه بمبي وجابليوس على العرش إلى ابنه بطليموس الثانى عشر وابنته كليوباترة ، وذلك لأن والدهما قد أوصى قبل وفاته أن يرثا الملك من بعده ، وأن يتزوج الأخ وأخته ويشتركا فى حكم البلاد معاً .

وكانت كليوباترة من أصل يونانى مقدونى ، وأكبر الظن أنها كانت أقرب إلى الشقرة منها إلى السمرة^(٥٥) ، ولم تكن بارعة الجمال ولكن قوامها الرشيق المعتدل ؛ وخفة روحها ، وتنوع ثقافتها ، ودماثة خلقها ، وحسن صوتهما ، مضافة إلى مقامها الملكى قد جعلتها فتنة لكل من رآها تسلبه إبه وإن كان قائداً رومانياً . وكانت على علم بتاريخ اليونان وآدابهم وفلسفتهم ، تجيد الحديث باللغات اليونانية والمصرية والسورية ، ويقال إنها كانت تتقن لغات أخرى غير هذه . وقد جمعت إلى فتنة أسبازيا الذهبية فتنة المرأة المتحللة إلى أقصى حد من القيود الخلقية . ويقال إنها ألقت رسالة فى مستحضرات التجميل ، وأخرى فى المقاييس والموازن والنقود المصرية ، وموضوع الرسالة الثانية موضوع مغر جذاب^(٥٦) . وكانت إلى هذا حاكمة قديرة وإدارية ماهرة ، نجحت فى نشر التجارة المصرية ، وارتقت على يديها الصناعة ؛ وكانت تجيد تدبير الشئون المالية حتى فى الوقت الذى كانت تنصب فيه شرك الحب . وقد جمعت إلى هذه الصفات شهوة جسدية قوية ، ووحشية

عنيفة فصب على أهدائها العذاب والموت صباً ، ومطامع سياسية بعيدة ، تعلم
ببناء إمبراطورية واسعة ، ولا تحترم في سبيل الوصول إلى غايتها قانوناً
إلا قانون النجاح . ولو أنها لم يجر في عروقتها دم البطالة المتأخرين الداعرين
لكان من الجائز أن تحقق غرضها وتصبح ملكة تحكم دولة واسعة الرقعة
تضم بلاد البحر الأبيض المتوسط ، وكانت تدرك أن مصر لم تعد قادرة على
البقاء مستقلة عن الدولة الرومانية ، ولم تر ما يمنعها أن تكون هي المسيطرة
على الدولة المتحدة .

وقد استاء قيصر حين عرف أن پوثيلس نفي كليوپطرة ، ونصب
نفسه نائباً عن بطليموس الشاب يحكم البلاد باسمه ، ولذلك أرسل إليها سرّاً ،
وجاءته سرا وقد احتالت على الوصول إليه بأن أخفت نفسها في فراش حمله
تابعها أبولودورس Apollodorus إلى مسكن قيصر ، وذهل القائد الروماني
حين رآها ، وأسرته بشجاعتها وسرعة بديتها ، وهو الذي لم يدع انتصاراته
في ميدان القتال تربي على انتصاراته في ميادين الحب : ووفق بينهما وبين
بطليموس وأجلسها هي وأخاها على عرش مصر كما كنا من قبل . وعرف
قيصر من أخيه أن پوثيلس هو والقائد المصري أخلاص Achilles
كانا ياتمران به لبقته وببدا القوة العسكرية الصغيرة التي جاءت معه
إلى مصر ، فدبر في الخفاء اغتيال پوثيلس ، وفر أخلاص ، واتصل
بالجيش المصري ، وحرضه على الثورة : وسرهان ما امتلأت الإسكندرية
بالجنود ينادون بالويل والثبور لقيصر ، ويحرض ضباط الحامية الرومانية التي
وضعها مجلس الشيوخ في تلك المدينة على الانضمام إلى الجيش الثائر ضد
هذا الدخيل الخائن الذي سولت له نفسه أن يقرر وراثة عرش البطالة ،
وأن يعمل على أن يولد من صلبه من يرث هذا العرش في المستقبل .

وعمل قيصر في هذا الظرف الحرج ما كانت تسعفه به سعة حيلته ، فأحان
القصر الملكي والمهوى المجاور له إلى قلعتين تحصن فيهما هو ورجاله . ثم أرسل
يطلب المدد من آسية الصغرى وسوريا ورودم : ولما أدرك أن أسطوله الضعيف

الذى لم يكن فيه من يحميه لن يلبث أن يقع في يد أعدائه ، أمر به فحرق
والتهمت النار جزءاً من مكتبة الإسكندرية لا نعرفه على وجه التحديد
ورأى أن لا بد له من الاستيلاء على جزيرة فاروس لأنها هى المدخل
الذى يمكن أن يصل إليه منه المدد المنتظر ، فهاجمها هجوم اليأس ،
واستولى عليها ، ثم جلا عنها ، ثم عاد فاستولى عليها ، وحدث في إحدى
هذه المعارك أن اضطر إلى السباحة في البحر لينجو من الموت بعد أن
صويت إليه عاصفة من السهام ، وذلك حين قذف المصريون به وبأربعائة
من رجاله إلى البحر بعيداً عن الحاجز الذى كان يصل الجزيرة بأرض
المدينة . وظن بطليموس الثانى عشر أن الثوار قد حالفهم النصر ، فخرج
من القصر وانضم إليهم واختفى من التاريخ ، ولما جاء المدد إلى قيصر هزم
به المصريين وحامية مجلس الشيوخ في معركة النيل ، وكافأ كليوبطرة على
إخلاصها له في هذه الأزمة بأن عين أخاها الأصغر بطليموس الثالث
عشر ملكاً معها على مصر ، فجعلها بذلك حاكمة البلاد الحقيقية .

ويصعب علينا أن ندرك السر في بقاء قيصر تسعة أشهر في الإسكندرية ،
والجوش تجيش لقتاله في يتكا Utica ، ورومة في أشد الحاجة إلى يده
الصناع ، لأن كئيليوس Caelius وميلو ينفخان فيها نار الثورة عليه . فلعله
كان يحس بأنه جدير ببعض الراحة واللهو بعد حروب دامت عشرين سنين ؛
وفي هذا يقول سيوتونيوس Suetonius إنه كثيراً ما كان يقضى الليل كله
حتى مطلع الفجر يلهو مع كليوبطرة ، وكان بوده أن يسير معها في
قاربها من أقصى مصر إلى أقصاها حتى يصل إلى بلاد الحبشة لولا أن هدده
جنوده بالخروج عليه « (٤٧) » ، لأن كل واحد منهم لم يجد له فتاة لعوباً ،
أو لعل شهامته قد أجزته على أن يلتظر حتى تفيق كليوبطرة من آلام
الوضع ، فقد وضعت طفلاً في عام ٤٧ ق . م سمي قيصريون Caesarion ،
ويقول ماركس أنطونيوس إن قيصر اعترف بأنه ولده « (٤٨) » . ولا يبعد
أن تكون قد أسرت إليه تلك الفكرة الجميلة فكرة أن يكون ملكاً

وينزوجها فيجتمع بذلك عالم البحر الأبيض المتوسط تحت فراش واحد ؛ ذلك كله ظن وهو إلى ذلك إثم ، فليس ثمة ما يؤده إلا ما نستخلصه من الشواهد والقرائن المفصلة . وما من شك في أنه عاد إلى نشاطه حين عرف أن فرناسس Pharnaces بن مثردياتس قد استولى مرة أخرى على بنتس Pontus وأرمينية الصغرى ، وأنه أخذ يدعو بلاد الشرق إلى الثورة من جديد على رومة المتقسمة على نفسها . ووضعت في ذلك الوقت حكمته في « تمهدة » أسبانيا وغالة قبل لقائه بمي ، فلو أن الغرب ثار عليه وقت أن ثار الشرق لكان من المرجح أن تصدع أركان الدولة وأن يزحف « البرابرة » نحو الجنوب ، ألا تشهد رومة قط عصر أغسطس . لكن قيصر حال دون ذلك كله ؛ فقد بدأ بإصلاح أمر فيالقه الثلاثة ، ثم غادر مصر في شهر يونية من عام ٤٧ ق م ، وسار بسرعته المعتادة على طول شواطئ مصر وسوريا وآسية الصغرى إلى بلاد بنتس وهزم فرناسس في واقعة زيلا Ziela (٢ أغسطس) ، وبعث من ميدان القتال إلى صديق له بهذا الخبر القصير البليغ : « جئت ، ورأيت ، وهزمت » ^(٤٩) *veni, vidi, vici* وقابله شيشرون عند تارنتم (٢٦ سبتمبر) ، وطلب إليه أن يعفو عنه وعن غيره من المحافظين ، فأجابه إلى ما طلب وأظهر له الرضا والود ، وهاله بعد أن عاد إلى رومة أن الحرب الأهلية قد استحالت في العشرين شهراً التي قضاها بعيداً عنها إلى ثورة اجتماعية ، وأن دلابلا Dolabella زوج ابنة شيشرون انضم بقوته إلى كتيليوس وعرض على الجمعية مشروع قانون بإلغاء جميع الديون ، وأن أنطونيوس أطلق جنوده على صعاليك دلابلا المسلحين ، وأن ثمانمائة من الرومان قتلوا في السوق العامة . وكان كتيليوس قد استخدم سلطته وهو بريطور Praetor فأعاد ميلو إلى رومة ، ونظماً معاً جيشاً في جنوبي إيطاليا ، وطلبوا إلى الأرقاء أن ينضموا إليهما في ثورة جائحة على النظام القائم . ولم يلقياً في هذه الثورة إلا قليلاً من النجاح ، ولكن روح الثورة كانت قد أشربت بها جميع النفوس ، فكان المتطرفون في رومة

يحتفلون بذكرى كاتليخ وينثرون الأزهار مرة أخرى على قبره : وكان جيش يمي في أفريقية قد ازداد عدده حتى أصبح في قوة الجيش الذي هزم في فرسانس ، وكان سكستس Sextus بن يمي قد أنشأ في أسبانيا جيشاً جديداً ، وتعرضت إيطاليا مرة أخرى لخطر انقطاع الجيوب عنها : تلك هي الأحوال التي كانت قائمة في شهر أكتوبر من عام ٤٧ حين عاد قيصر إلى رومة وإلى زوجته كلبيرنيا Calpurnia ومعه كلبيطرة وأنحوا - زوجها الغلام وقصريون .

وشرع في الأشهر القليلة التي أتت له بين الحروب بعيد النظام إلى رومة ، ولما عين حاكماً بأمره من جديد لسترضى المتطرفين إلى حين بإلغاء القانون الأخير من قوانين صد ، وألقى في رومة كل ما قل عن ألفي مسترس من أجر الأراضي ، وحاول في الوقت نفسه أن يهدئ مخاوف المحافظين فميت ماركس بروتس حاكماً على بلاد غالة الجنوية ، وأكد لشيشرون وأنكس أنه لن يثير حرباً على نظام الملكية ، وأمر بإعادة تماثيل صلا التي حطمها الرعاع . ولما وجه أفكاره نحو يمي وأنصاره ساءه وثبط من همته أن يسمع أن أكثر جنوده ولاء له قد ثاروا عليه ، لأنهم لم يتسلموا مرتباتهم من زمن بعيد وأنهم يرفضون الإنجاز إلى أفريقية . وكانت خزائن الدولة وقتئذ خاوية أو شبه خاوية ، فجمع ما يحتاجه من المال بمصادرة أموال الأشراف الذين خرجوا عليه وبيعها . ولما مثل في ذلك قال إنه قد تعلم أن الجند يعتمدون على المال ، وأن المال يعتمد على القوة ، والقوة تعتمد على الجند . ثم ظهر فجأة بين الجنود المتمردين ، وجمعهم حوله وقال لهم في هدوء إنه قد سرحهم ، وإن في مقلورهم أن يعودوا إلى منازلهم ، وإنه سيؤدى إليهم كل ما تأخر من رواتبهم بعد أن يتم له النصر في أفريقية على يد « غيرهم من الجنود » .

ويقول أبيان إنهم « لما سمعوا هذا القول استولى عليهم الخجل جميعاً لأنهم تخلوا عن قائدهم في الساعة التي يحيط به العدو من كل جانب . . . فصاحوا بأنهم نادمون على خروجهم عليه ، وتوسلوا إليه أن يحتفظ بهم في خدمته » (١) فأجابهم إلى ما طلبوا في إباء ساحر ، وأبحر بهم إلى أفريقية .

والتقى في اليوم السادس من شهر إبريل سنة ٤٦ ق : م بقوى متلس سيبو Metellus Scipio في ثبوسم وكاتو وليليس Labienus وجوبا الأول Juba ملك نوميديا مجتمعة . وخسر المعركة الأولى في هذه المرة أيضاً ، ولكنه فعل ما فعله من قبل ، فأعاد تنظيم صفوفه وهجم بها على عدوه وانتصر عليه . ولما به جنوده المتعطشون للدماء على ما أظهره من رافة بأعدائه في فرسالس ، واعتقدوا أنه لولا هذه الرحمة لما اضطروا إلى قتال هؤلاء الأعداء مرة أخرى ، ولذلك قتلوا من جنود عبي الثمانين ألفاً نحو عشرة آلاف ولم تأخذهم بهم رافة ، لأنهم لم يريدوا أن يلتقوا هؤلاء الجنود مرة أخرى في ميدان القتال . وانتحر جوبا وفرسيو ومات في مناوشة بحرية ، وهرب كاتو ومعه سرية من جنوده إلى يتيكا .

ولما اقتنى قيصر أثره وأراد الضباط أن يصدوه عن المدينة ، أقنعهم كاتو بأنه لا جدوى من عملهم هذا ، وأعد المال لمن أرادوا القتال ، ولكنه أشار على ابنه بالاستسلام لقيصر . أما هو نفسه فقد رفض كلتا الخطين ، وقضى السهرة في بحوث فلسفية ، ثم آوى إلى حجرة نومه ، وقضى شطراً من الليل يقرأ فيدون Phaedo لأفلاطون . وأيقن أصدقاؤه أنه سيقتل نفسه فأخذوا سيفه من جانبه . فلما غفلت عنه أعينهم أمر خادمه أن يأتيه بالسيف ، وتظاهر بالنوم ساعة من الليل ، ثم قام فجأة وأمسك بسيفه وبقر به بطنه ، وهول إليه أصدقاؤه ، وأعاد الطبيب أحشائه إلى بطنه ، وخاط الجرح ، وضمده ، ولكنهم لم يكادوا يخرجون من الحجرة حتى رفع كاتو الضمادات عن الجرح وأعاد فتحه وأخرج منه أحشائه ، وقضى نحبه .

ولما جاء قيصر كان أشد ما أحزنه أنه لم تتم له الفرصة للعفو عن كاتو ، وأن كل ما يستطيع أن يفعله أن يعفو عن وندة .

وشيع أهل يتيكا الرواق المنتحر في مشهد حافل كأنهم يعرفون أنهم يدقون معه جمهورية كادت تبلغ من العمر خمسة قرون .

الفصل الثامن

قيصر الحاكم

عاد قيصر إلى رومة في خريف عام ٤٦ بعد أن نصب سلاست ولياً على نوميديا ، وأعاد تنظيم ولايات أفريقية ، وأوجس مجلس الشيوخ خيفة من هذه العودة ، وأدرك أن البلاد مقبلة على الحكم الملكي المطلق ، فاختره حاكماً بأمره مدة عشر سنوات . واحتفلت رومة بعودته احتفالاً لم تشهد له مثيلاً من قبل ، وكافاً قيصر كل جندي من جنوده بخمسة آلاف درنمة أتيكية (حوالى ثلاثة آلاف ريال أمريكي) ، أي أكثر كثيراً مما كان قد وعدهم به ، وأولم ولجمة كبرى للمواطنين الرومان احتوت على اثنين وعشرين ألف مائدة . وأعد لتسليتهم معركة بحرية صورية ، اشترك فيها عشرة آلاف رجل . ثم غادر رومة إلى أسبانيا في أوائل عام ٤٥ وهزم آخر جيش من جيوش بيمبي عند مندا Munda .

ولما عاد إلى رومة في شهر أكتوبر وجد إيطاليا كلها تسودها الفوضى . ذلك أن الحكم الأجركي الفاسد ، والثورات التي دامت مائة عام كاملة ، قد أشاعا الاضطراب والفوضى في الأعمال الزراعية والصناعية والمالية والتجارية . أضف إلى هذا أن استنزاف موارد الولايات ، وجبس رؤوس الأموال ، وزعزعة أركان الاستثمار ، أدت كلها إلى اضطراب سوق المسال . هذا إلى أن آلاف الضياع قد حل بها الخراب ، لأن مائة ألف من الرجال سيقوا من الأعمال المنتجة إلى ميادين القتال ، وأن آلافاً مؤلفة من الزراع أرغتهم منافسة الحبوب المستوردة من خارج البلاد أو التي تفتحها الضياع الكبرى التي يعمل فيها العبيد على الانضمام إلى صعاليك المدن والاستماع وبطونهم نخاوية إلى الوعود التي يمنهم بها الزعماء المهرجون . وأخذ من أبقت عليهم رحمة قيصر من الأشراف

يأتمرون به في قصورهم ونواديهم ، ولما أن طلب إليهم في مجلس الشيوخ أن يعترفوا بضرورة الدكتاتورية ويعاونوه على أن يعيد النظام إلى البلاد ويأسو جراحها ، سخروا مما يعرضه عليهم هذا المغتصب وبسطوا ألسنتهم في استضافته لكيلوبطرة في رومة ، وأخذوا يشيعون سراً أنه يعيد العدة ليكون ملكاً ، ولينقل عاصمة الدولة إلى الإسكندرية أو إلى اليوم Ilium . ومن أجل ذلك شرع قيصر ، وقد أدركته الشيخوخة ولما يتجاوز بعد الخامسة والخمسين من عمره ، يعمل بهمة الرومان الأصيل ليحيي موات الدولة الرومانية . وكان يعلم أن انتصاراته لن تكون لها قيمة إن لم يكن في مقدوره أن يشيد في مكان الحطام التي أزالتها صرحاً أحسن منها وأثبت دعامة . ولما أن مد أجل دكتاتوريته في عام ٤٤ من عشر سنين إلى دكتاتورية تدوم مدى الحياة لم يرفقاً كبيراً بين الحالين ، وإن لم يكن قد أدرك في ذلك الوقت أن أجله لن يطول أكثر من خمسة شهور .

وأخذ مجلس الشيوخ يتملقه وحباه بكل ما يستطيع من ألقاب التعظيم ، ولعله كان يهدف بذلك إلى أن يشيع كراهيته في قلوب الشعب الذي كان يبغض الملكية ولا يطبق حتى اسم الملك . وأجاز له المجلس أن يلبس لإكاييل الغار الذي كان يوارى به صلعته ، وأن يحمل حتى في وقت السلم رمز سلطات الإمبراطور *imperator* . وبفضل هذه السلطات كان يسيطر على خزائن المال ، كما كان منصب الحبر الأكبر *Pontifex Maximus* يمكن من السيطرة على الشؤون الدينية في البلاد ، وكان له ، بوصفه قنصلاً ، أن يقترح القوانين وينفذها ، وبوصفه تربيونا كانت ذاته مصونة لا تمس ، وبوصفه رقيباً كان له أن يعيّن أعضاء مجلس الشيوخ ويسقطهم . واحتفظت الجمعيات بحقها في الاقتراع على القوانين المعروضة عليها ، ولكن دلابلا وأنطونيوس رجل قيصر كانا يسيطران عليها ، وكانت توافق عادة على سياسته . وكان هو من ناحيته يجتهد في أن يقيم

دكتاتوريته على محبة الشعب له ورضائهم عنه شأنه في هذا شأن غيره من الطغاة الحاكمين

وأنزل مجلس الشيوخ حتى صار أشبه شيء بمجلس استشارى له ، ورفع عدد أعضائه من ستمائة عضو إلى تسعمائة ، وكان يجمده على الدوام باستبدال أربعمائة عضو جديد بمثل عددهم من أعضائه السابقين : وكان كثيرون من هؤلاء الأعضاء الجدد من رجال الأعمال ، وكثيرون منهم من المواطنين البارزين في المدن الإيطالية أو مدن الولايات الرومانية ، ومنهم من كانوا من أعضاء المثين أو الجزود أو أبناء العبيد . وارتاع الاشراف حين رأوا زعماء غالة المغلوبة يدخلون مجلس الشيوخ وينضمون إلى حكام الإمبراطورية ، بل إن الماجنين من أهل العاصمة قد ساءهم هذا التصرف ونشروا في طول المدينة وعرضها مقطوعة شعرية يقولون فيها « إن قيصر يقود الغاليين في موكب نصره ، ثم يدخلهم مجلس الشيوخ ، لقد خلع الغاليون سراويلهم القصيرة ولبسوا المنزر العريض الأطراف ، اللذى يلبسه الشيوخ » (٥٢) .

ولعل قيصر قد تعمد أن يجعل المجلس الجديد هيئة ضخمة عاجزة عن المداولة الجدية المنتجة أو المقاومة الموحدة . ولذلك اختار طائفة من أصدقائه هم بلبس Balbus ، وأپيوس Oppius ، وماتيوس Matius وغيرهم ، ليتخذ منهم وزراء له غير رسميين ينفذون سياسته ، وأدخل النظام البروقراطى في الدولة بأن وضع الشئون الكتابية في دولا ب الحكومة ودقائق الأعمال الإدارية في أيدي من كان في بيته من المحررين والرقائق . وسمح للجمعية أن تختار نصف كبار الحكام في المدينة ، واختار هو النصف الباقي بطريق التوصية ، وكانت الجمعية تأخذ بهذه التوصيات على الدوام . وكان من حقها ، بوصفه تربيونا ، أن يعترض على قرارات غيره من التربيونين والقناصل ويبطلها ، ورفع عدد التربيونين Praetors إلى ستة عشر ، والكواسترين Quaeators إلى أربعين لينجز بذلك

أعمال البلدية والأعمال القضائية ، وراقب بنفسه شئون المدينة كلها على اختلاف أنواعها ، وقضى على كل ما كان فيها من عجز وفساد وإتلاف ، ونص في جميع العهود التي منحها للمدينة على الأوامر الصريحة والعقوبات الشديدة التي يتعرض لها كل من يحاول إفساد الانتخابات أو الوظائف العامة . وأراد أن يقضى على السنة القديمة سلطنة السيطرة على الشئون السياسية باتباع أصوات الناخبين جملة . ولعله أراد أيضاً أن يحصل نفسه من ثورة الرعاع ، فألقى الاتحادات والنقابات ولم يبق منها إلا ما كان ذا أصل قديم ، وإلا الجماعات اليهودية ذات الأغراض الدينية الخالصة : وقصر وظائف المخلفين على الطبقتين العليين واحتفظ لنفسه بحق النظر في أهم القضايا وأخطرها شأنًا ، وكثيراً ما كان يجلس للقضاء بنفسه ، وليس ثمة من ينكر ما تتصف به أحكامه من حكمة ونزاهة . وقد اقترح على المشرعين في أيامه أن يجمعوا القوانين الرومانية المعمول بها وقتئذ في كتاب واحد منظم ، ولكن موته العاجل حال دون إتمام هذا المشروع .

ثم سار على خطة ابنى جراكس ، فوزع الأرض على يهوده القدامى وعلى الفقراء ، وصار أغسطس نفسه على هذه السياسة ، فهدأت الاضطرابات بين الزراع كثيراً من السنين ، وأراد أن يمنع عودة الملكية الزراعية إلى المركز فحرم بيع الأراضي الجديدة قبل مضي عشرين عاماً ، كما أمر أن يكون ثلث الثمار في المزارع من الأحرار ، وذلك لكي يحول دون استغلال الأراضي كلها على أيدي الأرقاء . وكان من قبل قد أنقص عدد الرعاع المتعطلين في المدينة بمن جندته منهم في الجيش ، وبإقطاعهم الأرض الزراعية بعد تسريحهم . ثم أنقص عددهم مرة أخرى بأن أرسل ثمانين ألفاً من المواطنين ليستعمروا قرطاجنة وكورنثة وأشبيلية وأرليس وغيرها من المراكز . ولم يكتف بهذا بل أراد أن يضمن العمل للباقيين من المتعطلين فوضع برنامجاً ضخماً للبناء رصد له ١٦٠.٠٠٠.٠٠٠ سترس . من ذلك أنه أمر بإنشاء بناء جديد في ميدان المريخ لاجتماع الجمعيات ، وإضافة مبنى

جديد للسوق العامة يدهى سوق أبوليوم لتخفيف الزحام عن السوق القديمة ،
ثم جعل كثيراً من المدن في إيطاليا وأسبانيا وغالة وبلاد اليونان ؛

وبعد أن خفف أعباء الفقر بهذه الوسائل أراد أن يعرف أثرها في
الناس ، فطلب إلى من شاء من الفقراء أن يتقدم إلى الدولة بالحصول على
إعانات من الحبوب ، فوجد أن عدد الطالبين قد نقص على الفور من
٣٢٠.٠٠٠ إلى ١٥٠.٠٠٠ .

وقد ظل حتى ذلك الوقت نصيراً للعامة ، يهدف إلى إسعادهم في
جميع ما وضعه من المشروعات . ولكنه كان يعلم أن الثورة الرومانية
ثروة زراعية أكثر منها صناعية ، وأنها موجهة في الغالب إلى طبقة الأشراف
التي تسخر لخدمتها الأرقاء ، ثم إلى المرابين ، وأنهم يوجه إلا القليل
منها لرجال الأعمال . فواصل خطة ابنه جراكس الزراعية ، ودعا رجال
الأعمال إلى تأييد الثورة الزراعية والمالية .

وكان شيشرون قد حاول أن يعقد حلقة بين الطبقات الوسطى
والأشراف ، أما قيصر فحاول أن يؤلف بين أولئك وبين العامة ،
وأمدّه بالمال كثيرون من الممولين على اختلاف درجاتهم من كراسس إلى
بلبيس ، كما أمد لكثيرون من أمثالهم بالمال الثوونين الأمريكية والفرنسية .
ولكن قيصر رغم هذه المعونة قضى على مصدر من أكبر مصادر الاستغلال
المالى والربح غير المشرع - وهو جباية الضرائب في الولايات على أيدي
جماعات الملتزمين . ثم خفض الديون بدرجات متفاوتة ، وسنّ قوانين
صارمة لتحريم الربا الفاحش . وأسعف العاجزين عجزاً شديداً عن الوفاء
بديونهم بوضع قانون للإفلاس لا يختلف في جوهره عن القانون المعمول
به في هذه الأيام . وأعاد إلى العملة استقرارها يجعل الذهب أساساً لها ،
ويصك قطعة ذهبية تدعى أوريوس Aureus كانت تساوى في قوتها الشرائية
الجنيه الاسترليني في القرن التاسع عشر ، وكانت صورته تطبع على النقود .

الحكومة وتزيتن برسوم لم تعرفها رومة من قبل :

وقد نظمت الإدارة المشرفة على مالية الدولة تنظيمها جديداً ، وطعمت بكفايات جديدة كانت نقيجتها أن وجد في خزائنها حين قتل قيصر ٧٠٠.٠٠٠.٠٠٠ سسترس ، وفي خزينته الخاصة ١٠٠.٠٠٠.٠٠٠

وأراد أن يقيم نظام الضرائب والإدارة على أساس علمي سليم ، فأجرى إحصاء عاما في إيطاليا وأعد العدة لإحصاء عام مثله في سائر أنحاء الإمبراطورية ، ثم أراد أن يعوض النقص الكبير الذي أحدثته الحروب في عدد المواطنين الرومان ، فتوسع إلى أقصى حد في منح حق المواطنة الرومانية - وكان ممن شملهم هذا الحق الأطباق والمعلمون في رومة . وكان النقص المطرد في المواليد قد أقص من قبل مضجعه ، فقرر في عام ٥٩ ق . م أن تكون الأولوية في امتلاك الأراضي التي توزعها الحكومة لأبناء الثلاثة الأبناء . والآن قرر منح مكافآت للأسر الكبيرة ، وجرم على من ليست لهم أبناء من النساء أن يركبن المحفات أو يتحاجن بالجواهر - وكان هذا التشريع أضعف تشريعاته كلها وأقلها نفعا .

وظل قيصر كما كان رجلا لا أدريا وإن لم يكن عقله بعيداً كل البعد عن الخرافات (٥٤) . ولكنه بقي الرئيس الأعلى للدين الدولة ولم يبخل على هذا الدين بما يحتاجه من الأموال ، فأعاد بناء الهياكل القديمة وأنشأ هياكل أخرى جديدة . وكانت فينوس أمه الحنون تلقى منه أعظم ضروب التكريم ، لكنه مع هذا كان يطلق للناس كامل الحرية في الفكر والعبادة ، وألغى ما كان قد صدر من الأوامر بتحريم عبادة إيزيس ، ومنع التعرض لليهود في ممارسة شعائر دينهم . ولما رأى أن تقويم الكهنة لم يعد يتفق مطلقاً مع فصول السنة أمر سوسيجينس Sosigenes العالم اليوناني ١ مكندري السنة من ذلك الحين تشتمل على ٣٦٥ يوماً ، يضاف إليها يوم في آخر شهر فبراير كل أربع سنين . وأخذ شيشرون يشكو من هذا

التغيير ويقول إن قيصر لم يقنع بحكم الأرض فتطاول إن تنظيم النجوم والتحكم في شئونها ، ولكن مجلس الشيوخ قبل هذا الإصلاح أحسن قبول ، وأطلق اسم يوليوس وهو أهم أسرة قيصر على شهر كوينكتيلس *Quinctilis* (الشهر الخامس) وكان هذا الشهر هو الشهر الخامس حين كان شهر مارس بداية العام :

ولم تكن الأعمال التي شرع فيها قيصر أو فكر فيها ووقفت بسبب قتله أقل شأنًا من الأعمال التي تمت فعلاً . ومن هذه الأعمال الأولى أنه وضع أساس ملهى عظيم ، ومعبد للمريخ يتفق وما عرف عن هذا الإله من شره ونهم ، وعين ثارو على رأس هيئة تعمل لإنشاء دور كتب عامة . وعمل على إنقاذ رومة من وطأة الملاريا بتجفيف بحيرة فوسينس *Fucinus* ومنافع بنتين *Pontine* ، واستصلاح الأراضي الجففة وزرعها . وأشار ببناء جسور حول التبر لمنع طغيان مياهه على الأرض المجاورة له ، واقترح تحويل مجرى هذا النهر لإصلاح ميناء أستيّا *Ostia* الذي كان غرين النهر يسده من آن إلى آن . وأمر مهندسيه بأن يعدوا مشروعاً يرمي إلى إنشاء طريق يخترق وسط إيطاليا من الشرق إلى الغرب وإلى حفر قناة في برزح كورنثة *Corinth* .

وكان أشد ما أغضب أهل رومة من أعماله أن منح أحرار الإيطاليين كلهم ما لأهل رومة نفسها من حقوق ، وأن سوى بين الولايات وبين إيطاليا . ذلك أنه منح حق الانتخاب لأهل غالة الجنوية في عام ٤٩ ، ثم وضع في عام ٤٤ ميثاقاً يدل ظاهره على أنه لجميع مدن إيطاليا وأنه يسوى بين هذه المدن وبين رومة ، ولكن أكبر الظن أنه كان يفكر في إقامة حكومة نيابية من نوع ما تجعل لهذه المدن نصيباً ديمقراطياً في حكومته الملكية (٥٥) . ثم انتزع حق تعيين الولاة من مجلس الشيوخ المرتشى الفاسد ، ورشح هو لهذه المناصب رجالاً عرفوا بالمقدرة والكفاية ، وجعلهم في كل آن عرضة للعزل بأمر منه وحده . وخفّض الضرائب في الولايات إلى ثلثي ما كانت

عليه ، وعهد جبايتها إلى موظفين مسئولين أمامه ، ولم يأبه بالعنات القديمة التي كانت تصب على من يعيد بناء كهوا وقرطاجنة وكورنثة ، وأتم في هذه الناحية أيضاً ما شرع فيه ولدا جراكس ، وأعطى حقوق الرومان أو اللاتين للمستعمرين الذين أرسلهم لإنشاء عشرين المدن الممتدة من جبل طارق إلى البحر الأسود ، أو لتعمير ما كان قائماً منها من قبل . ولا جداله في أنه كان يريد أن يمنح حق المواطنة الرومانية لجميع الذكور الراشدين في الإمبراطورية كلها ، وبذلك لا يكون مجلس الشيوخ ممثلاً لطبقة واحدة في رومة بل يكون ممثلاً لعقلية الولايات جميعها وإرادتها . وهذه الفكرة التي سيطرت على عقل قيصر فيما يجب أن يكون عليه نظام الحكم ، مضافة إلى تنظيمه الحديد لرومة وإيطاليا ، تكمل في رأينا تلك المعجزة المنقطعة النظير — المعجزة التي جعلت من الشاب المتخلف العرييد رجلاً من أقدس رجال السياسة المشتومة في جميع العصور وأعظمهم شجاعة وعدلاً واستنارة .

وكان قيصر كالإسكندر لا يعرف أين تقف جهوده وإصلاحاته ، فلما أن رسم في ذهنه صورة لدولته في نظائرها الحديد ساءه أن يجدها معرضة للغزو عند أنهار الفرات والدانوب والرين ، فأخذ يفكر في إرسال حملة عظيمة لإخضاع پارثيا والأخذ بثأر كراسس الذي أمدّه بالمال في أزماته ، وفي الزحف حول البحر الأسود لتهدئة سكوديا Scythia ، وفي ارتياد نهر الدانوب وفتح ألمانيا (١٦) . حتى إذا ما أمن الإمبراطورية على هذا النحو عاد إلى رومة مثقلاً بالمجد والمغانم ، ومعه من المال ما يستطيع به أن يقضى على الكساد الاقتصادي في البلاد ، وله من القوة والجاه ما يستطيع به أن يخض الطرف عن كل معارضة ، ومن الحرية ما يمكنه من أن يعين من يخلفه ، وأن يموت بعد أن يورث العالم « السلم الرومانية » Pax Romana ، وهي أعظم تراث يستطيع أن يورثه إياه

الفصل التاسع

بروتس

ولما تسربت أنباء هذه الخطة إلى رومة رحب بها العامة الذين يحبون
المجد ، وتلمظ لها رجال الأعمال إذ شموا فيها رائحة الحرب ، وتصوروا
المطالب تنهال عليهم لصنع العتاد ، وتصوروا الولايات تنهب وتتكدس في
في خزائنهم الأموال ، أما الأشراف فرأوا الفناء يحل بهم عند عودة قيصر ،
ولذلك عقدوا النية على قتله قبل أن يغادر البلاد .

وكان قيصر قد عامل هؤلاء الأشراف معاملة كريمة أطلقت لسان
شيشرون بالثناء عليه . وكان قد عفا عن كل من استسلم له من أعدائه ،
ولم يحكم بالإعدام إلا على عدد قليل من الضباط الذين خانوا عهده . فحاربوه
بعد أن هزمهم وعفا عنهم . وكان قد أحرق كل الرسائل التي عثر عليها في
خيمة بيمبي وسبى من غير أن يقرأها ، وأرسل ابنة بيمبي وأحفاده الأسرى
إلى سككتس ابن بيمبي ، وكان لا يزال في حرب معه ، وأصلح تمثال بيمبي وأقامه
في موضعه بعد أن طرحه أتباعه على الأرض ، وعين بروتس وكاسيوس واليبن
على اثنتين من الولايات ، كما عين غيرهما من الأشراف في بعض المناصب العليا ،
وصبر على كثير من الأذى والمطالب دون أن يشكو أو يتذمر ، ولم يتخذ شيئاً
من الإجراءات ضد من كان يظن أنهم ياتممرون به ليقتلوه . أما شيشرون
الذى طالما لبس لكل حالة لبوسها ، وأدار شراعه لكل ربيع ، فإن قيصر
لم يكتف بالعفو عنه بل كرمه ولم ييخل عليه بشيء مما طلبه الخطيب العظيم
لنفسه أو لأصدقائه البيمبيين ، بل إنه انصاع لإلحاف شيشرون ، فعفا
عن ماركس مرسلس وهو الرجل الذي خرج على قيصر ولم يندم على
فعله . وقد اعدح شيشرون في خطبة له رثانة عنوانها « إلى مرسلس » (٥٦)

« كرم قيصر الذى لا يصدق العقل » ، وقال عن عمى إنه لو انتصر لكان أشد منه انتقاماً من أعدائه : ثم أضاف إلى ذلك قوله : « لقد سمعت مع الأسف الشديد عباراتك الفلسفية المشهورة *Iam satis vivi* لقد نلت كفايتى من طول الحياة ومن الشهرة . . . ورجائى إليك أن تطرح حكمة الحكماء . . . ولا تكن حكيماً إذا عرضتك هذه الحكمة للأخطار . . . إنك لا تزال بعيداً كل البعد عن إنجاز أعمالك العظيمة ، بل إنك لم تضع بعد أسسها » ثم وعد قيصر وعداً صادقاً باسم مجلس الشيوخ كله بأنهم سيسهرون على سلامته ويصدون بأجسامهم كل اعتداء عليه (٥٧) : وأثرى شيشرون فى ذلك الوقت ثراء جعله يفكر فى شراء قصر آخر له ولم يكن هذا القصر غير قصر صلا نفسه ، وكان يستمتع بالمآدب التى يدعوها إليها أنطونيوس وبلبس وغيرهما من أعوان قيصر ، ولم تكن رسائله فى أى وقت مضى أكثر بهجة مما كانت فى ذلك الوقت (٥٨) : غير أن قيصر لم ينخدع بهذا كله ، فقد كتب إلى ماريوس يقول : « إذا كان فى الناس من هو ظريف فذلك شيشرون ولكنه يبغضنى أشد البغض » (٥٩) : وكان قيصر صادقاً فى قوله ، فلما أن عاد المحبون إلى مناوأة قيصر بعد أن أمنوا جانبه ارتضى هذا الأديب التلرانى (*) فى أحضانهم وكتب يثنى على كاتو الأصغر ثناء ما كان أجدره بأن ينبه قيصر إلى ما يحيط به من الأخطار . غير أن قيصر لم يفعل أكثر من أن يرد على شيشرون بكتابة ضد كاتو *Anti-Cato* لا تدل على حصافة عقله : ذلك أنه بعمله هذا أمكن خصمه من أن يختار السلاح الذى ينازله به ، وكانت نتيجة هذا أن انتصر الخطيب عليه ، وأثنى الرأى العام على أسلوب شيشرون كما أثنى على الحاكم الذى اختار أن يكتب رسالة وهو قادر على أن يوقع أمراً بالإعدام .

وبعد فإن الذين حرموا ما كان لهم من سلطان لا يمكن أن تسئل سخافتهم

(٥) للشبهه فى أخلاقه بتلران السامى الفرنسى الشهير (١٧٥٤ - ١٨٣٨) .

بالعفو عن مقاومتهم لمن حرمهم هذا السلطان ، وليس عفوكم نعم عفا عنكم بأقل صعوبة من عفوكم عن آذيتكم . ومصدق هذا أن الأشراف في مجاس الشيوخ الذى لم يكن يجرؤ على رفض المقترحات التى عرضها عليه قيصر حسب الأصول الدستورية أخذوا يتبرمون وينددون بتدنيد الوطنيين الصادقين بالقضاء على الحرية التى أنجحت بالمال خزائنها ، وعز عليهم أن يقرؤا بأن عودة النظام تتطلب التضحية ببعض حريتهم . وقد روعهم وجود كليو بطرة وقيصريون في رومة . نعم إن قيصر كان يعيش مع زوجته كليبرنيا وإنهما كانا يتبادلان المحبة في الظاهر ، ولكن منذ الذى يعرف — ومنذ الذى تطاوعه نفسه على ألا يذيع — ما كان يحدث في أثناء زيارته الكثيرة للملكة العظيمة الجميلة ؟ وأكدت الشائعات أنه يريد أن ينصب نفسه ملكاً ، وأن يتزوج كليو بطرة ، وأن ينقل عاصمة دولتهما المتحدة إلى بلاد الشرق . ألم يأمر بأن يقام له تمثال على الكبتول بجوار تماثيل ملوك رومة الأقدمين ؟ — ألم تطبع صورته على النقود الرومانية ؟ وهى وقاحة لم يسبق يسبق لها نظير . ألم يلبس جلابيب أرجوانية من اللون الذى كان يحتفظ به عادة للملوك ؟ لقد جاءه القنصل أنطونيوس يوم عيد ليركاليا في الخامس عشر من فبراير عام ٤٤ عارى الجسد إلا من جلود الماعز التى كان يلبسها الكهنة في ذلك العيد (*) ثملاً من كثرة ما احتسى من الخمر ، وحاول ثلاث مرات أن يضع التاج الملكى على رأس قيصر ، ورفضه قيصر في المرات الثلاث ، ولكن ألم يكن سبب هذا الرفض أن الجماهير قد أبدت غضبها من هذا العمل وإن أبدته همساً ؟ ألم يقصن التريبونين عن منصبيهما لأنهما رفعاً عن تمثاله الإكليلى الملكى الذى وضعه عليه أصدقاؤه ولما أقبل عليه الشيوخ وهو جالس في هيكلى فيوس لم يقم واقفاً لاستقبالهم . وقال بعضهم إنه قد أقعدته وقتلته نوبة صرع ، وقال غيرهم إنه كان يشكو إصمها لا شديداً ، وإنه ظل جالساً حتى لا تتحرك أعضاؤه في هذه اللحظة غير

المروانية (٦٠) ، ولكن كثيرين من الأشراف كانوا يخشون أن ينادى به ملكاً في أى يوم .

وأقبل كيوس كاسيوس ، وهو رجل مريض الجسم — « أصفر نحيل » كما يصفه أفلوطين (٦١) ، على ماركس بروتس واقترح عليه اغتيال قيصر . وكان قبل ذلك قد عرض خطته على جماعة من الشيوخ وعلى بعض الممولين الذين قل ما يهابونه من الولايات منذ وضع قيصر القيود الشديدة على الملتزمين ، بل عرضها أيضاً على بعض القواد في جيش قيصر الذين أحسوا بأن ما حباهم به من المناصب والفتائم كان أقل مما يستحقون ، وكان هؤلاء كلهم قد وافقوه عليها . وكان المتآمرون في حاجة إلى بروتس ليكون هو رافع لواء المروانة ، لأنه اشتهر بين الناس كافة بأنه أعظم الناس استمساكاً بالفضيلة ، وكان الناس يقولون إنه من سلالة بروتس الذى طرد الملوك قبل ذلك للوقت بأربعمائة وستة وأربعين عاماً . وكانت أمه سرقليا أختنا غير شقيقة لكاتو ، وزوجته پورشيا ابنة كاتو وأرملة بيبولس عدو قيصر ؛ ويقول أبيان « إن الناس كانوا يظنون أن بروتس نفسه ابن قيصر لأن قيصر كان عشيق سرقليا في الوقت الذى ولد فيه بروتس » (٦٢) . ويضيف أفلوطين إلى ذلك أن قيصر كان يعتقد أن بروتس ولده (٦٣) ؛ ولا يبعد أن يكون بروتس نفسه ممن يعتقدون هذا الاعتقاد ، وأنه كان يحقد أشد الحقد على قيصر لأنه أفسد أخلاق أمه وجعله مضطرباً في أفواه الرومان ، يقولون عنه إنه ابن زانية بدل أن يكون من نسل آل بروتس ؛ وكان هو على الدوام مكتئباً يميل إلى الصمت كأن ظلماً حل به يحتم على صدره ويشغل باله ، وذلك في الوقت الذى كان فيه فخوراً معجباً بنفسه ، لأنه أباً كان مولده يجرى في عروقه دم الأشراف ؛ وكان يجيد اللغة اليونانية ويحب الفلسفة ، وكان في علم ما وراء الطبيعة من القائلين برأى أفلاطون ، وفي الأخلاق من أتباع زينون ؛ وكان مما انطبع في ذهنه أن الرواقية تفتق مع المبادئ اليونانية والرومانية في الحث على قتل الطغاة الظالمين ، وقد كتب

في هذا إلى صديق له يقول : « إن آباءنا كانوا يعتقدون أنه لا ينبغي لنا أن نخضع للمستبد ولو كان هذا المستبد أبانا نفسه » (٦٤) . وقد ألف رسالة في الفضيلة وخطط الناس في المستقبل بينه وبين هذا الوصف ، وإن كان بعيداً عنه ، فقد أقرض أهل سلاميس Salamis في قبرص عن طريق بعض الوسطاء أموالاً بسعر ثمانية وأربعين في المائة ، ولما تلغروا من أداء ما تراكم عليهم من الفوائد ألح على شيشرون ، وكان وقتئذ قنصلاً في قليقية ، أن يستعين بالجيش الروماني على جمع المال (٦٥) . وقد حكم غالة الجنوبية حكماً صالحاً يمتاز بحسن الإدارة والكفاية ، ولما عاد إلى رومة عينه قيصر بريتورا Praetor على الخواصر .

وقد ثار كل عنصر طيب فيه على مقترحات قيصر ، وأخذ كاسيوس يذكّره بآبائه الذين ثاروا على الظلم ، ولعل بروتس قد شعر بأنه يتحداه بأن يثبت أنه من نسلهم وبأن يحدو حلمهم . وكان هذا الشاب الحسن يحمرّ وجهه خجلاً حين يرى تمثال بروتس الأكبر أمثال هذه العبارة :

« أي بروتس ! هل مت ؟ وإلا فإن آباءك برآء منك » (٦٦) .

وقد أهدى إليه شيشرون عدة من رسائله كتبها في تلك السنين ، وسرت في ذلك الوقت بين الأشراف شائعة فحواها أن لوسيوس كوتا Lucius Cotta سيعرض على مجلس الشيوخ في اجتماعه المقبل الذي سيكون في الخامس عشر من شهر مارس اقتراحاً بتنصيب قيصر ملكاً ، لأن حرافة سيبيلا قالت إن البارثين لن يهزموا إلا على يد ملك (٦٧) . وقال كاسيوس إن المجلس ، وقد أصبح نصف أعضائه ممن عينهم قيصر ، سوف يوافق على هذا الاقتراح ، وإنه لن يبقى بعد ذلك أمل في عودة الحكم الجمهوري . وتأثر بروتس بهذا كله ، وامتلأ ، وأخذ المتأمرين بعد ذلك يحكمون أمرهم ويضعون خططهم ؟ واستخلصت بورشيا

السر من زوجها ، بأن طعنت نفسها بخنجر في فخذها لتبرهن بذلك على أنه ما من أذى يصيبها في جسمها يحملها على أن تنطق بشيء رغم إرادتها . وأصر بروتس في لحظة غير مواتية له على ألا يمسه أنطونيوس بأذى .

وحدث في مساء اليوم الرابع عشر من شهر مارس أن عرض قيصر على من كانوا مجتمعين في منزله أن يكون موضوع حديثهم « ما هي خير طريقة للموت ؟ » وأجاب هو عن ذلك السؤال بقوله : « إنها الميتة المفاجئة » . وتوسلت إليه زوجته في صباح اليوم الثاني ألا يذهب إلى مجلس الشيوخ ، وقالت إنها رأت في نومها ملطخاً بالدماء ؛ وحاول خادماً آخر ، كان يرى مثل رأيها ، أن يفتعل نذيراً بمنع قيصر من الذهاب ، فتسبب في سقوط صورة لأحد أسلافه معلقة على جدار ، ولكن دسمس بروتس *Decimus Brutus* ، وهو صديق حميم لقيصر وأحد المتآمرين ، ألح عليه أن يحضر الاجتماع وإن لم يفعل فيه أكثر من أن يطلب بنفسه في رقة ومجاملة تأجيل الجلسة إلى وقت آخر . وأقبل صديق لقيصر حلف نياً المؤامرة ليحذره فوجده قد غادر داره في طريقه إلى المجلس . وقابل في طريقه عرافاً كان قد أسر إليه من قبل أن « يحذر اليوم الخامس عشر من شهر مارس » وقال له قيصر وهو يبتسم ، إن الخامس عشر من مارس قد جاء ولم يصب فيه بسوء . فأجابه اسبورنا *Sburinna* « نعم ولكنه لم يمض بعد » .

وبينا كان قيصر يقرب القربان الذي كان من المأوف تقريبه قبل الجلسة أمام ملهى يمي حيث يعقد المجلس اجتماعه إذ وضع أحدهم في يده لوحة صغيرة يحذره فيها من المؤامرة ولكنه لم يعبأ بها . وتقول الرواية المأثورة إن هذه اللوحة وجدت في يده بعد مقتله (*) .

(*) وردت هذه القصص الخاصة باليوم الخامس عشر من مارس في وثائق سيوتونيوس وأفلوطينوس وأبيان (٦٨) ، ولكنها رغم ورودها في هذه الوثائق كلها قد لا تكون إلا خرافة من الخرافات .

وشغّل تريبونيوس Trebonius — وهو أحد المتآمرين ، وكان من قبل أحد قواد قيصر المقربين — أنطوليوس بالحديث فعطله عن حضور الاجتماع ؛ ولما دخل قيصر الملهى واتخذ فيه مجلسه هجم « دعاة الحرية » من فورهم عليه ؛ ويقول سيوتونيوس : « لقد كتب بعضهم يقولون إنه حين هجم عليه ماركس بروتس قال باللغة اليونانية Kai su teknon — « وأنت أيضاً يا ولدى » (٦٩) ؛ ويقول أبيان إن قيصر حين طعنه بروتس امتنع عن كل مقاومة ، وغطى وجهه ورأسه بثوبه ، واستسلم للضربات ، وسقط عند قدمى تمثال بومي (٧٠) ، وهكذا تحققت رغبة واحدة من رغبات أكمل لإنسان أنجبته الأيام الخالية (*) .

(*) يقصد بهذه الرغبة ميته المفاجئة . وقد روى شيكسبير في مسرحيته الذائعة الصيت هذه الحوادث كلها ووصفها أروع وصف . (المترجم)

الباب العاشر

أنطونيوس

٤٤ - ٣٠ ق . م

الفصل الأول

أنطونيوس وبروتس

لقد كان مقتل قيصر مأساة من مآسي التاريخ الكبرى ، وليس السبب في عظم هذه المأساة مقصوراً على أنها حالت بينه وبين إتمامه عملاً من أجل الأعمال السياسية والإدارية ، وأدت إلى امتداد عهد الفوضى والحروب خمسة عشر عاماً أخرى ، ولو كانت نتائجها مقصورة على هذا وذاك لكان الخطب ، فقد عاشت الحضارة بعده ، وأتم أغسطس ما بدأه قيصر ، بل إنه مأساة من نوع آخر وهو أن الحزبين المتعارضين في مجلس الشيوخ كان كلاهما في أغلب الظن على حق : فالمتآمرون محقون في اعتقادهم أن قيصر كان يعتزم أن ينصب نفسه ملكاً ، كما أن قيصر نفسه كان محقاً في ظنه أن الفوضى والنظام الإمبراطوري قد جعلاً الملكية أمراً محتوماً . وقد انقسم الناس بين الرأيين ولا يزالون منقسمين منذ اللحظة الراهية التي مرت بمجلس الشيوخ ، وقد استولى عليه الملح من وقع الحادث ، ثم فرأى أعضاءه مذهبين مضطربين من قاعة الاجتماع . وأقبل أنطونيوس على مكان الحادث بعد وقوعه ، ورأى أن الحكمة هي عين الشجاعة ، فاحتفى في بيته ، وخانت شيشرون فصاحته حتى

في الوقت الذي حياه بروتس وخنجره بقطر دماً في يده قاتلاً له مرحباً «بأبي بلده» . ولما خرج المتآمرون وجدوا الشعب هائجاً في الميدان العام ، وأرادوا أن يضموه إلى جانبهم بالفاظ الحرية والجمهورية ، ولكن العامة الذين جن جنونهم من هول الحادث لم يعبثوا بهذه الألفاظ التي طالما استخدمت لستر المطامع والشره . ولجأ القتل إلى البناء القائم على الكبتول ليعتصموا به خوفاً على حياتهم ، وأحاطوا أنفسهم بحراسهم من المصارعين . وانضم إليهم شيشرون في آخر النهار ، وأرسلوا رسلهم إلى أنطونيوس يستطلعون طلعه فأجابهم جواباً ودياً .

واحتشد في اليوم الثاني جمع غفير في السوق العامة وأرسل المتآمرون صناعهم ليبثوا تأييدهم وينظموا من هذا الحشد جمعية شرعية . ثم استجمعوا شجاعتهم ، ونزلوا من فوق الكبتول ، وألقى بروتس على المجتمعين خطبة كان قد أعدها من قبل ليلقيها في مجلس الشيوخ . غير أن هذه الخطبة لم يكن لها أثر في السامعين ، وحاول كاسيوس أن يؤثر هو فيهم ولكنهم قابلوه بصمت وفتور ، فعاد المحررون إلى الكبتول ، حتى إذا ما نقص عدد العامة المحتشدين تسللوا إلى بيوتهم . واعتقد أنطونيوس أنه وارث قيصر ، فحصل من كليرنيا - وقد أذهلتها الفاجعة وكادت تذهب بعقلها - على كل ما تركه قيصر في القصر من أوراق وأموال ، ثم دعا في الوقت نفسه جنود قيصر القدامى المضربين للحضور إلى رومة . وفي اليوم السابع عشر دعا مجلس الشيوخ إلى الاجتماع مستخدماً في ذلك حقه بوصفه تربيوناً ، وأدهش الأحزاب جميعها بلطفه وهدوئه ، فقبل ما عرضه عليه شيشرون وأصدر عفواً عاماً ، ووافق على أن يعين بروتس وكاسيوس والبين لاثنتين من الولايات ، (أي أن يفرا وينجوا ويستمتعا بالسلطان) ، على شرط أن يقر مجلس الشيوخ جميع الأوامر والقوانين والتعيينات التي أصدرها قيصر . ولإذ كانت كثرة للشيوخ مدينة بمناصبها وأموالها إلى هذه القرارات نفسها فقد وافقت على هذا الشرط ، لما فض الاجتماع أنفي الجميع على أنطونيوس وقالوا إنه هو السياسي

الذى انزع السلم من بين أنياب الحرب ، وفى مساء ذلك اليوم نفسه أولم
بويلمة عشاء لكاسيوس ، وعاد مجلس الشيوخ إلى الانعقاد فى اليوم الثامن
عشر وأقر وصية قيصر ، ووافق على أن يحفل بجنائزته احتفالاً عاماً ،
واختار أنطونيوس ليؤبئه التأيين المألوف .

وفى اليوم التاسع عشر حصل أنطونيوس من العذارى القستية على
وصية قيصر ، وكان قد أودعها عندهن ، وقرأها للجماعة صغيرة فى بادئ
الأمر ثم للجماعة أخرى أكبر من الأولى عدداً . وقد جاء فيها أنه يوصى
بجميع أملاكه الخاصة لثلاثة من أحفاد إخوته (وكان ذلك مثار دهشة
أنطونيوس وغضبه) وسمى واحداً منهم بالذات وهو كىوس أكتافىوس
متبناه ووريثه ، وجعل الديكتاتور حداثته متنزهاً عاماً للشعب ، وأوصى
لكل مواطن فى رومة بثلاثمائة سسترس . وسرعان ما انتشر نبأ هذا الإحسان
فى جميع أنحاء المدينة ، ولما جرى فى اليوم العشرين من الشهر بجثة قيصر
إلى السوق العامة ، بعد أن حنطت فى بيته ، لإجراء المراسم النهائية احتشد
حولها جمع غفير من الناس ومن بينهم جنود قيصر القدامى ليكرموه .
ويظهر أن أنطونيوس قد تحدث إلى هذا الجمع فى بادئ الأمر بحجة فلم
يطلق لسانه العنان ، ولكن عواطفه المكبوتة لم تلبث أن تغلبت عليه فأطلقت
لسانه وأكسبت ألفاظه فصاحة أيما فصاحة . ولما رفع من النعش العاجى
الثوب الممزق الملطخ بالدماء والذى مزقته الطعنات التى وجهت إلى قيصر ،
ثارت عواطف المجتمعين ثوراناً لم يكن فى وسع أحد أن يكبح جماحه ،
وعلا النحيب والعيول ، وأخذ كل واحد يجمع الأحطاب اللازمة
لإشعال النار التى ستحرق بها الجثة . وألقى الجنود القدامى أسلحتهم
فوق كومة الأحطاب لتكون قرباناً يقربونها إلى قيصر ، كما ألقى
الممثلون ملابسهم والموسيقيون آلات عزفهم ، كما ألقت النساء
أغلى ما يملكن من الحلى . وانتزع بعض المتحمسين مشاعل من النار
وذهبوا بها ليحرقوا بيوت المتأمرين ، ولكنهم وجدوا الحراسة شديدة على

هذه المباني ، ووجدوا أن أصحابها قد فروا من رومة . وظلت طائفة كبيرة من الشعب بجوار الأحطاب المحترقة طوال الليل ، كما لازمها اليهود ثلاثة أيام كاملة اعترافاً منهم بفضل قيصر وعطفه عليهم . فيما أصدره من قوانين ، ولم ينقطعوا طوال هذه الأيام الثلاثة عن ترديد أناشيدهم الجنائزية . وظلت العاصمة في هذه الأيام الثلاثة تحتاحها الفتن والقلاقل حتى أمر أنطونيوس جنوده في آخر الأمر أن يعيدوا إليها النظام ، وأن يلحقوا بكل من لا يرتدع عن السلب والنهب من فوق صخرة تريبيا Tarpeia .

وكان أنطونيوس نصف ما كان قيصر كما سيكون أغسطس نصفه الثاني ؛ فقد كان أنطونيوس قائداً عظيماً كما كان أغسطس حاكماً فذاً ممتازاً ، ولكن الصفتين لم تجتمعا في واحد منهما . وقد ولد أنطونيوس في غالة ٨٢ ق . م ، وقضى الشطر الأكبر من حياته في المعسكرات كما قضى أكثرها في معاورة الخمر ، ومجالس النساء ، والاستمتاع بالمرح وشهوى الطعام .

وكان رغم كرم محبته وبهاء طلعتته يتصف بفضائل عامة الناس . كان قويّ الجسم ، حيوانى الروح ، طيب القلب ، كريماً ، شجاعاً ، وفيماً . وقد أساء إلى سمعته وسمعته قيصر نفسه إذ احتفظ في داره برومة بطائفة كبيرة من النساء والغلمان ، وبعشيقه يونانية في محمله كلما غادر رومة (١) . وكان قد ابتاع منزل بمي في المزار العام وأقام فيه ، ثم أبى أن يؤدي ثمنه (٢) . وها هو ذا يجد في أوراق قيصر - أو يسجل فيها على ما يقول بعضهم - كل ما يستفيد من وجوده - مناصب لأصدقائه ، ومراسيم يصل بها إلى أغراضه ، وخيراً كثيراً لنفسه ، فلم يمتض على مقتل قيصر أبهوعان حتى وقى بليون كانت عليه . يبلغ مقدارها نحو ١٥٠٠٠٠٠ ريال أمريكى ، وأصبح بعد عشية وضعها رجال ثريا . واستولى على الخمسة والعشرين مليون ريال التي كان قيصر قد أودعها في هيكل أبس Aps وعلى خمسة ملايين أخرى من أموال قيصر الخاصة . ولما رأى أن ديمس بروتس ،

الذى عينه قيصر قبل مقتله والياً على غالة الإيطالية ، قد تولى هذا المنصبه المريح رغم اشتراكه في اغتيال قيصر ، استصدر قراراً من الجمعية بتعيينه هو والياً على هذه الولاية ذات الموقع العسكرى الخطير ، ويعرض ديمس عنها بولاية مقدونية . ثم استصدر قراراً آخر بأن يتخلى ماركس بروتس وكاسيوس عن مقدونية لديمس ، وعن سورية للدابلا ، وأن يقنعا بقورينة وكريت .

وارتاع مجلس الشيوخ من قوة أنطونيوس المتزايدة ، فدعا إلى رومة كيوس أكتافىوس متبنى قيصر لى يقضى على هذه القوة ، وقد صار كيوس في مستقبل الأيام أعظم الساسة الحاكين في للتاريخ الرومانى ، أما في عام ٤٤ فلم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة من العمر ، وقد تسمى باسم الرجل الذى تبناه كما جرت بذلك العادة المألوفة وعدله بإضافة اسمه هو فصار اسمه الكامل كيوس يوليوس قيصر أكتافيانوس ، وظل ذلك اسمه حتى ضم إليه بعد سبعة عشر عاماً من ذلك الوقت اسم أغسطس ، وهو اللقب العظيم التى تعرفه به القرون التالية . وكانت جدته هى يوليا Julia أخت قيصر ، أما جده فكان صرفيا من أصل عامى في قلترا Velitrae من أعمال لاتيوم . وكان أبوه قد عمل إبدىلا شعبيا ثم بريطوراً ثم عين فيها بعد والياً على مقدونية .

وقد نشئ الغلام على البساطة الاسبارطية ، وتعلم الآداب والفلسفة اليونانية والرومانية ، وقضى معظم الثلاث السنين الأخيرة في قصر قيصر . ولقد كان من أسباب حزن قيصر أنه لم يكن له أبناء شرعيون ، كما كان من أكبر الشواهد على حصافة رأيه أن تبني أكتافىوس ، فأخذه وهو غلام معه إلى أسبانيا في عام ٤٥ ، وسره أن رأى الشاب المريض ، العصبى ، الضعيف الجسم ، قد تحمّل أخطار الحرب وشدائدّها بشجاعة عظيمة . وعمل قيصر على أن يدرب الشاب على فنون الحرب والحكم (٣) . ولما لنعرف ملامحه من القائل الكثيرة التى أقيمت له : فهو رقيق ، نحيل ، جاد ، حى وحازم معاً ، مستسلم وعنيد ، مثال اضطرابه الظروف

لأن يكون واقعياً ، ومفكر علمته صروف الدهر أن يكون من رجال العمل . وكان أصفر للوجه ، هزيل الجسم ، مموّداً يشكو سوء الهضم ، ولذلك لم يكن يأكل إلا قليلاً ، ولا يشرب إلا أقل ، وعاش أطول مما عاش من حوله من الأقوياء بالحكمة وتنظيم الحياة .

وجاء في أواخر مارس عام ٤٤ عبد محزّر إلى أبولونيا Appolonia من أعمال اليريا Illyria حيث كان إكتافيان مع جيشه يحمل إليه نبأ مقتل قيصر ووصيته .

وارتاع الشاب المرفف الحس للحدود الناس وكفرهم بنعم المزم عليهم ، وثار في نفسه كل ما كان كامناً فيها من حبه لأخى جدته الذى كان يعزه أعظم إعزاز ، والذى كان يعمل جاهداً لإقامة صرح الدولة المخطمة ، وعقد النية في صمت على أن يواصل جهود قيصر وأن ينتقم من قاتليه . ثم ركب منه فوره إلى شاطئ البحر وعبره إلى برنديزيوم وأسرع إلى رومة ، وأشار عليه أقاربه فيها أن يظل عتفياً عن الأنظار لئلا يهلكه أنطونيوس ، ونصحته والدته ألا يقوم بعمل من الأعمال ولكنها انتهجت حين سخر من هذه النصيحة . وكان كل ما أشارت به عليه أن يصبر . كلما كان الصبر في مقدوره ، وأن ياجأ إلى الختل بدل الحرب السافرة . وقد عمل بهذه النصيحة الحكيمة إلى آخر أيامه

وتوجّه لزيارة أنطونيوس وسأله عما هو فاعل بقتله قيصر . وهاله أن يرى أنطونيوس مشغولاً بإعداد جيش يزحف به على ديمس بروتس ، لأنه أبى أن يتخلّى عن بلاد غالة الجنوية ، وطلب إلى أنطونيوس أن يوزع ما تركه قيصر حسب وصيته ، وخاصة ذلك الجزء الذى يوصى بإعطاء كل مواطن خمسة وأربعين ريالاً . غير أن أنطونيوس وجد أسباباً كثيرة تدعو إلى تأخير تنفيذ الوصية ، فما كان من إكتافيان إلا أن وزع على جنود قيصر القدامى أموالاً استدانها من أصدقاء قيصر وأحد بنفسه جيشه .

واغتاز أنطونيوس من وقاحة هذا « الولد » على حد قوله ، وأعلن أن بعضهم قد حاول قتله ، وأن الذى كان يريد اغتياله قد قال إن أكتافيان هو المحرض له . وأنكر أكتافيان هذه التهمة ، وقال إنه برئ منها ، وانتهر شيشرون فرصة هذا النزاع وأدخل في روع أكتافيان أن أنطونيوس فظ غير مهذب يجب أن يهزم . ووافق أكتافيان على هذا الرأى ، وضم فيلقه إلى فيالق القنصلين هرتيوس Hirtius وبنسا Pansa ، وزحف بها كلها شمالا لقتال أنطونيوس . وأمد شيشرون هذه الحرب الأهلية الجديدة بطائفة من الاتهامات المقلعة ضمنها أربع عشرة « فلية »(*) قوية « في الطعن على سياسة أنطونيوس العامة وحياته الخاصة ، ألقي بعضها في مجلس الشيوخ أو في الجمعية ، ونشر بقيتها للدعابة ضد أنطونيوس على أحسن الصور التي صارت الدعابة الحربية تنشر بها في مستقبل الأيام . ولما التقى الجيشان في موتينا Mutina (مودينا Modena) هزم أنطونيوس وفر من الميدان (٤٤) ؛ ولكن هرتيوس وبنسا قتلوا في المعركة . وعاد أكتافيان إلى رومة وأصبح القائد الأوحده سيالق مجلس الشيوخ وفيالقه هو ، وأرغم المجلس وهو مؤيد بهذه القوة على أن يعينه قنصلا ، وأن يلغى العفو الذى أصدره عن المتآمرين وأن يحكم عليهم جميعاً بالإعدام . ولما تبين له أن شيشرون ومجلس الشيوخ من ألد أعدائه ، وأن كل ما في الأمر أنهما يتخذانه أداة مؤقتة للتقصاء على أنطونيوس لما تبين له هذا سوى النزاع القائم بينه وبين أنطونيوس ، وكون منه ومن أنطونيوس ولهدس الحكومة الثلاثية الثانية . (٤٣ — ٣٣ ق . م) ، ثم زحفت جيوشهم المتحالفة على رومة واستولت عليها دون أن تلقى مقاومة ، وفر كثرون من الشيوخ ومن المحافظين إلى جنوبي إيطاليا وإلى الولايات الخارجية ، واعترفت الجمعية بهذه الحكومة الثلاثية ، ونحولتها سلطات كاملة مدى خمسة أعوام .

(*) كان هذا اللفظ يطلق أولا على كل خطبة من خطب ثلاث لديموسين ضد فليب المقدوني ، ثم صار غلاماً على كل خطبة فيها طعن — واتهام كخطب شيشرون ضد أنطونيوس . (المترجم)

ولكى يستطيع الحكام الثلاثة أداء رواتب جنودهم ، وملء خزانهم ،
والانتقام من قتلة قيصر ، بسطوا على رومة حكماً لا يماثله في تاريخ
الرومان كله حكم آخر في الإرهاب وسفك الدماء ، فقد أعدوا قوائم
تحتوى على أسماء من لا بد من إعدامهم ، وكانوا ثلثمائة من الشيوخ ،
والفین من رجال الأعمال ، وعرضوا على كل حر يأتهم برأس واحد
من هؤلاء ٢٥٠٠٠ درنحة (١٥٠٠٠ ريال أمريكى) ، وعلى كل عبد
١٠٠٠ (٤) ، وأضحى امتلاك المال جريمة يعاقب عليها بالإعدام فكانوا
يحكمون بقتل الأطفال الذين يرثون مالا ، وينفذون فيهم الحكم ، وكان
ينزع من الأراذل ما يرثه من الأموال ، وقد أرغمت ١٤٠٠٠ امرأة
على أن ينزلن للحكام الثلاثة عن الجزء الأكبر من أملاكهن ، ثم استولوا
آخر الأمر على الأموال المنخورة المودعة عند «العدارى الفستية» .
وقد عفوا عن أتكس لأنه ساعد من قبل فلطيا Fulvia زوجة أنطونيوس ،
ولكنه رغم اعترافه بهذا الفضل أرسل مبالغ طائلة من المال إلى بروتس
وكاسيوس . وأقام الحكام الثلاثة جنودهم حراساً على كل مخارج المدينة ،
واختبأ المحكوم بإعدامهم فى الآبار والبالوعات والحجر العليا فى الدور
والمداخل . ومنهم من ماتوا وهم يدافعون عن أنفسهم ، ومنهم من استسلموا
لقائلهم وهم هادئون ، ومنهم من أمانوا أنفسهم جوعاً أو شفقاً أو غرقاً ،
ومنهم من قفزوا من فوق الأسطح أو ألقوا بأنفسهم فى النار . ومن الناس
من قتل خطأ ، ومن غير المحكوم عليهم من انتحروا فوق أجسام من
قتلوا من أقاربهم : وكان التربيون سلفيوس Salvius يعلم أنه من المقتضى
بإعدامهم ، فأقام وليمة وداع لأصدقائه ، ودخل عليه رسل الحكام
الثلاثة فى أثناء الوليمة ، وقطعوا رأسه وتركوا جسمه أمام المائدة ، وأمروا
المدعوين أن يستمروا فى طعامهم وشربهم . وانتهر العبيد هذه الفرصة
للتخلص من سادتهم ، ولكن كثيرين منهم قضوا نحبهم وهم يدافعون عن
ملاكهم ، وقد تخفى واحد منهم فى زى سيدة وقتل بدلا منه . ومات

بعض الأبناء دفاعاً عن آبائهم ، ونم بعضهم على آباءهم ليثروا نصيباً من أموالهم . ومن الزوجات الزانيات أو اللاتي خاتن أزواجهن من نمت عليهم ، وأنقذت زوجة كوبونيوس Coponius بعلمها بالنوم مع أنطونيوس . وكانت فقياً زوجة أنطونيوس قد حاولت أن تشتري منزل جارها رفوس Rufus ، فأبى ذلك عليها ثم حاول في ذلك الوقت أن يقدمه لها هبة من غير ثمن ، ولكنها استطاعت أن تضع اسمه بين أسماء المحكوم بإعدامهم ، فلما قطع رأسه أمرت به فدق بالمسامير على باب بيته الأمامي (*) .

ووضع أنطونيوس اسم شيشرون بين الأسماء الأولى من المحكوم عليهم . وذلك لأن أنطونيوس كان زوج أرملة كلوديوس ، وابن زوجة لنتولس الكتالينارى Lentulus the Catalinarian الذى قتله شيشرون في السجن ، وقد ساءه بحق ما احتوته « فإيات » شيشرون من تجريح وطن شديد . وعارض أكتافيان في هذا ولكنه لم يستمر طويلاً في معارضة ، ذلك أنه لم يكن في وسعه أن ينسى تمجيده لقتلة قيصر ، كما لم ينس العبارة التى قالها للمحافظين يبرر بها مغالته لوريث قيصر (*) وما فيها من تورية . وحاول شيشرون الفرار ، ولكنه لم يتحمل دواز البحر فغادر المركب وقضى الليل في بيته الرينى في فورميا Formiae ؛ وأراد أن يقض فيه اليوم الثانى في انتظار مقتله لأن ذلك في نظره خير من البحر الهائج المضطرب ، ولكن عبيده دفعوه إلى داخل هودج ، وساروا به نحو السفينة ، وبيناهم في طريقهم إذ أقبل عليهم جنود أنطونيوس . وأرادوا العبيد أن يقاوموهم ولكن شيشرون أمرهم أن يضعوا الهودج على الأرض ويستسلموا . ثم ملى الرجل رأسه « وجسمه يعلوه العثير » وشعر رأسه ولحيته منفوش ، ووجهه قد أضناه القلق والتعب « (٧) » ، حتى يسهل على الجنود قطعه (٤٢) . وكانت أوامر أنطونيوس تقضى بأن تقطع أيضاً يده اليمنى .

(*) كان شيشرون قد قال عن أكتافيان : « إن الغلام جدير بالثناء والتزين والسمو » .
laudandum adolescentem, ornandum, tollendum ، ولكن tollendum تعنى أيضاً القتل .

مقطعت وجيء بها مع رأسه إليه . وضحك أنطونيوس ضحكة الفوز ،
ووهب القتلة ٢٥٠,٠٠٠ درنجة ، وأمر بتعليق الرأس واليد في السوق (٨) .

وفي أوائل عام ٤٢ عبر الحكام بقواتهم البحر الأدريايوى واخترقوا
مقدونية إلى تراقيا حيث جمع بروتس وكاسيوس آخر الجيوش الجمهورية ،
واسبعانا على تموينه بالمال ينتزعونه بطرق لا تماثلها في قسوتها حتى السوابق
الرومانية . فقد طلبا من الولايات الشرقية للإمبراطورية ضرائب عشر سنين
مقدما ، وحصلا بالفعل على تلك الضرائب ؛ ولما أظهر أهل رودس شيئا
من المعارضة في هذه المطالب هاجم كاسيوس ثغرهم العظيم ، وأمر الأهليين
جميعهم بتسليم ثروتهم ، وقتل كل من تردد منهم ، وحمل معه عشرة ملايين
ريال أمريكى . وفي قلبية أنزل جنوده في بيوت طرسوس Tarsus ،
ولم يبارحوها حتى أدت إليه تسعة ملايين ريال ، ولم يستطع السكان أداء
هذا المال حتى باعوا بالزاد جميع أراضي البلدية ، وصهرروا جميع آنية الهياكل
ووصلها ، وباعوا كل الأحرار عبيداً — فباعوا أولا الأولاد والبنات ، ثم
النساء والشيوخ ، وباعوا آخر الأمر الشبان ؛ وانحصر الكثيرون من الأهليين
حين علموا أنهم يبيعوا ؛ وجمع كاسيوس من بلاد اليهود أربعة ملايين ريال ،
وباع سكان أربع من المدن عبيداً ؛ ولم يتخرج بروتس أيضاً عن جمع المال
بالقوة ، من ذلك أنه لما رفض سكان أكسانثوس Xanthus من أعمال ليثيا
مطالبه حاصرهم حتى نفذت مؤونتهم ولم ينفذ عنادهم فانتحروا جميعاً (٩) .
وأطال بروتس المكث في أثينة لحبه الفلسفة ؛ ولكن المدينة كانت غاصة
بالشبان الرومان النبلاء الذين كانوا ينادون بالحرب التى تعيدهم إلى أوطانهم .
ولما أن جمع بروتس كفايته من المال طوى كتبه وانضم بجوشه إلى كاسيوس
بونزل إلى الميدان .

واللقت جيوش الطرفين المتقاتلين في فلهاى في شهر سبتمبر من عام ٤٢ هـ

وزحف جناح بروتس على جناح أكتافيان وزحزحه عن موضعه واستولى على معسكره ، ولكن جيوش أنطونيوس هزمت جيوش كاسيوس هزيمة منكرة ، وأمر كاسيوس حامل درعه أن يقتله ففعل : ولم يستطع أنطونيوس أن يواصل انتصاره على الفور ؛ لأن المرض أقعد أكتافيان فلزم خيمته واختل نظام جيشه ، فاضطر أنطونيوس إلى إعادة تنظيم الجيش كله : وبعد أن استراح بضعة أيام قاده لقتال بروتس ، وأوقع بمن بقي من الجيوش الجمهورية هزيمة ولتوا على أثرها الأدبار : ورأى بروتس رجاله يستسلمون فأدرك - ولعله قد سرّه أن يدرك - أنه خسر كل شيء ، فألقى بنفسه على سيف صديق له ومات .

ولما أقبل أنطونيوس على جثته غطاها بثوبه الأرجواني ؛ فلقد كان هو وبروتس صديقين في يوم من الأيام .

الفصل الثاني

أنطونيوس وكليوباترة

لقد كانت معركة فلپاى آخر معركة برية للأشراف القدامى ، وقد حذا الكثيرون منهم - ابن كاتو ، وابن هورتنسيوس ، وكوتيليوس فارس ، Quintillius Varus ، وكوتلس لبيو Quintus Labeo - حذو بروثس وكاسيوس لانتهروا : وقسم المنتصرون الإمبراطورية فيما بينهم : فأعطى ليدس أفريقية وأخذ أكتافيان الغرب ، واختار أنطونيوس مصر وبلاد اليونان والشرق : وكان أنطونيوس دائم الحاجة إلى المال ، فعرض على مدائن الشرق ألا يواخذها على ما أمدت به أعداءه من المال إذا هي أمدته بمثله - أى بعشرة أمثال للضريبة السنوية فى مدى عام : وعاد قديم مرجه وبشاشته إليه حين ظن أن النصر قد أحاد إليه أمنه وطمانينته ، فأنقص مطالبه من الإفزين حين أقبلت عليه نسلوهم فى ثياب كاهنات باخوس يحبيته ويسمينه الإله ديونيسس : ولكنه وهب طاهيه بيت موظف مجنيزى Magnesian كبير مكافأة له على عشاء شهى أعده له ، وعقد مجلساً من أهل المدن الأيونية فى إفسس وأقر فيه حدود تلك الولايات ، وحسم ما بينها من خلاف بحكمة لم ير معها أغسطس بعد عشرة أهوام من ذلك الوقت ما يدعو إلى تعديل ما اتخذ فى هذا المجلس من قرارات : وعفا عن كل من حاربه إلا الذين اشتركوا فى مقتل قيصر . ومد يد المعونة للمدن التى لاقت العذاب على يد كاسيوس وبروتس ، ورفع عنها جميع الضرائب الرومانية ، وحرر كثيرين ممن باعهم المتآمرون أرقاء ، كما حرر مدن سوريا من الطغاة الذين قضوا على حكوماتها الديمقراطية (١٠) .

وبينا كان أنطونيوس يظهر هذه الكياسة نشبعة من طيبة قلبه وبساطة

خلقه ؛ استسلم للشهوات الجنسية استسلاماً أفقده احترام رعاياه لسلطته . فقد أحاط نفسه بالراقصات والموسـيقيات والعشيقات ، والمهرجين والصيادين ، واتخذ له زوجات ومحظيات كلما لاحت له امرأة وأعجبته . وكان قد أرسل الرسل إلى كليوبطرة يدعوها للمثول بين يديه في طرسوس لتجيب عما اتهمت به من مساعدتها كاسيوس على جمع المال والجنود . وجاءت كليوبطرة ، ولكنها جاءت في الوقت الذي اختارته وعلى الطريقة التي اختارها . فبينما كان أنطونيوس جالسا على عرش في السوق العامة ، ينتظر منها أن تحضر وتدفع عن نفسها ما اتهمت به ، ثم يقضى لها أو عليها — ركبت هي نهر سندس Cyndus في قارب ذي أشعة أرجوانية ، وسُكّان مذهب ، ومجاديف من فضة ، تضرب الماء على أنغام الناي والمزمار والقيثار . وكانت وصيفاتها هن بحارة القارب ، ولكن في زى حور البحار وربات الجمال . أما هي فقد تزينت بزى الزهرة (فينوس) ورقدت تحت سرادق من قماش موشى بالذهب .

ولما انتشر بين أهل طرسوس نبأ هذا المنظر الفتان أقبلوا على شاطئ النهر زرافات ووحدانا ، وتركوا أنطونيوس وحده جالسا على عرشه . ودعته كليوبطرة إلى العشاء معها في قاربها ، فأقبل عليها ومعه حاشيته الرهيبة ، فأولبت وليمة فاخرة ، وقدمت لهم فيها أشهى الطعام والشراب ، وأفسدت الفواد بما قدمت لهم من الهدايا والابتسامات . وكان أنطونيوس قد أوشك أن يقع في حبها وهي لا تزال فتاة حين شاهدها في الإسكندرية ، فلما أبصرها في تلك اللحظة وهي في التاسعة والعشرين من عمرها رآها قد اكتملت مفاتها ، وبدأ حديثه معها يلومها على ما فعلت ؛ واختتمه بأن أهدى إليها فينيقية ، وسوريا الوسطى ، وقبرص ، وأجزاء من قليقية وبلاد العرب واليهود^(١) : وكافأته هي بما يشتهي ، ودعته إلى الإسكندرية ، فأجاب الدعوة ، وقضى في تلك المدينة شتاء بعيداً عن الهوم والأكدار (٤١ — ٤٠) يعجب حب الملكة عبسا ، ويستمتع إلى المخاضرات في

متحف ، ناسيا أن له إمبراطورية في حاجة إلى من يحكمها . أما هي فلم تكن أسيرة حبه . بل كانت تعرف أن مصر الغنية الضعيفة لن تلبث أن تجتذب إليها رومة الشرهة القوية ، وأن السبيل الوحيدة لنجاة بلادها وعرشها هي أن تزوج بسيد رومة . ولقد حاولت من قبل أن تفعل هذا بقيصر ، وهي تحاول الآن أن تفعله بأنطونيوس ، ولم يكن له هو سياسة غير سياسة قيصر . فقال إلى تحقيق الحلم القديم ، وهو توحيد رومة ومصر ، ونقل عاصمته إلى بلاد الشرق الفتان الجميل :

وبينا كان أنطونيوس يلهو ويلعب في الإسكندرية ، كانت زوجته فلفيا وأخوها لوسيو سوس يأتوران بأكتافيان ليسقطاه ويتزعا سلطانه على رومة . والحق أن أكتافيان كان أبعد ما يكون عن السعادة في ذلك البلد : فقد أضحي مجلس الشيوخ بؤرة للمغامرين والقواد ، ودب التمر بين العمال المتعطلين ، واختل نظام الشعب كل الاختلال . وكان سكستس يعمى يحول بين المدينة وبين استيراد ما يلزمها من الطعام ، ووقف دولاب الأعمال التجارية لما صاد البلاد من خوف ، وقضى النهب والضرائب الفادحة على الثروات فلم يكد يبقى منها شيء ، وأخذ الكثيرون من الناس يعيشون عيشة الاستهتار والفساد الجنسي الطليق ، محتجين بأن الغد قد يأتي بإلغاء العملة ، أو بانتهاب جديد ، أو بالموت .

وكان أكتافيان نفسه من أبعد الناس طهارة الذيل في ذلك الوقت ، وكأنما أرادت فلفيا وأراد لوسيو سوس أن يبلغا بالفوضى غايتها القصوى فجيشا جيشاً ودعوا إيطاليا إلى القضاء على أكتافيان ، فحاصر ماركس أجريبا Marcus Agrippa قائد جيوش أكتافيان لوسيو سوس في بروزيا Perusia حتى اضطره إلى الخروج منها بعد نفاد مؤناته (مارس عام ٤٠) . وماتت فلفيا من شدة مرضها . وعدم تحقيق مطامعها ، وحزنها على إهمال أنطونيوس لها . وعفا أكتافيان عن لوسيو سوس لعله بذلك يحفظ بالسلام بينه وبين أنطونيوس ، ولكن أنطونيوس عبر البحر وحاصر جيوش أكتافيان في برنديزيوم . وكان الجيشان أكثر حكمة من قائديهما

فامتنع كل منهما عن قتال الآخر ، واضطراهما إلى أن يسويا ما بينهما من نزاع تسوية سلمية (٤٠) . وتعهد أنطونيوس أن يكون حسن السلوك ، فزوجه أكتافيان أخته أكتافيا اللطيفة الطاهرة ، ومركل إنسان بهذه النتيجة إلى حين ، وتنبأ فرجيل - وكان وقتئذ يكتب لشيده لأربع - بعودة حكم « زحل » العادل المثالي .

وفي عام ٣٨ وقع أكتافيان في حب ليقيا Livia زوجة تيبيريوس كلودايوس نيرون Tiberius Cladius Nero وكانت وقتئذ حاملا ، فطلق من أجلها زوجته الأولى اسكريونيا Scriponie : وأقنع نيرون بالتخلص من ليقيا ، وتزوج بها ، واستطاع بفضل إصغائه إلى نصائحها المقنعة ، وصلاتها بأشراف البلاد - لأنها من سلالة أسرة كلودايوس النبيلة - استطاع بذلك أن يحسن صلاته بطبقة الملاك ، فخفض الضرائب ، وأعاد ثلاثين ألفاً من العبيد الآبقين إلى سادتهم . وشرع يعمل في صبر وأناة لإعادة النظام إلى إيطاليا : وأمكنه بمعونة أجربا وبمائة وعشرين سفينة أمده بها أنطونيوس أن يحطم أسطول سككس يمي ، ويستورد الطعام إلى رومة ، ويقضى على مقاومة الجيبيين (٣٦) . وحمد له مجلس الشيوخ عمله واختاره تريونا طول حياته .

وذهب أنطونيوس إلى أثينة مع أكتافيا بعد أن زُفَّت إليه باحتفال رسمي في رومة . وفي ذلك البلد استمتع أنطونيوس إلى حين بتلك المتعة الجديدة متعة الحياة مع امرأة صالحة ، وتغلى عن مشاغل السياسة والحرب ، وأخذ يستمع إلى محاضرات الفلسفة وأكتافيا إلى بجانبه على أنه كان في هذه الأثناء يدرس الخطط التي وضعها قيصر لفتح پارثيا . وكان ليبينس Labienus ابن قائد من قواد قيصر قد دخل في خدمة ملك پارثيا ، وقاد جيوشه من نصر إلى نصر في قليقية وسوريا - وهما ولايتان من أغنى ولايات الدولة الرومانية وأعودها عليها بالمال (٤٠) : وألقى أنطونيوس نفسه في حاجة إلى الجند لمواجهة هسلما التهديد الخطير ، كما جد في حاجة إلى المال لأداء مرتبات الجنود ، والمال عند كليوباترة .

موفور ، ومل فجأة حياة الفضيلة والسلم ، فأعاد أكتافيا إلى رومة وطلب إلى كليوباترة أن تقابله في أنطاكية . وجاءت إليه كليوباترة بعدد قليل من الجنود ، واكتها عارضت في مشروعاته الضخمة الواسعة ، ويبدو أنها لم تعطه من مالها الكثير إلا التزر اليسير . وزحف أنطونيوس على پارثيا بمائة ألف جندي (٣٦) ، وحاول عبثاً أن يستولى على قلاعها ، وفقد نحو نصف رجاله في تقهقر يدل على منتهى الجرأة والبطولة مدى ثلثائة ميل في بلاد معادية له . وضم أرمينية إلى الإمبراطورية الرومانية في أثناء تقهقره ، وأقام لنفسه موكب نصر ، وصدّم مشاعر الإيطاليين صدمة عنيفة بإقامة هذا الموكب في الإسكندرية ثم أرسل رسالة طلاق إلى أكتافيا (٣٧) ، وتزوج كليوباترة ، وثبتها هي وقيصريون حاكين معاً على مصر وقبرص ، ونخّل الولايات الشرقية من الإمبراطورية على ابنه وابنته من كليوباترة ، وإذ كان يعرف أنه لابد أن يسوى الأمور بينه وبين أكتافيا في القريب العاجل أطلق لنفسه العنان في اللهو والترف ، وشجعتة كليوباترة على أن يغامر آخر مغامرة في سبيل السلطة العليا ، وساعدته على حشد جيش وأسطول ، وأقسمت له بقسمها المحجب إليها أنها وافقة من النصر وثوقها بأنها ستتولى الحكم في الكبتول يوماً من الأيام (١٣) .

الفصل الثالث

أنطونيوس وأكتافيان

صبرت أكتافيا على هجرها صبر الكرام ، وعاشت ساكنة هادئة في بيت أنطونيوس في رومة ، تربي أطفاله الذين رزقهم من فلقيا وابنتها منه . وكان منظرها الحزن أمام أكتافيان في كل يوم ، وصمتها الفصيح ، يشيران كوامن غضبه ، ويؤكدان له أنه هو وإيطاليا جميعاً مقضى عليهما إذا نجح أنطونيوس في خططه ، فأخذ يعمل على أن تدرك إيطاليا حقيقة الموقف ، تدرك أن أنطونيوس قد تزوج ملكة مصر ، وأنه وهبها هي وأطفالها غير الشرعيين أكثر ولايات الإمبراطورية خراجاً ، وأنه سيضع رومة وإيطاليا بأجمعها في المقام الثاني بعد مصر .

ولما بعث أنطونيوس برسالة إلى مجلس الشيوخ - وكان قد تجاهله سنين طويلاً - يقترح فيها أن يعتزل هو وأكتافيان الحياة العامة ، وأن تعود جميع للنظم الجمهورية إلى سابق عهدها ، تخلص أكتافيان من هذا الموقف الحرج بأن قرأ على المجلس ما ادعى أنه وصية لأنطونيوس انتزعها هو قسراً من العذارى الفستية ، وفيها يوصي أنطونيوس بأن يكون ولده من كليوبطرة ورثيه دون غيرها ، ويأمر بأن يدفن إلى جانب الملكة في الإسكندرية (١٤) . وكانت الفقرة الأخيرة من هذه الوصية حاسمة في نظر المجلس بقدر ما كان يجب أن تكون مثيرة للارتياح في صحتها . ذلك أنها لم تثر في نظر المجلس الشك في أن وصية تودع في رومة تشترط هذه الشروط ، بل أقنعت وإقنعت إيطاليا أن كليوبطرة تستخدم أنطونيوس في خططها التي تبغى بها الاستيلاء على الإمبراطورية . ولجأ أكتافيان إلى الأساليب الخداعة التي هي من أخص خصائصه ، فأعلن الحرب (٣٢) على كليوبطرة لاعلى أنطونيوس ، ليجعلها بذلك كفاحاً مقدساً في سبيل استقلال إيطاليا .

وأبحر أسطول أنطونيوس وكليوبطرة في شهر سبتمبر من عام ٣٢ إلى البحر الأيوني، وكان مؤلفاً من خمسمائة سفينة حربية ، ولم يكن أسطول بهله القرّة قد ظهر على متن البحر من قبل . وكان يؤيده جيش مؤلف من ثلثمائة ألف من المشاة ، واثنى عشر ألفاً من الفرسان ، أمدهما بمعظمه أمراء الشرق وملوكه يرجون من وراء ذلك أن تكون هذه الحرب وسيلة للتحرر من نير رومة . وعبر أكتافيان البحر الأدرياتي بأربعمائة سفينة وثمانين ألف جندي من المشاة واثنى عشر ألفاً من الفرسان . وظلت القوات المتعاضدة عاماً أو نحو عام تستعد للمعركة الفاصلة وتضع خططها ؛ فلما كان اليوم الثاني من شهر سبتمبر عام ٣١ التحم الجهشان والأسطولان عند أكتيوم في الخليج الأمبراسي في معركة من المعارك الحاسمة في التاريخ ؛ وبرهن أجربا على أنه أبرع من أعدائه في وضع الخطط ، وكانت سفنه الخفيفة أسهل وأخف حركة من سفائن أنطونيوس الضخمة ذات الأبراج العالية . وقد أحرقت النار هذه السفن إذ ألقي عليها بمحارة أكتافيان مشاعل متقدة . ويصف ديوكاسيوس Dio Cassius ما حدث وقتئذ بقوله :

« وأهلك الدخان بعض البحارة قبل أن تصلهم النيران ، ومنهم من نضج لحمهم في دروعهم التي أحرقت من شدة اللهب ، ومنهم من شوتهم النار شيئاً في سفنهم كما تشوى اللحوم في الأفران . وألقي الكثيرون منهم أنفسهم في البحر ، ومن هؤلاء من التهمتهم الحيتان ، ومنهم من قتلوا رمياً بالسهام ، ومنهم من قضوا نجبهم غرقاً . ولم يمت من هذا الجيش كله ميتة يستطيعون تحملها إلا من قتل بعضهم بعضاً (١٥) .

ورأى أنطونيوس أن الدائرة قد دارت عليه ، وأشار إلى كليوبطرة أن تنفذ خطة الانسحاب التي اتفقا عليها من قبل . فوجهت ما بقي من أسطولها نحو الجنوب ، وانتظرت قدوم أنطونيوس . ولما هجز من إنقاذ السفينة المعقود لواؤها له ، غادرها وركب قارباً أقله إلى كليوبطرة ، وجلس هو وحده في مقدم السفينة

أثناء عودتهما إلى الإسكندرية ورأسه بين يديه ، فقد أدرك أنه خسر كل شيء حتى الشرف .

وسار أكتافيان من أكتيوم إلى أثينة ومنها إلى إيطاليا ليخمد فتنة ثارت بين جنوده الذين أخذوا يطالبون بأن يباح لهم نهب مصر ، ثم رجع إلى أسيه ليحاقب بعض من انضموا من أهلها إلى أنطونيوس ، وليجمع أموالا جديدة يسعف بها المدن التي طال عليها عهد الشقاء والحرب . ثم اتجه بعدئذ نحو الإسكندرية (٣٠) . وكان أنطونيوس قد ترك كليوباترة وأقام في جزيرة قرب فاروس ، وأرسل منها رسلا يطلب الصلح ، ولكن أكتافيان لم يعبأ بهم ، وأرسلت كليوباترة إلى أكتافيان على غير علم من أنطونيوس ، صولجانا وتاجاً وعرشاً من الذهب دليلاً على خضوعها له . وكان جوابه لها — على حد قول ديو — أنه يتركها ويترك مصر دون أن يمسه بأذى إذا قتلت أنطونيوس (١٦).

وكتب الحاكم المهزوم إلى أكتافيان مرة أخرى يذكره بصدائهما الماضية وبكل المرح الطائش الذي اشتركا فيه أيام الصبا ، وقال إنه يرضى بأن يقتل نفسه إذا عفا هو عن كليوباترة ، ولم يرد عليه أكتافيان في هذه المرة أيضاً ، وجمعت كليوباترة كل ما استطاعت جمعه من أموال مصر في أحد أبراج القصر ثم أبلغت أكتافيان أنها ستتلف هذه الأموال كلها وتقتل نفسها إذا لم يعقد معها صلحاً شريفاً . وسار أنطونيوس على رأس القوة للصغيرة التي كانت باقية لديه ليحارب عدوه في المعركة الأخيرة ، واستطاع بشجاعة البائس أن يكسب نصراً مؤقتاً ، ولكنه أبصر في اليوم الثاني جنود كليوباترة المرتزة تستسلم للعدو ، وتروى إليه أن كليوباترة قد ماتت ، فظن نفسه طعنة قضت على حياته . ولما علم أن الخبر مكذوب طلب إلى أتباعه أن ينقلوه إلى البرج الذي آوت المملكة ووصيفاتها إلى حُجَّره العليا وأغلقت عليهن الأبواب ، فأدخل إليها من النافذة ومات بين ذراعيها وسمح لها أكتافيان أن تخرج منه البرج وتدفع حبيبها ، ثم أجاز لها

المثول بين يديه ، ولم يتأثر بما كان باقياً من المقاتن في إبرة عظيمة مهزومة في التاسعة والثلاثين من عمرها ، وعرض عليها شروطاً للصالح بدت معها الحياة عديمة القيمة لمن كانت من قبل ملكة ، ولم يخالفها شك في أنه يعتزم أخذها أسيرة إلى رومة لتزين موكب نصره ، فإما كان منها إلا أن ليست ثيابها الملكية ، ووضعت صلا على صدرها ، وماتت . وحلت حذوها وصيفتها شارميون Charmion وإيريس Iris فانبهرتا (١٧) .

وسمح أكتافيان أن تدفن إلى جوار أنطونيوس ، وقتل هو قيصريون وأكبر أبناء أنطونيوس من فلقيا أما ابنا أنطونيوس والملكة فقد أبقى على حياتهما وأرسلهما إلى إيطاليا حيث ربهما أكتافيا وعينت بهما كما لو كانا ابنيها . ووجد الظافر الخزائن المصرية سليمة وفيها من المال الوفير ما كان يحلم به . ونجت مصر من المألة التي كادت تلحق بها لو أنها سميت ولاية رومانية . ذلك أن كل ما فعله أكتافيان أن جلس على عرش البطالة وورث أملاكهم ، وترك في مصر جاكاً يدبر شئون البلاد باسمه .

وهكذا غلب وريث قيصر وريثة الإسكندر ، وضم ملك الإسكندر إلى ملكه ، وانتصر الغرب على الشرق مرة أخرى ، كما انتصر من قبل في مراثون ومجنيزيا ، وانتهى صراع الجبابرة ، وكان الفوز فيه لرجل عليل ، وقضى على الثورة في أكتيوم ، كما قضى على الجمهورية في فرسالس وأتمت رومة الدووة المشتومة التي يعرفها أفلاطون ونعرفها نحن : ملكية ، فأرستقراطية ، فاستغلال البحرى ، فديمقراطية ، ففوضى ثورية ، فديكتاتورية ، وانتهى مرة أخرى ، في جزر التاريخ ومدى ، عهد من عهود الحرية ، وبدأ عهد من عهود النظام .

(انتهى الجزء الأول)

المراجع مجلدة

يوصى المؤلف بقراءة الكتب التي أمامها هذه العلامة (*) لمن أراد التوسع في دراسة موضوع هذا الكتاب .

ABBOTT, F., The Common People of Ancient Rome, N.Y., 1911.

ACTON, LVRD, The History of Freedom, London, 1907.

ALCIPHON, Letters, London, n.d.

ANDERSON, W., and Spiers, R., The Architecture of Greece and Rome, London, 1902.

APOCRYPHA AND PSEUDEPIGRAPHIA OF THE OLD TESTAMENT.

Oxford, 191. 32v.

APPIAN, Roman History, Loeb Classical Library. 4v.

APULEIUS, The Golden Ass, rr. W. Adlington, N.Y. 1907.

STOTLE, Physics, Loeb Library 2v.

politics, Everyman Library.

ARNOLD, W., Roman System of Provincial Administration, Oxford, 1914.

ARRIAN, Anabasis of Alexander, London, 1893.

ATHENAEUS, The Deipnosophists, London, 1854, 3v,

AUGUSTINE. St., The City of God, London, 1934.

Select Letters, Loeb Library.

AUGUSTUS, *Res gestae*, Loeb Library.

BAILEY, C., The Legacy of Rome, Oxford, n.d.

BALL, W.W., Short History of Mathematics, Londod, 188.

BALSDON, J., The Emperor Gaius, Oxford. 1934.

BARNES, H. E., History of Western Civilization, N.Y., 1935 2v.

BARON, S, Social and Religious History of the Jews, N.Y.. 1937. 3v.

BATIFOL L., The Century of the Renaissance, N.Y., 1935.

BOARD, M., History of the Business Man, N.Y., 1938.

BEVAN, E., The House of Seleucus, London, 1602, 2v,

The Legacy of Israel, Oxford, 1927.

*BIBLE, Revised Version of the King James Translation.

BIEBER, M., History of the Greek and Roman Theater, princeton, 1939.

BIOG, C., Neo - Platonism, London, 1935.

- BOISSIER, G., *L'Afrique romaine*, Paris 1885.
Cicero and His Friends, N.Y., n.d.
La fin du paganisme, Paris, 1894.
L'opposition sous les Césars, Paris, 1875.
La religion romaine, Paris, 1909. 2v.
Rome and Pompeii, London, 1896.
Tacitus and Other Roman Studies, London, 1906.
- BOOKS OF ENOCH AND WISDOM, cf. Apocrypha.
- BOUCHIER, E., *Life and Letters in Roman Africa*, Oxford, 1913.
- BREASTED, J., *Ancient Times*, Boston 1916.
Oriental Forerunners of Byzantine Painting, Chicago, 1924.
- BRECCIA, E., *Alexandria ad Aegyptum*. Bergamo, 1923.
- BRITTAIN, A., *Roman Women*, Philadelphia, 1907.
- BUCHAN, J., *Augustus*, N.Y., 1927.
- BUCKLAND, W., *Textbook of Roman Law*, Cambridge U.P., 1921.
- BURCKHARDT, J., *Die Zeit Constantins des Grossen*, Phaidon Verlag, Wien, n.d.
- AURY, J., *History of the Roman Empire*, N.Y. n.d.
History of Freedom of Thought, N.Y., n.d.
- CAESAR, J., *De bello civili*. Loeb Library.
De bello Gallico, Loeb Library.
- CAMBRIDGE ANCIENT HISTORY, N.Y., 1924f. 12v.
- CAMBRIDGE MEDIEVAL HISTORY, N.Y., 1924f. 8v.
- CAPIES, W., *University Life in Ancient Athens*. N.Y., 1922.
- CARPENTER, EDW., *Pagan and Christian Creeds*. N.Y., 1920.
- CARTER, T., *The invention of Printing in China*, N.Y., 1925.
- CASTIGLIONE A., *History of Medicine*, N.Y., 1941.
- CATHOLIC ENCYCLOPEDIA, N.Y., 1913. 16v.
- CATO, M., *De agri cultura*, Loeb Library.
- CATULLUS, *Poems*, tr. Horace Gregory, N.Y., 1931.
- CATULLUS, Tibullus, and Pervigillum Veneris, Loeb Library.
- CHARLESWORTH, M., *Trade Routes and Commerce of the Roman Empire*, Cambridge U.P., 1926.
- CICERO, *Academica*, Loeb Library.
De divinatione, Loeb Library.
De finibus, Loeb Library.

De legibus, Library.

De natura Deorum, Loeb Library.

De officiis, Everyman Library.

De re publica, Loeb Library.

De Senectute and De amicitia, Loeb Library.

Disputationes Tusculanae, Loeb Library.

Letters, tr. Meimoth ; cf. Middleton.

Pro Milone and Other Speeches, Loeb Library

CLEMENS OF ALEXANDRIA, Writings and Opinions, ed. Kays, London, n.d.

COLLINGWOOD, R., and MYRES, N., Roman Britain, Oxford, 1897.

COLUMELLA, De re rustica, Loeb Library.

CONYBEARE, W. J., and HOWSON, J. S., Life, Times, and Travels of St. Paul, N. Y., 1869. 2v.

COULANGES, F. DE, The Ancient City, Boston, 1901.

CUMONT, F., Oriental Religions in Roman Paganism, Chicago 1911.

CUNNINGHAM, W. C., Western Civilization in its Economic Aspects, Cambridge U. P. 1900. 2v.

DAVIS, W. S., Influence of Wealth in Imperial Rome, N. Y., 1913.

DAVIS, W.S. and WEST, W.M., Readings in Ancient History, Boston, 1912.

DECLAREUIL, J., Rome the Eaw. Oliver, N.Y. 1976.

DENNIS, O., Cities and Cemeteries of Etryman Everyman Library. 2v.

DILL, SIR S., Roman Society from Nero to Marcus Aurelius, London 1911.

DIO CASSIUS, History of Rome. Troy, N. Y., 1905. 8v

DIO CHRYSOSTOM, Orations. Loeb Library. 3v

DIODORUS SICULUS, Library of History, Loeb Library 10v

DIONYSIUS OF HALICARNASSUS, Roman Antiquities, London, 1758. 4v.

DOUGHTY, G., Travels in Arabia Deserta, N.Y., 1923. 2v]

DUCHESNE. MON. L., Early History of the Christian Church London 1933. 8v

DUFF, J., Literary History of Rome. London, 1909.

Literary History of Rome in the Silver Age, N. V., 1930.

DURUY, V., History of the Roman People, Boston, 1883. 8v.

EDERSHEIM, A., Life and Times of Jesus the Messiah, N.Y., n.d. 2v.

ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA, 11th ed. 24v.

- EPICTEIUS**, Works, Loeb Library. 2v.
Encheiridion, Girard, Kan., n.d.
- EUSEBIUS PAMPHILUS**, Ecclesiastical History, N.Y., 1868.
 Historical View of the Council of Nice, in preceding.
 Life of Constantine, in Ancient Ecclesiastical Histories:
 London, 1650.
Præparatio evangelica, Oxford, 1843.
- FATTORUSSO, J.**, Wonders of Italy, Florence, 1930.
- FERRERO, O.**, Ancient Rome and Modern America, N.Y., 1914.
 Greatness and Decline of Rome, N.Y., 1909. 5v.
 The Ruin of Ancient Civilization, N.A., 1921.
 The Women of the Caesars, N.Y., n.d.
- FINKELSTEIN, L.**, Akiba, N.Y., 1963.
- FLAUBERT, G.**, Salamambo, Modern Library.
- FLICK, A. C.**, Rise of the Medieval Church, N.Y., 1909.
- FOAKES-JACKSON, F.**, and **LAKE, K.**, Beginnings of Christianity.
 London 1920. 5v.
- FOWLER, W.W.**, Religious Experience of the Roman People, London, 1933.
 Roman Festivals of the Period of the Republic, N.Y., 1899.
 Social Life at Rome, N.Y., 1927.
- FRANK, T.**, Economic History of Rome, Baltimore, 1927.
 Roman Imperialism, N.Y., 1914.
 Economic Survey of Ancient Rome, Baltimore. 1933. 5v
- FAZER, SIR J.**, Adonis, Attis, and Osiris, London, 1907.
 The Magic Art, N.Y., 1935. 2v.
 The Scapegoat, N.Y., 1935.
 Spirits of the Corn and Wild, N.Y., 1935. 2v.
- FRIDLANDER, L.**, Roman Life and Manners under the Roman Empire.
 London, 1928. 4v.
- FRONTINUS**, Stratagems and Aqueducts, Loeb Library.
- FRONTO, M.**, Correspondence, Loeb Library.
- GAIUS**, Elements of Roman Law, ed. Poste, Oxford, 1875.
- GALEN**, On the Natural Faculties, Loeb Library.
- GARDINER, E.**, Athletics of the Ancient World. Oxford. 1930.
- GELLIUS, AULUS**, Attic Nights, Loeb Library. 3v.

- GARRISON, F., *History of Medicine*, Phila., 1929.
- GATTESCHI, O., *Restauri della Roma Imperiale*, Rome, 1924.
- OEST, A., *Roman Engineering*, N.Y., 1930.
- OIBBON, E., *Decline and Fall of the Roman Empire*, Everyman Library 6v.
Ed. Bury, J.B., London 1900. 7v. Only when so specified.
- OLOVER, T.R., *The Conflict of Religions in the Early Roman Empire*,
London, 1932.
- OOQUEL, M., *Life of Jesus*, N.Y., 1933.
- OODSPEED, E.J., *The New Testament, An American Translation*, Univ.
of Chicago, 1937.
- ORAETZ, H., *History of the Jews*, Phila., 1891. 6v.
- OREEK ANTHOLOGY, Loeb Library.
- OUHL, E., and KONER, W., *Life of the Greeks and the Romans*, N.Y., 1876.
- OUIONEBERT, C., *Christianity Past and Present*, N.Y., 1927.
Jesus, N.Y., 1935.
- OUMMERE, *Seneca the Philosopher*, Boston, 1922.
- HADZSITS O., *Lucretius and His Influence*, London, 1935.
- HAGGARD, H., *Devils, Drugs, and Doctors* N.Y., 1929.
- HALLIDAY, W.R., *The Pagan Background of Early Christianity*, London, 1925.
- HAMMERTON, J., *Universal History of the World*, London, n.d. 8v.
- HARRISON, JANE, *Prolegomena to the Study of Greek Religion*, Cambridge
U.P., 1922.
- HASKELL, H., *The New Deal in Old Rome*, N.Y., 1939.
- HASTINGS, J., *Encyclopedia of Religion and Ethics*, N.Y., 1928. 12v.
- HATCH, E., *Influence of Greek Ideas and Usage upon the Christian
Church*, London, 1890.
- HAVERFIELD, F., *The Romanization of Roman Britain*, Oxford, 1923.
The Roman Occupation, of Britain, Oxford, 1924.
- HEATH, SIR T., *History of Greek Mathematics*, Oxford, 1921. 2v.
- HEINE H., *Memoirs*, London, 1910. 2v.
- HEITLAND, W., *Agricola*, Cambridge U.P., 1921.
- HELODORUS, Longus, etc., *Greek Romances*, London, 1901.
- HENDERSON, B., *Life and Principate of the Emperor Hadrian*. N.Y., n.d.
Life and Principate of the Emperor Nero, Phila; 1903.
- HERODIAN, *History of Twenty Caesars*, London, 1629.
- HERODOTUS, *History*, ed. Rawlinson, 1862. 4v.

- HIMES, N., *Medical History of Contraception*, Baltimore, 1936.
- HISTORIAE AUGUSTAE, Loeb Library, 2v.
- HOLMES, T.R., *The Architect of the Roman Empire*, Oxford, 1928. 2v.
- HOMO, L. *Primitive Italy*, London, 1927.
 Roman Political Institutions, N.Y. 1930.
- *HORACE, *Odes and Epodes*, Loeb Library.
 Satires and Epistles, Loeb Library.
- HOWARD, C., *Sex Worship*, Chicago, 1909.
- INGE, DEAN W.R., *The Philosophy of Plotinus*, London, 1929. 2v.
- IRENAEUS, *Adversus haereses*, Oxford, 1872.
- JEROME, *Select Letters*, Loeb Library.
- JONES, A., *Cities of the Eastern Roman Provinces*, Oxford, 1937.
- JONES, H., *Companion to Roman History*, Oxford 1912.
- JONES, W., *Malaria and Roman History*, Manchester U.P., 1909.
- JOSEPHUS *Works*, tr. Whiston, Boston, 181*, 2v.
- JULLIAN, C., *Histoire de la Gaule*, Paris, 1908. 6v.
- JUSTINIAN, *Digest*; cf Scott, S P.
- JUVENAL AND PERSIUS, *Satires*, Loeb Library.
- JUVENAL, PERSIUS, SULPICIA, AND LUCILIUS, *Satires*, tr. Oifford
 London, 1852.
- KALTHOFF, A., *Rise of Christianity*, London, 1907.
- KAUTSKY, K., *Ursprung des Christentums*, Vienna, 1908.
- KLAUSNER, J., *From Jesus to Paul*, N.Y., 1943. *
 Jesus of, N Y., 1929.
- KOHLER, C., *History of Costume*, N. Y., 1928.
- LACTANTIUS, *Works*. in *Ante-Nicene Christian Library*, vols. XXI-II,
 London 1881.
- LAKE, K., ed., *The Apostolic Fathers*, Loeb Library, 2v.
- LANCIANI, R., *Ancient Rome*, Boston, 1899.
- LANG, P., *Music in Western Civilization*, N Y., 1941.
- LEA, H.C., *Historical Sketch of Sacerdotal Celibacy*, Boston, 1894.
- LECKY, W., *History of European Morals*, N.Y., 1926 2v.
- LESLIE SHANE, *The Greek Anthology*, N.Y., 1929.
- LIVINGSTONE, R. W., *The Legacy of Greece*, Oxford, 1924.

- LIVY, T., *History of Rome*, Everyman Library. 6v.
- LONGINUS ON THE SUBLIME, Loeb Library.
- LOT, FERDINAND, *End of the Ancient World*, N. Y., 1931.
- LUCAN, *Pharsalia*, Loeb Library.
- *LUCIAN, *Works*, tr. Fowler, Oxford, 1905. 4v.
- *LUCRETIVS, *De rerum natura*, Loeb Library.
- MAC GREGOR, R., *The Greek Anthology* London, n.d.
- MACKENNA, STEPHEN, *The Essence of Plotinus*, N.Y., 1934.
- MACROBIUS, *Works*, French tr., Paris, 1827.
- Opera*, London, 1694.
- MAHAFFY, J., *The Silver Age of the Greek World*, Chicago, 1906.
- MAINE, SIR H., *Ancient Law*, Everyman Library.
- MAIURI, A., *Les fresques de meii*, Paris, n.d.
- Pompeii*, Rome, Rome, n.d.
- MANTZIUS, K., *History of Theatrical Art*. N.Y., 1937. 6v.
- *MARCUS AURELIUS, *Meditations*, tr. Long, Boston, 1671.
- MARTIAL, *Epigrams*, Loeb Library 2v.
- MATTHEWS, B., *Development of the Drama*, N.Y., 1921.
- MAU, A., *Pompeii*, N Y., 1902. ' '
- MERIVALE, C., *History of the Romans under the Empire*, London, 1866, 8v.
- MIDDLETON, C., *Life of Marcus Tullius Cicero*, London, 1877.
- MINUCIUS, FELIX, *Octavius*, in *Tertullian, Apologeticus*, Loeb Library.
- MOMLIANO, A. *Claudius*, Oxford, 1934.
- *MOMMSEN, T. *History of Rome* London, 1901 5v.
- The Provinces of the Roman Empire*, N.Y., 1887. 2v.
- MONROE, P., *Source Book of the History of Education for the Greek and Roman Period*, N Y. 1932.
- MONTESQUIEU, CHARLES DE, *Grandeur et Décadence des Romains*. Paris, 1924.
- MOORE, G.F., *Judaism in the First Centuries of the Christian Era*, Cambridge, Mass., 1932. 2v.
- MULLER-LYER, F., *Evolution of Modern Marriage*, N.Y., 1930.
- MURRAY, G., *Five Stages of Greek Religion*, Oxford, 1930.
- NEPOS, CORNELIUS, *Lives* N.Y., 1893.
- *OVID, *Are amatoria*, Loeb Library.

- Fasti**, Loeb Library.
- Heroides and Amores**, Loeb Library.
- Love Books of**, tr. May, N.Y., 1930.
- Metamorphoses**, Loeb Library. 2v.
- Tristia and x Ponto**, Loeb Library
- OWEN, JOHN**, *Evenings with the Sceptics*, London, 1881. 2v.
- PATER, WALTER**, *Marius the Epicurean*, n.d.
- PAUL-LOUIS**, *Ancient Rome at Work*, N.Y., 1927
- PFUHL, E.**, *Masterpieces of Greek Drawing and Painting*, London, 1926.
- PHIDO**, *Works*, Loeb Library. 9v.
- PHILOSTRATUS**, *Life of Apollonius of Tyana*, Loeb Library. 2v
- PHILOSTRATUS AND EUNAPIUS**, *Lives of the Sophists*, Loeb Library,
- PLAUTS**, *Comedies*, London, 1889.
- PLINY THE ELDER**, *Natural History*, London, 1855. 6v
- PLINY THE YOUNGER**, *Letters*, Loeb Library,
- PLOTINUS**, *Select Works*, London, 1912.
- PLUTARCH**, *De Iside et Osiride*, French tr., Paris, 1924.
- De tranquillitate animi*, tr. Harvard U.P., 1931.
- Lives*, Everyman Library. 8v.
- Moralia*, Loeb Library.
- Quaestiones Romanae*, tr. Holland, London, 1892.
- POLYBIUS**, *Histories*, Loeb Library. 6v.
- POPE, A.U.**, *Survey of Persian Art*, London 1938. 6v.
- PORPHYRY**, *Life of Plotinus*, in MacKenna, S., *The Essence of Plotinus*, N.Y., 1934.
- PROPERTIUS**, *Poems*, Loeb Library.
- QUINTILIAN**, *Institutes of Oratory*, Loeb Library. 4v.
- RAMSAY, W.M.**, *The Church in the Roman Empire*, N.Y., 1893.
- RANDALL-MAC IVER, D.**, *The Etruscans*, Oxford, 1927.
- RAWLINSON, G.**, *The Sixth Great Oriental Monarch*, N.Y., n.d.
- REID, J.**, *Municipalities of the Roman Empire*, Cambridge U.P., 1913.
- REINACH, S.**, *Apollo, a History of Art*, N.Y., 1917.
- A Short History of Christianity*, d.Y., 19 2.
- RENAN, E.**, *Antichrist*, London, n.d.

- The Apostles**, London, n.d.
The Christian Church, London, n.d.
Lectures on the Influence of Rome on Christianity, London, 1884.
Life of Jesus, N.Y., n.d.
Marc Aurèle, Paris, n.d.
St. Paul, Paris, n.d.
- ROBERTSON, J.M.**, *Short History of Freethought*, London, 1914. 2v.
RODENWALDT, O., *Die Kunst der Antike: Hellas und Rom*, Berlin, 1927.
RÖSTOVITZ, M., *History of the Ancient World*, Oxford, 1928. 2v.
Mystic Italy, N.Y., 1927.
Social and Economic History of the Hellenistic World
 N Y, 1924. 2v.
Social and Economic History of Roman Empire,
 Oxford, 1926.
- SACHAR, A.**, *History of the Jews*, N.Y., 1932.
SALLUST, *Works*, Loeb Library.
SANDYS, SIR J., *Companion to Latin Studies*, Cambridge U.P., 1925.
SARTON, O., *Introduction to the History of Science*, Baltimore, 1930 Vol. I.
SCHÜRER, E., *History of the Jewish People in the Times of Jesus*, N.Y.,
 1890. 9v.
- ***SCHWEITZER, A.**, *The Quest of the Historical Jesus*, London, 1962.
SOCTT, E. F., *First Age of Christianity*, N.Y. 1935.
SCOTT, S.P., *The Civil Law of Rome*, Cincinnati, 1932. 17v.
SENECA, *Epistulae Morales*, Loeb Library. 2v.
Moral Essays, Loeb Library. 3v.
Questiones naturales, tr. in Clarke, *Physical Science in the Times*
of Nero, London, 1910.
Tragedies, Loeb Library. 2v.
- SETTUS EMPIRICUS**, *Works*, Loeb Library. 8v.
Opera, Leipzig, 1840. 2v.
- SHOTWELL, J.**, *Introduction to the History of N.Y.*, 1936.
SHOTWELL, J., and **LOOMIS, L.**, *The See of Peter*, Columbia U.P., 1927.
SIDONIUS APOLLINARIS, *Poems*, Loeb Library.
SIMPSON, F., *History of Architectural Development*, London, 1921. Vol. I.
SMITH, R.B., *Carthage and the Carthaginians*, N.Y., 1908.

- SMITH, WM., Dictionary of Greek and Roman Antiquities, Boston 1859.
- ELLAR, W., Horace and the Elegiac Poets, Oxford, 1937.
- Roman Poets of the Augustan Age : Virgil, Oxford, 1877.
- Roman Poets of the Republic, Oxford, 1881.
- SOCRATES, Ecclesiastical History. London, 1892.
- STATIUS, Poems, Loeb Library. 2v.
- STRABO, Geography, Loeb Library. 8v.
- STRONO, E., Art in Ancient Rome, N. Y., 1928. 2v.
- SUETONIUS, Works. Loeb Library 2v.
- *SUMNER, W O. Folkways, Boston, 1906.
- War and Other Essays Yale, U P., 1911.
- SYME, R., The Roman Revolution, Oxford. 1939.
- SYMONDS, J. A., Studies of the Greek Poets, London, 1920.
- *TACITUS, Annals, Loeb Library.
- Histories, Loeb Library.
- Workst tr. Murphy, London 1830.
- TAINE, H., Essai sur Tite Live, Paris, 1874.
- Modern Regime, N.Y., 1890 '7y.
- TALMUD, Babylonian tr., London, 1935f. 24v.
- TARN, W.W., Hellenistic Civilization, London, 1927.
- TAYLOR, H., Cicero, Chicago, 1916.
- TERENCE, Comedies, London, 1898.
- TERTULLIAN, Apologeticus, etc., Loeb Library.
- THIERRY, A., Histoire de la Gaule sous l'administration romaine Paris, 1840 2v.
- TAOMPSON, SIRE., Introduction to Greek and Latin Paleography, Oxford, 1912.
- THORNDIKE, L., History of Magic and Experimental Science N.Y., 1929 2v.
- THUCYDIDES, History of the peloponnesian War, Everyman Library.
- TIBULLUS, Poems, or Catullus.
- TOULAIN, J., Economic Life of the Ancient World, N.Y., 1930.
- TONNBEE, A J., A Study of History, Oxford, 1935. 3v.
- *TRENCH, R., Plutarch, London, 1874.
- UEBERWEG, F., History of Philosophy, N.Y., 1871. 2v
- USHER, A , History of Mechanical Inventions, N.Y., 1929.
- VALERIUS MAXIMUS, Factorum et dictorum, Berlin, 1854.
- *VARRO, M, Rerum rusticarum, Loeb Library, 2v.

- VIRGIL, Poems, Loeb Library. 2v.
 VITRUVIUS, De architectura, Loeb Library
 VOGELSTEIN, H. Rome, Phila. 1940.
 VOLTAIRE, Philosophical Dictionary, N.Y., 1901.
 WARD, C.O., The Ancient Lowly, Chicago, 1907. 2v.
 WATSON P.B. Marcus Aurelius Antoninus, N.U., 1884.
 WEIOALL, A., The Paganism in Our Chrsstianity, N. Y., 1928,
 WEISE, O., Language and Character of the Roman People, London. 1909
 WESTERMARCK, E., Origin and Development of the Moral Ideas, London
 1917. 2v.
 WHITE, E.L, Why Rome Fell, N.Y. 1927
 WICKHOFF, F., Roman Art, London. 1900.
 WILLIAMS, H., History of Science, N.Y., 1909 5v.
 WINCKELMANN, J., History of Ancient Art, Boston, 1880. 2v
 WRIGHT, F. History of Later Greek Literature, N. Y., 1932.
 ZEITLIN, S., The Jews, Phila., 1939.
 The Pharisees and the Gospels, N. Y., 1938.

المراجع مفصلة

الأرقام الرومانية الكبيرة تدل على رقم المجلد تتلوها أرقام الصفحات ، أما الأرقام الرومانية الصغرى فتدل على رقم الكتاب أو المقال في الكتاب القديم يتلوها رقم الباب أو الآية وأحيانا رقم الفقرة .

CHAPTER

1. Pliny, *Natural History*, xxxvii, 77
2. Virgil, *Georgics*, II, 149.
3. *Ibid.*, II, 198.
4. Strabo, *Geography* v, 4, 8.
5. Polybius, *History*, I, 2, 15.
6. In Taine, *Modern Regime* 17.
7. Aristotle, *Physics* 1329b.
8. Thucydides, *Peloponnesian War*, VI, 18, 2.
9. Homo, *Primitive Italy*, 82 Toutain, *Economic Life of the Ancient World*, 207.
10. Dennis, *Cities and Cemeteries of Etruria*, I, 36.
11. Herodotus, *Histories*, v, 94 ; Strabo, v. I, 2 ; Tacitus. *Annals* IV, Appain. *Roman History* VIII, 9, 66 ; etc. Dionysius of Halicarnassus, I, 30, regarded the Etruscans as indigenous to Italy ; so did Mommsen, *History of Rome* I, 155. Dennis, I, 17, Frank *Economic History of Rome*, 16, Randall-MacIver, *Etruscans*, 23, and Rostovtzeff, *History of the Ancient World*, II, 180, accept the tradition.
12. Dennis, I, 39.
13. Paul-Louis, *Ancient Rome at Work*, 66 ; Toutain 211.
14. Dennis I, 329.
15. Athenaeus, *Deipnosophists* XII, 3.
16. Garrison, *History of Medicine* 119
17. Castiglione, *History of Medicine*. 192.
18. Aristotle in Athenaeus, I, 19 ; Cennus, I, 321.
19. *Ibid.*, 21.
20. *Cambridge Ancient History* ; IV, 415.
21. Frazer; Sir J. *Magic Art*, II, 287.
22. Schollast on Juvenal, VI, 565.
23. Frazer, l.c.
24. CAH, IV, 420-1 ; Mommsen, I, 282.3 ; Dennis, II, 168.
25. *Enc. Brit.*, VIII, 787.
26. Anderson and Spiers, *Architecture of Greece and Rome*, 121 ; Strong, E., *Art in Ancient Rome*, 21 ; CAH, VII, 386.
27. Pliny, xxxv, 6.
28. Rodenwaldt, G., *Die Kunst der Antike : Pallas* 509.
29. Ovid, *Fast.* III, 15.
30. Livy, *History of Rome*, I, 9-13.
31. Frazer. II, 891.
32. Livy, I, 19.
33. Tacitus, *Ann.*, III, 25.
34. Cicero, *De re publica*, II, 14.
35. Livy, I, 22.
36. *Ibid.*, 27.
37. Dio Cassius, *History of Rome* fragment VII.
38. Strabo, v, 2.

39. Livy, i, 35.
40. Pais, E., *Ancient Legends of Roman History*, 38.
41. Cicero, *Republica*, ii, 21.
42. Livy, i, 46.
43. Pais, 137-8.
44. Dio, iii, 7, and frag x, 2.
45. Livy, i, 56-7.
46. Syme, R., *The Roman Revolution*, 85n.
47. Cicero, *Republica* i, 39; Coulanges, F., *The Ancient City* 384.
48. Tacitus *Histories*, iii, 72.
49. Mommsen, I, 414.
50. Dennis, I, 26.
51. Duff, J. W., *Literary History of Rome*, 6; CAH, IV, 407.
52. Livy, i, 8; Strabo, v, 2. 2; Denon II, 166.
53. CAH, VII, 384.
54. Livy, i, 8.
55. CAH, VIII 387; Hammerton, J., *Universal History of the World*, II, 1158.
56. Strabo, v, 2. 2.

CHAPTER II

1. Livy, i, 8.
2. Aulus Gellius, *Attic Nights* vi, 13.
3. Livy, ii, 56; CAH, VII, 456.
4. Aulus Gellius, xx, I. 45-51; Dio, frag. xvi, 4.
5. Livy, ii, 2330; Dio, iv. 7 and frag. xvi, 6; Dionysius, vi, 45; Plutarch, "Coriolanus."
6. Livy, iv, 13; Dio, vi, 7.
7. Livy iii, 52.
8. Dio, v, 7.
9. Ibid.
10. Livy, i, 43.
11. Frank, *Economic History*, 20
Smith, W., *Dictionary of Greek*

and Roman Antiquities, s. v. *exercitus*.

12. Mommsen, III, 60,
13. Plutarch, "Pyrrhus."
14. Coulanges, 244.
15. Dio, iv, 7.
16. Twelve Tables, iv, 1-3 in Nonroe, P., *Source Book*, 337.
17. Twelve Tables, iii, 1.6.
18. Ibid., viii, 8.
19. Ibid., 21-26.
20. Cicero, *Pro Roscio Amerino*, 25-6.
21. Polybius, iii, 6.
22. Livy, vii, 24.
23. Vitruvius, *De Architectura* ii, 13.
24. Polybius, vi, 37
25. Frontinus, *Stratagems and Aqueducts*, iv, 1.
26. Frank, *Economic History*, 338; id., *Economic Survey of Ancient Rome*, V, 160; Fowler, W. W. *Social Life at Rome*, 82; Edwards, H. J., Appendix A to Caesar, *Gaulic War*.

27. Dio vi, 96.
28. Livy, ii, 84; Dionysius, vii, 60; Dio, v, 7 and frag. xvii, 2; Appian, *Roman History*, ii, 5; Plutarch, "Coriolanus."
29. Polybius, ii, 15-20.
30. Livy, v, 42.
31. Dio vii, 7.
32. Coulanges, 494.
33. Plutarch, "Sayings of Great Commanders" in *Moralia* 184C.

CHAPTER III

1. Mommsen, II, 138.
2. Smith, R.B., *Carthage*, 29.
3. Appian, vii 95.
4. Polybius, vi, 56.

3. Plutarch, *De republica ger.*, iii, 6.
6. Frazer, *Adonis, Attis, Osiris*,
1, 114.
7. Diodorus Siculus, *Library of
History*, xx, 14.
8. St. Augustine. *Letters*, xvii, 2.
9. Appian, viii, 127.
10. Aristotle. *Politics*, 1272b.
11. *Ibid.*, 1273a.
12. Polybius, iii, 22.
13. Strabo, xvii, 1. 19.
14. Polybius, i, 20-1.
15. Cicero, *De Officiis*, iii, 26 ; *In
Pisonem*, 43.
16. Ocellus, vii, 4.
17. Polybius, i, 80.
18. Smith. R.B., *Carthage*, 151.
19. Polybius, i, 37. Flaubert has
told the story with perfect art
in *Salammbo*.
20. Mommsen, ii, 223.
21. Dio, frag iii, 2.
22. Livy, xxi, 4.
23. Mommsen, ii, 248.
24. Livy, xxii, 57.
25. Plutarch, *Moralia*, 195.D.
26. Livy, xxii, 57.
27. Polybius, ii, 75 118.
28. Livy, xxii, 50.
29. Livy, xxiii, 12.
30. Diodorus, xxvii, 9; Appian, vii, 69
31. *Ibid.*, viii, 134.
32. Livy, xxxix, 51.
4. Pliny, xxviii, 19.
5. Livy, xxiii, 31.
6. Virgil, *Georg'ca*, ii, 419; Horace,
Odes, i, 125.
7. Frazer, *Magic Art*, II, 190 ; the
derivation is questioned by Fowler
W. W, *Roman Festivals of the
Republic*, 99.
8. Virgil, *Aeneid*, vii, 761 ; Ovid,
Fasti vi, 753 ; *Metamorphoses*,
xv, 497 ; Strabo, v, 3. 12 ; Pliny,
xxx, 12-13 ; Frazer, *Magic Art*,
1, 11.
9. Boissier G. *La religion romaine*,
I, 27.
10. Livy, v, 21-2 ; vi, 29 ; Coulanges
1 199.
11. Ovid metam, xv, 626.
12. Livy viii, 15 ; Lanciani, R.,
Ancient Rome, 143.
13. Fowler, W. W, *Religious Experi-
ence of the Roman People*, 437.
14. Mommsen, iii, 11.
15. Cicero, *Pro Archia* 4; Fowler,
op. cit., 30. The derivation is
not certain : Cicero gives another
in *De natura deorum*, ii, 28.
16. Reinach. S. *Apollo*, 109.
17. Livy, vii, 5.
18. Pliny. xxviii, 10.
19. Harrison, J., *Prolegomena to the
study of Greek Religion*, 35.
20. Plautus, *Curculio*, 3^a-8.
21. Ovid, *Fasti*, iii, 523.
23. Howard, 66.
24. Athenaeus, xiv, 44.
25. Westermarck, E., *Origin and
Development of the Moral Ideas*
I. 430 ; Cicero *Pro Caelio*. 20.
26. Brittain, A, *Roman Women*, 135-6
27. Coulanges, 63
28. Plutarch, "Numa and Lycurgus."

CHAPTER IV

1. Twelve Tables, iv, 1,
2. St. Augustine, *City of God*, vi, 9.
3. Horace, *Satires*, i, 8, 35 ; Müller-
Lyer, F., *Evolution of Modern
Marriage*, 55 ; Castiglione, 196;
Howard, C., *Sex Worship*, 65, 79;
Enc. Brit., 11th ed., XVII, 467 ;
XXI, 245.
25. Westermarck, E., *Origin and
Development of the Moral Ideas*
I. 430 ; Cicero *Pro Caelio*. 20.
26. Brittain, A, *Roman Women*, 135-6
27. Coulanges, 63
28. Plutarch, "Numa and Lycurgus."

29. Ocellus, ii, 23.
30. Abbott, F., *Common People of Ancient Rome*, 87.
31. Catullus, *Poems*, xxv.
32. Pliny xxxiii, 16.
33. Fowler, W. W. *Social Life at Rome*, 50—1, 270.
34. Polybius, xxxi 26.
35. Ibid., vi, 56.
36. Cf. Appian, vi, *passim*.
37. Polybius, vi, 58.
38. Plutarch, *Questiones Romanæ* 59.
39. Livy, iii, 38.
40. Meine, H., *Memoirs*, 1, 12.
41. Thompson, Sir E., *Greek and Latin Palaeography*, 5.
42. Schlegel, A. W., *Lectures on Dramatic Art and Literature*, 202.
43. Livy, viii 2 ; Bieber, N., *History of the Greek and Roman Theater* 307.
44. In Duff., J. *Literary History of Rome* 130.
45. Castiglione, 196.
46. Lanciani, R., *Ancient Rome*, 53.
47. Glover, T. R., *Conflict of Religions in the early Roman Empire*, 13 : Friedländer, L., *Roman Life, and Manners under the early Empire* III, 141.
48. Twelve Tables, x, 9.
49. Pliny xxx, 6.
50. Frank, *Economic Survey*, I, 12 : CAH, VII., 417 ; for the contrary cf. Mommsen, *History*, I, 192, 238
51. Pliny, xviii, 3.
52. Virgil, *Georgics*, i 299.
53. Oehl, E., and Koser, W., *Life of the Greeks and Romans*, 503.
54. Cato, *de agricultura*, viii ; Varro *Rerum rusticarum libri tres*, præf.
55. Cicero, *Letters*, vii, 1.
56. Pliny, xxxiii, 13.
57. CAH, VIII, 345.
58. Mommsen, *History*, III, 75.
59. CAH, X, 395 ; Frank, *Economic History of Rome*, 340, For other Comparative prices cf. *ibid.*, 66.
60. Twelve Tables viii, 18 ; Tacitus, *Annals*, vi, 16.
61. Livy, viii, 19-21, 42.
62. Paul-Louis, 118.
63. Frank, a *Economic History*, 119 ; for contrary view cf. Ward, C. O., *The Ancient Lowly*, 208-9.
64. Livy, viii, 12 ; Dionysius of Halicarnassus, ix, 43.
65. Mommsen, *History*, I, 748—9 ; Paul-Louis, 47.
66. 77% between 200 and 180 B.C. Frank, *Economic Survey*, I, 146.
67. Ibid, 41 ; CAH, VIII, 344 : Paul-Louis, 102 ; Mommsen *History*, II, 55.
68. Pliny, xxxvi, 24.
69. *Enc. History*, XIX, 466.
70. Richard, T., *Man and Metals*, I, 280.
71. Twelve Tables, x, 4.
72. E. g. in Flautus, *Captives* 998.
73. Lucian, *Dialogues of the dead*, xxv.

CHAPTER V

1. Livy, iv, 302.
2. Plutarch, *Flaminius*
3. Livy, xlii, 22.
4. Appian vi, 9-10 : Mommsen, *History*, III, 220.
5. Livy, xxxix, 7 ; Mommsen, 201
6. Polybius, vi, 17.
7. Davis, W. S., *Influence of Wealth*

- in Imperial Rome*, 74, 77; Mommsen, III, 88.
8. Polybius, xxxi, 25; Mommsen, III, 127; Sellar, W. V., *Roman Poets of the Republic*, 234.
9. Mommsen, III, 40.
10. Polybius, xxxi, 25.
11. Guhl, 490.
12. Plutarch, "Cato the Elder."
13. Livy, xxxiv, 1.
14. Brittain, 96.
15. Polybius, xxx, 14.
16. Mommsen III, 21; 127.
17. Ibid., 44, 294, 301-2.
18. CAH. VIII, 359.
19. Plutarch, "Marcellus."
20. Anderson, 137.
21. Cicero, *De divinatione*, ii; 24:52.
22. Polybius, vi, 56.
23. Livy, xxxix, 8.
24. Cicero, *De re publica*, ii 19.
- 24a. Horace, *Epistles* ii, 1.156.
25. Cicero, *De senectute*, vii, 26.
26. Cf. Bk. II of the *Republic*.
27. Appian, vi, 9.53.
28. Ennius, *Telamo*, frag. InDuff, 141.
29. Cicero, *De div*, ii. 50.
30. Ennius, frag. in Gellius, xii, 4.
31. Ennius in Cicero, *Disp. Tusc.*, ii, 1.1.
32. Collins; W. L., *Plautus and Terence*, 33-4; Matthews. B., *Development of the Drama*, 98.
33. Cicero, *De re publica*, iv. 10.
34. Collins 45.
35. Plautus, *Amphitryon*, iii, 2, 4.
36. Batiffol, L., *Century of the Renaissance*, 164.
37. Suetonius, *On Poets*, "Terence" II.
38. Terence *Heauton Timorumenos*. prologue.
39. Terence, *Adelphi*, prologue.
40. Suetonius, l.c.
41. Plutarch, *Moralia*, 198 E, 199 C.
42. Pliny, vii, 28.
43. Livy, xxxix, 42; Plutarch, "Cato the Elder."
44. Fowler. *Social Life*, 191.
45. Pliny, viii, 11.
46. Plutarch. l. c.
47. Ibid., Pliny, xxix, 7.
48. Appian, viii, 14.
49. Strabo, xvii, 3.15.

CHAPTER VI

1. Mommsen, *History*, III, 306.
2. Livy xli, 28; x. iv, 34.
3. Ibid., xxxiy, 29.
4. Heitland, W., *Agricola*, 161; Ward, I, 121.
5. Dio Cassius, xxxiv, frag. ii, 23; Livy. Epitome of Book xc.
6. Plutarch. "Tiberius Gracchus".
7. Ibid.
8. Appian, *Civil Wars* i.
9. Pliny, xxxiii, 14.
10. Appian, *Civil Wars*, i, 3.
11. Julius Philippus in Cicero, *De off.* ii, 21.
12. Appian, *Civil Wars* i, 4.
13. Plutarch, "Marius."
14. Sallust, *Jugurthine War.* xiii; xx-xxviii.
15. Plutarch, l. c.
16. Ibid.
17. Plutarch, "Sylla"
18. Sallust, xcv.
19. Ibid, xcvi,
20. Mommsen, IV, 142.
21. Appian. *Civil Wars*, i, 8.
22. Plutarch, l.c.
23. Ibid.
24. Ibid.

CHAPTER VII

1. Plutarch, "Caesar".
2. Davis, 13-14.
3. Cicero, *Ad Atticum*, iv, 15.
4. Plutarch, "Pompey."
5. Cicero, *Ad Quintum*, iii, 5.
6. Cicero, *Letters*, iii, 29.
7. Cicero, *Ad Quintum*, iii 2.
8. Mommsen, V, 849.
9. Plutarch, "Cicero."
10. Cicero, *I In Verrem*, 18.
11. Frank, *Economic History*, 295.
12. Mommsen, IV, 173.
13. Frank, 289.
14. Cicero, *De off.*, I, 8.
15. Plutarch, I. c.
of History, 238.
16. Nepos, "Atticus."
17. Plutarch, "Lucullus."
18. Frank *Economic Survey*, I, 254.
19. Macrobius, *Saturnalia*, iii, 13.
20. Varrö, iii, 16 ; Cicero, *Letters*, ix, 18 ; Mommsen, V, 387.
22. Cicero, *Letters*, vii. 26.
23. Pliny, xxxvi, 24.
24. L. c.
25. *Historiae Augustae*, "Alex. Severus," 33 ; Livy, xxxix, 8f ; Mommsen, V, 384 ; Ward, I, 406
26. In Boissier, G., *Cicero and His Friends*, 164.
27. Cicero, *Pro Caelio*.
28. Plutarch, "Cato the Younger."
29. Cicero, *Ad Atticum*, ii, I ; Plutarch I. c., and "Phocien."
30. Appian, *Roman History*, vi, 16.
31. Plutarch, "Crassus."
32. Ibid.
33. Plutarch, "Sertorius."
34. Plutarch, "Pompey."
35. Cicero, *De lege Manilla*, vii 181-9

36. Cicero, *Pro Caelio*, 16.
37. Cicero, *Pro Sexto Roscio*.
38. Sallust, *The War of Catiline*, xv.
39. Ibid., Plutarch, "Cicero."
40. Haskell, H., *The New Deal in Old Rome*, 125. ~
41. Sallust, *Catiline* xx, 7-13.
42. Cicero *III In Catilinam*, vii.
43. Haskell, 167.
44. Sallust, xxxiii, I.
45. Cicero, op. cii., viii.
46. Ibid., i,
47. Cicero, *In Pisonem*, vii-vii.

CHAPTER VIII

1. Lucretius, *De rerum natura*, iii, 1053f ; tr. W. D. Rouse.
2. Ibid., iv, 1045-71.
3. Mommsen, IV, 207.
4. Fowler, *Religious Experience of The Roman People* 301.
5. Lucretius, I, 1-40.
6. Ibid., I, 101.
7. V. 1202.
8. I, 73.
9. II, 646.
10. II, 1090.
11. VI. 35.
12. I. 330.
13. II, 312.
14. Iv, 834.
15. V, 419.
16. V, 837.
17. II. 8.
18. V, 1116.
19. II, 29.
20. IV, 1052.
21. V, 625f.
22. II. 79.
23. II, 1148.
24. II, 676.
25. Shotwell, *Introduction*, 221.

- 25a. Appian, ii, 2.
26. Lucretius, v, 564.
27. VI, 1093.
28. In Eusebius, *Chronicles in Hadzsits, O., Lucretius and His Influence*, 6.
29. Sellar, *Poets of the Republic* 277.
30. Voltaire, *Letters de Memmius à Ciceron*, in Hadzsits, 327.
31. Apuleius, *Apology*, in Sellar, 411.
32. Catullus, *Poems*, li.
33. Id., ii.
34. V.
35. XI.
36. LXXXV.
37. LXX.
38. CI.
39. XXXI.
40. XXX VIII.
41. XCVIII.
42. Varro, pref.
43. Ibid., li, 10.
44. St. Augustine, *City of God*, iv 27.
45. Ibid., vii, 5.
46. Sallust, *Jug. War*, lxxxv.
- 46a. Gellius, xvii, 18.1.
- 46b. Pliny, xiv, 17.
47. In Weise, O., *Language and Character of the Roman People*, 86.
48. Nepos, "Atticus," vii.
49. Cf. the letter to Trebatius, in Cicero, vii, 10.
50. Cf. the letter to Lentulus in Cicero, i, 7 with the speech *Pro Balbo*, 27.
51. *Ad Atticum*, vii, 1.
52. *Letters*, xv, 4, to Cato.
53. Boissier, *Cicero*, 84; Frank, *Economic Survey*, i, 395.
54. *Ad Atticum*, i, 18.
55. Ibid., i, 7.
56. *Pro Archia*, vii.

57. *De div.*, i, 2.1; 2.4.5.
58. *De off.*, ii, 17.
59. *De natura deorum*, i, 2, 8.
60. *De div.*, ii, 12.28.
61. *Academica*, ii, 41.
62. *De natura deorum*, i, 5.
63. *De div.*, ii, 47.97.
- 63a. *De natura deorum*, iii, 16.
64. Ibid., ii, 37.
65. Ibid., i, 1; *De legibus* ii, 77 *De off.*, ii, 72. 148.
66. *De leibus*, i, 7.
67. *De re publica*, i, 2.
68. Ibid., i, 44.
69. II, 22.
70. *De legibus*, 15.
71. *De amicitia*, xii, 40.
72. *De senectute*, xi, 38.
73. *Disp. Tusc.*, i.
74. *De legibus*, i, 2.

CHAPTER IX

1. Suetonius, *Supplement*, i, 3.
2. Suetonius, "Julius," 49.
3. Ibid., 4; Plutarch, "Caesar."
4. Suetonius, "Julius," 62.
5. Plutarch, "Cato the Younger."
6. Quintilian, *Institutes*, v, 1.114.
7. Sallust, *Cataline*, ii.
8. Appian, *Civil Wars*, ii, 2.
9. Ferrero, O., *Greatness and Decline of Rome*, i, 261.
10. Boissier, *Tacitus*, 216f.
12. Mommsen, V, 132.
13. Caesar, *Galli War*, i, 44.
14. Mommsen, V, 34.
15. Ibid., 38.
16. Cicero, l.c., 81.
17. Mommsen, V, 100.
18. Plutarch, "Pompey," "Crassus," "Cato the Younger."
19. Homo. L., *Roman Political Institutions* 184; Mommsen, V, 165.
20. Ibid., 385.

21. Appian, *Civil Wars*, ii, 3.
22. Cicero, *Pro Sextio* 85; Mommsen V, 108f, 370; Ferrero, I, 313; Boissier, *Cicero*, 213; Fowler, *Social Life*, 58.
23. Dio Cassius, xi, 57.
24. Plato, *Republic*, 562i.
25. Suetonius, "Julius," 77.
26. Appian, *Civil Wars*, ii, 5; Ferrero, II, 187.
27. Suetonius, "Julius," 32; Appian, i.e.
28. Syme, 89.
29. Cicero *ad Atticum*, viii, 16.
30. Ferrero, II, 212.
31. Cicero, *Letters*, xvi, 12, to Tiro 49 B.C.
32. Cf., e.g., *De bello civili*, I, 43-52.
33. Ibid., i, 53; Appian, iii, 15.
34. Caesar, *Bello civili*, fil, 1.
35. Plutarch, "Caesar"; Appian, ii, 8.
36. Caesar, iii, 10.
37. Ibid., iii, 53.
38. Cicero, *Letters*; vii, 3, to Marcus Marius, 46 B.C.; *ad Atticum*, xi, 6.
39. Appian, ii, 10.
40. Plutarch, "Pompey."
41. Plutarch, "Marcus Brutus,"
42. Caesar, iii, 88.
43. Plutarch, "Pompey."
44. Appian, ii, 13.
45. Mahaffy, J., *Silver Age of the Greek World*, 199.
46. CAH, X, 97; Buchan, *Augustus*, 117.
47. Suetonius, "Julius," 52.
48. Ibid.,
49. Plutarch, "Caesar."
50. Dio Cassius, xlii, 46.
51. Appian, ii, 13.
52. Suetonius, "Julius," 80.
53. Pliny, xxvii, 2.
54. Frank, *Economic History*, 851.
55. Plutarch, "Caesar."

56. Cicero *Pro Marcello*, 6-10.
57. Cf. *ad Familiares*, viii, 14, 22-5; ix, 11.
58. In Cicero, *ad Atticum*, xiv, 1.
59. Dio Cassius, ii, 44.
60. Plutarch, "Brutus."
61. Appian, ii, 16.
62. Plutarch, i.e.
63. From a doubtful letter of Brutus in Boissier, *Cicero and His Friends*, 331.
64. Cicero, *ad Atticum*, v, 21; 1-9
65. Appian, ii, 16.
66. Suetonius, "Julius," 79.
67. Ibid. 81-87; Plutarch, "Caesar"; Appian, ii, 16-21.
68. Suetonius, 82.
69. Appian, i.e.

CHAPTER X

1. Ferrero, II, 226.
2. Boissier, *Cicero*, 192.
3. Appian, *Civil Wars*, ii, 2; Dio, xiv, 2.
4. Appian, iv, 11.
5. Ibid., 2-6; Plutarch, "Antony."
6. Brutus to Cicero, *ad Familiares*,
7. Plutarch, "Cicero."
8. Appian, iv, 4; Plutarch, "Antony."
9. Philo, *Quod omnis probus*, 118-20; Appian, iv, 8-10.
10. Plutarch, "Antony;" Appian, v, 1.
11. Ibid.; Athenaeus, iv, 29.
12. CAH, X, 79.
13. Suetonius, 17. Rostovtzeff, *Social and Economic History of the Roman Empire*, 29, thinks the will a forgery; CAH, X, 97, accepts it as genuine.
14. Dio, li 35.
15. Ibid., 6.
16. Ibid.
17. Ibid.
18. Ibid., Suetonius, 17.

فهرس الاعلام والاماكن

٧٩ ، ٨١ ، ١٠٦ ، ١٣٢ ، ١٥١ ،
 ١٥٣ ، ٢٣٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٦ ،
 أنكس : ٣٢٤ ، ٣٣٢ ، ٣٤٥ ، ٣٨٥ ،
 أنلس : ١٩٦ ،
 أنلس الثالث : ٢٤٠ ،
 أنيس : ١٩٧ ،
 أتیکا : ٨ ، ٣٢ ، ١٤٩ ،
 أثنيون : ٢٥٢ ،
 أثينة : ٢١ ، ٢٩ ، ١٨٢ ، ٢٠٠ ،
 ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٧٢ ، ٢٩٣ ،
 ٣٠٢ ، ٤١١ ، ٤١٦ ،
 أتيكيا : ٨٩ ،
 أتيكيا : ٢٣٥ ،
 أجيريا : ١٣١ ،
 أخلاس : ٣٨٢ ،
 أخيل ، البطل الأسطوري : ٨١ ،
 أدريا : ٢٥ ،
 أريينوم : ٢٤٨ ، ٢٩٢ ، ٣٣١ ،
 إرتيمس : ١٣٠ ،
 إرتيوم : ١٢ ،
 أرجيمس ، الفنان : ٢١ ،
 أرجوس : ٢٨٩ ،
 أريديا : ٧٧ ، ٢٣ ،
 أرزو : ١٢ ، ٢٢ ،
 أرسطوطاليس ، أرسطو :
 ٥٥ ، ٩١ ، ٢٥٧ ،
 أرسطوفان : ١٥٤ ، ٢٠٧ ،
 أرسجانوس : ١٥٧ ،
 أرغال : ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٥٢ ،
 أركلوكس الشاعر البيروثاني النشائي : ٧١٤ ،

(١)

أثتريا : ٨ ،
 أيدوين : ١٣٠ ، ٢٥٩ ،
 الأبرة ، نهر : ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
 ١١١ ،
 آپس ، الإلهة : ١٢٩ ،
 آپس ، هيكلها : ٤٠٥ ،
 أبسوس : ٣٢٧ ،
 أبسكودس : ٣٣٦ ،
 أبلاو ، الإله : ١٧ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ١٣٠ ،
 ١٣٢ ،
 أبلودورس : ٣٨٢ ،
 إينين ، جبال : ٧٠ ، ٢٥ ، ١٠٦ ، ٢٥٣ ،
 ٢٨٩ ،
 أبولونيا ، بالقرب من فالوفا : ٤٠٧ ،
 أبولونديوس : ٢٩٣ ،
 أبوليا : ١٠٧ ، ١١٣ ، ٢٨٩ ،
 أبوليوس : ٣١٧ ،
 أبوليوم : ٣٩١ ،
 إپيان : ٢٤٦ ، ٣٨٥ ، ٣٩٨ ، ٤٠١ ،
 إپيروس : ٨١ ، ٢٢٤ ، ٢٧٢ ، ٢٨٩ ،
 ٣٧٦ ،
 إپيقور : ٣١٣ ،
 إپيقوس : ٣٨٩ ،
 إپيوس كلوديوس : ٥٠ ، ٥١ ، ٨١ ،
 ١٦٢ ، ١٧١ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،
 إپيوس كلوديوس كيكس : ٦٣ ، ٦٨ ،
 إپيونا : ١٢٣ ،
 إپروريا : ١١ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ،
 ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٨٨ ،

الإسكندرية : ٢٣ ، ٣١٧ ، ٣٢٢ ،
 ٣٢٤ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ،
 ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٨ ، ٤١٤ ،
 ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ،
 آسقيوس يليو : ٣٢٤
 آسية : ٨٦ ، ١٩١ ، ٢٣٤ ، ٢٤٦ ،
 ٢٦٠ ، ٣٤٢ ، ٤٢٠
 آسية الصغرى : ١١ ، ١٢ ، ١٩ ،
 ٣٨٤ ، ٣٨٢
 أشيلية : ٣٩٠
 إشمون ، الإله : ٨٨ ، ٨٩
 أغسطس : انظر كيوس اكتافوس
 واكتافيان
 افرانيوس ؟ : ٢٦٦ ، ٣٧٨
 إفجيفيا : ١٤٩
 أفرديتي - فينوس : ٢٧
 أفريقية : ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٠ ،
 ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ٢٢١ ،
 ٢٢٣ ، ٢٤٨ ، ٢٣٤ ، ٢٨٥ ،
 ٣٧٤ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ،
 ٤١٣
 أفريكوم (يورج) : ٣٦١
 الإفزيون : ٤١٣
 افسوس : ٤١٣
 إفلاطون : ١٤٩ ، ٢٨٢ ، ٣٣٤ ،
 ٣٣٦ ، ٣٦٩ ، ٣٨٦ ، ٤٢١
 أفلو طرخس ، بلوتارك : ٨٨ ، ٨٩ ،
 ١٥٠ ، ١٧٩ ، ٢٣٧ ، ٢٥٠ ،
 ٢٦٤ ، ٢٩٢ ، ٢٧٩ ، ٣٩٨
 أفنتين ، تل : ١٧٢
 أفراطيس الملوحي : ٢٠٠
 أكلازنتيا : ٢٧
 اكنافيا : ٣٦٦ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨
 اكثافيان : انظر اكتافوس
 اكتافوس ، كيوس : ٣١٤ ، ٣٢٤ ،
 ٣٣٥ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ،

٦٧٦ ، ق. م. ١٥٨ ؟
 أرخيدس أو أرخيدس : ١٤٩ ، ١٦١
 أركومفسس : ٢٦٠
 لأركون باسليوس : ٢٩٠
 أركيامس : ٢٩٢
 أرمينوم : ١٦٣
 أرميفيه : ٣٦٥ ، ٤٠٧
 » الصفري : ٣٨٤
 أورسيو : ٢٤٧ ، ٢٤٩
 أريسيا : ١٢٨ ، ٢٤٧
 أرمينوم : ٣٧٣
 أريوفستس : ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨
 إرسپارتكوس : ٢٨٣ - ٢٨٦
 اسبارطة : ١٨٢
 إسبازيا : ٣٨١
 إسباتيا : ٧٨ ، ٨٦ ، ٩٣ ، ١٠٠ ،
 ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٣ ،
 ١١٤ ، ١١٥ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ،
 ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٦٨ ، ٣٤٩ ،
 ٣٤٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٥ ، ٣٧٤ ،
 ٣٧٥ ، ٣٨٧ ، ٣٩١
 اسيتديوس : ٩٨ ، ٩٩
 اسبورنا : ٤٠٠
 اسبيوريوس كاسيوس : ٥٠
 » ميلوس : ٥٠
 استركيولان : ١٢٣
 استوري : ٣٣١
 أستيا : ١٦٤ ، ٣٩٣
 أرسثيم : ٣٥٨
 اسكتلده : ٧٨
 اسكريمونا : ٤١٦
 اسكريمونيوس كوريو : ٢٧٦
 اسكلابيوس : ١٣٠
 اسكلولايوس : ١٥٦
 الإسكندر الأكبر : ٦١ ، ٨١ ، ٨٥ ،
 ٣٤٦ ، ٣٩٤ ، ٤٢١

إليوم : ٢٨٨
 أبراشيا : ١٩٧
 الأميرافاليا : ١٣٦
 أمير : ٢٠٨ ، ٨١
 الأميريون : ٧٦ ، ١٠
 أمورياس : ١٠١
 أمريكا : ٢٧٣
 أمستريس : ٣٢٠
 أمليوس : ٢٧
 الأميل ، مشائر : ٤٦
 إميلييا : ٢٧٨
 أنا ، مدينة : ٢٣٦ ، ٢٣٥
 أنابارنا : ١٣٦
 الأناضول : ١٤
 أنبادقليس ، الفيلسوف اليوناني (٥٠٠ -
 ٤٣٠ ق . م) : ٢٠٣ ، ٢٠٥ ،
 ٣١٣
 أنتيبيس : ١٦٢
 أنتيوخوس الثالث : ١١٦ ، ١٧٩ ، ١٨٥
 أنتيوخوس الرابع : ٢٢٤
 انطاكية : ١١٦ ، ٤١٧
 أنطونيوس ، ماركس القائد الروماني (٨٣ -
 ٣٠ ق . م) : ٣١٦ ، ٣٩٧ ، ٤٠٠ ،
 ٤٠١ ، ٤٢١
 أنطونيوس ، ماركس القائد الروماني ووالد
 أنطونيوس الشهير (القرن الأول ق . م)
 أنكريون : ٣٢٢
 أنكس : ٣٠ ، ٣١
 أنيو ، نهر : ٤٩
 أنيوس ، كونتس ، الشاعر والكاتب
 المسرحي (٢٣٩ - ١٦٩ ق . م)
 (١٤١ ، ٢٣٥ - ٢٣٦ ، ٣٠٣)
 ٣٢٥ ، ٣١٧ ، ٣٠٤
 أنيوس سيلو ، تيتس أنيوس ميلويابثيانوس ،
 السياسي (؟ - ٤٨ ق . م) : ٣٥٤
 ٣٦٧ ، ٣٨٧ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦

٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٤١٢ ،
 ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ،
 ٤٢٠ ، ٤٢١
 أكتافيوس ، ماركس التريبون (القرن
 الثاني ق : م) : ٢٣٩
 أكتافيوس ، نيوس ، القنصل (؟ - ٨٧
 ق م) : ٢٥٧ ؟
 أكتيوم : ٢٤٣ ، ٢٨٩ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ،
 ٤٢١
 أكسانتن : ٣٦٠
 أكسانثوس : ٤١١
 أكنوموس : ٩٥
 أكواسكتيا ، معركة : ٢٥٠
 أكيوس : ٢٠٥
 ألايا : ١٦
 ألاب ، جبال : ٧ ، ١٠ ، ١٣ ، ٢٥ ،
 ٧٨ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
 ١٠٥ ، ١١٢ ، ١٨٣ ، ٣٥٩
 ألبا ، جزيرة : ١٣
 ألبانجا : ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٠
 ألبان ، جبل : ٢٦ ، ١٦٢ ، ١٧٢
 ألتورييس : ٣٣
 ألفيري : ٧
 ألقبيادس ، السياسي والقائد الأثيني : (٤٥٠ -
 ٤٠٤ ق . م) : ٣٠٢
 ألكينا : ١٩٥ ، ٢٠٩
 ألمانان : ٣٥٧
 ألمانان ، قبائل : ٣٥٧
 ألمانيا : ٧٨ ، ٧٨ ، ٢٣٤ ، ٢٤٧ ، ٣٦٠ ،
 ٣٩٤
 الأمبياني : ٣٥٩
 ألبيا ، نهر : ٧٩
 ألبيريا : ١٠١
 ألبيريا : ٣٦١
 ألبيسا : ٨٥

پرس : ١٩٢
 پرسپینا : ١٧٧
 پرسپوس [بن فلیب الخامس : ١٨٠
 ٢٠١ ، ١٨٥
 پرسپزیوم : ١٦٢ ، ٢٠٤ ، ٢٦٠
 ٣٤٩ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٤١٥ ، ٤٠٧
 پرسپسی (یستریا) : ٢٥
 پرسپزیوس : ٣١٧
 پرسپس ، دسپس یونیوس القائد (؟) - ٤٣
 ق . م (٣٦١ ، ٤٠٠ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧
 ٤٠٧
 « لوسپوس یونیوس انقنصل
 (القرن السادس ق . م) : ٣٤
 ٣٦ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩
 « مارکس یونیوس السیامی (٨٥
 - ٤٢ ق . م) ٣٢٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨٥
 ٣٩٩ ، ٣٩٨ ، ٣٩٠ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤١١
 پرسپزیوم : ١١٣
 پرسپزا : ١٢ ، ٤١٥
 پرسپانس : ٢٥٠
 پرسپایس : ١٢٥
 پرسپام : ٢٧
 البریتور ، موظف رومانی : ٥٣ ، ٦٢ ، ٦٩
 بریطانیا : ٨٦ ، ٣٦٠
 پستوم : ٧٦
 پستویا : ٢٩٩
 پستینس : ١٦٩
 پستیزوم : ٣٧٢
 البطالمة : ٤٢١
 بطلمیوس السادس : ٣٨١
 بطلمیوس الحادی عشر : ٣٨١
 بطلمیوس الثاني عشر : ٣٨٠ ، ٣٨١
 ٣٨٢

بیلیا : ٣٣٢
 بلیوس : ٣٩٨
 « ترنتیوس : ٢١٠
 « دیسیوس : ١٣٣
 « فالیریوس او بلیکولا : ٣٥
 « کرنیلیوس سیو : ١٩١
 « کلودیوس : ٢٨٠ ، ٣٥٠ ، ٣٣٢ و ٣٥١
 پیپولوس : ٣٥٠ ، ٣٤٩
 پیپولونیا : ١٣
 پیرونیوس : ١٢٥
 پتری : ٢٦٠
 پیولی : ٣٣١
 پیور : ٣١٥
 البحر الأبيض المتوسط : ٧ ، ١٣ ، ٣٩ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٣ ، ٧٤ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١١٤ ، ١٥٩ ، ١٧٩ ، ١٦٤ ، ١٧٠ ، ٢٣٤ ، ٢٨٩ ، ٣٤٨ ، ٣٦٢ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤
 البحر الأدریادی : ٨٠ ، ٨١ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٤١١ ، ٤١٩
 بحر الأرخبیل : ٣٢٠
 البحر الأسود : ٢٣٤ ، ٣٢٠ ، ٣٩٤
 بحر ایجه : ٢٨٩
 البحر الأنوفی : ٤١٩
 البحر الترمیقی (الإتروری أي التسیکانی) : ١٣
 «لوا ، مدینة ٢٥ ، ١٦٣
 بدنا : ١٨٠ ، ٢٠٢
 البرانس ، جبال : ١٠٤
 برانسق : ٢٥٣
 برانست : ٢٦١
 برینا : ٢٨٣
 برجوم : ١٨٠ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٤٠
 برنخ کورنقة : ٣٩٣

٣٨٤ ، ٣٤٨
 يفتين ، مشاقع : ٣٩٣
 يفتيوس : ٣٦٥
 ينسا : ٤٠٨
 يفتيوس : ٣٧٣
 يفتنتم : ١٦٢ ، ٨٢ ، ٨٠
 يثورمس (يلمو) :
 البو ، نهر : ٨ ، ١٠ ، ٧٨ ، ٨١ ،
 ٢٢٠ ، ٢٠٥ ، ١٠٥
 البوق ، قبائل : ١٠٥
 بوتيكيا : ٨٤
 البوتيون : ٨١
 يوثيقيس : ٣٨٢ ، ٣٨٠
 يوثيقيس : ٣٨٢ ، ٣٨٠
 يورشيا : ٣٩٨ ، ٣٩٩
 يوسيدن : ١٣٠ ، ٢٩٣
 يوسيدوينوس : ٣٣٤
 يوليوس ، المؤرخ الهوناني (٢٠٤ -
 ١٢٢ ؟ ق . م) : ٧ ، ٥٥ ، ٧٤ ،
 ٧٨ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٥ ، ٩٩ ،
 ١١٩ ، ١٤٧ ، ١٨١ ، ١٨٨ ،
 ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ،
 ٢٢٤ ، ٣٢٥
 پولونيا : ١٠ ، ٢٥
 پوليكليتيس : ٢٠١
 يورماشيه (ده ، يبير أوجست كارون ،
 للكاتب المسرحي الفرنسي (١٧٣٢
 - ١٧٩٠) : ٢١٣
 يومونا : ١٢٣
 يونونيا : ١٦٣
 ييشونيا : ١١٦
 ييشيفيا : ٢٩٠ ، ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٤٢ ،
 ٣٤٨
 ييرس : ٦١ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٤٨ ، ٢٠٥ ،
 ٢١٧
 ييزا : ١٦٢
 ييزو : ٣٣٠ ، ٣٥١

بطليموس الثالث عشر : ٢٨٣
 يعل : ٧٩
 يعل - هامان : ٨٩ ، ١٠٠
 بكوفيس : ٢٠٥
 البلاطين ، تل : ٩ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ١٣٥ ،
 ٣٣١ ، ٣٥٤
 پلائتيا : ١٠٢ ، ١٦٣
 يليس : ٣٨٩
 البلجي ، قبائل : ٣٥٨
 يلجيكيا : ٧٨
 يلروفون : ٢٢
 يلكس : ٧٧ ، ١٣٠
 يلى الأكبر : ٦ ، ٢٣ ، ١٢٦
 يلويس : ١٥ ، ١٤٥ ، ١٨٨ ، ١٩٤ ،
 ١٩٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٠
 يلوو أو يلوونون : ١٣٠ ، ١٧٦
 يلويسوس : ٢٣٧
 يلويا ، الإلهة : ١٢٩
 البليار ، جزائر : ٨٦
 يليو : ٢٢٨
 يهى ، مدينة : ٢٣ ، ٧٦ ، ٣٣١
 يهى ، سكستن يبيوس ماجلس ، القائد
 (؟ - ٣٥ ق . م) : ٣٨٥ ، ٣٩٥ ،
 ٤١٥
 يهى ، نينوس يبيوس ماجلس القائد وعفسو
 الحكومة الثلاثية الأولى : ٢٦٨ ،
 ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ،
 - ٢٩٠ ، ٣٤٣ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ،
 ٣٥٠ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٩ ،
 ٣٦٥ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ،
 ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ،
 ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ،
 ٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٣٩٥ ، ٤٠١ ،
 ٤٠٥
 يهيا : ٣٤٣
 يناديا (الإلهة الصالحة) : ١٣٦
 ينقمس أو ينيت : ٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٧٣ ،

(ت)

ثانیث ، الإلهة : ٨٩
تسلونیکا (سلانیک) : ١٦٣
ثور یای : ٢٨٥ ، ٨١
تیسوس : ١١٦
تیومپس : ١٥

(ج)

جانیفوس اولس : ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٥١
٣٨١ ، ٣٥٥
جادیز : ٢٧٦ ، ٣٤٦
جارها ، بحیرة : ٩ ، ٣١٦ ، ٢٢٠
جاسندی : ٣١٥
جانکیولد : ٢٨
جایوس لوسلیوس : ٢٠٢
جایوس لیلیوس : ٢٠٢
جایوس ماریوس : ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠
٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦
جبل طائقی ، مضیق : ٨٤ ، ٨٦
جراکس : الأخوان : ١٠١ ، ٣٦٣
٢٩٠ ، ٣٣٧ ، ٣٥٠ ، ٣٩٠
٣٩٤ ، ٣٩١
جر جفیا : ٣٦١
جسکو : ٩٩
جلاشیا : ١٨٠
جندلقو : ٢٦
جنوی : ١٦٣
جنیقا : ٣٥٧
جوبا الأول : ٣٨٦
جوهر اوجوف : ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٤٠
١٧٢ ، ١٧٤ ، ٢٩٥ ، ٢٠٩
٣٤١
جوهر ، هیکل : ١٩٢

جوهر توفانز : ١٢٧
جوهر فلوفیوس : ١٢٧
جوفنال : ١٤١ ، ١٥٣
جیرولاما قراکتورو : ٣١٥
جیروم : ٣١٤

(خ)

خلقدوتیه : ٢٧٦
خلقیس ، جزیره : ١٥١
الخلیج الامبراسی : ٤١٩

(ح)

حانق : ١٧
الدانوب : ٣٩٤
دریانا : ٩٨
درهشیوم : ٢٧٧ ، ٣٧٨
دروپسن : ٢٤٤
دسبس پروتس : انظر پروتس
الدمفراوی : ٥٠
دلایلا : ٣٨٤ ، ٣٨٨ ، ٤٠٦
دمتر : ١٣٠
دمرتس : ٣١
دمستین : ٢٠٠ ، ٣٢٩
دمقریطس : ٣١٣
دمشق : ١٦٣
دمتیوس : ٣٥٦ ، ٣٥٩ ، ٣٧٥
دیانا : ١٢٨٠ ، ١٣٠٠ ، ١٧٢
دیدو : ٥ ، ٨٩
دیدیوس : ٢٨٣
دیلس : ١٨١ ، ٢٢٤
دیودورو : ٩٠
دیوکادیوس : ٣٠ ، ٥٢ ، ٤١٩ ، ٢٩٩
دیونیسس : ٤١٣
دیونیسوس : ١٣٠

ديوليسوس باخوس : ١٩٧

(د)

داليا ، مدينة : ١٦٣ ، ٢٥

دالينا : ١٦

دجيلس ، بحيرة : ٧٧

دجيزلوس : ٩٤ ، ٩٦ ، ٣٧٤

دجيزوم : ٧٦ ، ٩٤

الزقيبة (سمنز) : ٥٣ ، ٥٩ ، ٦١

٦٢ ، ٦٣

دميني ، مدينة : ٢٥

دميولوس : ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٨ ، ٤٩

٤٦ ، ٢٨٢ ، ٢٩٩

الروبيكون : ١٠٤ ، ١٧٠ ، ٣٧٢

الروتيل :

رودس : ١٨٠ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٣

٣٤٣ ، ٢٨٢ ، ٤١١

الروسيا : ٢٣٤

روسيوس : ٣٢٧

روقوس : ٤١٠

الرومان : ١١ ، ١٤ ، ٢١ ، ٦٣ ، ٦٥

٦٨ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧

٧٨ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٩٠

٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥

٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٣

١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١١

١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٨

١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٣٩ ، ١٤٦

١٤٧ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤

١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٧٧ ، ١٧٨

١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٤

١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٩٣ ، ١٩٧

٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٩

٢٥٠ ، ٢٥٥ ، ٢٢٩ ، ٢٨٦

٢٨٩ ، ٣١٦ ، ٣٢١ ، ٣٣٢

٣٤٧ ، ٣٥٤ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢

٣٧٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٧ ، ٣٩٢

٣٩٨ ، ٤٠٩

رومة : ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٩ ، ٢٠

٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨

٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥

٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٩

٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥

٥٦ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٥

٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨

٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣

٩٣ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٦

١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٩

١١٠ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١١٥

١١٦ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٥

١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٧ ، ١٤١

١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧

١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤

١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦٤ ، ١٦٨

١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٦

١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢

١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٧

١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٦

١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤

٢٠٩ ، ٢١٤ ، ٢١٨ ، ٢٢٠

٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٣٤

٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠

٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥

٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥١

٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦

٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١

٢٦٢ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣

٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧

٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦

٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦

٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٢٦

الجليون : ١٠ ، ٤٩
 سيبو : ١٠٥
 » الأصفر : ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥
 » الأكبر ، الإندريو : ١٠٨
 ١٠٩ ، ١١٢ ، ١٧٤ ، ١٩٢
 ١٩٦ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١٨
 ٢٣٧
 » إميليانوس : ١٨٣ ، ١٩١ ، ٢٢٧
 ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢
 » متلس : ٢٩٥
 » ناسيكا : ١٣٨ ، ٢٤٠
 شيجس : ٢٩٧ ، ٢٩٨
 سجنتم : ١٠١ ، ١٠٣
 سرهانية : ٨٣ ، ٨٦ ، ٩٣ ، ٩٩
 ٢٣٤
 سرقليا : ٣٩٨ ، ٣٩٩
 سروفينوس ثلوس : ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥
 ٥٨
 سرفوسا : ٨٢ ، ٨٩ ، ١١١ ، ١٧٤
 ١٩٢
 سزمبو : ٢٢٠
 لفين ، جبال : ٢٦١
 سقراط : ٢١٨
 سكستس تاركون : ٢٥
 سكستس جبي : ٤١٥ ، ٤٠٦
 » يوليوس : ٢٤١ ، ٢٨٥ ، ٢٩٥
 سكستوس : ٥٢
 سكولها : ٢٩٤
 سلاميس : ٢٩٩
 ساهوس جوليا : ١٨٤ ، ٢٨٤
 » رولس : ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٢٧
 سلست : ٢٩ ، ٥٧ ، ٢٩٥ ، ٢٩٩
 ٣٨٧ ، ٣٠٠
 سلفانس : ١٢٤

٢٢٧ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦
 ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤
 ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨
 ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣
 ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨
 ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦
 ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧
 ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧
 ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥
 ٣٠٩ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧
 ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢١
 لرون ، نهر : ١٣ ، ١٠٤
 ريفاسليا : ٢٧
 ريت : ٢١٤
 ريموس : ٢٧
 لرين ، نهر : ١٣ ، ٢٤٧ ، ٢٥٧
 ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٩٤

(ز)

زاما : ١١٢ ، ١٩١ ، ١٩٢
 زحل أوساتون : ١٢٣ ، ١٣٠ ، ١٣٦
 ١٣٧
 زليكس : ٩٨
 زهلا : ٢٨٤
 زيفوفون : ٢٧٢
 زيرس : ١٢٧ (انظر أيضا جويتر)

(ص)

صافير : ٢١٧ ، ٢٢٢
 صانوره : ٢٤١
 صاتزون : انظر وحل
 صاترنالبا : ١٣٦
 الصاليون : ١٣١
 صاموس ، جزيرة : ٢٧٦ ، ٢٨٩

(ف)

شارميون : ٤٢١
 شل ، الشامر : ٢٠٣
 شميلون : ١١
 شيشرون : ٣٠ ، ٣٢ ، ١٤١ ، ١٥١
 ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢١٣ ، ٢٢٤
 ٢٤٢ ، ٢٤٨ ، ٢٦٦ ، ٢٩٧
 ٢٤٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤
 ٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٩٠
 ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨
 ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣١٥ ، ٣٢٢
 ٣٢٧ ، ٣٢٩ - ٣٤٠ ، ٣٤٢
 ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٣
 ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٣
 ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤
 ٣٧٨ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٩١
 ٣٩٢ ، ٣٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢
 ٤٠٨ ، ٤١٠

شيكيير : ٣٠٢
 شيزوي ، مدينة : ٢١

(ص)

صقل : ٩
 صقلية ، جزيرة : ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٦
 ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٨
 ١٠٢ ، ١١٥ ، ١٢٩ ، ٢٢١
 ٢٣٥ ، ٢٨٥
 صلا : ٦٦ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٤٨
 ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤
 ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧
 ٢٧٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٣٠١
 ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٧
 صور : مدينة : ٨٤ ، ٨٥
 صولون : ٥٠ ، ٦٨
 صيدا : ٨٤ ، ٨٥

سلفيوس : ٧٥٢ ، ٤٠٩
 سنا : ٣١٦
 سلمانصر : ٨٥
 سلوقس الرابع : ١٨٠
 سلق ، القنان : ٧٢
 سميرونيوس ، قانون : ٢٩٨
 السمبريون : ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥١
 سمتريس : ٧٨٩
 السميون : ٧٦ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٩٣
 ٧٦١
 سنا : ٣٤٢
 سنايوس ، (أورليان) : ٣٦١
 ستيوم : ٨١
 سندان ، نهر : ٤١٤
 سلساتس : ٦٦
 سسيوس : ٦٩ ، ٧٦
 س ، قانون : ٢٧٤ ، ٢٧٦
 سنكا : ١٩٩ ، ٢٠٣
 سواسون : ٧٦١
 سورها : ١٨٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٩٠
 ٣٤٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٥ ، ٣٨٢
 ٣٨٤ ، ٤٠٦ ، ٤١٣ ، ٤١٤
 ٤١٦
 سوسيجيوس : ٣٩٢
 سويسرا : ٣٥٨
 سويسيون : ٣٥٩
 سيبيل : ١٣١ ، ١٩٦ ، ٣٢٠
 سيرنيكا : ٨٦ ، انظر أيضا قورينة
 سبريز : ١٢٣ ، ١٣٠ ، ١٧٧
 السين ، نهر : ٣٥٩
 سينوسا : ٢٣٦
 سينوسفيل : ١٧٩
 سينياس : ٦٢ ، ٨١
 سيوتونيوس : ٣٤٢ ، ٣٨٣ ، ٤٠١

فيريس ، الإلهة : ١٥٦
فينولينا : ١٢٣
فتروفيس ، المهندس : ١٩
الفرات ، نهر : ٣٩٤
الفراليا : ١٣٥
فرانسوا ، مزهرية : ٢١
فرايبور : ١٢٨

فرجيل الشاعر : ١٧ ، ٦ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ،
١٥٥ ، ٣١٧ ، ٣٢١ ،
٣٢٢
فرجينيا : ٥١ ، ١٠٥
فرسالمس : ٣٧٨ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ،
٤٢١

فرسلا ، مدينة : ٢٥٠
فرسنجترس : ٣٦١ ، ٣٦٢
فرناسس : ٣٨٤
فرنأكس : ١٢٣
فرنشو : ٢٢٤
الفرنجة ، قبائل : ٣٥٧
فرونا ، مدينة : ٢٥ ، ١٦٣ ، ٢١٥ ،
٣١٦
فريانوس : ١٨٢
فريجيا : ١٩٦
فريس : ١٩٢
فتا : ٢٧ ، ٢٧٥

» ، هيكل : ٩ ، ١٢٩
فلاجوليا : ٢٣
فلامينوس : ٢٠١
فلانوفيا : ١٠ ، ٢٦
فلباي : ٤١١
فلترا : ٤٠٦
فلتير : ٢٠٧ ، ٢٧٢
فلسطين : ٣٤٨
للشي : ٢١ ، ٣٣

(ط)

طارطوس : ٨٤ ، ٨٦
طرسوش : ٤١١ ، ٤١٤
الطوفة : نهر : ٢٣٢ انظر أيضاً الدافوب

(ع)

العمادى القسيسة : ٢٧٥ ، ٤٠٤ ، ٤١٧
انظر أيضاً فتا
العرب وبلاد العرب : ٤١٤
عشتروت ، الإلهة : ٨٩
عطارد ، الإله : ١٢٩ ، ١٩٥ انظر
أيضاً هرمس

(غ)

غانج : ٧٨ ، ٧٩ ، ١٠٦ ، ٢٣٤ ،
٢٤٩ ، ٣٤٣ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ،
٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٩١
غالة الإيطالية : ٤٠٦
غالة الجنوبية : ٣٨٥ ، ٣٩٣ ، ٣٩٩
غالة الترونية : ٣٥٧ ، ٣٦١
الغاليون : ٢٦ ، ٩٢ ، ٧٦ ، ٨١ ،
٢٦٥ ، ٣٦١ ، ٣٦٥ ، ٣٨٩

(ف)

الفابي ، مشائر : ٤٦
فابريوس بكتور : ١٤٨ ، ١٥٣
الفاتيكان : ٢٨
فارو ، ماركس ترتيوس فارو : ١٠٨ ،
٣٢٥ ، ٣٢٤ ، ٣٢٣ ،
فاروس : ٤٢٠
فاليريوس فلاكوس : ٢١٤ ، ٢٥٩ ،
٢٦٠
كورفوس : ١٤٨

كجوا : ٢٥ ، ٨٠ ، ١١١ ، ١٦٢ ،
 ٢٤٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٣٩٤
 كتلين : ٢٦٢
 كرا را ، مدينة : ٢٢
 كراسن انظر ماركن ليسينوس كراسن
 كرسولوراس : ٢٠٠
 كرفينيوم : ١٦٣
 كرمونا : ١٠٢ ، ١٨٣
 كرنكنيوس : ٦٨
 كرنليا : ٢٣٧ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٢ ،
 ٣٤٣
 كرهية : ٣٦٥
 كريفتيو : ٢٥
 كرفيدس : ٢٠٠
 كرنيليوس أسرة : ١٩١
 » سبيو : ٢٠١
 الكرنيل ، عشائر : ٤٦
 كرينليوس سنا : ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٣٦٠
 كرنيليوس يفيوس : ٣٣١ ، ٣٢٦
 كروتولوس : ٢٠٠
 كروتس : ١٣٠
 كروتونا ، أو أقراطونا : ٧٦ ، ٨١
 كريت : ١١٦ ، ٤٠٦
 كريلاي : ٧٧
 كريلينس ، كيوس ماريوس : ٧٧
 كلاتنس : ٣٤
 كليبرنيا : ٣٥١ ، ٣٨٥ ، ٤٠٣
 كليبرنيوس ييزو : ٣٥٥
 الكلكت : ٧٨ ، ٧٩ ، ١٠٤ ، ٣٤٧ ،
 ٢٤٨
 الكلكتريان : ١٨٤
 كلقس : ٣٠٠ ، ٣٢٧ ، ٣٥٥
 كلمكس : ٣١٧ ، ٣٢٢
 كلوديا : ٢٧٩ ، ٢٠٨ ، ٣٠٧ ، ٥٢

٣١٦ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣٧ ،
 ٣٣٨ ، ٣٤١ - ٤١٢
 قيصريون بن يوليوس قيصر : ٣٨٣ ،
 ٣٨٥ ، ٣٩٧ ، ٤١٧ ، ٤٢١

(ك)

كاتنس ، كوتس فالير بوس كاتنس : ٢٨٠ ،
 ٣٠٠ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢١ ،
 ٣٢٢ ، ٣٥٥
 كاتلين : لوسيو سرجيوس كاتلين ٢٩٢ ،
 ٢٩٥ - ٢٩٩ ، ٣٤٤ ، ٣٨٥
 كاتو الأصغر : ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ،
 ٢٨١ - ٢٨٢ ، ٢٩٨ ، ٣٤٣ ،
 ٣٤٤ ، ٣٥٣ ، ٣٧١ ، ٣٨٠ ،
 ٣٨٦ ، ٣٩٨ ، ٤٩٢
 كاتو الرقيب : ٨ ، ١١٧ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،
 ١٩٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢١٧ ،
 ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٨١ ، ٣٢٥
 كارثيا : ٢٤١
 كارداس : ٦٨
 كارهى : ٢٧٤
 كاسترا : ٧٧ ، ١٣٠
 كاسيليوس استانيوس : ٢١٠ ، ٢١١
 كاسيوس ، كيوس : ٣٨٠ ، ٣٩٥ ،
 ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ،
 ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤١١ ، ٤١٢ ،
 ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤٩٦
 كاليوس : ٢٨٠
 كاملس : ٧٨
 كاتف : ٧٤ ، ٩٧ ، ١٤٨
 كاتيري : ١٦ ، ١٨
 كتيبيوس : ٣٨٣ ، ٣٨٤
 لككتول : ٧٩ ، ٣٩٧ ، ٤٠٢ ، ٤١٧
 لككتولين : ١٧٢
 كبدوكيا : ٢٩٠٠

کونتييس متوسوس اسکيفولا : ٢٩٢
٣٢٥

• هورتسيوس : ٣٢٧
• يوليوس قيصر ، انظر قيصر

کوفتليوس فاروس : ٤١٣

کونکتيليس ، فلامينيوس : ١٧٩

کوپرنيوس : ٢٩

کيتس ، الشاعر الانجليزى : ٢٠٢ ، ٢٠٩

کيري : ٣٥٣

الکيوريون ، أو الکويريون : ٢٩

کيوريس دنروس : ١٤٨

کيوس : ٣٤٤

• ترنتليوش فارو : ١٠٧

• جراكس : ٢٣٧ ، ٢٤٥

• ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤

٢٤٥ ، ٢٤٦

• سلستيوش كرسيس : ٣٢٦

• فلامينيوس : ١٠١ ، ١٠٥

١٠٦ ، ١٦٣

• فيرس : ٢٩٣

• کلوديوس : ٩٤

• کينوليوس : ٥١

کيوس ميموس : ٢٥١ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦

• يوليوش قيصر ، انظر قيصر

(ل)

اللائين : ١٠ ، ٢٦ ، ٧٦ ، ٧٧

لائيوم : ٢٦ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٤٦ ، ٩٣

٤٠٦

لارسا : ٣٧٩ ، ٣٨٠

لارس پورستا : ٣٦ ، ٧٦

لاسا ، الإلهة : ١٦

لافييا : ٢٧

لبئس : ٢٢٠

کلوديوس : ٢٣٥ ، ٢٥٣ ، ٢٦٧ ، ٣٦٨ ، ٤١٠

الکلوريون : ٧٦

کلوديوم : ٣٦ ، ٧٩

کليتياس ، القنان : ٢١

کليستيز : ٣٢

کلويطرة : ٣٤٢ ، ٣٨١ ، ٣٨٢

٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٩٧ ، ٤١٣

٤١٤ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩

٤٢٠

کبانها : ٢٥ ، ٣٨ ، ٨١ ، ١٢٩

کبليرس : ٥٣ ، ٧٩

کنفريوم : ٢٥٤

کنفوزيوم : ١٠٨

کنيس اوليس ليفيوس : ١٥٥

کوربا : ١٢٣

کوپونيوس : ٤١٠

کودوين : ٨٠

کورفنيوم : ٣٧٢ ، ٣٧٥

کورنفة : ١٨٢ ، ٢٢٤ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥

کوربا : ٣٤٣

کوريو : ٣٧١ ، ٣٧٤

کوسوتيا : ٣٤٢

کرمو ، بحيرة : ٩

کوى أو کومية : ٣٥ ، ٧٦ ، ٨٠

١٣٢ ، ١٥١ ، ٢١٧ ، ٢٥٣

٢٦٣

کونتييس أخو شيشرون : ٣٥٤

• ايليوس : ٢٠٤

• سرتريوس : ٢٨٣

• فايوس مكمسوس : ١٠٧

• کليدس : ٢٦٨

• ليو : ٤١٣

• مثلس : ٢٤٨

• متوسوس : ١٨٣

لوسينوس لوسينيوس لوكاش : ٢٧٢
 » لوكلس : ١٨٤ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠
 » ليسينيوس كراسس : ٢٦٢ ،
 ٣٦٥ ، ٣٩٤
 » مانليوس : ٢٩٧
 » متلس : ٣٧٤
 لوشيان : ١٢٦
 لوكاش : ٢٨٩
 اللوكانيون : ٧٦ ، ٨١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٨ ،
 ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٣٥٢
 ليز : ١٣٠ ، ١٣٦
 ليترونوم : ١٩٢
 ليتس الصفري : ٨٧
 » محنا (الكبرى) : ٨٤
 ليشيا : ٤١١
 ليدس : ٤١٣
 ليديا : ١٢ ، ٢٠ ، ٢٦٠
 ليسينيوس : ٥٢
 » كلفس : ٢٣٨ ، ٣١٦
 ليسياس : ٢٠٠
 ليني : ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٦
 ٥١ ، ١١٣ ، ١٥٠ ، ١٩٨
 ليفيا : ٤١٦
 ليفيوس اندرونكوس : ١٥٤
 » » دروسس : ٢٥٤
 ليتورغ : ٦٧
 الليولي حشائر : ٤٦
 ليجج : ٣٦٠
 (م)
 ماتو : ٦٨
 ماجو : ٨٥ ، ٩٠ ، ١٠٠
 ماديره ، جزائر : ٧٩
 مارتيا : ٣٢١

البراليا : ٣٦
 ليركاليا ، عيد : ١٣٠ ، ٣٩٧
 ليندس : ٣٨٠ ، ٣٨٩ ، ٤١٦
 لتوقيوم : ٧٧
 لهوري : ٩
 اللجوريون : ٧٦
 لزيبا : ٢٨٠ ، ٣١٨
 لينج : ٢٠٩
 لكري : ٨٦ ، ٨١
 لكريشيا : ٣٤ ، ٣٥ ، ٥١
 لكريشيوس ، تيتس لكريشيوس كارس
 ٢٨ ، ١٥١ ، ١٩٩ ، ٢٠٣
 ٣٠١ — ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥
 لكسوتس : ٨٤
 لنتلس : ٤٠١
 لنتولس ، بنتاتس : ٢٨٤ ، ٢٩٧ ، ٣٧١ ،
 ٣٧٣
 » » صورا : ٢٦٧
 لوبا : ٢٧
 اللويرني : ١٣١ ، ١٣٥
 لوبركاليا : ١٣١ ، ١٣٥
 لوييه : ٩٣
 لورنزو ده مديشي : ٢٧٢
 لولتانيا : ١٨٤
 لوسلس : ١٥٣
 لوسيان : ١٧٧
 لوسينوس : ١٨٠ ، ١٩١ ، ١٤٥
 » استوريوس : ٢٥٠ ، ٢٥١
 » ايمليوس پولوس : ١٠٧ ، ١٠٨
 » تاركوينيوس : ٣١ ، ٣٤
 » جوينوس هروتس : ٣٤
 » فرجنينوس : ٥١
 » كندا : ٣٩٩
 » كراسس : ٣٢٧
 » كرنيليوس صلا : انظر صلا

مارس ، شهر : ٣٩٣
ماركس مارسلن : ٣٩٥
مارسلن : ١٠٧ ، ١١١ ، ١٧٤ ،
١٩٢
مارسليا ، زوجة ، كاتو الأصغر : ٢٨١
ماركس أنطونيوس (الأب) : ٢٩٨
» » الابن ، أنظر أنطونيوس
» » ابن أنطونيوس القائد
الشهير : ٣٢٧ ، ٣٣٠ ، ٣٤٥
» أورليوم : ٢٩ ، ٢٠٣
» بورسيوس كاتو : ٢١٤
» قرنس : ٣٤٢
» تليوس أنظر شهزون
» ترنتيوس فارو : أنظر فارو
» كانوا : ١٨٣
» كتيليوس : ٣١٦
» كورنيوس : ١٣٣
» ليسينيوس كراسن : ٢٧٠ ،
٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ،
٢٨٨ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ،
٣٤٩
» ليفيوس التريون : ٢٤٤
» ماتليوس : ٥٠
ماركس مارسلن : ٣٧٠
ماركس مسالا : ٢٠٧
ماركينده ساتليه : ٢٨٠
ماريوس : ٨ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٢٥٩ ،
٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٣٠١ ، ٣٢٦ ،
٣٤٢ ، ٣٤٧
ماريوس الصغير : ٢٦١ ، ٢٦٢
ماسينسا : ١١٤ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٤
٢٤٧ ، ٣٣٨
مألطة : ٨٦
ماتليوس : ٢١٦ ، ٢٩٠
فلنس : ١٨٥

مانيا الإلهة : ١٦
مانيوس : ٣٨٩
مازوس أكوليس : ٢٥٣
مايرانشل روتشيلد : ٢٧٢
متابتم : ٧٦
مترودرس : ٢٧٥
متلمس سيور : ٣٨٠
متلمس المقدوني : ٢٧٩
متلقى : ٣٧٩
متورس ، نهر : ١١٢
مثرداتس : ٢٥٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٨ ،
٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٨٨
مجرداس : ٨٥
مجنيزيا : ١١٦ ، ١٨٠ ، ٤٢١
مجيورى ، بحيرة : ٩
المحيط الأطلنقى : ٣٥٧
مراثون : ٤٢١
مرسليا : ٢٥٠ ، ٣٦٨ ، ٣٧٥
المريخ : ٢٧ ، ٢٨٣ ، ١٢٧ ، ١٧٢
مساليا : ٩٣ أنظر أيضاً مرسليا
مسافا : ٩٤
مسكيولم : ٢٥
المسيح : ١٤٩
مصر : ١١ ، ١٩ ، ٣٤٣ ، ٣٨٢ ،
٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٤١٣ ، ٤٢٥ ،
٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤٣٠ ، ٤٢١
مفتيس ، الإلهة : ١٥٦
مقدونية : ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٩ ، ٩٧
» ٢٠١ ، ٢٨٢ ، ٤٠٦
ملك ، الإله : ٨٩
ملكارت : ٨٩
مليير : ٢٠٩
الممرتيون : ٩٣ ، ٩٤
ممن : ١٠٣ ، ١٤٤ ، ٣٥٧
ميوس : ٣١٩

دورليز : ۱۹۷ : ۳۱۵ : ۴۶۵

یورجوٹا : ۲۴۷ و ۲۴۸

يورك : ١٦٣

یولوس اسکائیوس : ۳۹۱

يوليان ابنة قيصر ٥ ٧٧٨ ، ٧٦٥ ، ٧٥٦

يولييان الإمبراطور = ٣٨

یولیوس ۵ شہر ۳۹۲

اليونان : ١١ ، ١٢ ، ١٥ ، ١٩ ، ٢٠

* V9 : 0 . 0 . 7A : Y1 : P2

6 98 8 97 6 94 6 90 6 87

• 179 • 178 • 177 • 176

109 110 111 12

4 1A0 4 179 4 17A 4 10E

6. 19P + 19F + 18V + 15F

71A & 701 & 199 & 197

0 714 4 779 4 774 4 776

6 7A 7B 7C 7D 7E

817-4791

اليوم لان الكبيرى : ٥١

يونيو : ١٢٢ + ١٢٩ + ١٧٧

يونوريچينا ۱۲۷

تاریخ ۱۳۰۲

8 Y0- 197 197 198

٢٥٢

ہوراع: ۱۲۶ : ۱۲۷ : ۱۵۳ : ۳۱۷ :

۲۲۱

المورايشي : عشائر : ١٦

۳۶. هوراشیوش ککلیز ،

هورتقسیم ، لکس او قانون : ۵۳

هزرتلشیوس : ۲۷۴ ۶ ۲۸۱ ۶ ۲۹۳

هوميروس : ۲۰۲ و ۲۰۵

المختبر : ١٥

۱۲۰ : هیڈلین

هيو صاحب غرقوسه : ۱۰۹

۹۴ : ۹۵

100 2 200

(9)

الوادى الكبير : ٨٩

ورد سورث : الثامن - ۴۰۲

ويلز : ٧٨

(6)

۴۷۹ : ۴۸۰ : ۴۸۱ : ۴۸۲ : ۴۸۳

747 6 747 6 747 6

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الترجمة	ط
تمهيد بقلم المؤلف	١
الباب الأول : ديباجة في التسكان	
٦	
الفصل الأول : إيطاليا	٦
الفصل الثاني : الحياة التسكانية	١١
الفصل الثالث : الفن التسكاني	١٩
الفصل الرابع : رومة تحت حكم الملوك	٢٦
الفصل الخامس : سيطرة التسكانيين	٣١
الفصل السادس : مواد الجمهورية	٣٤

الكتاب الأول : الجمهورية

٤٣	جدول تاريخي
الباب الثاني : الكفاح في سبيل الديمقراطية	
٥٥	الفصل الأول : الأشراف والامة
٥٥	الفصل الثاني : دستور الجمهورية
٥٥	١ - المشترعون
٦١	٢ - الحكام
٦٧	٣ - بداية القانون الروماني
٧١	٤ - جيش الجمهورية
٧٦	الفصل الثالث : فتح إيطاليا
الباب الثالث : هنيبال يحارب رومة	
٨٤	الفصل الأول : قرطاجنة

الموضوع	الصفحة
الفصل الثاني : رجبولوس	٩٣
الفصل الثالث : هملكار	٩٧
الفصل الرابع : هنيبال	١٠١
الفصل الخامس : سهر	١٠٩

الباب الرابع : روما الرواقية ١١٧

الفصل الأول : الأميرة	١١٨
الفصل الثاني : دين رومة	١٢٢
١ - الآلهة	١٢٢
٢ - الكهنة	١٣٤
٣ - الأعياد	١٣٥
الفصل الثالث : الأخلاق	١٤١
الفصل الرابع : الآداب	١٥٠
الفصل الخامس : الزراعة	١٥٨
الفصل السادس : الصناعة	١٦١
الفصل السابع : المدينة	١٧٠
الفصل الثامن : بعد الموت	١٧٥

الباب الخامس : فتح بلاد اليونان ١٧٨

الفصل الأول : الإغتيلاء على بلاد اليونان	١٧٨
الفصل الثاني : تبدل أحوال رومة	١٨٣
الفصل الثالث : الآلهة الجدد	١٩٥
الفصل الرابع : بداية عصر الفلسفة	١٩٩
الفصل الخامس : النهضة الأدبية	٢٠٥
الفصل السادس : كاترو والمعارضون المحافظون	٢١٤
الفصل السابع : يجب أن تسمى قرطاجنة من الوجود	٢٢٠

الكتاب الثاني : الثورة

جدول للحوادث التاريخية	٢٢٩
------------------------	-----

الموضوع	الصفحة
الباب السادس : الثورة الزراعية	
الفصل الأول : العوامل التي نبتت البلادة للثورة	٢٣٢
الفصل الثاني : توبيير يوس بيراكس	٢٣٧
الفصل الثالث : كيوس جراكس	٢٤٢
الفصل الرابع : ماريوس	٢٤٦
الفصل الخامس : ثورة إيطاليا	٢٥٢
الفصل السادس : صلا السعيد	٢٥٦

الباب السابع : الحركة الرجعية الألهركية	
الفصل الأول : الحكومة	٢٦٣
الفصل الثاني : أصحاب الملايين	٢٧٠
الفصل الثالث : المرأة الجديدة	٢٧٨
الفصل الرابع : كاتوثان	٢٨١
الفصل الخامس : اسهارتكو	٢٨٣
الفصل السادس : ميمى	٢٨٧
الفصل السابع : شيشرون وكاتلين	٢٩٢

الباب الثامن : الأدب في عهد الثورة	
الفصل الأول : لكريشيوس	٣٠٠
الفصل الثاني : في طبيعة الأشياء	٣٠٦
الفصل الثالث : حبيب لزبيا	٣١٦
الفصل الرابع : العلماء	٣٢٣
الفصل الخامس : فلم شيشرون	٣٢٩

الباب التاسع : قيصر	
الفصل الأول : التربع	٣٤١
الفصل الثاني : القنصل	٣٤٦
الفصل الثالث : الأخلاق والسياسة	٣٥٢
الفصل الرابع : فتح بلاد غالة	٣٥٧

الموضوع	صفحة
الفصل الخامس : فساد الديمقراطية	٣٦٥
الفصل السادس : الحرب الأهلية	٣٦٩
الفصل السابع : قيصر وكليوباترة	٣٨١
الفصل الثامن : قيصر الحاكم	٣٨٧
الفصل التاسع : بروتس	٣٩٥
الباب العاشر : أنطونيوس	
٤٠٢	
الفصل الأول : أنطونيوس وبروتس	٤٠٢
الفصل الثاني : أنطونيوس وكليوباترة	٤١٣
الفصل الثالث : أنطونيوس وأكتافيان	٤١٨
المراجع	٤٢٢
فهرس الأعلام	٤٤١

فهرس الأشكال والصور

الخطيب	أول الكتاب	الشكل ١
خريطة إيطاليا وصقلية	أمام صفحة ٦	٢ »
قبر تسكانى فى مرقترى	» »	٣ »
رأس امرأة	» »	٤ »
أبلو فباى	» »	٥ »
خريطة رومة القديمة	» »	٦ »
السوق الرومانية الكبرى	» »	٧ »
هيكلى كاستر وبلس	» »	» »
پمپى	» »	٩ »
سابفرو	» »	١٠ »
قيصر	» »	١١ »
قيصر	» »	١٢ »

مقدمة الترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على جزيل عطائه والصلوة والسلام على سيدنا محمد وعلى جميع الأنبياء والرسل . وبعد فهذا هو الجزء الأول من المجلد الثالث ، من مجلدات قصة الحضارة ، وقد سماه المؤلف **قبصر والمسيح** لأن هذا المجلد يبحث في حضارة رومة وبداية الحضارة المسيحية حتى عام ٣٢٥ بعد الميلاد . وسيكون هذا الجزء الذى بين يدى القارئ واحداً من أربعة أجزاء يكمل بها المجلد الثالث من هذه الموسوعة ، ويشمل أولها قصة الحضارة الرومانية من أقدم العهود إلى مقتل يوليوس قيصر والحرب الأهلية التى أعقبت موته ، ويقصص الثانى قصة الحضارة الرومانية من ٣٠ ق م إلى منتصف القرن الثانى بعده ، ويشمل الثالث عهد الإمبراطورية إلى نهاية القرن الثانى ، وينتهى هذا المجلد بالجزء الرابع ، ويروى قصة الصراع بين المسيحية والوثنية من بدايتها إلى انتصار المسيحية فى عهد قسطنطين ، وقد كانت خطة المؤلف الأولى تهدف إلى أن تتم السلسلة فى خمسة مجلدات كبرى لكنه حين أصدر هذا المجلد الثالث جعلها ستة ثم عاد فى أواخر العام الماضى حين أصدر المجلد الخامس فى عصر النهضة فزادها إلى سبعة لأنه خص النهضة بمجلد والإصلاح الدينى بمجلد آخر ، والحق أن عصر النهضة خليق بأن يفرده له مجلد خاص لأنه بداية العصر الحديث ، وفيه استيقظ العقل البشرى من سباته الطويل ونبتت بلور الحضارة التى ازدهرت فى هذه الأيام .

ولسنا فى حاجة إلى التنويه بقيمة هذا المجلد فهو كالمجلدين السابقين تراث الشرق القديم وتراث اليونان فى غزارة المادة ودقة البحث ، وحسب القارئ أن يطالع على ثبت المراجع مجملة ومفصلة ليعرف الجهد الذى بذله المؤلف فى جمع مادته وتحقيقها .

ولا يسعنا هنا إلا أن ننوه مرة أخرى بفضل الإدارة الثقافية للجامعة الدول العربية التى اختارت الكتاب وعهدت إلينا ترجمته ، ولجنة التأليف والترجمة والنشر التى تولت طبعه ونشره ، والقراء فى مصر وسائر البلاد العربية الذين أقبلوا على اقتنائه إقبالا كان له أكبر الأثر فى تشجيعنا على مواصلة العمل فى ترجمة هذه الموسوعة التى نسأل الله أن يوفقنا لإتمامها .

محمد برادة

مارس سنة ١٩٥٥